قضيّة جديدة لشرلوك هولمز

بيت الحرير

أنطوني هوروفيتز





نوفل

أنطوني هوروفيتز - من أكثر المؤلّفين إنتاجًا وشهرةً في روايات الجريمة والتشويق. إشتهر بسلسلته حول الجاسوس المراهق «ألكس رايدر»، التي أنتِجت فيلمًا سينمائيًّا وبيع منها أكثر من عشرين مليون نسخة حول العالم.

لا يقلّ هوروفيتز مكانةً وتفرّدًا في أعماله للراشدين. وهذا ما أكسبه الامتياز بأن كلّفته جمعيّة Conan Doyle Estate ودار Orion Books كتابة مغامرة شرلوك هولمز الجديدة The House of Silk. تخطّت هذه الرواية توقّعات النقّاد والقرّاء من عشّاق هولمز، فحصدت نجاحًا عالميًّا.

في رصيد أنطوني هوروفيتز اليوم أكثر من أربعين كتابًا، إضافة إلى النصوص السينمائيّة المتنوّعة.

قضيّة خطيرة لشرلوك هولمز تآكلها غبارُ النسيان في خزنةٍ قديمة لأكثر من قرن. فقد كان من المستحيل أن يُكشف النقاب عن شبكة المتورِّطين فيها... حتّى الآن.

لندن، نوفمبر 1890

لمّا شعر إدموند كارسترز - أحد أشهر تجّار القطع الفنّية - بخطر يهدّد حياته، كان من البديهيّ أن يطلب المساعدة من شرلوك هولمز. أمام نقص الدلائل، يضطرّ هولمز إلى وقف تحقيقاته. لكنّ التاجر لا يلبث أن يقع ضحيّة... عمليّة سرقة!

أمّا جريمة القتل فتحصل، نعم، إنّما في مكان آخر.

في ظلّ المعطيات الجديدة، يستأنف هولمز التحقيق. وفيما يغوص أكثر فأكثر في هذه القضيّة، تبدأ قذارة لندن تطفو، مع تورّط شخصيّات على مستويات عالية، وتكشف له المدينة عن وجهها الآخر - الحالك - ذلك الذي لم يشكّ حتّى في وجوده.

مرّة جديدة، يجد شرلوك هولمز وجون واطسون نفسَيهما بين فكّي الأحداث الغامضة والحوادث المريبة. لكنّ هذه المرّة مختلفة، فأنياب لندن تكاد تنهشهما.

ISBN 978-9953-26-391-5



نوفل هي دمغة الناشر

هاشيت أنطوان

أهم جروبات علي تليجرام

باحثون

هنا سور الازبكية

غواص في بحر الكتب

قناة مصر الثقافية و الفنية

بيت الحرير

أهم جروبات علي تليجرام

باحثون

هنا سور الازبكية

غواص في بحر الكتب

قناة مصر الثقافية و الفنية

بيت الحرير

أنطوني هوروفيتز

نقله من الإنكليزية سعيد م. العظم

نوفل



صدرت عام 2013 عن نوفل، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

سنّ الفيل، حرج ثابت، بناية فوريست
ص. ب. 0656-11، رياض الصلح، 2050 1107 بيروت، لبنان
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
www.facebook.com/HachetteAntoine

تصميم الغلاف: معجون
صورة الغلاف: Shutterstock
اقتباس التصميم: ماري تريز مرعب
متابعة النشر: نجلا رعيدي شاهين
طباعة: 53 Dots

ر.د.م.ك.: 978-9953-26-391-5

First Published by Orion, London.
Originally published in English by Orion Books,
an imprint of the Orion Publishing Group Ltd,
a Hachette UK Company,
under the title: *The House of Silk*

تمهيد

كثيرًا ما فكّرتُ في سلسلة الملابسات الغريبة التي أوصلتني إلى ارتباطي الطويل بإحدى أكثر شخصيّات عصري فرادةً وتميُّزًا. ولو كنتُ أكثرَ نزوعًا إلى التفكير الفلسفي، لربّما تساءلتُ عن مدى تحكُّم أيٍّ منّا بمصيره وما إذا كان في وسعِنا فعلًا أنْ نتكهّن بالعواقب بعيدة المدى لأعمالٍ قد تبدو في حينها عاديةً تمامًا.

مثلًا، كان نسيبي آرثر هو الذي أوصى بتعييني طبيبًا جرّاحًا مساعدًا في الكتيبة الخامسة لقنّاصة نورتامبرلاند لاعتقاده أنّ ذلك سيشكّل تجربةً مفيدةً لي، وطبعًا لم يكن في وسعه أبدًا أنْ يتوقّع أنْ أُرسَل بعد شهرٍ واحد إلى أفغانستان. ولم يكن النزاعُ، الذي عُرِف لاحقًا باسم الحرب الانكليزية-الأفغانية الثانية، قد بدأ بعد في ذلك الوقت. وماذا أقول عن ذلك المقاتل الأفغاني «الغازي» الذي أطلق بحركةٍ صغيرة من إصبعه رصاصةً اخترقت كتفي في مايواند؟ أُزهِقت أرواحُ تسعمائة بريطاني وهندي في ذلك اليوم، ولا ريبَ في أنّ ذلك «الغازي» أراد لي أنْ أكونَ واحدًا من هؤلاء. لكنّ تصويبَه نَبا قليلًا؛ وبالرغم من خطورةِ إصابتي، فقد أنقذني مساعدي الوفيّ الشهم جاك موراي الذي تمكّن من حملي مسافةَ ميلَيْن عبر أرضٍ معادية، ورجع بي إلى الخطوط البريطانية.

قُتِل موراي في قندهار في شهر أيلول (سبتمبر) من ذلك العام. لذا لم يُتَح له قط أنْ يعرفَ أنّني اعتُبِرتُ غيرَ صالح للخدمة العسكرية بعد إصابتي،

فأُرجِعتُ إلى الوطن حيثُ أمضيتُ عدّة أشهر في ضياعٍ مُجدب، إلى حدٍّ ما، على هامش المجتمع اللندني – ما شكّل في الواقع امتهانًا للمجهودِ الذي بذله من أجلي. وفكّرتُ في أواخر تلك الفترة جدّيًا في الانتقال إلى الساحل الجنوبي للبلاد كضرورةٍ حتّمتها الحقيقةُ الصارخة لمواردي المالية المتناقصة بسرعة. كما نبّهني بعضُهم إلى أنّ هواءَ البحر قد يكون نافعًا لصحّتي. لكنّ البديلَ الأفضلَ لديّ كان العثورَ على سكنٍ أرخصَ في لندن وقد أوشكتُ على استئجار مسكن لدى سمسار أسهم في شارع يوستون رود، لكنّ المقابلة معه لم تجرِ على نحوٍ جيّد، فقرّرتُ بعدَ ذلك مباشرةً أنّ إقامتي ستكون في بلدة هيستنغز التي قد تكون أقلّ بهاءً من مدينة برايتون، لكنّ السعرَ فيها نصفُه السعر في الثانية. وكانت أمتعتي الخاصّة موضّبةً وجاهزةً للنقل.

لكنّنا نصلُ هنا إلى هنري ستامفورد الذي لم يكن صديقًا حميمًا لي، بل من معارفي وسبق له أنْ عمل مساعِدًا في كلية سينت بارت. ولو لم يُفرِط في الشرب حتّى ساعة متأخّرة من الليلة السابقة لَما أصيبَ بصداع، ولو لم يُصَب بصداع لما قرّر ربّما التغيُّبَ يومًا عن عمله في المختبر الكيميائي الذي كان موظّفًا فيه. وبعدما تلكّأ في ميدان بيكاديلي سيركوس، قرّر أنْ يتمشى في شارع ريجنت ستريت إلى مركزِ إيست إنديا في آرثر ليبرتي ليشتري هديةً لزوجته. ومن الغريب التفكير في أنّه لو سار في الاتّجاه المعاكس لَما التقاني مصادفةً عند خروجي من بار كرايتريون، وبالتالي لما كنتُ التقيتُ قطّ شرلوك هولمز.

وكما سبق لي أنْ كتبتُ في مكان آخر، فقد كان ستامفورد هو الذي اقترح عليّ إمكانيةَ الإقامة في مسكنٍ مشترك مع رجلٍ كان يظنّ أنّه كيميائيّ تحليليّ يعملُ في المستشفى نفسه. وقد عرّفني ستامفورد إلى هولمز الذي كان يُجري تجارب على أسلوبٍ لعزلِ بُقع الدم. وكان الاجتماعُ الأوّل بيننا غريبًا ومربكًا ولا يُمحى من الذاكرة بالتأكيد... كان مؤشّرًا واضحًا إلى ما سيأتي.

كانت تلك نقطةَ التحوّل في حياتي. لم تكن لديّ أيّةُ طموحات أدبيّة، ولو اقترحَ عليّ أحدٌ أنْ أُصبحَ كاتبًا ذا أعمالٍ منشورة لضحكتُ من الفكرة. لكنْ، في إمكاني القولُ، بكلّ أمانة وبدون أنْ أمدحَ نفسي، إنّني أصبحت مشهورًا إلى

درجة لا بأسَ بها، بفضل الطريقة التي دوّنتُ بها مغامراتِ ذلك الرجل العظيم حسبَ تسلسلها الزمني، وإنّني شعرتُ بفخر كبير عندما دُعيتُ إلى التحدُّث في الاحتفال التأنيبي الذي أُقيم تكريمًا لذكراه في كنيسة وستمنستر أبي، وهي دعوةٌ اعتذرتُ عن عدم قبولها بكلِّ احترام. وكثيرًا ما كان هولمز يهزأ من أسلوبي النثري في الكتابة، ولو قبلتُ الوقوفَ على منبر الكنيسة يومَها لشعرتُ به ماثلًا عند كتفي ساخرًا بلطفٍ من وراء القبر مِمّا قد أقولُه.

كان يعتقد دائمًا أنّني أبالغ في تقدير مواهِبه وومضاتِ البصيرة الفائقة لعقلِه المتَّقِدِ ذكاءً، كما اعتاد أنْ يسخر من طريقتي في التركيبِ السرديّ بحيث أُخفي حتّى النهاية الحلَّ الذي كان يُقسِم إنّه استنتجه في الفقرات الافتتاحية من الرواية. وقد اتّهمني أكثر من مرّة بالرومانسيّة الفجّة واعتبرني في منزلةٍ لا تسمو على مرتبة أيِّ مدّعي كتابةٍ ابنِ شارعٍ تافه. لكنّي أعتقد أنّ هولمز لم يكن منصِفًا على وجه العموم، وطوال الفترة التي عرفتُه خلالها لم أشاهده مرّةً واحدة يقرأ عملًا روائيًا – باستثناء كتابات الإثارة الأشدّ انحطاطًا. وبالرغم من عدمِ استطاعتي الادّعاءَ بامتلاك قدرات وصفية فائقة، فإنّي مستعدٌ للقول إنّها أدّت الوظيفةَ المطلوبة وإنّ هولمز نفسَه ما كان استطاع القيام بعملٍ أفضل. والواقع إنّ هولمز اعترف بذلك اعترافًا كاد يكون كاملًا عندما لجأ إلى القلم والورق في نهاية المطاف، وبدأ في كتابة ما وصفه هو بالقضية الغريبة لِغودفري إيمزوورت. وقد قُدِّمت هذه الحادثة تحت عنوان *The Adventure of the Blanched Soldier*، وهو عنوانٌ بعيدٌ من الكمال، في رأيي، لأنّ صفةَ القَشْر تصحّ أكثر في الحديث عن حبّة لوز.

وكما سبق لي أنْ ذكرت، فقد نلتُ بعضَ التقدير على مبادراتي الأدبية؛ لكنّ هذا لم يكن قطّ الموضوعَ الأساسي بطبيعة الأمر. فبفعل تقلُّبات القدر المتنوّعة التي شرحتُها، كنتُ أنا الشخص الذي اختير لتسليط الضوء على إنجازات التحرّي الاستشاري الأبرز في العالم، فقدّمت إلى الجمهور المتشوّق ما لا يقلّ عن ستّين مغامرةً له. لكنّ الأغلى على قلبي كانت صداقتي الطويلة مع الرجل نفسه.

ها قد مرّت سنة منذ العثور على هولمز في منزله في داونز، ممدّدًا وساكنًا بعد أنْ صَمَتَ ذلك العقلُ العظيم إلى الأبد. وعندما بلغني الخبر أدركتُ أنّني لم أفقد أقربَ رفيق وصديق فحسب، بل أيضًا المبرّرَ الأساسي لوجودي من نواحيَ كثيرة. وقد يُعتَبر زواجان وثلاثةُ أطفال وسبعةُ أحفاد وسيرةٌ مهنيّةٌ ناجحةٌ كطبيب ووسامُ الاستحقاق الذي أنعمَ به عليّ صاحبُ الجلالة الملك إدوارد الثامن، إنجازات كافية لأيّ شخص، لكنْ ليس لي أنا. إنّني أفتقده حتّى هذا اليوم وأتخيّل أحيانًا في لحظات وعيي أنّني ما زلتُ أسمعه يردّد كلماتِه الشهيرة: «اللعبةُ مستمرّةٌ يا واطسون!». ولا نفعَ لهذه الكلمات الآن إلّا تذكيري بأنّني لن أغوصَ بعد الآن أبدًا في ظُلمةِ شارع بيكرستريت[1] وغلالات ضبابه المُتلَوِّبة حاملًا في يدي مسدّسي الرسمي الأمين. وكثيرًا ما أفكّر في هولمز واقفًا ينتظرني على الجانب الآخر من ذلك الظلّ العظيم الذي لا بدّ وأنْ يأتي إلينا جميعًا؛ والحقيقةُ هي أنّني أتوقُ فعلًا إلى اللحاق به. أنا وحيدٌ وجُرحي القديم يعذّبني إلى النهاية فيما تستعرّ في القارة الأوروبية حربٌ[2] رهيبةٌ لا معنى لها، وأنا لم أعد أفهم العالم الذي أعيش فيه.

إذًا، لماذا ألجأ إلى قلمي مرّةً أخيرة لأُوقظَ ذكرياتٍ قد يكون من الأفضل تركُها منسيّة؟ قد تكون لديّ دوافعُ أنانية. ومن المحتمل أنْ أكون ساعيًا إلى عزاءٍ ما مثلما يفعل رجال مسنّون كثيرون أصبحتْ حياتُهم خلفَهم. وتؤكّد لي الممرّضات اللواتي يعتنين بي أنّ للكتابة منافعَ شفائية وأنّها ستَقيني من الوقوع في النوبات المزاجية التي تنتابني في بعض الأحيان. لكنّ هناك سببًا آخر أيضًا.

فمِن نواحيَ معيّنة كانت مغامرتا The Man in the Flat Cap وThe House of Silk الحَدَثَيْن الأكثر إثارةً في سيرة شرلوك هولمز، لكن استحال عليّ أنْ أرميهما آنذاك لأسبابٍ ستصبح واضحةً تمامًا. وقد عنى التشابُكُ الشديد بين وقائعهما استحالةَ الفصل بينهما. غير أنّني رغبتُ دائمًا في تدوين أحداثهما لأستكملَ توثيقَ أعمال هولمز. وأنا أُشبِه في هذا المنحى

[1] مقرّ إقامة شرلوك هولمز (المترجم).
[2] الحرب العالمية الأولى 1914-1918 (المترجم).

عالمَ كيمياء يبحث عن تركيبة، أو جامعَ طوابع نادرة لا يستطيع الشعورَ بفخارٍ كامل في مجموعته لإدراكه أنّه لم يتمكّن بعد من وضع يديه على نموذجيْن أو ثلاثة. وأنا لا أستطيع أنْ أمنعَ نفسي ولا بدّ لي من إتمام هذه المهمّة.

كان ذلك مستحيلًا في ما مضى – وأنا لا أشير فقط إلى نفور هولمز المعروف جيّدًا من الدعاية. كلّا، فالأحداث التي أوشِك على وضعها كانت أكثرَ بشاعةً وأشدَّ ترويعًا من أنْ تُنشَر مطبوعةً على الملأ؛ وهي ما زالت كذلك، وليس من المبالغةِ القول إنّ من شأنها أنْ تمزّق نسيجَ المجتمع بأكمله، لا سيّما في زمن الحرب، وهذا أمر لا أستطيع المخاطرةَ به. وعندما أنتهي من الكتابة، على فرض امتلاكي القوّةَ الكافية لذلك، سأغلّف هذه المخطوطة وأرسلُها لتُحفَظ في خزائن مؤسّسة كوكس وشركاه في تشارينغ كروس حيث أُودِع عددًا من أوراقي الخاصّة أيضًا. وسأُعطي تعليماتٍ بمنع فتح المغلّف لمدّة مائة سنة. ومن المستحيل أنْ أتصوّر الآن ما سيكون عليه العالم وقتذاك وما هي الإنجازات التي ستكون البشريةُ قد حقّقتها. لكنّ قرّاء المستقبل قد يكونون اعتادوا قصصَ الفضائح والفساد أكثر من قرّاء عصري. إنّني أُورِّثُ قرّاءَ المستقبل صورةً أخيرة للمستر شرلوك هولمز ومنظورًا لم يشاهده أحدٌ من قبل.

غيرَ أنّني بدّدتُ ما يكفي من الطاقة على انشغالاتي الذاتية، وينبغي أنّ أكونَ قد فتحتُ بالفعل بابَ منزل 221B في شارع بيكر ستريت، ودخلتُ الغرفةَ التي ابتدأت فيها مغامرات لا حصرَ لها. أنا أشاهدُه الآن، أشاهد وهجَ المصباح خلف زجاج النافذة، أشاهد الدرجات السبعَ عشرة وهي تدعوني إلى الصعود من الطريق. كم تبدو هذه المشاهدُ بعيدة، كم مضى من الوقت منذ كنتُ هناك آخر مرّة. نعم، ها هو ماثلٌ هناك، غليونُه في يده، يستدير نحوي، يبتسم: «اللعبةُ مستمرّة...».

1

تاجر الأعمال الفنّية في ويمبلدُن

«الإنفلونزا مزعجة»، قال شرلوك هولمز ملاحظًا، «لكنّكَ محقٌّ في اعتقادك أنّ الطفل سيتعافى قريبًا بمساعدة زوجتكَ».

«هذا ما أرجوه بحرارة»، قلتُ مجيبًا. ثمّ توقّفتُ ونظرتُ إليه بعينَيْن متّسعتَيْن من الدهشة. كان كوب الشاي في يدي قد قطع نصفَ المسافة إلى شفتيّ، لكنّي أرجعتُه إلى الطاولة بقوّة حتّى كاد هو وصحنُه أنْ يرتدّا متباعدَين. وصحتُ مشدوهًا: بحقّ السماء يا هولمز، لقد سرقتَ أفكاري من رأسي! أُقسِم إنّني لم أنبسْ بكلمةٍ واحدة عن الطفل أو مرضِه. وأنت تعلم أنّ زوجتي غائبة – وقد تكونُ استنتجتَ ذلك من وجودي هنا. لكنّي لم أذكر لك بعد سببَ غيابها وأنا واثقٌ من أنّ سلوكي لم يتضمّن أيَّ شيء قد يكون أوحى لك بدليل ما».

دار هذا الحديث بيننا في الأيّام الأخيرة من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) عام 1890، وكانت لندن واقعةً في قبضة شتاءٍ لا يرحم. وقد اشتدّت البرودة في الشوارع إلى درجةٍ بدت معها مصابيحُ الغاز نفسُها متجمّدةً تمامًا، فكان النور الشحيح الذي يشعّ منها يتبدّد في الضباب اللامتناهي. كان الناس في الخارج يهيمون على الأرصفة متعجّلين كأشباحٍ برؤوسٍ مطأطئة ووجوهٍ مُغطّاة، فيما كانت عربات النقل تمرّ مسرعةً غير عابئة بضوضائها وكأنّ خيولَها تتحرّق للعودة إلى زرائبها. وكنتُ أنا سعيدًا بوجودي في الداخل قربَ

نارٍ متّقدة في المدفأة وفي جوّ عابقٍ برائحة التبغ المألوفة وإحساسٍ بأنّ كلّ شيء في مكانه الصحيح بالرغم من البعثرة والفوضى اللتين كان صديقي يحبّ أنْ يحيطَ نفسَه بهما.

كنتُ قد أرسلتُ برقيةً إلى هولمز أُعلِمه فيها بنيّتي إشغالَ غرفتي القديمة في دارٍ سكناه للبقاءِ معه فترةً قصيرة، وسعدتُ كثيرًا لتلقّي ردّه بالموافقة. وكان في وسع عيادتي أنْ تتدبّر أمرَها بدوني، فقد كنتُ وحيدًا خلال فترة موقّتة وفكّرتُ في الاعتناء بصديقي إلى أنْ أتأكّد من أنّه استعاد صحّتَه تمامًا. ذلك أنّ هولمز تعمّد تجويعَ نفسِه طوالَ ثلاثة أيّام وثلاثِ ليالٍ، فامتنع عن تناول أيِّ طعامٍ وعن شربِ الماء لكي يُقنِع خصمًا شديدَ القسوة والحقد بأنّه مشرفٌ على الموت. وقد نجحت الحيلةُ نجاحًا باهرًا، وأصبح هذا الرجل الآن بين يدي المفتّش القدير مورتون من شرطة سكوتلنديارد. لكنّني ظللتُ أشعر بالقلق من الإجهاد الذي عرّض هولمز نفسَه له، وظننتُ أنّ من الحكمة إبقاءَه تحت المراقبة إلى أنْ يستعيد صحّةَ نظامه الأيضي تمامًا.

لهذا السبب سُرِرت لرؤيته مستمتعًا بتناول طبق من الكعك المغطّى بالعسل القرمزي والقشدة، إلى جانب قطعة «كيك» وكوب من الشاي. وقد حملت السيّدة هادسون كلّ هذه الأطايب على صينية وقدّمتها لنا نحن الاثنين. وبدا هولمز آخذًا في التعافي مستلقيًا باسترخاء على مقعده الوثير الكبير ومرتديًا معطفَه المنزلي ومادًّا قدميه إلى قرب نار المدفأة. لقد كان هولمز دائمًا باديَ النحول وذا بنية هزيلة، ولطالما أبرزتْ عيناه الثاقبتان عقفةَ أنفه. لكنّ بشرتَه كانت قد استردّت بعضَ لونها على الأقلّ، وبدا من صوته وتصرُّفه أنّه عاد إلى طبيعته العادية مثلما كان.

كان هولمز قد خصّني باستقبال حارّ. وفيما اتّخذتُ لي مجلسًا قبالتَه ساورني إحساسٌ غريب بأنّني في صدد الاستيقاظ من حلم وكأنّ السنتَيْن الماضيتَيْن لم تكونا أبدًا، وكأنّني لم ألتقِ قطّ ماري العزيزة ولا تزوّجتُها ولا انتقلنا إلى منزلنا في كنزنغتون الذي دُفِع ثمنه من عائدات بيع لآلئ أغرا. ولقد كان من الممكن أنْ أظلّ عازبًا ومقيمًا هنا مع هولمز ومشاركًا إيّاه الإثارةَ الكامنة في مطاردةِ لغزٍ آخر وكشفِ خباياه.

وخطر لي أنّ من المحتمل أنْ يكون هو قد فضّل هذا الخيار. ونادرًا ما كان هولمز يتحدّث عن شؤوني المنزلية، وقد كان مسافرًا في الخارج وقتَ زواجي، وتراءى لي آنذاك أنّ غيابه ربّما لم يكن عرضيًا تمامًا. ولن يكون من الإنصاف أنْ أقولَ إنّ موضوع زواجي برمّته كان من المحرّمات، لكنْ كان هناك اتّفاقٌ صامت بيننا على عدم مناقشة هذا الموضوع بأيّ تفصيل. كان شعوري بالسعادة والرضا واضحًا لهولمز، وكان هو نبيلًا بما يكفي لئلّا يحسدني على ذلك.

كان قد سألني بعد وصولي مباشرةً عن السيّدة واطسون، لكنّه لم يطلب أيّةَ معلومات أخرى، كما لم أُعطِ أنا من جانبي أيّة معلومات بالطبع، ما زاد من غموض ملاحظاته.

قال هولمز معقّبًا وهو يضحك: «أنتَ تنظر إليّ كما لو كنتُ عالمَ غيبٍ. ثم أضاف سائلًا: هل لي أنْ أفترض أنّك توقّفت عن قراءةِ أعمال إدغار ألان بو؟».

أجبته: «هل تقصد دوبان تحرّي إدغار ألان بو؟»

قال هولمز: «لقد استعمل أسلوبًا سمّاه الاستنتاج المنطقي. كان يرى أنّ من الممكن قراءةَ أعمقِ أفكار إنسان ما حتّى بدون حاجةٍ إلى أنْ ينطق، وأنّ من المستطاع تحقيقَ ذلك كلّه بدراسةٍ بسيطةٍ لحركاته، عبرَ رفّةٍ لحاجبه. وقد أعجبتني هذه الفكرةُ كثيرًا آنذاك، لكنّي أذكر، كما يبدو، أنّك سخرتَ منها إلى حدٍّ ما».

قلتُ موافقًا على كلامه: «وسأدفع الآن ثمنَ ذلك بدون شكّ، لكنْ هل تقولُ لي جديًا، يا هولمز، إنّ في وسعك أنْ تحدسَ ببساطة مرضَ طفل لم تقابلْه أبدًا من خلال تصرُّفي وأنا آكل طبقًا من الكعك؟»

أجاب هولمز: «من خلال ذلك وأكثر على الأصحّ. أستطيع أنْ أرى أنّك عدتَ توًّا من هولبورن فياداكت وأنّك غادرتَ منزلك مسرعًا، لكنّ القطار فاتك بالرغم من ذلك. ولعلّ المسؤوليةَ تقع على عدم وجود خادمة لديك في الوقت الحاضر».

صحتُ فيه قائلًا: «كلّا يا هولمز. لن أتقبّل ذلك».

«هل أنا مخطئ؟»

«كلّا. لقد أصبتَ في كلّ ما قلتَه. لكنْ كيف يمكن ...؟»

«إنّها مسألةٌ بسيطة من الملاحظة والاستنتاج، من نقلِ المعلومة بين تلك وذاك. ولو شرحتُ لك المسألة لبدتْ سخيفةً إلى درجةٍ مؤلمة».

«ومع ذلك لا بدّ لي من أنْ أصرَّ على أنْ تفسّر لي هذه المسألةَ بالذات».

أجابني هولمز متثائبًا: «بما أنّك تكرّمتَ وشرّفتني بهذه الزيارة، أفترض أنّ من واجبي تلبيةَ طلبك. لنبدأ بالظرفِ الذي حملك على المجيء إلى هنا. وإذا أسعفتني ذاكرتي فإنّنا نقترب من الذكرى السنوية الثانية لزواجك، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح تمامًا، يا هولمز. الذكرى تصادف يومَ بعد غد».

«إنّه، إذًا، توقيتٌ غيرُ عاديّ لتفترقَ عن زوجتك. وكما قلتَ أنتَ نفسُك للتوّ، فإنّ اختيارَك البقاءَ معي ولفترةٍ طويلة من الزمن يُشير على الأرجح إلى وجود سبب قاهر دفعها إلى الافتراق عنك. ما عسى هذا السبب أنْ يكون؟ وحسبما أتذكّر، فإنّ الآنسة ماري مورستان، كما كانت تُدعى سابقًا، جاءت إلى إنكلترا من الهند ولم يكن لها هنا أصدقاءُ ولا أقاربُ، وقد وُظِّفت مربّية أطفال لترعى ابنَ سيّدتها اسمها سيسيل فورستر من كامبرويل، وهكذا التقيتَها أنت. كانت السيّدة فورستر كريمةً جدًّا معها، لا سيّما في زمن حاجتها، ولي انْ أتخيّل أنّهما ظلّتا على علاقة وثيقة».

«هذا هو الواقع بالفعل».

«في هذه الحالة، إذا كان لشخصٍ ما أنْ يستدعيَ زوجتَك بعيدًا من منزلها، فالأرجح أن تكون هي هذا الشخص. عندئذٍ أتساءل عمّا قد يكون سبب هذا الاستدعاء، ويتراءى لي في ذهني فورًا مرضُ الطفل في هذا الطقس البارد. وأنا متأكّدٌ من أنّ الطفلَ المريض سيرتاح كثيرًا لعودةِ مربّيتهِ القديمة إليه».

قلتُ موافقًا: «إسمُه ريتشارد وعمرُه تسعُ سنوات. لكنْ كيف يمكنك أنْ تكون واثقًا إلى هذه الدرجة بأنّه مصابٌ بالإنفلونزا وليس بمرض مختلف تمامًا أشدّ خطرًا؟»

«لو كان مصابًا بمرضٍ أخطر لكنتَ أصررتَ أنتَ على الحضور بنفسك».

عقّبتُ قائلًا: «لقد كان تفكيرُك سليمًا تمامًا من كلّ ناحية حتّى الآن. لكنّ هذا لا يفسّر كيف عرفتَ أنّني حوّلتُ أفكاري نحوهم في تلك اللحظة بالذات».

«ستعذرني إذا قلتُ لك إنّك بمثابةِ كتاب مفتوح أمامي، يا عزيزي واطسون. إنّك تقلب صفحةً أخرى مع كلّ حركة تقوم بها. وفيما كنتَ جالسًا هناك ترتشف الشاي، لاحظتُ عينَك تميل نحو الجريدة الموضوعة على الطاولة إلى جانبك تمامًا. لقد رمقتَ العنوانَ الرئيسيّ، ثمّ مددتَ يدك وقلبتَ الجريدة. لماذا؟ ربّما كانَ ما أزعجك التقرير الخاصّ بحادث تدهور القطار في نورتون فيتزوان قبل أسابيع قليلة. وقد نُشِرت اليوم النتائجُ الأولى للتحقيق في مقتل عشرة ركّاب، وكان هذا بالطبع آخرَ ما تودّ قراءتَه بعد تركِ زوجتك في المحطّة مباشرةً».

قلتُ موافقًا: «ذكّرني ذلك فعلًا برحلتها، لكنْ ماذا عن مرض الطفل؟».

«لقد تحوّلَ انتباهُك من الجريدة إلى السجّادة الصغيرة الممدودة قرب طاولة المكتب ورأيتُك بوضوح تبتسم لنفسِك. وكان ذلك بالطبع الموضعَ الذي ركنتَ فيه مرّةً حقيبةَ أدويتك، ومن المؤكّد أنّ هذا التوارد هو الذي ذكّرك بسبب زيارة زوجتك».

قلتُ بإصرار: «كلُّ هذا الكلام تخمينٌ، يا هولمز. أنت ذكرتَ مثلًا هولبورن فياداكت. لكنْ، من المحتمل أنْ أكون قد توجّهتُ إلى أيّ محطّة أخرى في لندن».

«أنتَ تعلم أنّني أكره التخمين. إنّه ضروريٌّ في بعض الأحيان للربط بين نقاط الإثبات عبر استخدام المخيّلة، لكنّ هذا ليس نفسَ الشيء على الإطلاق. إنّ السيّدة فورستر تُقيم في كامبرويل، وقطار لندن تشاتهام ودوفر ينطلق بصورة مُنتَظمة من محطّة هولبورن فياداكت. وكان من شأني أنْ أعتبر هذه المحطّة نقطةَ الانطلاق المنطقيّة حتّى لو لم تكن قد ساعدتني بتركِ حقيبتك قربَ الباب. ومن حيثُ أجلس هنا استطيع أنْ أرى بوضوح إيصالًا متدلّيًا من مقبض الحقيبة صادرًا عن مكتب إيداع الأمتعة في محطّة هولبورن فياداكت».

«والبقيّة؟»

«كونُك خسرتَ خادمتَك وغادرتَ منزلك مسرعًا؟ إنّ بقعةَ التلميع السوداء على طرف كمّك الأيسر تشير بوضوح إلى الأمرَيْن معًا. لقد نظّفت

حذاءَك بنفسك وكنتَ مهمِلًا، إلى حدٍّ ما، في عملك هذا. يُضاف إلى ذلك أنّك نسيتَ قفّازيك في عجلتِك».

لقد أخذت السيّدة هادسون معطفي منّي، ومن المحتمل أنْ تكون قد أخذت قفّازيّ أيضًا».

«في هذه الحالة لماذا كانت يداك باردتَيْن إلى هذه الدرجة عندما تصافحنا؟ لا، يا واطسون، كلُّ سلوكِك ينمّ عن فوضى وتشوُّش».

قلتُ معترفًا: «كُلُّ ما تقوله صحيح. لكنْ ما زال هناك لغزٌ أخير، يا هولمز. كيف يمكنك أنْ تكون واثقًا إلى هذه الدرجة بأنّ القطار فات زوجتي؟»

«تنسَّمتُ فورَ وصولك رائحةَ قهوةٍ قوية من ملابسك. لماذا قد ترغب في شرب القهوة قبل مجيئك إليّ لشرب الشاي مباشرةً؟ الاستنتاجُ هو أنّ القطار فاتكما فاضطُرِرتَ إلى البقاء مع زوجتك فترةً أطول ممّا كنتَ تعتزم، فتركتَ حقيبتَك في مكتب إيداع الأمتعة وذهبتَ معها إلى مقهى. هل من المحتمل أنْ تكونا ذهبتما إلى مقهى لوكهارت؟ لقد بلغني أنّ القهوةَ جيّدةٌ بصورة خاصّة هناك».

ساد صمتٌ قصير، ثمّ انفجرتُ ضاحكًا، وقلت: «حسنًا يا هولمز، أستطيع أنْ أرى أنّه لم يكن هناك سببٌ لقلقي على صحّتك. إنّك في حالة ممتازة كعادتك».

أجابني التحرّي بحركة هادئة من يده: «كان الأمر بسيطًا إلى حدّ بعيد. غير أنّ أمرًا مثيرًا جدًّا للاهتمام قد يكون يقتربُ منّا الآن. وإذا لم أكن مخطئًا، فهذا هو الباب الأمامي...».

وبالتأكيد تمامًا، دخلت السيّدة هادسون من جديد تتقدّم رجلًا سار إلى داخل الغرفة وكأنّه يخطو تمهيدًا للظهور على مسرح لندن. كان يرتدي ملابسَ رسميّة كنايةً عن سترةِ فراك طويلة وقبّةٍ عالية وربطةِ عنق بابيون بيضاء ووشاحٍ أسود على كتفيه وصدرية وقفّازين وحذاء من الجلد اللمّاع. كان يحمل في إحدى يديه قفّازيه الأبيضَيْن وفي يده الأخرى عصا من خشب الورد لها طرفٌ ومِقبضٌ من الفضّة. كان شعرُه الأسود طويلًا إلى درجةٍ مثيرة للدهشة منسابًا إلى الوراء فوق جبين عالٍ، ولم يكن يطلق لحيةً أو شاربًا. كان

باهتَ البَشَرة وذا وجهٍ أكثرَ استطالةً من أنْ يُعتبَر وسيمًا حقًّا. ولو شئتُ أنْ أحزر عمرَه لقدّرتُ أنّه في أواسط الثلاثينات، لكنّ سلوكَه وانزعاجَه الواضح لوجوده هنا جعلاه يبدو أكبر عمرًا من ذلك. وقد ذكّرني فورًا ببعض المرضى الذين استشاروني، ممّن رفضوا أنْ يصدّقوا أنّهم معتلّون، إلى أنْ أقنَعَتْهم أعراضُهم بعكسِ ذلك، وكانوا دائمًا مصابين بالأمراض الأشدّ خطرًا. وقف زائرُنا أمامنا بذات النوع من التردُّد، وقف منتظرًا عند الباب ينظر حولَه بقلق فيما سلّمت السيّدة هادسون بطاقتَه إلى هولمز.

قال هولمز: «السيّد كارستيرز، تفضّل بالجلوس من فضلك».

«أرجو أنْ تعذرني لوصولي بهذه الطريقة... بدون أن تنتظرني وبدون أنْ أبلغك بزيارتي». كان له أسلوبٌ مقتضَبٌ وجافٌّ إلى حدّ ما في الكلام. لم تكن عيناه قد قابلتْ نظراتنا بعد. تابع كلامه قائلًا: «لم تكن لديّ في الواقع نيّةٌ للحضور إلى هنا على الإطلاق. إنّني أقيم في ويمبلدون قرب المنطقة الخضراء وقد جئت إلى المدينة للذهاب إلى الأوبرا – علمًا بأنّني لستُ في مزاج لسماع موسيقى فاغنر. ولقد أتيتُ مباشرةً من النادي الذي انتمي إلى عضويته حيثُ التقيتُ محاسبي، وهو رجلٌ أعرفه منذ سنين طويلة وأصبحتُ أعتبره صديقًا لي مع الوقت. وعندما أبلغتُه بالمتاعب التي أعانيها والضيف الذي يصعّب حياتي إلى هذه الدرجة اللعينة، ذكرَ لي اسمَك وحثّني على استشارتك. وتشاء الصدف أنْ لا يكون النادي بعيدًا من هنا، فقرّرت أنْ آتي مباشرةً إليك».

قال هولمز: «يُسعِدني أنْ أعيرَك كاملَ انتباهي».

استدار زائرُنا نحوي وسأل: «وهذا السيّد؟»

«إنّه الدكتور جون واطسون، وهو مستشاري الأقرب وفي وسعي أنْ أؤكّد لك أنّك تستطيع أنْ تذكر أمامه أيَّ شيءٍ تريد أنْ تقولَه لي».

«ممتاز. إسمي، كما ترى على البطاقة، هو إدموند كارستيرز ومهنتي تاجر أعمالِ فنونٍ جميلة وأمتلكُ صالةَ عرض كارستيرز وفينتش في شارع ألبيمارل ستريت العاملة منذ ستّ سنوات. ونحن مختصّون في أعمال كبار الرسّامين، لا سيّما من فترة نهاية القرن الماضي وبدايات القرن الحالي مثل

غينزبورو ورينولدز وكونستابل وتارنر. وأنا واثقٌ بأنّك على معرفة بأعمالِهم التي تحقّق مبيعاتُها أعلى الأسعار إطلاقًا. وفي هذا الأسبوع فقط بعتُ لوحتَيْ بورتريه بريشة فان دايك لزبون خاصّ بمبلغ 25.000 جنيه. إنّ أعمالَنا ناجحة وقد ازدهرت أوضاعُنا بالرغم من تكاثُر صالات العرض في جميع الشوارع المحيطة بنا، وهي صالاتٌ لعلّي أصفُها بالرديئة. ولقد بنينا لأنفسِنا على مرّ السنين سمعةً كمؤسّسةٍ رزينة جديرة بالثقة. وتضمّ لائحةُ زبائننا كثيرين من أبناء الطبقة الأرستقراطيّة، وشاهدنا أعمالًا بِعناها معلّقةً في بعض من أرقى الدور والقصور في البلاد».

«هل السيّد فينتش شريكُك؟»

«توبياس فينتش أكبرُ عمرًا منّي إلى حدّ ما بالرغم من كونِنا شريكَيْن متساويَيْن. وإذا حدث خلافٌ بيننا، يكون السبب أنّه أكثرُ حذرًا وتحفُّظًا منّي. مثلًا، لديّ أنا اهتمامٌ قويٌّ ببعض الأعمال الجديدة الآتية من القارّة الأوروبية، وأشير بذلك إلى الرسّامين الذين أصبحوا يُعرفون بالانطباعيّين من أمثال مونيه وديغا. وقبل أسبوع واحد فقط عُرِضت عليّ لوحةُ مشهدٍ بحريّ لبيسارو اعتبرتُها مدهشةً وحافلةً بالألوان. لكنّ شريكي تبنّى، للأسف، رأيًا مخالفًا. وهو يصرّ على أنّ أعمالًا من هذا النوع ليست أكثر من خربشات، وبالرغم من أنّ هذا الوصفَ ينطبق على بعض الأشكال التي لا يمكن تمييزُها عن قرب، فإنّني أعجز عن إقناعه بأنّه لا يفطن إلى مغزى الموضوع. إلّا أنّني لن أتعبكُما، يا سيّديَّ، بمحاضرة عن الفنّ، فنحن صالةُ عرض تقليديّة وهذه هي النقطة التي سنركّز عليها في الوقت الحاضر».

أومأ هولمز برأسه، وقال: «أرجوك أنْ تتابع».

«يا سيّد هولمز، لقد أدركتُ قبل أسبوعَيْن أنّني خاضعٌ لمراقبة. ومنزلي المعروف باسم ريدجواي هول يقع على جانب درب ضيّق. ويوجد على مسافةٍ منه في نهاية الدرب تجمُّعُ منازلَ للفقراء وهم أقربُ الجيران إلينا. إنّنا محاطون بأرض مشاع وأستطيع أن أرى من نافذة غرفة نومي المرجةَ الخضراء التابعة للقرية. في ذلك المكان تمامًا لاحظتُ صباحَ يوم الثلاثاء رجلًا واقفًا هناك ورجلاه متباعدتان وذراعاه مطويّتان. وقد ذُهِلتُ فورًا لجموده

غير العادي. كان أبعدَ من أنْ أستطيعَ رؤيتَه بوضوح، لكنّي أميلُ إلى القول إنّه كان أجنبيًا. كان يرتدي سترةً ضيّقةً طويلة ذاتَ كتفين مُبطَّنَتيْن وقصّةٍ غير إنكليزيّة بكلّ تأكيد. والواقع أنّني كنتُ في أميركا في السنة الماضية، وإذا كان لي أن أحزر لقلتُ إنّ أصلَه من ذاك البلد. غير أنّ أهمّ ما استرعى انتباهي – لأسبابٍ سأشرحها بعد قليل – هو أنّه كان يرتدي أيضًا قبّعةً، قلنسوةً مسطّحة من النوع الذي يُدعى أحيانًا Cheesecutter».

«كانت هذه وطريقةُ وقوفه هناك ما لفت انتباهي أوّلًا وأفقدني رباطة جأشي إلى هذه الدرجة. وحتّى لو كان فزّاعةَ عصافير لما تمكّن من الوقوف أكثر تحجُّرًا. كان مطرٌ خفيف يتساقط مدفوعًا بريح ناعمة فوق الأرض المشاع، لكنْ بدا وكأنّه لم يلاحظ ذلك. كانت عيناه مسمَّرتَيْن على نافذتي، وأستطيع أنْ أقول إنّهما كانتا داكنتَيْن جدًّا وبدتا وكأنّهما تخترقان جسمي. حدّقتُ إليه لدقيقة واحدة على الأقلّ، وربّما لفترة أطول، ثمّ نزلتُ لتناول طعام الفطور. لكنّي أرسلتُ صبيّ المطبخ إلى الخارج قبل أن آكل ليرى ما إذا كان الرجل لا يزال هناك، لكنّ الصبيّ أبلغني أنّ المرجةَ خالية».

قال هولمز ملاحظًا: «حادثٌ منفرد، لكنّي واثقٌ بأنّ ريدجواي هول مبنًى متميّز، ومن المحتمل جدًّا أنْ يكونَ زائرٌ لهذا البلد قد اعتبره جديرًا بتفحُّص دقيق».

«هذا ما قلتُه لنفسي لكنّي رأيتُه مرّةً ثانية بعد أيّام قليلة. كنتُ في لندن في هذه المناسبة، وقد خرجتُ توًّا – أنا وزوجتي – من المسرح، وكان مسرحَ سافوي، فرأيته هناك على الجانب الآخر من الشارع مرتديًا السترة نفسها والقلنسوة المسطّحة ذاتَها. كان من الممكن أنْ لا ألاحظَه يا سيّد هولمز، لكنّه كان متجمّدًا في مكانه كما في المرّة السابقة، وحشود الناس تمرّ حولَه من الجهتَيْن. كان أشبهَ بصخرة راسخة وسطَ نهر سريع الجريان. لكنّي أظنّ، للأسف، أنّني لم أتمكّن من رؤيته بوضوح. وبالرغم من أنّه اختار موضعًا تحتَ الوهج الكامل لمصباح الشارع، فقد أرخى ذلك ظلًّا على وجهه كان بمثابة غلالة. ولعلّ ذلك كان قصدَه».

«لكنّك كنتَ واثقًا بأنّ الرجلُ نفسه؟»

«لم يكن هناك مجالٌ للشك في ذلك».

«هل شاهدتْه زوجتُك؟»

«لا. ولم أرغب أيضًا في إثارة قلقها بذكر أيّ شيء عن الموضوع. كما كانت عربةٌ في انتظارنا فغادرنا على الفور».

قال هولمز معلّقًا: «هذا الأمر مثيرٌ جدًّا للاهتمام. وسلوك هذا الرجل غير منطقي على الإطلاق. يقف في وسط مرجة قرية وتحتَ مصباح شارع. من ناحيةٍ، يبدو أنّه يبذل كلّ جهد لكي يُشاهدَ، ومع ذلك لا يقوم بأي محاولة للإقتراب منك».

أجاب كارستيرز: «لقد اقترب منّي في الواقع. وكان ذلك في اليوم التالي بالفعل عندما عدتُ مبكّرًا إلى المنزل. كان صديقي فينتش في صالةِ العرض يسجّل جدولَ مجموعة رسوم ونقشاتِ حفرٍ لصامويل سكوت. لم يكن في حاجة إليّ، وكنتُ أنا لا أزال قلقًا في شأن المشاهدتَين. وصلتُ عائدًا إلى ريدجواي هول قبل الساعة الثالثة بقليل – وكان هذا لحُسنِ الطالع لأنّ ذلك الوغد كان هناك يقترب من باب منزلي. صحتُ به، فاستدار ورآني، وبدأ توًّا في الركض نحوي. وكنتُ متأكّدًا من أنّه يوشك على ضربي حتّى أنّي رفعتُ عصايَ لحماية نفسي. لكنّ غايتَه لم تكن عنفيّة؛ تقدّم إليّ مباشرةً ورأيتُ وجهَه للمرّة الأولى: شفتان رقيقتان، عينان عسليّتان داكنتان، وندبٌ شاحب على خدِّه الأيمن خلّفه جرحُ رصاصةٍ حديثُ العهد. كان قد احتسى شرابًا كحوليًّا وشممتُ رائحةَ الكحول في نَفَسِه. لم يوجّه إليّ ولا كلمة واحدة، بل رفع في الهواء ورقةً مكتوبةً ودسّها في يدي. ثمّ بدأ يعدو مبتعدًا قبل أنْ أتمكّن من إيقافه».

سأله هولمز: «والورقة؟»

«إنّها معي هنا».

أخرج تاجرُ الأعمال الفنّية ورقةً مربّعةَ الشكل مطويةً أربع طيّات وناولها إلى هولمز. فتحها هولمز بعناية وقال: «أعطني عدستي المكبّرة من فضلك، يا واطسون».

وفيما كنتُ أناوله العدسةَ المكبّرة، استدار إلى كارستيرز وسأله: «ألم يكن هناك مُغلّف؟»

«كلّا».

«أرى أنّ لذلك أهميةً قصوى. لكنْ دعونا نرى...».

كانت ستُّ كلمات فقط مكتوبةً بأحرف كبيرة على الورقة:

«كنيسة سينت ماري غدًا عند الظهر».

قال هولمز ملاحظًا: «الورقُ إنكليزي حتّى لو لم يكن الزائرُ إنكليزيًّا. أنتَ ترى أنّه يكتب بأحرف كبيرة يا واطسون، فما قد يكون قصدُه حسبَ ظنّك؟»

قلت: «تمويه خطّ يده».

«هذا ممكن، مع أنّك قد تظنّ أنّ خطَّ يده لا ينطوي على أيِّ دلالةٍ في الغالب نظرًا إلى أنّه لم يكتب إلى السيّد مارستيرز أبدًا من قبل، والأرجح أنّه لن يكتب له مرّةً ثانية. هل كانت الرسالة مطويّةً عندما وضَعها في يدك، يا سيّد كارستيرز؟»

«كلّا، لا أظنّ ذلك. أنا طويتُها بنفسي في ما بعد».

«الصورةُ تصبح أكثرَ وضوحًا كلَّ دقيقة. هذه الكنيسة التي يشير إليها، كنيسة سينت ماري، أهي في ويمبلدون كما أفترض؟»

أجاب كارستيرز: «إنّها في شارع هوتهاوس لين على مسيرة دقائق قليلةٍ فقط من منزلي».

«وهذا التصرُّف خالٍ من أيّ منطق أيضًا، ألا تعتقد ذلك؟ الرجل راغبٌ في الحديث معك. إنّه يدسّ في يدك رسالةً بهذا المعنى، لكنّه لا يتكلّم. لا ينبس بأيّ كلمة».

«حدسي هو أنّه كان راغبًا في التحدُّث إليّ وحدي. ما حدث هو أنّ زوجتي كاثرين خرجت من المنزل بعد لحظاتٍ قليلة. كانت واقفةً في غرفة الفطور المطلّة على الطريق الموصل إلى المنزل وشاهدت ما حدث للتوّ. وقد سألتني «من كان هذا؟»

أجبتُها: «لا فكرة لديّ».

«ماذا أراد؟»

«أريتُها الورقة فقالت: هذا شخصٌ يريد مالًا. لقد رأيتُه للتوّ عبر النافذة – إنّه رجلٌ جلف المظهر. كان هناك جماعةٌ من الغجر على الأرض

المشاع في الأسبوع الماضي، وهو بالتأكيد واحدٌ منهم. يا إدموند، يجب أنْ لا تذهب».

أجبتُها قائلًا: «لا داعي لأن تقلقي يا عزيزتي، فأنا لا أنوي إلتقاءَهُ».

قال هولمز متمتمًا: «لقد طمأنتَ زوجتَك لكنّك ذهبتَ إلى الكنيسة في الوقت المحدّد».

«هذا ما فعلتُه بالضبط، وقد حملتُ مسدّسًا معي. لم أجد الرجل هناك. لم يكن في الكنيسة أناسٌ كثيرون، وكان البردُ قاسيًا إلى درجة مزعجة. زرعتُ بلاطَ الكنيسة جيئةً وذهابًا مدّةَ ساعة، ثمّ ذهبت إلى المنزل. ولم أسمعْ منه شيْئًا منذ ذلك الوقت ولم أشاهده من جديد، لكنّي لم أستطع استبعادَه من تفكيري».

قال هولمز: «أنت تعرف هذا الرجل».

«نعم، يا سيّد هولمز. لقد أجبت عين الحقيقة. أعتقد فعلًا أنّني أعرف هويّةَ هذا الشخص، لكنّي أعترف بأنّني لا أفهم تمامًا التحليلَ الذي أوصلك إلى هذا الاستنتاج».

أجابه هولمز: «يتبادر إليّ أنّ الأمر واضحٌ تمامًا. أنتَ رأيتَه ثلاثَ مرّات فقط، وقد طلبَ لقاءك لكنّه لم يحضر. ولا يشير أيُّ شيء وصفتَه أنت إلى أنّ هذا الرجل يشكّل خطرًا عليك. لكنّك بدأتَ حديثَك معنا بإخبارنا عن إحساسِ القلق والضيق الذي انتابك وجعلك تأتي إلى هنا. وبعد ذلك أبيتَ أنْ تقابلَه إلّا وأنتَ تحمل مسدّسًا. كما أنّك لم تُطلِعْنا بعد على دلالة القلنسوة المسطّحة».

«أنا أعرف مَن هو. وأعرفُ ما يريد. وأنا مرتاعٌ لكونهِ لحق بي إلى إنكلترا».

«من أميركا؟»

«نعم».

«يا سيّد كارستيرز، إنّ قصّتك مثيرةٌ للاهتمام تمامًا، وإذا كان لديك وقتٌ قبل بدء عرض الأوبرا، أو إذا قرّرتَ ربّما تفويتَ افتتاحيّةِ العرض، أعتقد أنّ عليك إطلاعَنا على التاريخ الكامل لهذه القضية. لقد ذكرت أنّك كنتَ في أميركا قبل سنة. هل كانت هذه هي الفترة التي التقيتَ فيها الرجلَ ذا القلنسوة المسطّحة؟»

«لم ألتَقِهِ أبدًا. لكنّي كنتُ هناك بسببه».

«أخالُك لن تعترض على قيامي بحشوِ غليوني؟ لا؟ إذًا، إرجعْ بنا معك وأخبرْنا عن شأنِك على الجانب الآخر من المحيط الأطلسي. إنّ تاجر أعمالٍ فنية ليسَ رجلًا من النوع الذي يخلق أعداءً لنفسه كما أعتقد. لكنْ يبدو أنّ هذا عينُ ما فعلتَه أنت».

«هذا صحيح فعلًا. إسمُ غريمي هو كيلان أودوناهيو، وبحقّ السماء ليتني لم أسمعْ هذا الاسم على الإطلاق».

مدّ هولمز يده إلى المنضدة الفارسية التي كان يضع عليها علبة التبغ وبدأ يحشو غليونَه. وفي هذه الأثناء، أخذ إدموند كارستيرز نَفَسًا عميقًا، وروى لنا القصّة التالية.

2

عصابة القلنسوة المسطّحة

«قبل ثمانية عشر شهرًا، تعرّفتُ إلى رجل استثنائي إلى حدّ بعيد اسمُه كورنيليوس ستيلمان أتى إلى لندن في ختام جولة أوروبية طويلة. كان من منطقة الساحل الشرقي لأميركا وينتمي إلى ما يُعرَف بالطبقة البراهمانية في بوسطن، أي إنّه كان من إحدى أرقى العائلات وأنبلها. وقد جنى ثروةً من مناجم كالومت وهكلا كما استثمر مالًا في شركاتِ سكك الحديد والاتّصالات الهاتفية، ويبدو أنّه كان يطمح في صباه إلى أنْ يكون فنّانًا. ومن أسباب زيارته لأوروبا التعرُّفُ إلى متاحف باريس وفلورنسا وروما ولندن وصالات العرض فيها».

«وكان كأثرياء أميركيين كثيرين ذا حسّ عميق بالمسؤولية المدنية، ما أسبغ عليه كثيرًا من الرفعة. وكان قد اشترى أرضًا في منطقة باك باي في بوسطن، وبدأ فعلًا أشغالَ بناءِ صالةِ عرضٍ للأعمال الفنية أطلق عليها اسمَ بارتنون[1]، واعتزم أن يملأها بأجمل القطع الفنية التي ابتاعها في أسفاره. وقد التقيتُه في حفل عشاء، واكتشفتُ فيه رجلًا شبيهًا ببركانٍ ضخم زاخرٍ بالطاقة والحماس. كان ذا ذوقٍ محافظٍ في ملبسه وملتحيًا ويستعمل عدسةَ مونوكل. وتبيّن أنّه واسعُ الاطّلاع والثقافة ويجيد اللغتَيْن الفرنسية والإيطالية وله بعضُ الإلمام باليونانية القديمة. كذلك تميّز هذا الرجل عن كثيرين من مواطنيه

[1] اسم معبد الإلهة أثينا في أكروبول العاصمة اليونانية، بناه فيدياس في القرن الخامس قبل الميلاد وزيّنه بأروع التماثيل والزخارف (المترجم).

بمعارفه الفنيّة وإحساسه الجماليّ. ولا تعتبرني شخصًا شوفينيًّا بدون مبرّر يا سيّد هولمز، فقد حدّثني هو نفسُه عن نواحي التخلُّف الكثيرة في الحياة الثقافية التي اعتادها أثناء نشأتِه وكيف كانت لوحاتٌ رائعة تُعرَض إلى جانب رسومٍ قبيحة مشوّهةٍ للطبيعة مثل حوريات البحر والأقزام. وقد شاهد هناك مسرحيّاتٍ لشكسبير تخلّلتها عروضُ المشي على الحبل والبهلوانيات. هكذا كانت الأوضاع في بوسطن آنذاك. وقال إنّ صالةَ البارتنون ستكون مختلفةً وستصبح تبعًا لاسمها هيكلًا للفنّ والتمدّن».

«ولقد سُرِرتُ كثيرًا عندما وافق السيّد ستيلمان على المجيء إلى صالتي في شارع ألبمارل ستريت حيث أمضينا، السيّد فينتش وأنا، ساعاتٍ كثيرةً معه. فاستعرضنا لائحةَ مقتنياتنا وأريناه بعض القطع التي اشتريناها حديثًا في مزادات في مختلف أنحاء البلاد. وموجز الكلام أنّه اشترى من صالتنا أعمالًا لرومني وستابز ولورنس وكذلك سلسلةَ لوحاتٍ لمناظر طبيعية بريشة جون كونستابل كانت مصدر فخار لنا في مجموعتنا. كانت تلك مناظر لمنطقة البحيرة رُسمت في عام 1806 وتميّزت عن جميع الأعمال الأخرى لهذا الفنّان. اتّسمت هذه اللوحات بعمقٍ مزاجيّ وروحيّ لافت. ووعد السيّد ستيلمان بأنْ تُعرَض هذه اللوحات في قاعةٍ واسعةٍ جيّدة الإضاءة سيصمّمها خصيصًا لهذا الغرض. وكانت علاقتُنا ممتازة عندما افترقنا، وعليّ أنْ أضيف أنّني كسبتُ مبلغًا كبيرًا من المال نتيجةً لما حدث. وقال السيّد فينتش: في الواقع إنّ تلك كانت أنجح صفقة أبرمناها في حياتنا».

«لم يبقَ علينا الآن إلّا أنْ نشحن الأعمال الفنية وهي مغلّفة تغليفًا جيّدًا وموضّبة في حاوية لإرسالها من ليفربول إلى نيويورك على متن سفينة تابعة لخطّ هوايت ستار البحريّ. وشاءت إحدى مصادفات القدر التي لا تعني شيئًا في حينها لكنّها تعود في وقتٍ لاحق لتُقِضّ مضجعك أنْ تعتزمَ إرسال الشحنة إلى بوسطن مباشرة. كانت سفينة أدفنتشرر تقوم بهذه الرحلة لكنّها فاتتنا بساعاتٍ قليلة، لذلك اخترنا سفينةً أخرى. كان عميلنا، وهو شابٌ ذكي يُدعى جيمس ديفوي، في استقبال الحاوية في نيويورك ورافقها في رحلةِ شحنها على قطار بوسطن – ألباني – وهي رحلةٌ من مائة وتسعين ميلًا».

«لكنّ اللوحات لم تصل إلى وجهتها قطّ».

«كانت توجد في بوسطن آنذاك مجموعةٌ من العصابات العاملة في جنوب المدينة بصورة خاصّة، في تشارلزتاون وسومرزفيل. وكانت للعديد من هذه العصابات أسماءٌ عجيبة منها ديد رابتس (الأرانب الميّتة) وفورتي ثيفز (اللصوص الأربعون)، وقد جاءت أصلًا من إيرلندا. ومن المحزن أن يكونَ هؤلاء قد كافأوا هذا البلد العظيم الذي استقبلهم، بالخروجِ على القانون وممارسةِ العنف. لكنّ هذا ما كان عليه الوضع في الواقع، وقد عجزت الشرطة عن كبح جماح هذه العصابات أو سَوْقِها إلى العدالة. وكانت إحدى أنشط العصابات وأخطرِها تُعرَف باسم عصابة القلنسوة المسطّحة يتزعّمها شقيقان توأمان إيرلنديّان هما رورك وكيلان أودوناهيو المتحدّران من مدينة بلفاست. وسأصف لك هذين الشيطانَيْن بأفضل ما استطيع لأنّ لهما دورًا مركزيًا في روايتي.

لم يُشاهَدْ هذان الأخوان مفترقَيْن أبدًا. وبالرغم من أنّهما كانا متماثلَيْنِ عندما وُلِدا، فقد أصبح رورك الأكبر حجمًا بينهما وذا منكبَيْن عريضَيْن وصدرٍ ضخم كبرميل وقبضتَيْن ثقيلتَيْن كان دائمَ الاستعداد لاستعمالهما في عراك. وقيل إنّه ضربَ رجلًا حتّى الموت أثناء لعبة ورق ولم يكن قد بلغ بعد السادسةَ عشرة من عمره. وعلى النقيض منه، بقي شقيقُه التوأم في ظلّه غالبًا وكان أصغر بنيةً وأهدأ طبْعًا، ونادرًا ما كان يتكلّم فعلًا. وقد أُشيع أنّه لم يكن قادرًا على النطق أصلًا. كان رورك ملتحيًا فيما ظلّ كيلان حليقَ الوجه، وكان كلاهما يرتدي قلنسوةً مسطّحة، وهذا أساسُ تسميةِ عصابتهما. وكان يُعتقد، على نطاق واسع، أنّ كلًّا منهما كان يحمل على ساعده وشمًا بالحرفَيْن الأوّلَيْن من اسم شقيقه، وأنّهما كانا لا يفترقان في أيّ منحى من مناحي الحياة».

«بالنسبة إلى الأعضاء الآخرين في العصابة، فإنّ أسماءَهم كافيةٌ لإعطائك كلّ المعلومات التي قد تريد الحصولَ عليها عنهم. كان هناك فرانك «الكلب المسعور» كيلي وباتريك «الشفرة» ماكلين. وكان هناك عضوٌ آخر لقبُه «الشبح»، وكان الناس يخافونه قدر خوفهم من أيّ كائن خارق للطبيعة. كان أفراد العصابة متورّطين في كلّ نوع يخطر على البال من جرائم الشارع كالسطو المسلّح والسرقة وفرض الخوّات. وبالرغم من ذلك، كانوا يحظون

باحترام كبير لدى كثيرين من سكّان بوسطن الأفقر حالًا الذين بَدوا عاجزين عن رؤيتهم على حقيقتهم الدامغة كآفةٍ تنخر جسد المجتمع، بل اعتبروهم ضحايا مظلومين يشنّون حربًا ضدّ نظام جائر. وغنّي عن الحاجة أنْ أذكّرك بأنّ ظاهرةَ التوأم تجلّت في الميثولوجيا منذ فجر الحضارة، فكان هناك رومولوس وريموس، أبولو وأرتميس، وكاستور وبولوكس. وقد خَلّد بريقُ برج الجوزاء في سماء الليل الافتتانَ بظاهرة التوأم إلى الأبد، والتصق بعضٌ من هذا الافتتان بالأخوَيْن أودوناهيو، فانتشرَ اعتقادٌ أنّهما لن يقعا أبدًا في قبضة العدالة وأنّ في وسعهما النجاةَ بأيّ فعلةٍ يرتكبانها».

«لم أكن أعرف شيئًا عن عصابة القلنسوة المسطّحة – بل لم يسبق لي أنْ سمعتُ بها حتّى عندما شحنتُ اللوحات من ليفربول. لكنّ أفراد العصابة تلقّوا بشكلٍ ما في ذلك الوقت بالذات معلومةً بأنْ مبلغًا كبيرًا من المال سيرْسَل بعد أيّام قليلة من شركة البنكنوت الأميركية في نيويورك إلى فيرست ناشيونال بنك لولايةِ ماساتشوستس في بوسطن. وقيل إنّ هذا المبلغ كان مائة ألف دولار وإنّ الإرسالية ستتمّ بواسطة سكّة حديد بوسطن وألباني. ويقول البعض إنّ رورك كان العقلَ المدبّر للعمليّة، فيما يعتقد آخرون أنّ كيلان كانَ العقلَ المخطّطَ الأذكى بطبيعته بين الاثنَيْن. ومهما يكن من أمر، فقد توصّلا في ما بينهما إلى فكرةِ السطو على القطار قبل وصوله إلى المدينة وسلب المال الذي يحمله».

«كان السطو على القطارات لا يزال أمرًا شائعًا في المناطق الحدودية الغربية من أميركا مثل كاليفورنيا وأريزونا، لكنّ حدوثَ مثل هذا الأمر على الساحلِ الشرقي الأكثر تطوُّرًا كان شيئًا يكاد لا يُصدَّق. ولهذا السبب غادر القطار محطّة غراند سنترال في نيويورك وعلى متنه حارسٌ مسلّح واحد مرابطٌ في عربة البريد. كانت الأوراق النقدية محفوظة في خزانة حديدٍ، وشاء سوء الطالع أنْ تُشحَن اللوحاتُ في ذاتِ العربة وهي لا تزال موضّبةً في حاويتها. وكان وكيلنا جيمس ديفوي مسافرًا على القطار في عرباتِ الدرجة الثانية، ولطالما اتّسم بالدقّة والتفاني في أداء واجباته، وقد اتّخذ لنفسه أقربَ مكان ممكن من عربة البريد».

«اختارت عصابةُ القلنسوة المسطّحة موقعًا خارج بيتسفيلد مباشرة لشنّ غارتها المزمَعة. ويصعد الخطّ الحديد في هذه المنطقة مرتفعًا شديد الإنحدار قبل أنْ يعبر نهر كونيتكُت. وكان هناك نفقٌ يمتدّ مسافة ألفَيْ قدم، وقد فَرَضت تعليماتُ السكك الحديد على سائق القاطرة أنْ يختبر المكابح عند مخرج النفق. لذا كانت حركةُ القطار بطيئة جدًّا عند خروجه من النفق، وكان من السهل على رورك وكيلان أودوناهيو أنْ يقفزا على سطح إحدى عربات القطار وأن يصعدا من هناك فوق عربة المعدّات ليباغتا السائقَ ومساعدَه، بظهورهما فجأة في مقصورة القاطرة شاهرَيْن مسدَّسيهما».

«أمرا السائق بإيقاف القطار وسطَ غابةٍ في فسحةٍ تحيط بها من كلّ جانب أشجارُ الصنوبر الأبيض الباسقة التي شكّلت ستارًا طبيعيًّا يستطيعان ارتكاب جريمتهما خلفه. كان كيلي وماكلين وجميعُ أفراد العصابة الآخرين ينتظرونهما ومعهم خيولٌ وديناميت سبق أنْ سرقوه من موقع بناء. وكانوا مسلّحين جميعًا. وصل القطار إلى الفسحة وضرب رورك السائقَ على رأسه بحافّة مسدّسه وأفقده وعيه. وأخرج كيلان الذي لم ينطق بأيّ كلمة حبلًا وقيّد مساعدَ السائق بركيزة معدنية. في هذه الأثناء، صعد أفرادُ العصابة الآخرون إلى القطار وأمروا الركّاب بالبقاء جالسين، ثمّ اقتربوا من عربة البريد وبدأوا بوضع شحناتٍ ناسفة حول الباب.

شاهد جيمس ديفوي ما يحدث وشعر بالإحباط من التبعات. ولا بدّ أنْ يكون قد حزر أنّ اللصوص كانوا هناك لأسباب أخرى غيرِ لوحات كونستابل. فمن حيثُ الأساس، لم يكن يعرفُ بوجودها إلّا أشخاصٌ قليلون جدًّا. وحتّى لو امتلك بعضُهم الذكاءَ أو العلمَ الكامنَيْن لتمييز عملٍ واحدٍ من كبار الرسّامين القدماء، لما وجدوا من يستطيعون بيعَه اللوحات. وفيما قبع الركّابُ الآخرون مذعورين حوله، غادَرَ ديفوي مقعدَه وتوجّه نحو أفراد العصابة بنيّةِ مناشدةِ إنسانيّتهم. وأنا أفترض على أقلّ تقدير أنّ هذه كانت نيّته. وقبل أنْ يتمكّن من قول كلمة واحدة، استدار رورك أودوناهيو نحوه وأطلق عليه النار فأرداه. أُصيب ديفوي بثلاث رصاصات في صدره ومات في بركةٍ من دمائه».

«سمع الحارسُ الموجود داخل عربة البريد الطلقات النارية، وأستطيع أنْ أتخيّل مدى الرعب الذي لا بدّ وأنْ يكونَ قد انتابه عندما سمع لغطَ أفراد العصابة في الخارج. هل كان سينصاع لهم ويفتح الباب لو أمروه بذلك؟ لن نعرف ذلك أبدًا. وما هي إلّا لحظة حتّى دوّى انفجار ضخم نَسَف جدار العربة بالكامل. قُتِل الحارس فورًا وظهرتْ الخزانةُ الحديد التي كان المال في داخلها».

«كانت شحنةٌ ناسفةٌ ثانية أصغر حجمًا من الأولى كافيةً لفتح الخزانة الحديد، واكتشفت العصابةُ عند ذاك أنّها أُعطِيت معلومات خاطئة. كان المبلغُ المُرسَل إلى فيرست ناشيونال بنك لولاية ماساتشوستس ألفي دولار فقط، وهو مبلغ قد يشكّل ثروةً لهؤلاء الرعاع، إلّا إنّه أقلُّ بما لا يُقاس من المبلغ الذي كانوا يتوقّعونه ويأملون في الحصول عليه. وبالرغم من ذلك تخاطفوا الأوراق النقدية وهم يطلقون صيحاتِ ابتهاجٍ وفخار لامبالين بأنّهم تركوا قتيلَيْن وراءهم وغير مدركين أنّ متفجّراتهم دمّرت تمامًا أربعَ لوحات لها وحدها قيمةٌ أعلى عشرين مرّة من المبلغ الذي سلبوه. شكّل ضياعُ هذه اللوحات وسواها خسارةً لا تُقدَّر للثقافة البريطانية. وما زال عليّ أنْ أذكّر نفسي حتّى الآن بأنّ رجلًا شابًّا مخلصًا لعمله مات في ذلك اليوم، لكنّي سأكون كاذبًا حيالك لو لم أقلْ معترفًا بخجل بأنّني حزينٌ بالقدر ذاته لخسارة تلك اللوحات».

«سمعنا، صديقي فينتش وأنا، الخبرَ مذعورَيْنِ. في بادئ الأمر بَلَغَنا ما دفعنا إلى الاعتقاد بأنّ اللوحات سُرِقت، وكنّا نفضّل هذا الاحتمال لو كان صحيحًا لأنّ اللوحات كانت ستظلّ تجد مَن يقدِّرها حقَّ قدرِها وستبقى هناك فرصةٌ لإمكان استرجاعها. لكن بئسَ هذه الفعلة المشؤومةَ التوقيت، وبئسَ هذا التخريب الأعمى من أجل حفنةٍ من المال. كم كان ندمُنا مريرًا لاختيارنا هذا الطريق! وكم لُمنا أنفسَنا على ما حدث! وكانت هناك اعتباراتٌ مالية أيضًا، إذ سبق للسيّد ستيلمان أنْ دفع عربونًا كبيرًا للّوحات، لكنّنا كنّا نحمل المسؤوليّة الكاملةَ عنها إلى أنْ تُسلّم إلى يَدَيْه بموجب عقدِ البيع. وكنّا، لحسن الطالع، مؤمَّنين لدى شركة لويدز في لندن، وإلّا لأفلسْنا لأنّه لم يكن لديّ أيُّ

خيار سوى إرجاع المال. وكانت هناك أيضًا مسألةُ عائلةِ جيمس ديفوي، وقد علمتُ أخيرًا أنّه ترك زوجةً وطفلًا صغيرًا لا بدّ من أن يرعاهما طرفٌ ما».

«كانت هذه هي الأسباب التي جعلتني أقرّر السفرَ إلى أميركا، وقد غادرتُ إنكلترا بصورةٍ فورية تقريبًا ووصلت إلى نيويورك أوّلًا. اجتمعتُ بالسيّدة ديفوي ووعدتُها بأنّها ستتلقّى تعويضًا، كان ابنُها في التاسعة من عمره، ويصعب على المرء تصوُّرُ طفلٍ ألطفَ وأجملَ منه، سافرتُ بعد ذلك إلى بوسطن ومن هناك توجّهتُ إلى بروفيدنس حيث بنى كورنيليوس ستيلمان منزلَه الصيفي. ولا بدّ لي من القول إنّ لا شيءَ حضّرني للمشهد الذي وَقَعتْ عليه عيناي، ولا حتّى الساعات الكثيرة التي أمضيتُها في صحبة هذا الرجل. كانت دارةُ شيبردز بوينت هائلةَ الحجم بناها المهندس المعماري الشهيد ريتشارد موريس هانت على طراز قصر فرنسي. وقد امتدّت الحدائقُ وحدُها على مساحة ثلاثين إيكرًا[2]. وازدان داخلُ المنزل بفخامة تجاوزت كلَّ ما كان في وسعي تخيُّلُه. وأصرّ ستيلمان نفسُه على انْ يُريني أقسام المنزل، فكانت تلك الجولةُ رحلةً لن أنساها أبدًا. الدرج الخشبي الرائع المشرِف على القاعة الكبرى، المكتبة العامرة بخمسة آلاف مجلّد، رقعة الشطرنج اليت امتلكَها يومًا ملكُ بروسيا فريدريك الأكبرن الكنيسة الخاصّة والأرغن القديم الذي كان يورسيل يعزف عليه... وما إن وصلنا إلى الطابق السفلي المحتوي على مسبح وملعب بولنغ حتّى كنتَ منهكًا تمامًا تقريبًا. وبالنسبة للأعمال الفنّية! يا للعجب. أَحصيتُ أعمالًا لتيتزيان ورمبراندت وفالاسكيز حتّى قبل ان أصل إلى قاعة الإستقبال. وفيما كنتُ أفكّر في كلّ هذا الثراء والأموال اللامحدودة التي يستطيع مضيفي التصرُّف بها تكوّنتْ فكرةٌ في عقلي».

«كنّا نتناول طعامَ العشاء تلك الليلة جالسَيْن إلى مائدةِ حفلاتٍ كبيرة قديمة من القرون الوسطى ويحملُ إلينا الطعامَ خدمٌ زنوج يرتدون ملابسَ قد تُعتبر من أزياء العصر الإستعماري عندما أثرتُ موضوعَ السيّدة ديفوي وطفلِها. وأكّد لي ستيلمان أنّه بالرغم من عدم كونِهما مقيمَيْن في بوسطن فسيُحيل الأمر إلى مسؤولي المدينة الذين سيتولّون رعايتَهما. وبعدما

[2] إيكر (Acre) = 7404 مترًا مربّعًا (المترجم).

شجّعني هذا القول، انتقلتُ إلى موضوع عصابة القلنسوة المسطّحة وسألتُه عمّا إذا كانت هناك طريقةٌ ما يستطيع المساعدةَ عبرها على سَوْقِ أفرادها إلى العدالة بعد أنْ فشلت شرطةُ بوسطن فشلًا ذريعًا في تحقيق أيّ تقدّم حتّى ذلك الحين. وتساءلْتُ عمّا إذا كان من الممكن عرضُ جائزةٍ كبيرة لقاءَ معلوماتٍ عن مكانِ وجودِهم واللجوءُ في الوقت ذاته إلى خدماتِ وكالةِ تحرّيات خاصّة تتولّى إلقاءَ القبض عليهم نيابةً عنّا، فنثأر بهذه الطريقة لمقتل جيمس ديفوي ونعاقبهم في الوقت ذاته على تدمير لوحات كونستابل».

«تقبّل ستيلمان فكرتي بحماس، وقال بصوت عالٍ: «أنتَ محقّ يا كارستيرز» وضرب الطاولة بقبضتِه، وأضاف: «هذا ما سنفعله بالضبط. سوف أُري هؤلاء الصعاليك أنّ الشؤم حلّ بهم يوم اختاروا أنْ يعبثوا مع كورنيليوس ت. ستيلمان!». لم يكن هذا أسلوبَه المعهود في الكلام، لكنّنا قد شربنا معًا زجاجةً من نبيذ كلاريت الفاخر جدًّا ثم انتقلنا إلى شراب البورت، فكان في مزاجٍ مسترخٍ أكثرَ من عادته. وقد أصرّ حتّى على دفعِ نفقات التحرّيين كافّة والجائزة المالية بنفسه، بالرغم من عرضي المساهمة في التمويل. تصافحنا على هذا الأساس واقترح عليّ أنْ أبقى معه أثناءَ إعدادِ الترتيبات، وقبلتُ هذه الدعوةَ بكلّ سرور. لقد كان الفنُّ حياتي، سواء كجامعٍ للأعمال الفنية أو كتاجرٍ أتعامل بها. وكان في منزل ستيلمان الصيفي ما يكفي من القطع الفنية لإبقائي مسحورًا طوالَ أشهر».

«لكنّ الأمورَ تحرّكت في الواقع بوتيرةٍ أسرع من ذلك، فقد اتّصل السيّد ستيلمان بوكالة بنكرتون واستأجر رجلًا يُدعى بيل ماكبارلند. ولم أُدعَ أنا نفسي للقائه – فقد كان ستيلمان شخصًا من النوع الذي يتعيّن عليه القيامُ بكلّ شيء وحده وبطريقته الخاصّة. لكنّني كنتُ مطّلعًا على سمعةِ ماكبارلند إلى درجةٍ كافية لأكونَ واثقًا من أنّه تحرٍّ بارعٌ جدًّا لن يتخلّى عن مهمّته إلى أنْ تقعَ عصابةُ القلنسوة المسطّحة في قبضته. ونُشِرت في الوقت ذاته إعلاناتٌ في صحيفة بوسطن دايلي أدفرتايزر تعرض مكافأة مائة دولار – وهو مبلغ معتبَر – لقاءَ معلوماتٍ تؤدّي إلى اعتقال رورك وكيلان أودوناهيو وجميع شركائهم.

وأسعدني أنْ يكون السيّد ستيلمان قد ذيّل الإعلانات باسمي إلى جانب اسمه بالرغم من أنّ كلّ المال كان له».

«أمضيتُ الأسابيعَ القليلةَ التالية في شيبردز بوينت وفي بوسطن نفسها، وهي مدينةٌ جميلة تنمو بسرعة. وعدتُ إلى نيويورك مرّات قليلة وانتهزتُ الفرصة لقضاء عدّة ساعات في متحف متروبوليتان للفنون، وهو مبنى سيّئ التصميم لكنّه يحتوي على مجموعة رائعة. وزرتُ أيضًا السيّدة ديفوي وابنَها. وكنتُ في نيويورك عندما تلقّيتُ برقيةً من ستيلمان حثّني فيها على الرجوع، فقد حقّق حجمُ المكافأة الهدفَ المنشود، وتلقّى ماكبارلند إخباريةً وبدأت الشبكةُ تُطبِقُ على عصابة القلنسوة المسطّحة».

«عدتُ فورًا واستأجرتُ غرفةً في فندق في شارع سكول ستريت حيثُ اطّلعتُ من كورنيليوس ستيلمان في ذلك المساء على ما حدث».

«أتتْ الإخباريةُ من صاحب حانة كالتي يدعوها الأميركيون (صالون) في حيّ ساوث إند، وهو أحدُ أحياء بوسطن غير الآمنة ويُقيم فيه بالفعل عددٌ كبير من المهاجرين الإيرلنديّين. وكان الأخَوان أودوناهيو مختبئَيْن في مبنًى سكنيّ ضيّق قريب من نهر تشارلز، مبنًى داكنٍ متداعٍ قذر من ثلاثِ طبقات ويضمّ عشرات الغرف المتلاصقة بدون فسحات مداخل. وكان في كلّ طبقة مرحاض واحد تتسرّب منه المياه الآسنة إلى الممرّات، ولم يكبح الروائحَ الكريهة إلّا الدخانُ المتصاعد من الفحم المشتعل في مائةِ موقدٍ صغير. كان هذا المبنى الأشبهُ ببؤرةِ قذارة غاصًّا بأطفالٍ زاعقين ورجالٍ سكارى ونساء مُهَمهِمات شبهِ مخبولات. وقد أُضيف مُلحَقٌ بدائيٌّ مشيّد من الخشب وبعضِ الآجر المضغوط إلى الجهةِ الخلفيّة من المبنى بشكلٍ منفصل عنه، وتمكّن الشقيقان التوأمان من وضع اليد عليه. كانت لكيلان غرفةٌ له وحده فيما تشارك رورك غرفةً أخرى مع اثنين من رجاله، وشغل أعضاءُ العصابة الآخرون غرفةً ثالثة في الملحق».

«كان المال الذي سرقوه من القطار قد نفد بعد أنْ بذّروه على الكحول والمقامرة. وعندما غابت شمسُ ذلك اليوم، كانوا متحلّقين حول المدفأة يشربون الجبن ويلعبون الورق. لم يكلّفوا أحدًا بالحراسة، ولم تكن أيٌّ من

عوائل الجوار لتجرؤَ على الوشاية بهم. كانوا واثقين بأنّ شرطةَ بوسطن فقدتْ منذ زمن طويل كلّ اهتمام بسرقة الألفَيْ دولار، لذا كانوا غافلين عن اقتراب ماكبارلند الموشك على مباغتتهم برفقة اثني عشر رجلًا مسلّحًا.

«تلقّى عملاءُ وكالة بنكرتون تعليمات بإلقاء القبض عليهم أحياء إنْ أمكن لأنّ ستيلمان كان يأمل بشدّة رؤيتَهم ماثلين أمام محكمة، فضلًا عن أنّ وجودَ أناسٍ أبرياء كثيرين في الجوار القريب جعل من الضروري تجنُّبَ معركةٍ مفتوحة بالأسلحة النارية قدرَ المستطاع. وعندما اتّخذ رجالُه مواقعهم، رفع ماكبارلند بوقَ تكبير الصوت الذي أحضرَهُ معه، وأطلقَ عبرَهُ نداء تحذير. وإن يكن ماكبارلند قد أمل أنْ تستسلم عصابةُ القلنسوة المسطّحة بهدوء، فقد خاب أملُه بعد لحظة واحدة على وقعِ وابلٍ من الطلقات النارية. لقد سمح الشقيقان التوأمان لنفسَيْهما بأنْ يؤخذا بغتةً، لكنّهما لن يستسلما بدون قتال فانهمر سيلٌ من الرصاص على الشارع. ولم تُطلَق النيران من النوافذ فحسب بل من ثقوب جرى إحداثها في الجدران نفسها. قُتِل اثنان من رجال بنكرتون وجُرِح ماكبارلند نفسُه، لكنّ الآخرين ردّوا على النار بمثلها وأفرغوا طلقات مسدّساتهم في المبنى. ويستحيل على المرء أنْ يتصوّر ما كان عليه الأمر عندما اخترقت مئات الرصاصات الجدران الخشبية الهزيلة. لم تكن هناك حماية. لم يكن هناك مكانٌ للاختباء».

«عندما انتهى كلُّ شيء، عثروا على خمسة رجال ممدَّدين جنبًا إلى جنب في غرفةٍ مملوءة بالدخان، وكانت أجسادُهم ممزّقةً بالرصاص. لقد هرب رجلٌ واحد من أفراد العصابة. بدا ذلك مستحيلًا في بادئ الأمر، لكنّ مُخبِرَ ماكبارلند كان قد أكّد له أنّ العصابةَ بكاملها ستكون مجتمعةً في ذلك المكان، وتراءى لماكبارلند أثناء تبادلِ إطلاق النار أنّ ستّةَ رجال كانوا يردّون على نيران رجاله. فُحِصت الغرفةُ بدقّة وحُلَّ اللغز في آخر الأمر. كان أحدُ ألواح الأرض الخشبية سائبًا، وعندما نُحّي جانبًا ظهر مسربٌ ضيّق يتّصل بمصرف مياه يغور تحت الأرض ويمتدّ طول المسافة حتّى النهر. لقد هرب كيلان أودوناهيو بهذه الطريقة، ولا بدّ من أنْ يكون قد اضطُرّ إلى حشرِ نفسه بشدّةٍ بالغة لأنّ سعةَ الأنبوب كانت بالكاد كافية لاحتواء جسم طفل؛ وبدا أكيدًا أنّ

أيًا من رجال بنكرتون لم يكن على استعداد لاختبار الأمر. وقادَ ماكبارلند عددًا من رجاله إلى ضفّة النهر، لكنّ ظلامًا دامسًا كان قد خيّمَ وأدركَ أنّ أيّ عملية بحثٍ ستكون بدون جدوى. لقد قُضِي على عصابة القلنسوة المسطّحة، لكنّ أحد زعيمَيْها تمكّن من النجاة».

«كانت هذه هي النتيجة التي وصفها لي كورنيليوس ستيلمان في فندقي تلكَ الليلة، لكنّ ذلك لم يكن نهاية القصّة بأي شكل من الأشكال».

«بقيتُ في بوسطن أسبوعًا آخر لأسبابٍ، من بينها الأملُ في إمكان العثورِ الآن على كيلان أودوناهيو، ذلك أنّ هاجسًا صغيرًا نشأ في فكري، ولعلّه تولّد لديّ أصلًا في البداية لكنّي لم أدرِكْ وجودَه إلّا الآن، كان متعلّقًا بالإعلان اللعين الذي ذكرتُه من قبل والذي كان يحمل اسمي. لقد أعلَن ستيلمان على الملأ أنّني كنتُ شريكًا في الجائزة وفي ترتيب الغارة الأمنية التي وُجّهت ضدّ عصابة القلنسوة المسطّحة. شعرتُ بالرضا آنـذاك، ولـم أفكّر إلّا في إحساسي بالواجب العامّ وفي شرفِ اقتران اسمي باسم ذلك الرجل العظيم كما أظنّ. والآن تبادر إلى ذهني أنّني قد أُصبح هدفًا للانتقام نتيجةً لقتلِ أحد التوأمَيْن وبقاء التوأم الآخر على قيد الحياة، لا سيّما في مكان يستطيع فيه أعتى المجرمين الاعتمادَ على دعم أصدقاء ومُعجَبين كثيرين جدًّا. عند ذاك أصبحتُ أشعر بالقلق كلّما دخلتُ إلى الفندق أو خرجتُ منه. لم أدعِ النزقَ يقودني إلى الأحياء الأقلّ أمنًا في المدينة، ولم أخرج في الليل بالتأكيد».

لم يُلقَ القبضُ على كيلان أودوناهيو، وأُثيرت حتّى تساؤلاتٌ وشكوكٌ حول ما إذا كان قد نجا بحياته فعلًا، فمِن المحتمل أنْ يكون قد جُرِح ومات من النزيف تحت الأرض كما يموت جرذ. ومن المحتمل أيضًا أنْ يكون قد مات غرقًا، وهذا ما كان ستيلمان قد أقنع نفسَه به على نحو أكيد عندما التقينا آخر مرّة. لكنّه كان من حيث المبدأ رجلًا من النوع الذي لا يُبدي أيَّ استعدادٍ للاعتراف بالفشل. وكنت قد حجزتُ مكانًا لرحلةِ عودتي إلى إنكلترا على متنِ السفينة كاتالونيا التابعة لخطوط كيونارد البحرية، وشعرت بالأسف لعدم تمكُّني من توديع السيّدة ديفوي وابنها، لكنْ لم يكن لديّ وقتٌ للعودة إلى نيويورك. غادرتُ الفندق، وأذكُر أنّني كنتُ قد وصلت إلى معبر السفينة

وعلى وشك الصعود إليها عندما سمعت النبأ. كان بائعُ صحف يعلنُه بصياحه، كما كان منشورًا على الصفحة الأولى».

«كورنيليوس ستيلمان قُتِل بالرصاص وهو يتمشّى في حديقةِ زهور منزله في بروفيدنس. اشتريتُ الجريدة بيد مرتجفة، وقرأتُ أنّ الإعتداء وقع قبل يومٍ واحد وأنّ رجلًا شابًا يرتدي سترةً من التويل القطني ووشاحًا وقلنسوةً مُسطّحة شوهد يفرّ من مسرح الجريمة. وقد بدأت عمليةُ البحث عن الجاني فعلًا وستشمل كلَّ منطقة نيوإنغلند لأنّ ضحيةَ الجريمة كانت شخصًا مرموقًا من مجتمع بوسطن الراقي، ولن يُدَّخر أيُّ جهد لسوق الفاعل إلى العدالة. وذكر نبأ الجريدة أنّ بيل ماكبارلند يساعد الشرطة، وكان في ذلك نوعٌ من سخرية الأقدار لأنّ خلافًا وقع بين الرجلَيْن في الأيّام التي سبقت موتَ ستيلمان. وكان ستيلمان قد امتنع عن دفع نصف الأجر الذي اتّفق عليه مع رجل بنكرتون بحجّة أنّ تنفيذ المهمّة لن يكتمل تمامًا إلّا عند العثور على آخر جثّة. لكنّ صاحبَ تلك الجثّة كان حيًّا يمشي على قدمَيْه، إذ لم يكن هناكَ مجالٌ للشكّ على الإطلاق في هوية قاتل ستيلمان».

«قرأتُ الجريدة. ثم ارتقيتُ معبر السفينة، وتوجّهتُ مباشرةً إلى قمرتي، وبقيتُ فيها حتّى الساعة السادسة مساءً عندما انطلقت صفّارةٌ قوية ورفعت سفينةُ كاتالونيا مرساتَها وأبحرت خارجةً من الميناء. عند ذاك فقط رجعتُ إلى سطح السفينة للتفرُّج على بوسطن وهي تختفي ورائي. وشعرت بارتياح كبير لرحيلي من هناك».

«هذه، يا سيّدي، قصةُ لوحات كونستابل وزيارتي لأميركا. وقد أبلغتُ شريكي السيّد فينتش بما حدث بطبيعة الأمر كما حادثتُ زوجتي بالموضوع، لكنّي لم أكرّر سردَه أبدًا لأيّ إنسان آخر. لقد حدث الأمر قبل ما يربو على سنةٍ واحدة وظللتُ أعتقد – وأصلّي – أنْ لا أُضطَرّ أبدًا إلى الحديث عنه إلى أنْ ظهر الرجلُ ذو القلنسوة المسطّحة أمام منزلي في ويمبلدون».

كان هولمز قد انتهى من تدخين غليونه قبل أنْ يختتم تاجرُ الأعمال الفنيّة روايتَه بفترة طويلة، وظلّ يُنصِت وأصابعُه الطويلة متشابكةٌ أمامَه

وعلى وجهه نظرةُ تركيز شديد. ساد صمتٌ طويل. سقطت حطبةٌ متجمّرة في الموقد وتطاير الشرر من لسان النار، وبدا أنّ صوت اللهيب أخرجه من تأمُّلاته.

سأل هولمز: «ما هي الأوبرا التي اعتزمتَ حضورها الليلة؟»

كان هذا آخرَ سؤال توقّعتُ سماعَه. بدا السؤال تافهًا لا أهمّيةَ له على ضوءِ كلّ ما سمعناه للتوّ، وتساءلْتُ عمّا إذا كان قد تعمّد أنْ يكون فظًّا.

لا بدّ وأنْ تكونَ الفكرة نفسُها قد خطرت لكارستيرز. ارتدّ جسمُه إلى الوراء واستدار نحوي، ثمّ عاد بناظرَيْه إلى هولمز. قال: «أنا ذاهب لحضور عمل من تأليف فاغنر» – ثم سأل: «ألم يتركْ أيُّ شيء ممّا قلتُه انطباعًا لديك؟»

«على النقيض من ذلك. لقد وجدتُ ما قلتَه مثيرًا للاهتمام إلى أبعد حدّ، وعليّ أنْ أهنّئك على ما أبديتَه من وضوح واهتمام بالتفاصيل في سردك».

«والرجل ذو القلنسوة المسطّحة...».

«من الواضح أنّك تعتقد أنّه هذا المدعو كيلان أودوناهيو. تعتقد أنّه تبعك إلى إنكلترا لينال انتقامه؟»

«هل يمكن أن يكونَ هناك تفسيرٌ معقول آخر؟»

«ربّما أستطيع أنْ أذكر لك ارتجالًا ستّةَ تفسيرات. ولطالما لَفَت انتباهي أنّ أيَّ تفسير لسلسلةٍ من الأحداث يظلّ ممكنًا إلى أنْ يثبتَ العكسُ بقوّة البرهان. وحتّى لو تحقّق ذلك يتعيّن على المرء أنْ يلتزم جانبَ الحذر قبل أنْ يقفز إلى استنتاج. في حالتنا هذه، نعم، من المحتمل أنْ يكون هذا الشابّ قد عبر المحيط الأطلسي وعثر على الطريق الموصل إلى منزلك في ويمبلدون. غير أنّ في وسع المرء أنْ يتساءل أيضًا عن السبب الذي أخّره أكثر من سنة للقيام برحلته وعن غايته من دعوتك إلى لقائه في كنيسة سينت ماري. لماذا لم يطلقْ عليك النار ببساطة حيث كنتَ واقفًا لو كان هذا مراده. والأغربُ حتّى من ذلك حقيقةُ امتناعه عن الحضور».

«إنّه يحاول ترهيبي».

«وهو ينجح في ذلك».

أحنى كارستيرز رأسَه، وقال: «بالفعل. هل تقول لي يا سيّد هولمز إنّك لا تستطيع مساعدتي؟»

«لا أرى في هذا المنعطف أنّ في استطاعتي القيامَ بالكثير. وكائنًا من يكون زائرُك غير المرغوب فيه فإنّه لم يُعطِنا أيّ مؤشّر إلى طريقةٍ قد تمكّننا من العثور عليه. لكنْ، من ناحية أخرى، إذا عاود الظهور فسيسرّني أنْ أقدّمَ إليك أيَّ مساعدة أقدر عليها. لكنّ ثمّة أمرًا أخيرًا أستطيع أنْ أقولَه لك يا سيّد كارستيرز: في وسعكَ أن تستمتع بالأوبرا وأنت هانئ البال. أنا لا أظنّ أنّه ينوي إيذاءك».

لكنّ هولمز كان على خطأ. وهذا ما بدا على الأقلّ في اليوم التالي. ففي ذلك اليوم بالذات، ضرب الرجل ذو القلنسوة المسطّحة ضربتَه التالية.

3

في ريد جواي هول

وصلت البرقيةُ في صباح اليوم التالي عندما كنّا جالسَيْن معًا نتناول طعام الفطور:

أتى أودوناهيو من جديد في الليلة الماضية.

خُلِعت خزانتي الحديد وتمّ الآن استدعاء الشرطة.

هل تستطيع الحضور؟

كانت البرقية تحمل توقيع إدموند كارستيرز.

سألني هولمز وهو يرمي الورقة على الطاولة: «ما قولك في ذلك، يا واطسون؟»

أجبتُه: «ربّما عاد في وقتٍ أبكر ممّا كنتَ تظنّ».

«لا على الإطلاق. كنتُ أتوقّع شيئًا ما شبيهًا جدًّا بما حدث. لقد تراءى لي منذ البداية أنّ مَن يوصف بالرجل ذي القلنسوة المسطّحة كان مهتمًّا بمنزل كارستيرز، «ريدجواي هول»، أكثر من اهتمامه بصاحب المنزل».

سألتُ متلعثمًا: «هل كنتَ تتوقّع حدوثَ سرقة؟ لكنْ لماذا لم تحذّر السيّد كارستيرز؟ كان في وسعك على الأقلّ أنْ تشير إلى هذا الاحتمال».

«لقد سمعتَ ما قلتُه، يا واطسون. بدون إثبات إضافي، لم يكن هناك ما يمكنني أنْ أرجو تحقيقَه. لكنّ زائرنا غيرَ المرغوب فيه قرّر الآن بكرمٍ بالغ أنْ يمدَّ إلينا يدَ المساعدة. الأرجح أنّه خلع نافذة، ولا بدّ أنْ يكونَ قد مشى عبر مرجة العشب وتوقّف في مسكبةِ زهور وخلّف آثارًا موحِلة على السجّادة.

وسنعرف من ذلك، على أقلّ تقدير، طولَه ووزنَه ومهنتَه وأيّةَ خصائص أخرى قد تنطوي عليها مشيتُه. ومن المحتمل أنْ يكون قد تكرّم بإسقاطِ غرضٍ أو تركِ شيء ما خلفَه. وإذا سرقَ مجوهرات سيتعيّن عليه التصرُّف بها. وإذا أخذ مالًا فمن المحتمل أن ينكشف ذلك أيضًا. وعلى أقلّ تقدير، سيكون قد ترك أثرًا نستطيع تتبُّعَه. هل تتفضّل عليّ بتمرير طبق المربّى؟ هناك قطاراتٌ كثيرة تذهب إلى ويمبلدون. أفترض أنّك سترافقني؟»

«بالطبع يا هولمز. ما من شيء أودّه أكثر من ذلك».

«ممتاز. أتساءل في بعض الأحيان كيف سأتمكّن من العثور على الطاقة أو الإرادة اللازمتَيْن للقيام بتحقيق آخر إذا لم أكنْ واثقًا من أنّ عامّة الناس سيستطيعون قراءةَ كلّ تفصيل من تفاصيله في الوقت المناسب».

لقد اعتدتُ هذا النوعَ من التطاول وصرتُ أعتبره مؤشّرًا إلى روح الدعابة لدى صديقي، لذا امتنعتُ عن الردّ. وبعد ذلك بفترة قصيرة عندما انتهى هولمز من تدخين غليونه الصباحي، ارتدينا معطفَيْنا وغادرنا المنزل. لم تكن المسافةُ إلى ويمبلدون بعيدة، لكنّ الساعة كانت قد قاربت الحاديةَ عشرة عندما وصلنا إلى هناك، وتساءلْتُ ما إذا كان السيّد كارستيرز قد فَقَدَ الأمل تمامًا في حضورنا.

كان انطباعي الأوّل عن ريدجواي هول أنّه بمثابة درّةٍ ثمينة بين المنازل، وأنّه المنزل المثاليّ لجامع أعمالٍ فنية راقية يودّ بالتأكيد أنْ يعرض داخلَه قطعًا كثيرة لا تُقدَّر بثمن. كانت للمنزل بوّابتان، واحدة على كلّ جانب، توصلان من الطريق العام إلى دربٍ داخلي مفروش بالحصى له شكل حدوة حصان يترامى حول مرجةِ عشب مُشذَّب ويمتدّ حتّى باب المنزل. كانت كلٌّ من البوّابتَيْن مؤطّرة بعمودَيْن مُنَمَّقَيْن يحمل كلّ منهما أسدًا حجريًا رافعًا كفّه وكأنّه يحذّر الزوّار وينبّههُم إلى ضرورة التوقُّف والتفكير قبل أنْ يقرّروا الدخول. كان هناك جدارٌ واطئ بين البوّابتَيْن وقد بُني المنزلُ نفسُه على مسافةٍ معيّنة إلى الداخل، وكان من النوعِ الذي أميل إلى اعتباره فيلّا مشيّدة على الطراز الجورجيّ الكلاسيكيّ بيضاءَ اللون ومربّعةَ الشكل تمامًا، لها نوافذ أنيقة موزَّعة بترتيب متناظِر على جانبَيِ المدخل الأمامي. وقد شمل هذا

التناظُر حتّى الأشجارَ التي كانت بينها نماذجُ رائعة وقد زُرعت بشكل يبدو فيه أحدُ جانبَي الحديقة كانعكاسِ مرآةٍ للجانب الآخر. ومع ذلك، شُوِّه المنظرُ كلّه في اللحظة الأخيرة بنافورةٍ إيطالية وُضعت في غير مكانها بالرغم من أنّها كانت جميلةً بحدّ ذاتها، لها تماثيلُ لكيوبيد ودلافين لاهية فوق الحجر، ونورُ الشمس يلتمع على طبقة رقيقة من الجليد. لكنّها أخلّت، إلى حدّ ما، بتناسُق المكان. كان من المستحيل أنْ يشاهد المرءُ النافورةَ بدون أنْ يتمنّى أنْ يحملَها وأنْ ينقلَها مسافةَ ذراعَيْن أو ثلاث إلى اليسار.

تبيّن لنا أنّ الشرطة قد حضرت وغادرت، وقد فتح لنا بابَ البيت خادمٌ أنيقُ الملبس عابسُ الوجه. سار أمامنا عبر رواقٍ عريض تكتنفه غرفٌ على الجانبَيْن. ازدانت الجدرانُ بلوحاتٍ وطبعاتٍ فنية ومرايا ومطرّزات أثرية، وكان على طاولةٍ صغيرة مقوّسة الأرجل تمثالٌ لصبيٍّ راعٍ متّكئٍ على عصاه. وانتصبت، على الجانب القصيّ، ساعةٌ جميلة ذات إطار عالٍ يختلط فيه اللونان الأبيض والذهبيّ، وكان صدى وقعِ تكّاتها يتردّد في أرجاء المنزل. دُعينا إلى دخولِ غرفة الاستقبال حيثُ كان كارستيرز جالسًا على كرسيّ استرخاء يتحدّثُ إلى امرأة تصغره سنواتٍ قليلة. كان يرتدي سترةً طويلةً سوداء وصدريةً فضّيةَ اللون وحذاءً من الجلد اللمّاع، وكان شعره مسرّحًا بعناية إلى الخلف، وبدا للناظر وكأنّه خسر للتوّ لعبةَ بريدج لا أكثر. كان من الصعب على المرء أنْ يصدّق أنّ أمرًا ذا بال قد حدث له. غير أنّه قفز واقفًا على قدميه لحظةَ رآنا.

«إذًا، لقد حضرتما! لقد قلتَ لي أمس، يا سيّد هولمز، إنّ لا سببَ يدفعني إلى الخوف من الرجل الذي أظنّه كيلان أودوناهيو. ومع ذلك، اقتحمَ هذا المنزلَ في الليلة الماضية وسرق خمسين جنيهًا ومجوهراتٍ من خزانتي الحديد. ولو لم تكن زوجتي خفيفةَ النوم وفاجأته أثناء ارتكابه السرقة، مَنْ يعلم ماذا كان سيفعل بعد ذلك؟»

وجّهتُ انتباهي نحو السيّدة التي كانت جالسةً إلى جانبه. كانت امرأةً صغيرةَ الجسم وجذّابةً جدًّا في حوالى الثلاثين من عمرها. وقد بهرتْني فورًا بوجهها المشرِق الذكيّ وسيماءِ ثقتِها بنفسها. كان شعرها فاتحَ اللون ومسرّحًا

إلى الوراء ومشبوكًا كعقدة في طراز بدا مُصمَّمًا لإبراز ما في ملامحها من أناقة وأنوثة. وبالرغم من إنذارات ذلك الصباح، حزرتُ أنّ لديها حسَّ دعابة وسرعةَ بديهة لأنّ ذلك كان باديًا على عينيها المُظلَّلتَيْن بلونٍ عجيب يتراوح بين الأخضر والأزرق وعلى شفتيها اللتَيْن ظلّتا على وشك الإفترار عن ابتسامة بين وجنتَيْن عليهما نمشٌ قليل. كانت ترتدي ثوبًا بسيطًا ذا كمَّيْن طويلَيْن بدون تطريز وأشرطةِ زينة، وحولَ جيدها عقدٌ طويلٌ من اللؤلؤ. كان في مظهرِها شيءٌ ما ذكّرني فورًا تقريبًا بزوجتي العزيزة ماري. وكنتُ متأكّدًا حتّى قبل أنْ تتكلّم من أنّها تتحلّى بذات الشخصية وباستقلالية طبيعية بالرغم من امتلاكها حسًّا عميقًا بالواجب إزاء الرجل الذي اختارت أنْ تتزوّجه.

قال هولمز: «ربّما ينبغي أنْ تبدأ بعملية التعارُف».

«بالطبع. هذه زوجتي كاثرين».

«وأنتَ لا بدَّ وأنْ تكون السيّد شرلوك هولمز. أنا ممتنّةٌ جدًّا لك على استجابتك لبرقيّتنا بهذه السرعة. أنا التي طلبتُ إلى إدموند أنْ يرسلَها وقلتُ له إنّك ستأتي».

قال هولمز: «فهمتُ أنّكِ مررتِ بتجربةٍ مزعجة جدًّا».

«نعم في الواقع. الأمرُ هو كما أخبرك زوجي. تنبّهتُ من نومي في الليلة الماضية ورأيتُ من ساعة الحائط أنّ الوقتَ كان الثالثة وعشرين دقيقة. كان البدرُ يشعّ بكامل نوره عبر النافذة وظننتُ في بادئ الأمر أنّ ما أيقظني كان عصفورًا أو بومة، لكنّي سمعتُ بعد ذلك صوتًا آخر آتيًا من داخل المنزل وعرفتُ أنّني أخطأتُ الظنّ. نهضتُ من فراشي وارتديتُ معطفًا منزليًا ونزلتُ إلى الطابق الأرضي».

قال كارستيرز: «ما فعلتِه، يا عزيزتي، كان تهوُّرًا. كان من المحتمل أنْ تُصابي بأذى».

«لم أعتبر نفسي معرَّضةً لأيّ خطر. وأقول بصدق إنّه لم يخطر ببالي حتّى أنّ شخصًا غريبًا قد يكون في المنزل. ظننتُ أنّ ذلك قد يكون السيّد أو السيّدة كيربي – أو حتّى باتريك. وكما تعلم، أنا لا أثقُ كثيرًا بهذا الفتى. ومهما يكن من أمره، نظرتُ لبرهةٍ داخلَ غرفة الاستقبال ولم يكن هناك شيء خارجٌ عن المألوف. بعد ذلك، انجذبتُ لسببٍ ما إلى غرفة المكتب».

سألها هولمز: «ألم تحملي معك أيَّ إنارة؟»

«كلّا. كان ضوءُ البدر كافيًا. فتحتُ الباب وكان هناك طيفٌ، شكلُ إنسان متّكئٌ على حافّة النافذة وفي يده شيءٌ ما. رآني. وتجمّد كلانا وجهًا لوجه وبيننا السجّادة. بدايةً لم أصرخ. كنتُ مصدومة. ثمّ بدا وكأنّه سقط إلى الخلف ببساطة عبر النافذة وهبط فوق العشب، في تلك اللحظة، أفقتُ من غشيتي وأطلقت صيحةَ التحذير».

قال هولمز: «سنفحص الخزانةَ الحديد وغرفةَ المكتب بعد قليل. لكنْ قبل أنْ نفعلَ ذلك، يا سيّدة كارستيرز، أستطيع أنْ أقولَ لك إنّك أميركية كما يتّضح من لهجتك. هل أنتما متزوّجان منذ وقت طويل؟»

«إدموندو وأنا متزوّجان منذ ما يقرب من سنة ونصف سنة».

قال كارستيرز: «كان ينبغي أنْ أشرح لك كيف التقيتُ كاثرين لأنَّ لذلك ارتباطًا قويًا جدًّا بالقصّة التي رويتُها لك أمس. والسببُ الوحيد لامتناعي عن ذلك كان اعتقادي بعدم وجود صلةٍ كهذه».

قال هولمز معلّقًا: «هناك صلةٌ لكلّ شيء. وكثيرًا ما تبيّن لي أنّ الناحيةَ الأقلَّ اعتبارًا لقضية ما قد تكون في الوقت ذاته الأعظمَ أهمّية».

قالت كاثرين كارستيرز: «التقينا على متن السفينة كاتالونيا يومَ إبحارِها من بوسطن». مدّت ذراعَها وأمسكت بيد زوجها وتابعتْ قائلة: «كنتُ أسافر وحدي، طبعًا باستثناء فتاة وظّفتُها كمرافقةٍ لي. شاهدتُ إدموندو عندما صعد إلى السفينة وأدركتُ فورًا أنّ شيئًا رهيبًا قد حدث، كان ذلك باديًا على وجهه والخوفِ الماثلِ في عينَيْه. تقاطع طريقانا على سطح السفينة في ذلك المساء. كان كلانا بمفرده، وشاء حسنُ الطالع أنْ نجد نفسَيْنا جالسَيْن جنبًا إلى جنب على مائدة العشاء».

تابع كارستيرز سرد الرواية فقال: «لا أعلم كيف كنتُ سأتحمّل رحلةَ عبور المحيط لو لم تكن كاثرين هناك. لقد كنتُ دائمًا عصبيَّ الطباع، وقد تكاثرتْ عليّ الأحداث وفاقت قدرتي على التحمُّل، من فقدان اللوحات إلى موتِ كورنيليوس ستيلمان وأعمال العنف المخيفة... اعتلّت صحّتي جدّيًا وانتابتْني حمّى. لكنّ كاثرين اعتنتْ بي منذ البداية ووجدتُ أحاسيسي

تتنامى تجاهها حتّى قبل أنْ يختفي ساحلُ أميركا ورائي. وعليّ أنْ أقول، يا سيّد هولمز، إنّني كنتُ أسخر دائمًا من فكرة الحبّ من أوّل نظرة التي قد أكون قرأتُ عنها في قصصٍ رخيصة ولم أصدّقها أبدًا. لكنّ هذا ما حدث لي، وعندما وصلنا إلى إنكلترا أدركتُ أنّني وجدتُ المرأةَ التي أريد أنْ أُمضي معها بقيّة عمري».

استدار هولمز نحو الزوجة، وقال: «هل لي أنْ أسألكِ عن سبب زيارتك لإنكلترا؟»

«كنتُ متزوّجةً لفترة قصيرة في شيكاغو، يا سيّد هولمز. كان زوجي يعمل في قطاع العقارات، لكنّه لم يكن أبدًا ودودًا معي بالرغم من تمتُّعه باحترام كبير في المجتمع لجهة عمله ومن مواظبته على الذهاب إلى الكنيسة. كان رهيبَ المزاج، وكانت هناك مرّات خفتُ فيها حتّى على سلامتي. لم يكن لي إلّا أصدقاءُ قليلون، وقد فعل هو كلَّ ما في وسعِه لإبقاء هذا الوضع على حاله. وفي الأشهر الأخيرة من زواجنا، عمَدَ فعلًا إلى سجني داخل البيت، ربّما لخوفه من احتمال أنْ أتكلّم ضدّه. لكنّه سرعان ما أُصيب بمرض السلّ وفارق الحياة، ومن المؤسف أنّ شقيقتَيْه ورثتا منزله ومعظمَ ثروته وبقيتُ أنا لا أملك إلّا قليلًا من المال ولا أصدقاءَ لي ولا سببَ يجعلني أريدُ البقاءَ في أميركا، فرحلْتُ. كنتُ آتيةً إلى إنكلترا من أجلِ بداية جديدة».

نظرتْ إلى أسفل، وأضافت قائلةً بلهجةٍ متواضعة: «لم أتوقّع أنْ أحصل على البداية الجديدة بهذه السرعة وأنْ أعثر على السعادة التي طالما افتقدتُها في حياتي».

قال هولمز: «ذكرتِ أنّ رفيقةَ سفرٍ كانت معك على السفينة كاتالونيا».

«لقد وظّفتُها في بوسطن. لم أكن قد التقيتُها من قبل – ثم تركتْ عملَها لديّ بعد وصولنا بفترة قصيرة».

دقّت الساعة الكبيرة في الممرّ الخارجي معلنةً اكتمال ستّين دقيقة، ووثب هولمز منتصبًا على قدميه وقد ارتسمت ابتسامةٌ على شفتَيه وتملّكته اندفاعةُ طاقةٍ وإثارة أعرفهما حقّ المعرفة، وصاح قائلًا: «لا يجوز أنْ نُضيعَ مزيدًا من الوقت! أريد أن أفحص الخزانةَ الحديد والغرفة التي توجد فيها.

تقول إنّ خمسين جنيهًا أُخِذت، وهذا ليس مبلغًا كبيرًا بالنظر إلى كلّ ما حدث. لِنَرَ ما ترك السارقُ خلفَه، إنْ يكن ترك أيّ شيء».

لكنّ امرأةً أخرى دخلت إلى الغرفة قبل أنْ نتمكّن من القيام بأيّ حركة، ولاحظتُ فورًا أنّها، بالرغم من انتمائها إلى أهلِ المنزل، كانت مختلفةً عن كاثرين كارستيرز إلى أقصى درجة يمكن تخيُّلُها. كانت بسيطةَ المظهر متجَهِّمة الوجه رماديةَ الملبس ولها شعرٌ داكنُ اللون معقودٌ بإحكام خلفَ عنقها وتعلّق صليبًا فضّيًا، كانت يداها متشابكتَيْن كما في الصلاة. استنتجتُ من عينَيْها الداكنتَيْن وبشرتها الشاحبة وشكلِ شفتَيْها أنّها لا بدّ وأنْ تمتّ بصلة قرابة إلى كارستيرز. لم يبدُ عليها أيُّ تكلُّف مسرحيّ على شاكلته، بل كانت أشبهَ بمُلَقِّنةِ مسرح قابعةٍ في الظلّ أبدًا في انتظار أنْ ينسى كلماتِ نصّه.

سألتْ بلهجة صارمة: «ماذا الآن؟ في البدء أزعجني ضبّاط الشرطة في غرفتي وطرحوا عليّ أسئلةً سخيفة لا يمكنني أنْ أعرف إجاباتٍ عنها. ألم يكنْ ذلك كافيًا؟ هل سندعو العالمَ أجمع لانتهاك خصوصيّتنا؟»

قال كارستيرز متأنّيًا: «هذا السيّد هو شرلوك هولمز يا إليزا، وقد أخبرتُك أنّني استشرته يوم أمس».

«ويا للنفعِ الذي جنيتَه من ذلك. ليس هنالك ما يستطيع القيامَ به. هذا ما قاله لك، وكلّي ثقة يا إدموندو بأنّها استشارةٌ رائعة. كان من الممكن أنْ نُقتَل جميعًا في أسرّتنا».

نظر كارستيرز إليها نظرةً حانية لم تخلُ من الاستياء في الوقت ذاته، وقال: «هذه شقيقتي إليزا».

سألها هولمز: «هل تقيمين في هذا المنزل؟»

قالت الشقيقة مجيبةً: «نعم. يتحمّلون وجودي هنا. لي غرفةٌ في العلّيّة حيث أنفرد بنفسي، ويبدو أنّ الجميع يفضّلون أنْ تكون الأمور هكذا. أنا أقيم هنا لكنّني لستُ جزءًا من هذه العائلة. وتستطيع أنْ تتكلّم مع الخدم بقدر ما تستطيع أنْ تكلّمني».

قالت السيّدة كارستيرز: «أنتِ تعلمين أنّ هذا الكلام ليس منصِفًا، يا إليزا».

استدار هولمز إلى كارستيرز، وقال: «لعلّ في استطاعتك أنْ تبلّغني عددَ الأشخاص المقيمين في المنزل».

«بالإضافة إلى نفسي وكاثرين، هناك إليزا التي تشغل بالفعل الطابق العلوي. ولدينا كيربي الخادم المولج بجميع الأعمال. إنّه هو الذي استقبلكما. وتعمل زوجتُه كمدبّرة منزل وهما يقيمان في الطابق الأرضي، ولهما نسيبٌ شابٌ اسمه باتريك أتى حديثًا من إيرلندا ويعمل كصبيّ مطبخ ويؤدّي واجبات مختلفة. هناك أيضًا خادمةٌ للغسيل اسمُها إلزي. لدينا كذلك حوذيّ وسائسُ خيل، لكنّهما يقيمان في القرية».

علّق هولمز قائلًا: «أسرةٌ كبيرة وكثيرةُ المشاغل. لكنْ كنّا على وشك فحص الخزانة الحديد».

بقيتْ إليزا كارستيرز في مكانها، وخرج بقيّتُنا من غرفة الجلوس، وعبرنا الممرّ، ودخلنا إلى مكتب كارستيرز الواقع في آخر الجهة الخلفية من المنزل والمطلّ على الحديقة وتُشاهد منه على مسافة بركةٌ زينة. كان المكتبُ غرفةً مريحة أنيقةَ الفرش، فيها طاولةُ كتابة أمام نافذتَين لهما ستائر مخمليّة، وفيها مدفأةٌ جميلة ولوحاتٌ لمناظرَ طبيعية أدركْتُ من ألوانِها الوضّاءة وأصباغها المنثورة بشكل يكاد يكون عشوائيًا أنّها تنتمي بالتأكيد إلى المدرسة الانطباعيّة التي تحدّث عنها كارستيرز. وكانت الخزانةُ الحديد المتينة المركونة في إحدى الزوايا لا تزال مفتوحة.

سأل هولمز: «هل وجدتَها على هذه الحال؟»

أجاب كارستيرز: «لقد فَحصتْها الشرطة. لكنّي شعرتُ بأنّ من الأفضل أنْ أتركَها مفتوحة إلى أنْ تحضرَ أنت».

قال هولمز: «لقد أصبت». نظر إلى الخزانة، وأضاف ملاحظًا: «لا يبدو أنّ القفل قد خُلع، ومن شأن ذلك أنْ يشير إلى أنّ مفتاحًا قد استُعمِل».

قال كارستيرز معقّبًا: «كان هناك مفتاحٌ واحدٌ فقط أحتفظُ به معي طول الوقت مع أنّني طلبت إلى كيربي أنْ يوصي على صنعِ نسخةٍ منه قبل حوالى ستّة أشهر. وبما أنّ كاثرين تحتفظ بمجوهراتها في الخزانة شَعَرتُ بأنّ من الضروري أنْ يكون لها مفتاحٌ خاصٌ بها عندما أكون أنا مسافرًا – وأنا ما زلتُ أسافر لحضور مزادات في مختلف أنحاء البلاد وفي أوروبا أحيانًا».

تبعتْنا السيّدة كارستيرز إلى الغرفة ووقفت إلى جانب طاولة الكتابة. ضمّت يديها معًا، وقالت: «لقد أضعتُه».

«متى كان ذلك؟»

«لا أستطيع أنْ أقولَ ذلك بالتحديد في واقع الأمر، يا سيّد هولمز. ربّما أضعتُه قبل شهر، وربّما أبكر من ذلك. إدموند وأنا ناقشنا الموضوع. أردتُ أنْ أفتح الخزانة قبل أسابيع قليلة ولم أستطع العثور على المفتاح. كانت آخرُ مرّةٍ استعملتُه فيها يومَ عيد ميلادي، أيّ في شهر آب (أغسطس). ليست لديّ أيّ فكرة عمّا حدث له بعد ذلك. وأنا لستُ مهمِلةً إلى هذه الدرجةِ عادةً».

«هل من الممكن أنْ يكون قد سُرِق؟»

«كنتُ أحتفظُ به في درجٍ قرب سريري ولا أحد يدخل إلى هذه الغرفة باستثناء الخدم. وعلى حدِّ علمي، لم يخرج المفتاحُ من هذا المنزل أبدًا».

استدار هولمز إلى كارستيرز، وقال له: «أنتَ لم تستبدل الخزانةَ الحديد».

«كنتُ أفكّر في ذلك طول الوقت، لكنْ خطر لي أنّه إذا كان المفتاح قد سقط بطريقة ما في الحديقة أو حتّى في القرية، فليس من الممكن أنْ يعرفَ مَن يعثر عليه ماذا يفتح. أما إذا كان متواريًا في مكانٍ ما بين حاجات زوجتي، وهذا الاحتمالُ هو الأرجح، فمن المستبعد أنْ يقع في الأيدي الخطأ. في أيّ حال، لا نستطيع أنْ نجزم أنّ مفتاح زوجتي هو الذي استُعمِل لفتح الخزانة، ومن الممكن أنْ يكونَ كيربي قد أوصى بصنع نسخة ثانية.

«كم مضى عليه في خدمتك؟»

«ستّ سنوات».

«ألم تكن لديك أسبابٌ للشكوى منه؟»

«كلّا. أبدًا».

«ماذا عن صبيّ المطبخ هذا المدعو باتريك؟ تقول زوجتُك إنّها لا تثق به».

«زوجتي لا تحبّه لأنّه وقح، وفي وسعه أنْ يكونَ ماكرًا إلى حدٍّ ما في بعض الأحيان. وهو معنا منذُ أشهرٍ قليلة فقط ولم نوظّفه إلّا إكرامًا للسيّدة كيربي التي طلبت إلينا أنْ نساعدَه على إيجاد عمل، وهي ستشهد لمصلحته. وليس هناك سببٌ يدفعني إلى الشكّ في أمانته».

كان هولمز قد أخرج عدستَه المكبّرة، وبدأ يفحص الخزانة الحديد، موجّهًا اهتمامًا خاصًا إلى القفل. قال: «ذكرتَ أنّ بعض المجوهرات سُرِقت. هل كانت هذه ملكًا لزوجتك؟»

«كلّا. ما سُرِقَ في الواقع عقدٌ من الياقوت الأزرق كان ملكًا لوالدتي المتوفّاة. كان يضمّ ثلاثةَ عناقيد من أحجار الياقوت الأزرق في إطار ذهبيّ. أعتقد أنّ قيمتَه المالية لن تكون كبيرة بالنسبة إلى اللصّ، لكنّه كان ذا قيمة عاطفية كبيرة بالنسبة إليّ. كانت تقيم معنا هنا حتّى أشهرٍ قليلة مضت عندما...». توقّف عن الكلام وذهبت زوجتُه إليه ووضَعت يدَها على ذراعه، وقالت: «وقَعَ حادثٌ، يا سيّد هولمز. كانت لديها مدفأةُ غاز في غرفة نومها وقد انطفأت الشعلةُ لسببٍ ما، فماتت اختناقًا في نومها».

«هل كانت مسنّةً جدًّا؟»

«كانت في التاسعة والستّين من عمرها. كانت تنام دائمًا ونافذةُ غرفتها مُغلَقة، حتّى في الصيف. ولو كانت النافذةُ مفتوحةً لربّما نجت».

ابتعد هولمز عن الخزانة الحديد وتوجّه إلى النافذة. انضممتُ إليه هناك فيما كان يفحص عارضةَ النافذة ووشاحَ زجاجها وإطارَها. وعلى عادته كان يُدلي بملاحظاته بصوتٍ مسموع – وليس لفائدتي أنا. بدأ كلامه قائلًا: «لا توجد درفةٌ خشبية. النافذةُ متضرّرة على ارتفاع ما فوقَ الأرض. من الواضح أنّها فُتِحت عنوةً من الخارج. الخشبُ متشظٍّ، ما قد يفسّر مصدرَ الصوت الذي سمعَتْه السيّدة كارستيرز». بدا هولمز وكأنّه يقوم بعملية حسابية. أضاف قائلًا: «أودُّ، إذا سمحتَ لي، أنْ أتحدّث إلى خادمِكَ كيربي. وبعد ذلك، سأسير في الحديقة بالرغم من ظنّي أنّ رجال الشرطة المحلية داسوا بأقدامهم أيَّ شيء كان من شأنه أنْ يوفّر لي دليلًا على ما حدث. هل أعطوك أيَّ فكرة عن خطّ التحقيق الذي يتبعونه؟»

«لقد عاد المفتّش لستراد وتحدّث إلينا قبل وصولكما بفترة قصيرة».

«ماذا؟ لستراد؟ هو كان هنا؟»

«نعم. ومهما يكن رأيُك فيه، يا سيّد هولمز، فقد لَفَتني كرجل دقيق وكفؤ. وكان قد تحقّق فعلًا من أنّ رجلًا ذا لهجة أميركية استقلّ أوّلَ قطار من

ويمبلدون إلى محطة جسر لندن في الساعة الخامسة من صباح هذا اليوم. واستنادًا إلى هيئة ملابسه وندب خدّه الأيمن، نحن واثقون بأنّه الرجل نفسُه الذي شاهدتُه خارج منزلي».

«أستطيع أنْ أؤكّد لك أنّه إذا كان لستراد معنيًّا بالتحقيق، ففي وسعك أن تكون واثقًا بأنّه سيتوصّل إلى استنتاج بسرعة كبيرة، حتّى لو كان استنتاجُه خاطئًا تمامًا! أتمنّى لك يومًا طيّبًا، يا سيّد كارستيرز. سعدتُ بلقائكِ، يا سيّدة كارستيرز. تعالَ يا واطسون...».

عدنا أدراجنا عبر الممرّ إلى الباب الرئيسي حيث كان كيربي في انتظارنا. لم يكن كيربي مسرورًا بزيارتنا عندما وصلنا إلى المنزل من قبل، وربّما كان سببُ ذلك أنّه اعتبر وجودَنا معطّلًا لحُسنِ تسيير الشؤون المنزلية. ظلّ متجهّم الوجه وباديَ الاستياء وغيرَ راغب في النطق بأكثر من الكلمات الضرورية حقًّا، لكنّه أصبح الآن أكثرَ انفتاحًا إلى حدٍّ ما على الأقلّ، فيما كان يجيب عن أسئلة هولمز. أكّد أنّه يعمل في ريدجواي هول منذ ستّ سنوات، وقال إنّه من بارنستابل أصلًا وإنّ زوجتَه من بلفاست. سأله هولمز ما إذا كان المنزل قد تغيّر كثيرًا خلال فترة عمله هناك.

أتاه الجواب: «نعم بالتأكيد يا سيّدي. كانت السيّدة كارستيرز الأمّ صارمةً جدًّا في طباعها. كانت لتُخبركَ بالتأكيد لو لم يُعجِبْها أيُّ شيء. أما السيّدة كارستيرز الجديدة فمختلفةٌ عنها كلّ الاختلاف، وهي مرحةٌ جدًّا في طباعها، وتعتبرُها زوجتي نسمةَ هواء منعشة».

«هل أسعدكما زواجُ السيّد كارستيرز؟»

«لقد ابتهجنا يا سيّدي، كما دُهشنا أيضًا».

«دُهِشتما؟»

«لا أرغب في الحديث عن شؤونٍ لا تعنيني يا سيّدي، لكنّ السيّد كارستيرز لم يكن يهتمّ بمثل هذه الأمور في الماضي لانشغاله التام بعائلته وعمله إلى أنْ أطلّت السيّدة كارستيرز على المشهد بصورة مفاجئة، لكنّنا متّفقون جميعًا على أنّ المنزلَ أصبح أفضل حالًا بعد ذلك».

«هل كنتَ موجودًا عندما توفّيت السيّدة كارستيرز الأمّ؟»

«نعم، بالفعل، يا سيّدي. وأنا ألوم نفسي جزئيًا. كانت السيّدة تخشى كثيرًا التيّاراتِ الهوائية، ونتيجةً لذلك سدَدْتُ أنا كلّ فتحةٍ قد يدخل منها الهواء إلى الغرفة بناءً على إلحاحها. لهذا السبب، لم يكن هناك أيُّ مسرب يخرج منه الغاز. وكانت الخادمة إلزي مَنْ عثر عليها في الصباح. بحلول ذلك الوقت، كانت الغرفة مليئةً بالأبخرة – كان الأمر رهيبًا حقًّا».

«هل كان صبيُّ المطبخ باتريك موجودًا في المنزل آنذاك؟»

«كان باتريك قد وصل قبل ذلك بأسبوع واحد فقط. كانت تلك بدايةً مشؤومة».

«إنّه نسيبُك، كما فهمت».

«نعم يا سيّدي، لجهة زوجتي».

«من بلفاست؟»

«في الواقع نعم. لم يكن سهلًا على باتريك أنْ يعمل كخادم. كنّا نرجو أنْ نوفّر له بدايةً موفّقة في الحياة، لكنْ ما زال عليه أنْ يتعلّم السلوكَ الصحيح لشخصٍ في وظيفته، لا سيّما طريقة مخاطبة سيّد المنزل. ومن المحتمل جدًّا أنْ تكون الفاجعةُ المبكّرة التي تكلّمنا عليها والبلبلة التي أعقبتْها مسؤولتَيْن عن ذلك بشكل ما. إنّه ليس شابًّا سيّئًا إلى هذه الدرجة، وأرجو أن يصطلح أمره مع الوقت».

«شكرًا، يا كيربي».

«هذا من دواعي سروري، يا سيّدي. لقد أحضرت معطفك وقفّازيْك...».

بعد خروجنا إلى الحديقة، أظهر هولمز أنّه كان في مزاجٍ مرحٍ إلى درجةٍ غير عادية. سار على العشب بخطواتٍ واسعة رشيقة، وهو يستنشق نسيم الأصيل مستمتعًا بابتعاده عن المدينة لفترةٍ قصيرة، خاصّةً وأنّ أيًّا من غلالات الضباب في شارع بيكر ستريت لم تلحق بنا إلى هنا. وكانت في ويمبلدون، آنذاك، مناطقُ لا تزال ريفيّةَ الطابع تمامًا. كان في وسعنا أن نرى خرافًا متجمّعة على سفح هضبة قرب مجموعةٍ من أشجار السنديان العتيقة. كانت هناك بيوتٌ قليلة متباعدة حولنا، وأُخِذنا بالسكونِ المخيّم على الطبيعة وبالنوعيّةِ العجيبة للضوءِ الذي كان يُبرِز كلَّ شيء بوضوح شديد. قال هولمز

بصوتٍ قويّ ونحن نسير نحو الدرب: «هذه قضيّةٌ خارجةٌ عن المألوف تمامًا، ألا تظنّ ذلك؟»

أجبتُه: «تبدو لي هذه القضيّة عاديّةً إلى حدٍّ بعيد. لقد سُرِق مبلغُ خمسين جنيهًا وعقدٌ قديم، ولا أستطيع أنْ أعتبر هذه السرقة القضيّةَ الأكثر تحدّيًا لك، يا هولمز».

«أنا أعتبر العقدَ مثيرًا للاهتمام بصورةٍ خاصّة بالنظر إلى كلّ ما سمعناه عن هذه الأسرة. هل توصّلتَ أنتَ إلى الحلّ إذًا؟»

«أميلُ إلى افتراضِ أنّ كلَّ شيء يتوقّف على ما إذا كان الزائرُ غير المرغوب فيه لهذا المنزل هو في الواقع الشقيقَ التوأم من بوسطن».

«وإذا ضمنتُ لك بصورة مؤكّدة تمامًا تقريبًا أنّه لم يكن الشقيقَ التوأم؟»

«في هذه الحالة سأقول إنّك توقعني في حيرةٍ كاملة، وليس للمرّة الأولى».

«صديقي العزيز واطسون، ما أحسنَ أنْ تكون إلى جانبي، لكنّي أعتقد أنّ هذا هو المكانُ الذي أتى منه الدخيل في الليلة الماضية...». كنّا قد وصلنا إلى آخر الحديقة حيث يلتقي الدرب المدخل مقابل مشاع القرية على الجانب الآخر. وقد أوجَدَ استمرارُ الطقس البارد والاعتناءُ الدقيق بمرجة العشب رقعةً مثالية انطبعت وتجمّدت عليها فعلًا جميعُ آثار تحرّكاتِ الجيئة والذهاب التي جرت في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة. قال هولمز: «إنْ لم أكن مخطئًا. ها هُنا قد مشى لستراد الدقيق والكفؤ». كانت هناك آثارُ أقدام في كلّ مكانٍ حولنا، لكنّ هولمز أشار إلى مجموعة واحدة منها بصورة خاصّة.

«ليس من الممكن أنْ تعرفَ أنّ هذه آثارُ قدمَيْه».

«لا؟ إنّ مسافةَ الخطوة تشير إلى أنّ صاحبها رجلٌ يبلغ طوله حوالى خمسة أقدام وستّة إنشات، وهو طول لستراد. كان يرتدي جزمةً مربّعةَ المقدّمة مثلَ التي رأيتُها على قدميه مرّات عديدة. لكنّ الإثباتَ الأقوى هو أنّ هذه الآثار تتّجه إلى الناحية الخاطئة بحيث فَوّتَ صاحبُها كلَّ شيء هامٍّ – ومن يمكن أنْ يكونَ هذا الشخص إلّا لستراد؟ لقد دخل وخرج من البوّابة اليمنى كما سترى. وهذا خيار طبيعيّ تمامًا لأنّها أوّلُ بوّابة تصل إليها عندما تقتربُ من المنزل. لكنْ من المؤكّد أنّ اللصّ دخل من الجانب الآخر».

«تبدو لي البوّابتان متماثلتَيْن، يا هولمز».

«البوّابتان متماثلتان بالفعل، لكنّ البوّابةَ اليسرى أقلُّ انكشافًا بسبب موضع النافورة. ولو كنتَ تقترب من المنزل ولا تريد أنْ يراك أحد فسوف تختار هذه البوّابة. وكما ستلاحظ ليست لدينا هنا إلّا مجموعةٌ واحدة من آثار الأقدام يجدر بنا الاهتمام بها. ها، ماذا لدينا هنا؟» انحنى هولمز والتقط عقب سيجارة أراني إيّاه. «سيجارة أميركية، يا واطسون. لا يمكن إخطاء نوع التبغ، وستلاحظ أنّه لا يوجد أيُّ رماد في المنطقة المحيطة بنا مباشرةً».

«عقب سيجارة ولكن لا رماد؟»

«هذا يعني أنّه، بالرغم من التزامِه الحذَر كي لا يُشاهد، لم يلبث هنا طويلًا. ألا تجد ذلك مثيرًا للاهتمام؟»

«كان الوقتُ منتصفَ الليل، يا هولمز. وقد استطاع أنْ يرى أنّ المنزلَ غارقًا في الظلام. لم يكن خائفًا من أنْ يلاحظه أحد».

«ومع ذلك...». تتبّعنا آثار الأقدام على امتداد مرجة العشب وحول جانب المنزل لجهة غرفة المكتب. «لقد سارَ بخطوات رتيبة، وكان في استطاعته أنْ يتوقّف عنه النافورة ليتأكّد من سلامة وضعه، لكنّه فضّل عدمَ القيام بذلك». تفحّص هولمز النافذة التي سبق وفحصناها من الداخل. قال: «لا بدّ وأنْ يكون رجلًا قويًّا إلى درجة غير عادية».

«الأرجح أنّ فتحَ النافذة عنوةً لم يكن صعبًا جدًّا».

«هذا صحيح فعلًا، يا واطسون. لكنْ فكِّرْ في ارتفاع النافذة، تستطيع أنْ ترى الموضعَ الذي قفز منه إلى أسفل عندما انتهى. لقد ترك طبعتَيْن عميقتين في العشب، لكنْ لا يوجد أثرٌ لسلّم ولا حتّى لمقعد حديقة. ومن المحتمل على الأقلّ أنْ يكون قد وجد موطئًا لأصابع قدمَيْه على الحائط، فالمِلاط رخْوٌ وهناك حوافٌ مكشوفة. ومع ذلك، كان عليه أنْ يستخدم إحدى يديه للتمسّك بعتبة النافذة فيما فتح النافذة عنوةً بيده الأخرى. وعلينا أيضًا أنْ نتساءل عمّا إذا كانت المصادفةُ هي التي جعلته يختار اقتحامَ الغرفة التي تضمّ الخزانة الحديد دون سواها».

«أليسَ من المؤكّد أنّه أتى ملتفًّا حول الجهة الخلفية للمنزل لأنّها أكثر تواريًا فيقلّ احتمالُ انكشافِ أمره؟ ثم اختار إحدى النوافذ عشوائيًا».

كان هولمز قد أنهى الفحص، وقال معقّبًا: «لو صحّ ما تقول لكان الرجل محظوظًا جدًّا. لكنّ الواقع هو عينُ ما رجوتُه أنا، يا واطسون. لن يكون من الصعب تتبّع أثرِ عقدٍ يضمّ ثلاث مجموعات من الياقوت الأزرق في إطار ذهبيّ، ومن الضروري أنْ يقودَنا ذلك مباشرةً إلى الرجل الذي نبحث عنه. لقد أكّد لستراد على الأقلّ أنّ الرجلَ استقلّ القطار المتوجّهَ إلى جسر لندن. وعلينا أن نفعلَ الشيءَ ذاتَه. محطّةُ القطار ليست بعيدة والطقس جميل اليوم. نستطيع أنْ نمشي».

سرنا عبر الجهة الأمامية للمنزل على درب المدخل، وقبل وصولنا إلى الطريق، فُتِح الباب الأماميّ لريدجواي هول وخرجَتْ منه امرأةٌ بخطًى سريعة وتوقّفت أمامنا. كانت إليزا كارستيرز شقيقة تاجر الأعمال الفنية. كانت قد غطّت كتفَيْها بوشاح أمسكت به أمام صدرها، وبدا من ملامحها ونظراتِ عينَيْها وخصلاتِ شعرها الداكن المتطايرة حول جبينها أنّها كانت مذعورة.

صاحت: «يا سيّد هولمز!»

«آنسة كارستيرز».

«لقد كنتُ فظّةً معك في الداخل وأطلب منك أنْ تسامحني على ذلك. لكنّ عليّ أنْ أخبرك بأنّ لا شيءَ هو في حقيقته كما يبدو، وما لم تساعدنا وما لم تتمكّنْ من رفع اللعنة المسلّطة على هذا المكان، سنواجه جميعُنا مصيرًا مشؤومًا».

«أتوسّل إليك يا آنسة كارستيرز أن تتمالكي نفسك».

«هي السببُ في هذا كلّه!» رفعتِ الشقيقةُ إصبعَ اتهام وأشارت بها نحو المنزل. «كاثرين ماريات – هذا كان اسمها في زواجها الأوّل. التقت إدموند وهو في أسوأ حالة نفسية. ولطالما كان حسّاسًا بطبعه، حتّى عندما كان صبيًّا. وكان من المحتّم أنْ تعجز أعصابُه عن تحمُّل المعاناة التي مرّ بها في بوسطن. كان منهكًا وضعيفًا – أجل – وفي حاجةٍ إلى مَن يعتني به. وهكذا رمت نفسَها عليه. بأيّ حق فعلتْ ذلك، وهي نكرةٌ أميركية تكاد لا تملك أيّ

مال؟ بعيدًا في البحر ولأيّام على متن سفينة نسجت شِباكَها حولَه بحيث كان الوقتُ قد فات عندما عادَ إلى الدار. لقد عجزنا عن إقناعِه بتغيير رأيه».

«كنتِ أنتِ ستعتنين به».

«أحبّه كما لا يمكن إلّا لأختٍ أنْ تحبّ. كذلك أمّي. ولا تصدّقْ للحظةٍ واحدة أنّها ماتت نتيجةَ حادث. نحن عائلةٌ محترمة يا سيّد هولمز، لقد كان والدي تاجرَ مطبوعات جاء إلى لندن من مانشستر، وكان هو مَن فتح متجر اللوحات في شارع ألبمارل ستريت. وللأسف توفّي عندما كنّا صغيرَيْن، ومنذ ذلك الوقت عشنا نحن الثلاثة، أي مع والدتنا، في وئام تامّ. وعندما أعرب إدموند عن تصميمه على الاقتران بالسيّدة ماريات وتشاحن معنا، ورفض الإستماع إلى صوت العقل، حطّم قلبَ والدتي. كنّا نريد بالطبع أنْ نرى إدموند متزوّجًا لأنّ سعادتَه كانت كلّ ما يهمّنا في الدنيا. لكنْ كيف استطاعَ أنْ يتزوّجها؟ مغامِرة أجنبية لم نلتقِها من قبل، وكان واضحًا منذ البداية أنّها لم تهتمّ إلّا بثروته ومكانته، والرخاء والأمان اللذين كان يستطيع أنْ يوفّرهما لها. لقد قتلتْ والدتي نفسَها، يا سيّد هولمز. لم تستطع أنْ تعيشَ مع ما جلبه هذا الزواج اللعين من عار وتعاسة. وهكذا فتحت صنبور الغاز بعد يوم الزواج بستّة أشهر وتمدّدت على سريرها إلى أنْ فعلت الأبخرةُ فعلَها وأخذها حنانُ العدم مِنّا».

سألها هولمز: «هل أطلعتْكِ والدتُك على ما كانت تنوي فعله؟»

«لم تكن في حاجة إلى ذلك، كنتُ أعرف ما يدور في خَلَدِها ولم أُفاجأ حقًّا عندما عثروا عليها. كان هذا خيارَها. لم يعد هذا المنزلُ بهيجًا منذ اليوم الذي وصلتْ فيه الإمرأةُ الأميركية، يا سيّد هولمز. والآن هذه المسألة الأخيرة، هذا الدخيل الذي اقتحم منزلنا وسرق عقد والدتي، التذكار الأغلى الباقي لدينا من روحها الحبيبة الراحلة. كلُّ ذلك جزءٌ من الحالةِ الشرّيرة نفسِها. كيف لنا أنْ لا نعلم أنّ هذا الغريبَ لم يأتِ إلى هنا بتكليفٍ منها بدلَ الظنّ أنّه يسعى إلى ثأرٍ ما من شقيقي؟ كانت معي في غرفة الجلوس عندما ظهر لأوّل مرّة. لقد رأيتُه من النافذة. ربّما كان أحدَ معارفها القدماء وتبعها إلى هنا. ربّما يكون أكثر من ذلك. لكنّ هذه هي البدايةُ فقط يا سيّد هولمز، وما دام هذا الزواج قائمًا لن يكون أيٌّ منّا في مأمن».

أجابها هولمز بقدر من اللامبالاة قائلًا: «شقيقُكِ يبدو راضيًا تمامًا. لكنْ إذا وضعنا هذا الأمر جانبًا، ماذا تريدين منّي أنْ أفعل؟ في وسع الرجل أنْ يتزوّج مَن يشاء بدون مباركةِ والدته، أو شقيقته كما هو الحال».

«تستطيع التحقُّقَ من أمرها».

«هذا ليس شأني، يا آنسة كارستيرز».

وجّهت إليزا كارستيرز إليه نظرةَ ازدراء، وأجابت: «لقد قرأتُ عن بعض إنجازاتك يا سيّد هولمز، ولطالما اعتبرتُها مُضَخَّمة. وبالرغم من كلّ براعتك، فقد لَفَتَني في شخصك أنّ لا فهمَ لديك لقلب الإنسان. والآن تأكّدتُ من صحّة ظنّي». بعد ذلك استدارت على عقبيها وعادت إلى داخل المنزل.

ظلّ هولمز يراقبها إلى أنْ انغلق البابُ خلفها. قال: «حالةٌ فريدة إلى أبعد حدّ. إنّها تزداد غرابةً وتعقيدًا».

قلتُ ملاحظًا: «لم يسبق لي قطّ أنْ سمعتُ امرأةً تتكلّم بمثل هذا الغضب».

«بالفعل يا واطسون. لكنّ هناك شيئًا واحدًا أودُّ أنْ أعرفَه بصورة خاصّة لأنّي بدأتُ أرى خطرًا كبيرًا في هذا الوضع». نظر إلى النافورة والتماثيل الحجرية ودائرة الماء المتجمّد، وقال: «أتساءل ما إذا كانت السيّدة كاثرين كارستيرز تُجيد السباحة».

4

قوّة الشرطة غير الرسميّة

نام هولمز حتّى ساعة متأخّرة من صباح اليوم التالي، وكنتُ أنا جالسًا وحدي أقرأ كتاب استشهاد الإنسان من تأليف وينوود ريد، وهو كتاب أوصاني هولمز في أكثر من مناسبة بقراءته، لكنّي أعترفُ بأنّني وجدتُه ثقيلَ الوطأة. غير أنّني استطعتُ أنْ أرى لماذا أثار الكاتبُ إعجابَ صديقي بمقْتِه الكسلَ والغباءَ وتبجيلِه الفكر المتساميَ وقوله إنّ من طبيعة الإنسان أنْ يفكّر انطلاقًا من نفسِه نحو الخارجِ. وكان في وسع هولمز نفسِه أنْ يكتب أفكارًا كثيرة من هذا النوع. وبالرغم من أنّني سعدتُ عندما طويتُ الصفحةَ الأخيرة ووضعتُ الكتابَ جانبًا، فقد شعرتُ بأنّه زوّدني، على الأقلّ، بعضَ الفهم لعقلِ التحرّي. كان البريد الصباحي قد حمل إليّ رسالةً من ماري قالت فيها إنّ كلّ شيء على ما يرام في كامبرويل وإنّ ريتشارد فورستر لم يكن مريضًا إلى درجةٍ تمنعه من الابتهاج برؤية مربّيته القديمة مرّةً أُخرى. وبدا وضحًا أنّها كانت تستمتع برفقةِ أمّ الصبيّ التي كانت تعاملها حسبَ الأصولَ كمثيلةٍ لها لا كموظّفةٍ سابقة.

كنتُ قد أخرجت قلمي لأكتب لها رسالةً جوابية عندما رنّ جرسُ باب المنزل بقوّة، وسُمِعت بعده أصواتُ وقعِ أقدام كثيرة على الدرج. كان صوتًا تذكّرتُه جيّدًا، لذا كنتُ مستعدًّا تمامًا عندما اندفع ستّةُ أو سبعةُ فتيان من أولاد الشوارع إلى داخل الغرفة واصطفّوا في ما يشبه طابورًا نظاميًّا انصياعًا لأوامر الأكبر والأطول بينهم.

«ويغينز!» صحتُ وقد تذكّرتُ اسمَه. «لم أتوقّع أنْ أراكَ من جديد».

أجابَ بلهجته السوقية: «لقد بعث السيّد هولمز رسالةً إلينا، يا سيّدي، واستدعانا لمسألةٍ عاجلة جدًّا. وعندما يطلبنا السيّد هولمز نحضر. وها نحن الآن».

كان شرلوك هولمز قد أطلقَ عليهم مرّةً اسم فرقة بيكر ستريت لقوّة شرطة التحرّي. وفي مناسبات أخرى، كان يسمّيهم «اللا نظاميّين». ومن الصعب تصوُّر عصبةٍ أكثرَ نزوعًا إلى الشجار والصعلكة، عصبةِ فتيانٍ تتراوح أعمارهم بين ثماني سنوات. وخمس عشرة سنة يجمعهم الوسخُ والسخام، ثيابهم مقطّعة ومرقّعة مرّاتٍ كثيرة إلى درجة يستحيل معها القولُ كم طفلًا ارتداها من قبل. كان ويغينز نفسُه يرتدي سترة رجل راشد قُصّت إلى نصفَيْن وأُنقِصت منها قطعتان من أعلاها ووسطها، ثم أُعيدت خياطةُ النصفَيْن معًا. كان عددٌ من الأطفال حفاةً، ولاحظتُ أنّ واحدًا منهم فقط بدا أذكى وأفضلَ تغذيةً ولباسًا من الآخرين إلى حدٍّ ما. تساءلْتُ عن نوع الإجرام الذي يمارسه – ربّما النشل أو السرقة – والذي يوفّر له الوسيلةَ، لا للبقاء على قيد الحياة فحسب، بل ليكون ميسورًا بطريقته الخاصّة. لم يكن أكبرَ من ثلاث عشرة سنة وبدافع ذلك بالغًا إلى حدٍ ما، شأنهُ في ذلك شأنُ الآخرين. فالطفولة هي النعمةُ الأولى التي يسرقُها الفقرُ من طفل.

وما هي إلّا لحظة حتّى حضر شرلوك هولمز ومعه السيّدة هادسون. استطعتُ أنْ أرى أنّ صاحبةَ المنزل كانت مرتبكةً ومستاءةً، ولم تحاولْ أن تتستّر على أفكارها، قالت: «لن أقبل بهذا، يا سيّد هولمز. لقد قلتُ لك في ما مضى إنّ هذا منزلٌ محترَمٌ لا يمكنك أنْ تدعو إليه عصابةً من الرعاع الصعاليك. والسماءُ وحدها تعلم ما هي الأمراض التي لا بدّ وأنْ يجلبوها معهم أو ما هي الفضّيات أو البياضات التي ستختفي معهم عندما يرحلون».

ضحك هولمز، وقال: «أرجوكِ أنْ تهدّئي روعَك، يا عزيزتي السيّدة هادسون». التفتَ إلى الفتية، وقال: «ويغينز، لقد قلتُ لك من قبل إنّني لن أقبل بأن يتمّ اجتياحُ المنزل بهذه الطريقة. في المستقبل ستأتي إليّ أنتَ وحدك. لكنْ بما أنّك هنا وجلبتَ معك العصابة كلّها، استمعوا جيّدًا إلى

تعليماتي. الشخص الذي نبحث عنه أميركي، رجلٌ في منتصف الثلاثينات من عمره يرتدي في بعض الأحيان قلنسوةً مسطّحة. لديه ندبٌ حديثُ العهد على خدّه الأيمن. وأظنّ أنّ في وسعنا الافتراضَ أنّه غريبٌ في لندن. كانَ في محطة جسر لندن يومَ أمس، ويوجد في حوزته عقدٌ ذهبي مرصّع بثلاث مجموعات من الياقوت الأزرق، وغنيٌّ عن القول إنّه حصل عليه بصورة غير مشروعة. الآن، أين تظنّون أنّه سيذهبُ لبيعه؟»

صاح أحد الصبية: «حيّ فولوودرنتس».

صرخ صبيّ آخر: «لدى اليهود في شارع بيتكوت لين».

قال ثالث: «كلّا. سيحصل على ثمن أفضل في منطقة هلّ هاوسز. لو كنتُ مكانَه لذهبتُ إلى شارع فلاور ستريت أو طريق فيلد لين».

«محلّات الرهن»، قال متدخّلًا الصبيُّ الأفضلُ لباسًا الذي استرعى انتباهي أوّلًا.

قال هولمز موافقًا: «الذين يُقرِضون مالًا لقاءَ رهن. ما اسمُك يا فتى؟»

«اسمي روس، يا سيّدي».

«حسنًا، يا روس، لديك الموهبةُ لتصبح تحرّيًا. الرجل الذي نبحث عنه حديثُ العهد في المدينة ولن يعرف شارع فلاور ستريت أو حيّ فوللود رنتس أو أيًّا من الزوايا الخفيّة التي تعثرون فيها على متاعبكم يا فتيان. من شأنِه أنْ يذهب إلى المكان الأكثر بديهية، ورمز الكرات الذهبيّة الثلاث معروفٌ في العالم أجمع. إذًا هذا هو المكان الذي أريدكم أنْ تبدأوا منه. لقد وصل إلى محطة لندن بريدج، ولنفترض أنّه قرّر الإقامةَ في فندق أو نزلٍ يؤجّر غرفًا مفروشة قرب المحطّة. عليكم أنْ تقصدوا كلّ محلّ رهْنٍ في المنطقة وأنْ تصفوا الرجلَ والحليةَ التي قد يكون حاول بيعَها». وضع هولمز يده في جيبه وقال: «الأجور التي أدفعُها هي ذاتها دائمًا: شلن واحد لكلّ منكم وجنيه لمن يعثر على ما أبحث عنه».

أعطى ويغينز أمرًا بلهجة حازمة وانطلقت قوّتُنا من الشرطة غير الرسمية خارجةً من المنزل تحت النظرة الصارمة للسيّدة هادسون التي ستُمضي بقيةَ الصباح في عدّ قطع الأواني الفضية. وما إن خرج الفتية حتّى صفّق هولمز

بيديه، وجلس مسترخيًا في أحد المقاعد، وهتف: «حسنًا يا واطسون، ما قولك في ذلك؟»

قلت: «تبدو واثقًا تمامًا بأنّنا سنعثر على أودوناهيو».

أجاب: «أنا متأكّد إلى حدّ بعيد من أنّنا سنعثر على الرجل الذي اقتحم منزل ريدجواي هول».

«ألا تظنّ أنّ لستراد سيُجري أيضًا استقصاءات لدى محلّات الرهنِ؟»

«أشكّ في ذلك إلى حدّ ما. من الواضح تمامًا أنّ هذه الفكرة لن تخطر على باله. غير أنّ أمامنا النهارَ بكامله وليس لدينا ما نملأ وقتَنا به، وبما أنّ وجبةَ الفطور فاتتني، دعنا نتناول طعامَ الغداء معًا في مطعم ومقهى كافيه دو لوروب قرب مسرح هاي ماركت. وبالرغم من الاسم، فإنّ الطعام إنكليزي ومن الدرجة الأولى. بعد ذلك، أفكّر في زيارة صالةِ عرض كارستيرز وفيننتش في شاعر ألبمارل ستريت. وقد يكون من المثير للاهتمام أنْ نتعرّف إلى السيّد توبياس فيننتش. يا سيّدة هادسون، إذا رجع هيغينز تستطيعين أنْ ترسليه إلى هنالك. لكنْ عليكَ الآن، يا واطسون، أنْ تطلعني على رأيك في كتاب استشهاد الإنسان. وقد لاحظتُ أنّك انتهيت من قراءته أخيرًا».

نظرتُ إلى الكتاب الذي كان متروكًا لشأنه راقدًا على جانبه. قلت متعجّبًا: «هولمز...؟»

«لقد دأبتَ على استعمال بطاقةِ دعايةٍ للسجائر كعلامةِ قراءة، وأنا راقبْتُ تقدُّمها البطيء من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة، ثمّ رأيتُها الآن موضوعةً على الطاولة بعد أنْ تحرّرتْ في آخرِ الأمر من مهمّتها الشاقّة. وسيهمّني أنْ أسمعَ استنتاجاتك. لعلّك تتفضّلين بصبّ بعض الشاي يا سيّدة هادسون إذا تكرّمت!»

غادرنا المنزل، وسرنا الهوينا نحو منطقة هاي ماركت. كان الضبابُ قد انحسر. وبالرغم من استمرار البرد الشديد، فقد كان هذا نهارًا مشرقًا آخر شهِد حشودَ الناس تتدفّق داخلةً إلى المتاجر الكبرى وخارجةً منها والباعةَ المتجوّلون يدفعون عرباتهم وينادون على بضائعهم. تجمّعت جمهرةٌ كبيرةٌ من الناس عند شارع ويمبول ستريت حول مشغّل أرغن آلي، إيطالي عجوز

يعزف لحنًا حزينًا من نابولي. كذلك انجذبت إلى المكان تشكيلةٌ منوَّعة من الدجّالين والنصّابين الذين راحوا يتجوّلون بين جمهور المتفرّجين ويقصّون حكاياتهم المحزنة على كلّ مَن يُصغي. لم تكد زاويةٌ واحدةٌ هناك تخلو من فنّان شوارع، وصادَفَ يومها أنّ أحدًا لم يحاول إبعادَهم. تناولنا طعامنا في مطعم كافيه دولوروب حيث قُدِّمت لنا فطيرةُ لحم طرائد ممتازة، وكان هولمز في مزاجٍ دافق الحبور. لم يتكلّم على القضية، لم يذكرْها بصورةٍ مباشرة، لكنّني أتذكّر أنّه تحدّث عن طبيعةِ فنِّ التصوير واستعمالاتِه الممكنة في حلّ الجرائم.

قال هولمز: «أنتَ تذكر أنّ كارستيرز أبلغَنا بفقدان لوحات كونستابل الأربع. إنّها مناظرُ لمنطقةِ البحيرة رُسمت في بداية القرن عندما كان الفنّان متشائمًا ومكتئبًا كما يبدو. لذلك تصبح الألوانُ الزيتية على قماشِ اللوحات مؤشّرًا إلى حالته النفسية. وإذا اختار شخصٌ ما، بالتالي، أنْ يعلّق أعمالًا من هذا النوع على جدار غرفة الإستقبال في منزله، فقد نكتشف الكثيرَ عن حالته العقليّة. هل لاحظتَ مثلًا نوعيةَ الأعمال الفنية المعروضة في ريدجواي هول؟»

«نسبةٌ كبيرةٌ منها فرنسية. كان هناك منظرٌ من مقاطعة بريتانيا الفرنسية تُظهِر جسرًا آخر فوق نهر السين. كانت هذه الأعمال جيّدة في رأيي».

«لقد استمتعتَ بمشاهدتها لكنّك لم تتعلّم شيئًا منها».

«أتقصد ما يتعلّق منها بطبيعة إدموند كارستيرز؟ إنّه يفضّل الريفَ على المدينة. إنّه منجذبٌ إلى براءة الطفولة، وهو رجلٌ يحبّ أنْ يكونَ مُحاطًا بالألوان. أفترض أنّه كان في وسعنا أنْ نستقرئَ شيئًا عن شخصيته من اللوحات التي رأيناها على جدران منزله. لكنّنا لا نستطيع في الوقت ذاته أنْ نكون متأكّدين من أنّ كارستيرز هو الذي اختار بنفسه كلَّ قطعة من هذه الأعمال. من المحتمل أنْ تكونَ زوجتُه أو والدته قد ساهمت في الاختيار».

«هذا صحيح تمامًا».

«حتّى الرجل الذي يقتل زوجتَه قد يمتلك جانبًا أكثر رقّةً في طبيعته يعبّر عن نفسِه في اختياره للأعمال الفنّية. أنتَ تتذكّر بالتأكيد قضيةَ أسرةِ أبرنتيّ. كان هوراس أبرنتيّ قد علّق على جدرانه عددًا كبيرًا من الرسوم

الدراسية القيّمة للنباتات المحلّية، إنْ أسعفتني الذاكرة. لكنّه كان رجلًا من النوع المقيت المنحطّ إلى أبعد حدّ».

«بما أنّ الشيءَ بالشيء يذكر، فإنّي أتذكّر أنّ النباتات المرسومة لديه كانت من النوع السامّ».

«وماذا عن شارع بيكر ستريت، يا هولمز؟ هل تريد أنْ تقولَ لي أنّ زائرًا لغرفةِ جلوسك سيعثر على مؤشّراتٍ إلى حالتك النفسيّة من التأمُّل في الأعمال المعلّقة حولك؟»

«كلّا، لكنّ هذه الأعمال قد تبيّن لك الكثيرَ عن الشخص الذي كان ساكنًا قبلي لأنّ في إمكاني أنْ أؤكّد لكَ، يا واطسون، أنّه لا تكاد توجد صورةٌ واحدة في مسكني لم تكن هناك عندما وصلتُ أنا. هل تتصوّر جدّيًا أنّني خرجتُ واشتريتُ رسمَ بورتريه لهنري ووردبيتشر كالذي كان معلّقًا فوق كتبك؟ رجلٌ جدير بالثناء من جميع النواحي وآراؤه في الرقّ والتعصُّب مُرحَّب بها. لكن الشخصَ الذي كان يشغل الغرفة قبلي هو الذي ترك الصورة وأنا قرّرتُ أن أدعها حيثُ هي».

«ألم تشترِ أنت صورةَ الجنرال غوردون؟»

«لا، لكنّني كلّفت خبيرًا بترميمها ووضعها في إطار جديد بعد أنْ أصبتُها برصاصة عن غير قصد. وقد فعلتُ ذلك بناءً على إلحاحِ السيّدة هادسون. وكما تعلم، من المحتمل جدًّا أنْ أكتبَ دراسةً عن هذا الموضوع، موضوع استخدام الفنّ في أساليب التحرّي».

«إنّك تُصِرّ يا هولمز على النظر إلى نفسِك كآلة». ضحكتُ وأضفتُ قائلًا: «حتّى لوحةٌ ممتازة من المدرسة الانطباعيّة لا تمثّل بالنسبة إليك أكثرَ من دليل حسّي في تعقّب الإجرام. لعلّ الاستمتاعَ بالفنّ هو ما ينقصك لكي تصبحَ إنسانًا. وسوف ألحّ عليك لمرافقتي في زيارة للأكاديميّة الملكية».

«سبق لنا بالفعل أنْ أدرجْنا زيارةَ صالة عرض كارستيرز وفينتش في برنامجنا، يا واطسون. وأظنّ أنّ هذا سيكفي. يا نادل، أحضر لنا طبقَ الأجبان وكأسًا من نبيذ موزيل لصديقي. أعتقد أنّ شراب البورت قويٌّ جدًّا لفترة بعد الظهر».

كانت المسافةُ إلى الصالة قصيرة، فمشينا الهوينيا معًا من جديد. ولا بدّ لي من القول إنّني ابتهجتُ كثيرًا بهذه اللحظات من الرفقةِ الهادئة،

واعتبرتُ نفسي واحدًا من أسعدِ الرجال حظًا في لندن لمشاركتي في حوارٍ كالذي وصفتُه ولتنزُّهي متمهّلًا إلى جانب شخصية عظيمة مثل شرلوك هولمز. كانت الساعةُقد قاربت الرابعة، وقد بدأ نور النهار يخبو عندما وصلنا إلى الصالة التي لم تكن فعلًا في شارع ألبمارل ستريت نفسه بل في فناءٍ قديم للعربات محاذٍ للشارع تمامًا. وباستثناء لافتةٍ متواضعة مكتوبة بأحرفٍ ذهبية، لم تكن هناك مؤشّراتٌ كثيرة إلى وجود مؤسّسة تجارية في هذا المكان. كان بابٌ منخفض يؤدّي إلى الداخل المعتم إلى حدّ ما، وكلُّ ما فيه أريكتان وطاولة ولوحة واحدة لبقرتَيْن في حقل بريشة الرسّام الهولندي بابولس بوتر، مركونة على مسندِ لوحات. سمعنا عندما دخلنا رجلَيْن يتجادلان في الغرفة المجاورة وتعرّفتُ إلى أحد الصوتَيْن، وكان صوتَ إدموند كارستيرز.

كان يقول: «إنّه سعرٌ ممتاز، وأنا واثق من ذلك، يا توبياس. إنّ هذه اللوحات شبيهة بالنبيذ الفاخر. لا يمكن لقيمتها إلّا أنْ ترتفع».

أجاب الرجل الآخر بصوتٍ ناحب عالي النبرة: «لا، لا، لا. إنّه يدعوها مناظر بحرية. حسنًا، أنا أستطيع أنْ أرى البحر... لكنْ لا شيءَ سوى ذلك. لقد انتهى معرضُه الأخير بفشل ذريع، والتجأ إلى باريس الآن حيث تتهاوى شهرتُه بسرعة كما أسمع. هذا تبديدٌ للمال، يا إدموند».

«ست لوحات بريشة ويسلر».

«ستّ لوحات لن نتخلّص منها أبدًا!»

كنتُ واقفًا عند الباب وقد أغلقتُه بقوّة زائدة عمّا كان ضروريًا رغبةً مني في تنبيه الرجلَيْن في الداخل إلى وجودنا. وحقّق ذلك النتيجة المرجوّة. توقّف الجدال، وظهرَ بعد لحظة من وراء ستارة رجلٌ نحيل أبيضُ الشعر كاملُ الأناقة في بذلة داكنة وياقةٍ عالية وربطة عنق سوداء، كانت سلسلةٌ ذهبيّة مشبوكةً على صدريّته ونظّارةٌ ضاغطة – من الذهب أيضًا – جاثمةً على أقصى أرنبة أنفه. من المؤكّد أنّه كان في الستّين من عمره على الأقلّ، لكنّه كان لا يزال مفعمَ الحيوية في مشيتِه ونابضًا بالطاقة في كلّ حركةٍ من حركاته.

بدأ هولمز الحديث بقوله: «أفترض أنّك السيّد فينتش».

«نعم يا سيّدي. هذا في الواقع اسمي، واسمك أنت...؟»

«أنا شرلوك هولمز».

«هولمز؟ لا أظنّ أنّنا متعارفان، لكنّ الاسم مألوفٌ لديّ».

دخل كارستيرز إلى الغرفة أيضًا، وقال: «السيّد هولمز!». كان التبايُن بين الرجلَيْن لافتًا، أحدُهما مسنّ وذابل يكاد ينتمي إلى جيلٍ آخر، وثانيهما أصغرُ عمرًا وأكثرُ تأنُّقًا، وملامحُه ما زالت تعكس الغضبَ والإحباط الناجمَيْن بالتأكيد عن الجدال الذي سمعناه. قال شارحًا لشريكه: «هذا هو السيّد هولمز، التحرّي الذي كنتُ أخبرك عنه».

«نعم، نعم بالطبع. لقد عرّفني إلى نفسه قبل قليل».

قال كارستيرز: «لم أكنْ أتوقّع أنْ أراك هنا».

«جئتُ لأنّني كنتُ مهتمًّا برؤية المكان الذي تمارس فيه مهنتك». وأضاف هولمز شارحًا: «لكنْ لديّ أيضًا بعضُ الأسئلة التي أريد أنْ أطرحها بخصوص رجالِ بنكرتون الذين استأجرتهم في بوسطن».

تدخّل فينتش في الحديث، وقال: «مسألة وقتية. لن أتعافى أبدًا من خسارة تلك اللوحات، ولا حتّى في آخر أيامي. كانت تلك أسوأَ كارثة في حياتي المهنية. ليتّنا بعناه بعضًا من لوحاتٍ ويسلر تلك، يا إدموند. كان في وسعهم أنْ ينسفوها ويدمّروها من دون أنْ يبالي أحدٌ». بدا أنّه لا توجد وسيلةٌ لإسكاتِ الرجل العجوز بعد أنْ بدأ الحديث. قال: «إنّ تجارة اللوحات الفنية عملٌ محترَم، يا سيّد هولمز. إنّنا نتعامل مع عدد كبير من الزبائن الأرستقراطيّين، ولا أريد أنْ يُعرفَ عنّا أنّنا تورّطنا مع رجال مسلّحين وفي جريمة قتل. تهدّل وجهُ الرجل العجوز عندما أدرك أنّه متورّط بما هو أكثرَ من ذلك لأنّ الباب فُتح للتوّ واندفع صبيٌّ عبره إلى الداخل. عرفتُ فورًا أنّه ويغينز الذي كان معنا في الغرفة صباح ذلك اليوم فقط. لكنّ الأمر بدا لفينتش وكأنّه تعرّض لأسوأ هجوم، فصاح: «إذهبْ، أخرج من هنا! ليس لدينا أيُّ شيء لك».

قال هولمز: «لا داعي لأنْ تقلق، يا سيّد فينتش. أنا أعرف الفتى. ما الأمر يا ويغينز؟»

صاح ويغينز منفعلًا بلهجته السوقية: «لقد عثرنا عليه، يا سيّد هولمز. الرجل الذي كنتَ تبحث عنه. لقد شاهدناه بأعيننا، أنا وروس. كنّا على وشك

الدخول إلى دكّان الألماني في شارع بريدج لين – وروس يعرف المكانَ جيّدًا لأنّه كثيرًا ما يقصده – عندما فُتح الباب وكان الرجلُ ماثلًا هناك بجلاء كضوء النهار، وعلى وجهه ندبُ جرح واضح». رسم الفتى بإصبعه خطًّا على وجنته، وقال: «كنتُ أنا من رآه وليس روس».

سأله هولمز: «وأين هو الآن؟»

«لقد تبعناه إلى الفندق، يا سيّدي. هل ستُعطي كلًّا منّا جنيهًا إذا أخذناك إلى هناك؟»

أجاب هولمز: «ستكون هذه نهايتك إذا لم تأخذني إلى هناك، لكنّي كنتُ دائمًا منصفًا معكم يا ويغينز، أنت تعلم ذلك. قل لي، أين هو هذا الفندق؟»

«إنّه في برموندزي، يا سيّدي. إنّه الفندق الذي تملكه السيّدة أولدمور. سيكون روس موجودًا هناك الآن. لقد تركتُه هناك ليراقب المكان عندما قطعتُ كلَّ المسافة إلى مسكنك ثمّ إلى هنا لأجدك. وإذا خرج رجلُك مرّة ثانية فسيرى روس إلى أين يذهب. إنّ روس جديد في هذه اللعبة لكنّه لا يقلّ براعةً عن أيٍّ من الآخرين. هل ستعود معي يا سيّد هولمز؟ هل ستأخذ عربة؟ هل أستطيع أنْ أركبَ معك؟»

«تستطيع أنْ تجلس مع الحوذي». التفت هولمز إليّ، ولاحظتُ فورًا حاجبَيْه المعقودَيْن وقسماتِه المشدودة التي أبلغتني أنّ كلّ طاقاته كانت مركّزة على ما ينتظرنا. قال: «يجب أنْ نغادرَ فورًا. ولحسن حظّنا أصبح موضوعُ تحقيقنا في قبضة أيدينا. لا يجوز أنْ ندعه ينسلّ من بين أصابعنا».

قال كارستيرز: «سآتي معكم».

«يا سيّد كارستيرز، من أجل سلامتك.»

«لقد رأيتُ هذا الرجل. وأنا الذي وصفْتُه لك، وإذا كان في وسع أيّ شخص أنْ يتأكّد من أنّ فتيانك هؤلاء قد حدّدوا هويتَه بشكل صحيح، فهذا الشخص هو أنا، ولديّ أيضًا رغبةٌ شخصية في رؤية نتيجة هذه المسألة، يا سيّد هولمز. وإذا كان هذا الرجل فعلًا مَن أظنّه، فإنّني سببُ وجوده هنا، ومن غير الجائز أنْ لا أتابع الموضوع إلى نهايته».

قال هولمز: «ليس لدينا وقتٌ للجدال – لا بأس. سنغادر نحنُ الثلاثة معًا. دعونا لا نضيّع دقيقةً أخرى».

هكذا هُرِعنا خارجين من الصالة. خرجنا معًا، هولمز وويغينز وكارستيرز وأنا، تاركين وراءَنا السيّد فينتش فاغرًا فمه دهشةً. عثرنا على عربة ذات العجلات الأربع وركبنا فيها، بينما تسلّق ويغينز صاعدًا وجلس إلى جانب الحوذي الذي رمقه بنظرة ازدراء ثمّ رقّ لحاله وسمح له بتغطية نفسِه بطرفٍ من بطانيّته. فرقع الحوذي بسوطه وانطلقت العربة وكأنّ بعضًا من إحساسِنا بالاستعجال انتقل إلى الجياد. كان الظلام قد خيّم بالكامل تقريبًا. ومع دنوّ الليل، تبدّد إلى حدّ بعيد شعورُ الارتياح الذي كان يغمرني، وعادت إلى المدينةِ من جديد برودتُها وعدوانيّتُها. كان المتسوّقون وفنّانو الشوارع قد غادروا عائدين إلى منازلهم وحلّ مكانَهم فصيلٌ مختلفٌ تمامًا من الناس: رجال في ثياب رثّة بالية ونساء رخيصات المظهر يحتاج جميعهم إلى ظلالٍ تسترهم للقيام بأعمالهم المشوبةِ بالظلال بحدّ ذاتها.

أقلّتنا العربة عبر جسر بلاكفرايرز بريدج حيث بلغت الرياح أقصى برودتِها ولَسَعَتْنا كسكّين. لم ينطق هولمز بكلمة منذ مغادرتنا، وشعرتُ بأنّ هاجسًا ما يساوره بالنسبة إلى ما سيأتي. كان هذا أمرًا لم يعترفْ به قطّ، ولم أُشِر أنا إليه أبدًا لعلمي أنّ ذلك سيزعجه. لم يكن هولمز عرّافًا من أيّ نوع! بالنسبة إليه، كان كلُّ شيء مسألةَ تفكيرٍ وحسٍّ منطقي مُنظَّم – على حدّ تعبيره. ومع ذلك، كنتُ أشعر بوجود شيءٍ ما عَصِيٍّ على التفسير يمكن حتّى اعتبارُه خارقًا للطبيعة. وسواء أعجبنا الأمر أم لا، كان هولمز يعلم أنّ أحداثَ المساء ستشكّل نقطةَ ارتكاز، بل نقطةَ تحوُّل، لن تعودَ بعدَها حياتُه – وحياتُنا نحن الاثنين – مثلما كانت من قبل.

كان الفندق الخاصّ الذي تملكه السيّدة أولدمور يعلن تأجيرَ سرير وغرفةِ جلوس لقاء ثلاثين شلنًا في الأسبوع، وقد بدا مظهرُه كما يُنتظر أنْ يبدو، نزلًا يتقاضى مثل هذا السعر: هو مبنًى وضيعٌ متداعٍ وعلى أحدِ جانبَيْه غرفةُ غسيل وعلى الجانب الآخر محرقةٌ من الآجر. كان الفندق قريبًا من النهر وقد عبق الهواءُ حولَه بالرطوبة والسُخام. كانت خلفَ النوافذ مصابيحُ مُضاءة،

غير أنّ الزجاج كان متّسخًا إلى درجةٍ أنّ النور كان بالكاد يتسلّل عبره إلى الخارج. كان روس، رفيق ويغينز، ينتظرنا وهو يرتجف من البرد بالرغم من حشوة الجرائد السميكة التي بطّن بها سترتَه. وفيما كان هولمز وكارستيرز يترجّلان من العربة، تراجع روس خطوةً إلى الوراء ولاحظتُ أنّ شيئًا ما أفزعه كثيرًا. كانت عيناه تنمّان عن ذُعرِه، وبدا وجهُه شاحبًا تمامًا تحت وهج مصباح الشارع. لكنّ ويغينز هبط قافزًا من العربة وأمسكَ به فبدا وكأنّه تحرّر من إساره.

صاح ويغينز: «كلُّ شيء على ما يرام يا فتى! سيحصل كلٌّ منّا على جنيه. لقد وعد السيّد هولمز بذلك».

قال هولمز: «أخبرني بما حدث خلال الفترة التي كنتَ وحدَك فيها. هل غادر الرجلُ الذي تعرّفتما إليه الفندق؟»

أشار روس إلى كارستيرز أوّلًا ثمّ إليّ، وسأل: «من يكون هذان السيّدان؟ هل هما مفتّشان؟ هل هما شرطيّان؟ لماذا هما هنا؟»

قلتُ: «لا بأس يا روس. لا داعي لأنْ تقلق. أنا جون واطسون، أنا طبيب. لقد رأيتَني هذا الصباح عندما أتيتُ إلى شارع بيكر ستريت، وهذا السيّد كارستيرز الذي يمتلك صالةً للأعمال الفنيّة في شارع ألبمارل ستريت. ونحن لا ننوي إيذاءَك».

«شارع ألبمارل – في حيّ مايفير؟». كان الفتى يشعر ببرد شديد بحيث كانت أسنانُه تصطكّ. كان جميعُ فتيان الشوارع في لندن معتادين على الشتاء طبعًا، لكنّ روس بقي واقفًا وحده هنا في العراء فترةً لا تقلّ عن ساعتين.

سأله هولمز: «ماذا رأيت؟»

أجاب روس بلغته السوقية: «لم أرَ شيئًا». لقد تغيّر صوتُه. كان في سلوكه ما كاد يوحي بأنّه يُخفي أمرًا ما. خطر لي – وليس للمرّة الأولى – أنّ جميع هؤلاء الأطفال انتقلوا إلى عالم الكبار بشكلٍ ما وقبلَ فترةٍ طويلة ممّا كان ينبغي أنْ تسمح به أعمارُهم الغضّة. تابع روس قائلًا: «لقد كنتُ هنا في انتظاركم. هو لم يخرجْ كما لم يدخلْ أحد. أمّا البرد فقد نخر عظامي».

«ها هو المال الذي وعدتُك به – وأنت أيضًا يا ويغينز». دفع هولمز المال لكلا الصبيَّيْن وقال لهما: «والآن إذهبا إلى المنزل. لقد فعلتما ما يكفي

هذه الليلة». أخذ الصبيّان النقود وركضا معًا بعد أنْ ألقى روس نظرةً أخيرة في اتّجاهنا، تابع هولمز قائلًا: «أقترح أنْ ندخل إلى الفندق وأن نواجه هذا الرجل. والربّ يعلم أنّني لا أرغب في التلكّؤ هنا أطولَ ممّا يجب. هذا الفتى – هل لاحظت يا واطسون أنّه كان يراوغ؟»

قلتُ موافقًا: «كانَ هناك بالتأكيد أمرٌ لم يَبُحْ لنا به».

«لنأمَلْ أنْ لا يكون قد قام بتصرُّفٍ من شأنه أنْ يكشفَ أمرَنا. سيّد كارستيرز، أرجوك أنْ تبقى على مسافةٍ خلفنا. من المستبعَد أنْ يحاولَ رجلُنا اللجوءَ إلى العنف، لكنّنا أتينا إلى هنا بدون استعداد. ولا ريبَ في أنّ المسدّسَ الأمينَ للدكتور واطسون يرقد الآن ملفوفًا بالقماش داخلَ درجٍ في كنزنغتون. وأنا أيضًا لا أحمل سلاحًا. يجب أنْ نعتمدَ على سعة حيلتنا. هيّا بنا».

دخلنا نحن الثلاثة إلى الفندق، وصعدنا درجاتٍ قليلة إلى الباب الأمامي الذي انفتح أمامنا على بهوٍ عمومي خالٍ من السجّاد باهتِ الإنارة وعلى جانبٍ منه مكتبٌ صغير. كان رجلٌ مسنٌّ جالسًا هناك منكمشًا على مقعدٍ خشبي وهو بين صحوٍ ونوم، لكنّه تنبّه عندما رآنا. قال بصوتٍ مرتجف: «فليباركْكم الربّ يا سادة. نستطيع أنْ نعرض عليكم أسرّةً فرديةً جيّدة لقاء خمسة شلنات في الليلة».

قال هولمز مجيبًا: «لسنا هنا من أجل المبيت. نحن نبحث عن رجل وصل أخيرًا من أميركا له ندبٌ حديث على خدّه. إنّها مسألةٌ طارئة إلى أبعد حدّ وإذا كنتَ لا تريد أنْ تورِّطَ نفسَك في متاعب مع القانون ستُخبِرنا أين يمكننا العثورُ عليه».

لم تكن لدى عامل الفندق رغبةٌ في التورُّط في متاعب مع أحد. قال: «يوجد هنا أميركيّ واحد فقط. ومن المؤكّد أنكم تقصدون السيّد هاريسون من نيويورك. إنّه يشغل الغرفةَ الواقعةَ في آخر الممرّ في هذا الطابق. لقد عاد إلى الفندق قبل فترة، وأظنّ أنّه نائم على الأرجح لأنّني لم أسمع أيَّ صوت من غرفته».

قال هولمز بلهجة آمرة: «ما هو رقم الغرفة؟»

«إنّها الغرفة رقم ستّة».

توجّهنا نحوها على الفور عبر ممرّ عارٍ تُطِلّ عليه أبوابٌ متقاربةٌ إلى درجةٍ تنمّ عن أنّ الغرفَ الواقعةَ خلفها لا بدّ وأنْ تكون في حجم خزائن ثياب أو أكبر قليلًا. وكانت مصابيحُ الغاز خفيفةَ النور بحيث اضطُرِرنا تقريبًا إلى تلمُّس طريقنا في العتمَة. كانت الغرفةُ رقم ستّة في آخر الممرّ بالفعل. رفع هولمز قبضةَ يده متهيّئًا ليطرقَ الباب، لكنّه تراجع فجأةً وانسلّت من بين شفتيه زفرةُ لاهثةٌ واحدة. نظرتُ إلى أسفل ورأيتُ في الضوء الباهت خطًّا من سائلٍ أسود اللون تقريبًا يتسرّب من تحت الباب ويتجمّع في بركة صغيرة قرب الحافّة. سمعتُ كارستيرز يطلق صرخةً ورأيتُه يرتدُّ إلى الوراء ويداه تغطّيان عينَيْه. كان عاملُ الفندق يراقبنا من نهاية الممرّ وكأنّه كان يتوقّع فعلًا الفظاعةَ التي كانت على وشك التكشُّف أمامنا.

جرّب هولمز فتح الباب لكنّه ظلّ موصدًا. وبدون أنْ ينطق بكلمة، دفع هولمز الباب دفعةً قوية بمنكِبه فتحطّم القفلُ الرخيص. تركْنا كارستيرز خلفَنا في الممرّ وتقدّمنا، هولمز وأنا، إلى داخل الغرفة ورأينا فورًا أنّ الجريمةَ التي اعتبرتُها تافهةً في الماضي، اتّخذت مسارًا نحو الأسوأ. كانت النافذة مفتوحةً والغرفةُ مقلوبةً رأسًا على عقب. ووجدنا الرجلَ الذي كنّا نتعقّبه مطويًّا على نفسِه وسكّينٌ مغروزةٌ في طرف رقبته.

5

لستراد يتولّى القضية

التقيتُ جورج لستراد من جديد قبل فترةٍ وجيزة، وكان هذا آخرَ لقاءٍ بيننا.

لم يتعافَ تمامًا قط من جرحِ الرصاصة التي أُصيبَ بها عندما كان يحقّق في جريمتَيِ القتل الغريبتَيْن اللتَيْن وصفَتْهما الصحافةُ الشعبية بجريمَتَيْ كليركنويل بالرغم من وقوع إحداهما في هوكستون المجاورة وانكشاف الثانية كعمليةِ انتحار. وعندما التقينا كان قد تقاعد من سلك الشرطة قبلَ مدّةٍ طويلة بالطبع، لكنّه كان لطيفًا إلى درجة كافية ليأتي ويزورني في المنزل الذي انتقلتُ إليه للتوّ. أمضينا فترةَ بعد الظهر معًا نستعيد ذكرياتنا. ولن يُدهَش قرّائي كثيرًا إذا علموا أنّ موضوع شرلوك هولمز شغل جزءًا كبيرًا من حوارنا، وقد شعرتُ بالحاجة إلى الاعتذار من لستراد في ما يتعلّق بموضوعَيْن. أوّلًا، لم يسبقْ لي أبدًا أنْ وصفتُه بما قد يرقى إلى أسمى عبارات الثناء، بل تعود إلى ذاكرتي أوصافٌ من نوع «وجه الجرذ» و«شبيه ابن عرس». ومهما يكن هذا الوصفُ مسيئًا له بالطبع، فقد اتّسم بالدقّة على الأقلّ. إذْ قال لستراد نفسُه مرّةً وهو يمزح، إنّ الطبيعةَ أمَّنا أعطتْه في إحدى نزواتها ملامحَ مجرم بدلًا من ملامح ضابط شرطة، وإنّه ربّما كان سيصبح أكثر ثراءً في الإجمال لو اختار المهنةَ الأولى. وكثيرًا ما لمّح هولمز أيضًا إلى أنّ مهاراتِه الشخصية، لا سيّما فتحَ الأقفال والتزوير، ربّما كانت جعلته مجرمًا ناجحًا قدرَ نجاحِه كتحرٍّ. ومن المسلّي أنْ يتصوّر المرء احتمالَ تعاونِ هذين الرجلين في عالم مختلفٍ عن عالمنا، لكنْ على الجانب الآخر من القانون.

لكنّ النقطةَ التي ربّما أكون ظلمتُ لستراد فيها كانت إشارتي إلى عدم تمتّعه بأيّ ذكاء أو أيّة مهارات تحقيقيّة. ومن الإنصاف القولُ إنّ شرلوك هولمز تحدّث عنه بالسوء في بعض الأحيان، لكنّ هولمز كان في الوقتِ ذاته شخصًا فريدًا من نوعه وذا مواهب فكرية فذّة إلى درجةِ أنّه لم يكن في لندن مَن يستطيعُ منافستَه، وكان ينتقد بالقدرِ ذاته ما كاد يكونُ كلَّ ضابطِ شرطة يلتقيه، ربّما باستثناء ستانلي هوبكنز، بالرغم من أنّ ثقتَه بهذا التحرّي الشابّ كثيرًا ما تعرّضت لاختبارات قاسية، ما يعني بعبارات بسيطة أنّه يكاد يكون مستحيلًا على أيّ تحرٍّ إلى جانب هولمز أن يُبرِزَ تفوّقه. وحتّى أنا الذي كنتُ إلى جانبه أكثرَ من أيّ شخص آخر اضطُرِرتُ في أحيانٍ كثيرة إلى تذكير نفسي بأنّني لستُ غبيًّا تمامًا. لكنّ لستراد كان رجلًا قديرًا من نواحيَ كثيرة. ولو راجع المرءُ السجلّاتِ العامّةَ لوجد قضايا ناجحةً كثيرة حقّق فيها لستراد باستقلاليّة كبيرة، وقد كانت الصحف تُثني عليه باستمرار. وحتّى هولمز كان مُعجَبًا بمثابرته. وبعد كلِّ ما قيل وحدَثَ، فإنّ لستراد تمكّن فعلًا من اختتام مسيرته المهنيّة كمساعدٍ للمفوَّض العامّ المسؤول عن دائرة التحقيقات الجنائية في سكوتلانديارد، وذلك بالرغم من أنّ جزءًا كبيرًا من شهرته تحقّق من القضايا التي حلّها هولمز في الواقع ولم ينسبْ الفضلَ فيها إلى نفسِه. ولمّح لستراد لي أثناء حديثنا الطويل والمُمتع إلى أنّه ربّما كان يشعر بالهيبة إلى حدّ ما في حضور شرلوك هولمز وأنّ ذلك ربّما أضعفَ فعاليةَ أدائه. ومهما يكن من أمر، فقد رحل لستراد عن هذه الدنيا وأنا واثقٌ بأنّه لن يبالي إذا كشفتُ ما ائتمنني عليه وأعطيتُه حقّه حيثُ ينبغي. لم يكن لستراد رجلًا سيّئًا، وأنا أعرف تمامًا في نهاية المطاف كيفَ كان إحساسُه.

في أيّ حال، كان لستراد مَنْ وصل إلى فندق السيّدة أولدمور في صباح اليوم التالي. نعم، بدا كعادته دائمًا شاحبَ البشرة وعيناه لامعتان وغائرتان، وكان يشبه في منظره العام جرذًا أُرغِم على ارتداء حلّةٍ رسمية لتناول طعام الغداء في فندق سافوي. وكانت الغرفةُ قد أُغلِقت ووُضعت تحت حراسة الشرطة بعد أنْ أبلغَ هولمز شرطةَ دورية الشارع بالجريمة، وأُبقِيت على هذه الحال إلى أنْ تتمكّن اللمسةُ الباردة لضوءِ النهار من تبديد الظلال داخلَها ليُتاحَ إجراءُ تحقيق ملائم يشمل أيضًا المحيطَ العام للفندق.

قال ملاحظًا بنبرة استياء: «حسنًا، حسنًا يا سيّد هولمز. قيل لي أمس عندما كنتُ في ويمبلدون إنّهم يتوقّعون وصولَك. وها أنتَ موجودٌ هنا الآن أيضًا».

ردّ هولمز قائلًا: «لقد كان كلانا يتتبّع آثارَ قدمَيْ هذا المسكين التعيس الذي انتهت أيّامُ حياته هنا».

ألقى لستراد نظرةً على الجثمان، وقال: «يبدو فعلًا أنّ هذا هو الرجل الذي كنّا نبحث عنه». لم يَقُلْ هولمز شيئًا، فرمقه لستراد بنظرةٍ حادّة وقال: «كيفَ صادفَ أنْ عثرتَ عليه أنت؟»

«كان الأمرُ بسيطًا إلى درجةٍ غير معقولة. لقد علمتُ بفضل ألمعيّة تحقيقاتك أنت أنّه عاد على متنِ القطار المتوجّهِ إلى محطّة جسر لندن. ومنذ ذلك الوقت دأب عملائي على تفتيشِ المنطقة، وأسعفَ الحظُّ اثنَيْن منهم فعثرا عليه في الشارع».

«أفترض أنّك تشير إلى تلك العصابة من الصبية الأشرار الذين تستخدمهم. ولو كنتُ مكانَك، يا سيّد هولمز، لابتعدتُ عنهم. لا خيرَ سيأتي من ورائهم. جميعهم يمارسون اللصوصيّة والنشل عندما لا يجدون تشجيعًا من جانبك. هل هناك أيُّ أثرٍ للعقد؟»

«لا، لا يبدو أنّ هناك أيَّ أثرٍ ظاهر له. لكنّني لم أحظَ بفرصةٍ بعد لتفتيش الغرفة بكاملها».

«إذًا، قد يجدر بنا أنْ نبدأ عملَنا بتفتيش الغرفة».

قَرَنَ لستراد القولَ بالفعل فتفحّص الغرفة بعناية. كانت مكانًا بادي الكآبة، فيها ستائرُ مُهَلهَلة وبساطٌ متعفّن وسريرٌ بدا متهالكًا أكثرَ من أيِّ شخص منهَك قد يكون حاول النومَ فيه. كانت على أحد الجدران مرآةٌ مكسورة، وفي إحدى الزوايا منضدةُ غسيل قذرةُ الحوض وعليها قطعةُ صابون متحجّرة فاقدة الشكل. خَلَتْ الغرفةُ من أيّ منظر، وكانت نافذتُها تطلّ على جدارٍ قرميدي مواجهٍ لها عبر زقاق ضيّق. وبالرغم من أنّ نهر التايمز لم يكن مرئيًا وبعيدًا إلى حدٍّ ما، فقد خيّم على المكان برطوبته ورائحته. وجّه لستراد بعد ذلك اهتمامَه إلى الرجل الميّت الذي كان يرتدي ملابسَ مطابقةً للوصف

الذي قدّمه كارستيرز في البداية، وهي سترةٌ ضيّقةٌ طويلة حتّى ركبتيه وصدريّةٌ سميكة وقميصٌ مزرّرة حتّى العنق. كانت كلّ هذه الملابس منشرّبةً بالدم، وقد انغرز السكّين الذي أماتَه في رقبته حتّى المقبض واخترق الشريان السباتي. وعرفتُ من دراستي كطبيب أنّ وفاته كانت فورية. فتّش لستراد جيوبَه لكنّه لم يعثر على أيّ شيء. رأيتُ الآن بعد أنْ أصبحتُ قادرًا على تفحُّصه بمزيد من الدقّة أنّ هذا الرجل الذي تتبّع كارستيرز إلى ريدجواي هول كان في أوائلِ الأربعينات من عمره، متينَ البنية، ذا منكبَيْن عريضَيْن وذراعَيْن بارزَتيْ العضلات. كان شعره قصيرًا وقد بدأ الشيبُ يتخلّله. وكان أبرزُ ما يلفت النظر فيه ندبَ وجهه البادئ عند حافّة فمه والممتدّ فوق عظم وجنته إلى جوار عينه التي بالكاد أخطأها. لقد سبق له أنْ وقف على شفير الموت مرّةً، لكنّه كان أقلّ حظًّا في المرّة الثانية.

سأل لستراد: «هل نستطيع أنْ نكونَ متأكّدين من أنّ هذا هو الرجل نفسُه الذي تطفّل على السيّد إدموند كارستيرز؟»

«في الواقع نعم. لقد تمكّن كارستيرز من التعرّف إليه».

«هل كان هنا؟»

«نعم، لفترة قصيرة. ومن المؤسف أنّه اضطُرّ إلى المغادرة». ابتسم هولمز لنفسه، وتذكّرتُ كيفَ كان علينا أنْ نحملَ كارستيرز إلى عربة وأنْ نرسلَه عائدًا إلى ويمبلدون. كان بالكاد قد لمح الجثّة، لكنّ هذه النظرة كانت كافية لإيقاعه مغمًى عليه، واستطعتُ أنْ أفهم الحالةَ التي لا بدّ وأنْ تكون قد أَلَمَّت به على متن السفينة كاتالونيا بعد المعاناة التي مرّ بها مع عصابة القلنسوة المسطّحة في بوسطن. ومن المحتمل أنْ تكون لديه الحساسية نفسها التي يتميّز بها بعضُ الفنّانين الذين يعرض أعمالَهم. وكان من الواضح تمامًا أنّ الدمَ والسُخام في برموندزي كانا أكثرَ ممّا يحتمل.

أشار هولمز إلى قلنسوةٍ مسطّحة قابعة على السرير، وقال: «هذا دليلٌ إضافي إذا كنتَ تحتاج إليه».

كان لستراد قد حوّل اهتمامَه في هذه الأثناء إلى علبة سجائر موضوعة على طاولة قريبة. فحصَ العلامة. «أولد دجادج...».

«أظنّ أنّك ستكشفُ أنّ هذه السجائر من إنتاج شركة غودوين وشركاه في نيويورك. لقد عثرتُ على عقب إحدى هذه السجائر في ريدجواي هول».

«هل فعلتَ حقًّا؟» أطلقَ لستراد زفرةَ تعجُّب صامتة، وقال: «أفترض أنّ في وسعِنا استبعادَ فكرةِ أن يكونَ صديقُنا الأميركي قد وقع ضحيّة اعتداء عرضيّ؟ هذا بالرغم من أنّ اعتداءاتٍ كثيرةً من هذا النوع وقعت في هذا الجوار، ومن المحتمل أيضًا أنْ يكون هذا الرجل عاد إلى غرفته وفاجأ شخصًا أو أشخاصًا يبحثون فيها عمّا يسرقونه، فنشب عراكٌ واستلّ أحدُهم سكينًا، وهكذا انتهى الأمر...».

قال هولمز معقّبًا: «أظنّ أنّ ذلك مستبعد. سيبدو كأكثرَ من محضِ مصادفة أنْ يكونَ رجلٌ وصل حديثًا إلى لندن ومن الواضح أنّه لا يبيّت نوايا حسنة، قد لقي حتفَه فجأةً بهذه الطريقة. وما حدث في غرفة الفندق هذه لا يمكن أنْ يكونَ إلّا نتيجةً لنشاطاته في ويمبلدون. ثم هناك وضعيةُ الجثّة وزاويةُ إقحام السكّين في عنقه. يبدو لي أنّ المهاجم كان ينتظره قربَ الباب في الغرفة المظلِمة لأنّه لم تكن هناك شمعةٌ مضاءة عندما وصلنا. لقد دخل إلى الغرفة وهوجم من خلف. وإذا نظرتَ إليه، تستطيع أنْ ترى أنّه كان رجلًا قويًّا قادرًا على الاعتناء بنفسه. لكنّه بوغتَ في هذه الحالة وقُتِل بضربةٍ واحدة».

قال لستراد بإصرار: «تظلّ السرقة دافعًا محتملًا للجريمة. وعلينا أنْ نأخذَ في الحسبان مسألةَ الجنيهات الخمسين والعقد. إذا لم يكن المالُ والعقدُ هنا، فأين هُما؟»

«أنا واثقٌ بأنّنا سنعثر على العقد في أحد محلّات الرهن في شارع بريدج لين. هذا الرجل كان قد عاد من هناك للتوّ قبل مقتله. ويبدو من المؤكّد أنّ الشخص الذي قتله – كائنًا من يكون – أخذ المال. لكنّني أميلُ إلى الظنّ أنْ هذا لم يكن السببَ الرئيسي للجريمة. ربّما ينبغي أنْ تسأل نفسَك عمّا أُخِذ من الغرفة سوى ذلك. لدينا جثّة بدون أوراق ثبوتيّة. أغلبُ الظنّ أنّ زائرًا من أميركا قد يحمل جواز سفر أو رسائلَ تعريف ربّما للتوصية به لدى مصرف، يا لستراد. وقد لاحظتُ أنّ جزدانه مفقود. هل تعرف الاسم الذي استعملَه عند نزوله في الفندق؟»

«قال إنّ اسمه بنجامين هاريسون».

«وهذا بالمناسبة هو اسمُ الرئيس الأميركي الحالي».

قال لستراد مقطِّبًا وجهه: «الرئيس الأميركي؟ بالطبع. لقد كنتُ مدركًا لذلك. لكنْ مهما يكن الاسم الذي اختاره فإنّنا نعرف من هو بالضبط. إنّه كيلان أودوناهيو الذي أتى أخيرًا من بوسطن. هل ترى الندبَ على وجهه؟ إنّه جرحُ رصاصة. لا تَقُلْ لي إنّك ستجادلني في ذلك!»

التفت هولمز إليّ، وأومأتُ أنا برأسي، وقلت: «هذا بالتأكيد جرحُ سلاح ناري. لقد رأيتُ جروحًا شبيهةً كثيرة في أفغانستان. وأعتقد أنّه أصيبَ به قبلَ حوالى سنة واحدة».

قال لستراد مستنتجًا بنبرةِ انتصار: «وهذا ينطبق تمامًا على ما أبلغني إيّاه كارستيرز. ويبدو لي أنّنا وصلنا إلى نهاية هذه الواقعةِ المؤسفة برمّتها. لقد جُرح أودوناهيو أثناء تبادل إطلاق النار في مبنى بوسطن عندما قُتِل شقيقُه التوأم، ثمّ جاء إلى إنكلترا في مهمّةِ ثأر. وهذا كلّه بادٍ بوضوحٍ للعيان كرمحٍ مستقيم».

قال هولمز معترِضًا: «في رأيي أنّ هذا الوضوح ما كان لينتقصَ كثيرًا لو استُخدِم رمحٌ مستقيم كأداة للجريمة. ولعلّك تستطيع، يا لستراد، أنْ تشرحَ لنا بالتالي مَن قتل كيلان أودوناهيو، ولماذا؟»

«حسنًا. سيكون المشبوهُ البديهيُّ الرئيسيّ إدموند كارستيرز نفسَه».

«باستثناء أنّ السيّد كارستيرز كانَ معنا في وقت ارتكاب الجريمة. يُضاف إلى ذلك أنّني لا أعتقدُ حقًّا أنّه يمتلك ما يكفي من برودة الأعصاب وقوّة الإرادة لتوجيه الضربة بنفسه بعد أنْ شاهدتُ بنفسي ردَّ فعله عندما اكتشفنا الجثّة. كما أنّه لم يكن يعرف مكانَ إقامة الضحيّة. وعلى حدّ علمي، لم يمتلك هذه المعلومةَ أيُّ شخص في ريدجواي هول لأنّنا نحن أنفسنا لم نُبلَّغ بها إلّا في اللحظة الأخيرة فعلًا. ولعلّي اسألكَ أيضًا لماذا يحمل علبة سجائر معدنيّة عليها حرفا WM إذا كان هو كيلان أودوناهيو حقًّا؟»

«أيّ علبة سجائر معدنيّة؟»

«إنّها على السرير، وهي مغطّاةٌ جزئيًا بالملاءة. وهذا يفسّر بلا شكّ لماذا لم ينتبه القاتلُ أيضًا إلى وجودِها».

عثر لستراد على العلبة وتفحّصها بسرعة، وقال: «أودوناهيو كانَ لصًّا وليس هناك سببٌ للظنّ أنّه قد لا يكون سرقها».

«هل هناك أيُّ سبب للظنّ إنّه سرقها فعلًا؟ إنّها لسيت غرضًا ثمينًا. إنّها مصنوعةٌ من الصفيح والحرفان مدهونان عليها».

فتح لستراد العلبةَ في هذه الأثناء ووجدها فارغة. أغلقها بقوّة، وقال: «هذا كلُّه كلامٌ فارغ تمامًا. مشكلتُك، يا هولمز، هي أنّ لديك نزعةً لتعقيد الأمور. وأتساءل أحيانًا ما إذا كنتَ لا تتعمّد فعلَ ذلك، وكأنّك تحتاج إلى أنْ ترتفع الجريمة إلى مستوى التحرّي بحيث يجب أنْ تكون استثنائيّةً إلى درجة كافية لتستحقّ أنْ تُحَلّ. كان الرجل الموجود في هذه الغرفة أميركيًّا، وسبق له أنْ أُصيب بجراح في تبادلٍ لإطلاق النار. وقد شوهد مرّةً في منطقة ستراند ومرّتَيْن في ويمبلدون. وإذا كان قد زار فعلًا محلَّ الرهنيّات الذي تتحدّث عنه فسنعرف أنّه هو اللصّ الذي سرق خزانة كارستيرز الحديد. بعد ذلك سيكونُ من السهل إلى درجةٍ كافية استنتاجُ ما حدث هنا. ولا ريبَ في أنّ أودوناهيو أقام علاقاتٍ إجراميةً أخرى هنا في لندن. ومن المحتمل جدًّا أنْ يكون قد استأجر أحد المجرمين ليساعدَه في تنفيذ انتقامه. تشاجر الاثنان فاستلّ الرجلُ الآخر سكّينًا وهذه هي النتيجة!»

«هل أنت متأكّد ممّا تقول؟»

«أنا متأكّد بقدر ما يلزمني أنْ أكون».

«حسنًا، سوف نرى. لكنْ لم تعد هناكَ فائدة من مناقشة الموضوع هنا، ربّما تستطيع مالكةُ الفندق أنْ تنوّرَنا».

لكنّ السيّدة أولدمور التي كانت تنتظر الآن في المكتب الصغير الذي شَغَله الخادم من قبل، لم تمتلك معلوماتٍ كثيرةً تضيفُها. كانت امرأةً شائبةَ الشعر متجهّمةَ الوجه جالسةً هناك وذراعاها ملتفّتان حول جسمها وكأنّها تخشى أنْ يُلوِّثَها المبنى إلّا إذا أبعدت نفسَها عن جدرانه قدرَ استطاعتها. كانت تعتمر قبّعةً صغيرة وتغطّي كتفيها بوشاحٍ من الفرو، وقد ارتعدتْ عندما فكّرت في الحيوان الذي أُخِذ منه هذا الفرو أو في الطريقة التي انتهت بها حياتُه. وبدا موتُ هذا الحيوان جوعًا كاحتمالٍ مرجَّح.

قالت بلهجتها العامّية: «استأجر الغرفةَ لأسبوع ودفع لي جنيهًا. سيّد أميركي نزل للتوّ من باخرة في ليفربول. هذا ما قاله هو لي. لم يتكلّم كثيرًا. كانت هذه زيارتَه الأولى للندن. هو لم يقلْ ذلك لكنّني استطعتُ أن أحرزَ ذلك لأنّه لم تكن لديه أيُّ فكرة عن الأماكن والمسالك وكيف يجد طريقَه. قال إنّه أتى لرؤية شخص في ويمبلدون وسألَني كيف يصل إلى هناك. فقلتُ له ‹ويمبلدون – هذه منطقةٌ راقية يسكنها أميركيّون أثرياء كثيرون يمتلكون منازلَ فخمة – فلا تخطئ›. لم تبدُ عليه أيُّ سمةٍ من سمات الأناقة وكان متاعُه قليلًا ولباسُه مهلهلًا، ثمّ كان على وجهه ذلك الجرح القبيح. قال لي: ‹سأذهب إلى ويمبلدون غدًا لأنّ ثمّة شخصًا هناك يدين لي بشيء ما وأنا عازمٌ على تحصيل هذا الدين›. استطعتُ أنْ أفهمَ من طريقة كلامه أنّه كان ينوي شرًّا وخمّنتُ في داخلي آنذاك وحيثُ كنت أنّه قد يتعيّن على هذا الشخص – كائنًا من يكون – أنْ ينتبهَ إلى سلامتِه. توقّعتُ حدوثَ متاعب، لكنْ ماذا يمكنك أنْ تفعل؟ ولو رفضتُ إسكانَ كلّ زبونٍ مريبِ الهيئة يدقّ على بابي لتوقّف عملي تمامًا. والآن، هذا السيّد هاريسون، لقد قُتِل! حسنًا، كان يجب توقُّع ذلك كما أظنّ. إنّه العالم الذي نعيش فيه، أليسَ كذلك، حيثُ لا تستطيع امرأةٌ محترمة أنْ تديرَ فندقًا بدون أنْ تتلطّخ الجدرانُ بالدم وأنْ تنتشرَ الجثثُ على الأرضية. ما كان ينبغي أنْ أبقى في لندن على الإطلاق. إنّها مكانٌ رهيب، رهيبٌ بكلّ معنى الكلمة».

تركناها جالسةً هناك غارقةً في أساها. وقال لستراد مودّعًا: «أنا واثقٌ بأنّنا سنلتقي ثانيةً، يا سيّد هولمز. وإذا احتجتَ إليّ فإنّك تعرف أينَ تجدني».

قال هولمز متمتمًا بعد مغادرةِ لستراد: «إذا رأيتُ نفسي يومًا في حاجةٍ إلى المفتّش لستراد ستكون الأمورُ قد وصلت إلى انسدادٍ عسير. لكنْ دعنا نذهب إلى الزقاق، يا واطسون. لقد اكتملتْ قضيّتي، ومع ذلك ما زالت هناك نقطةٌ صغيرة تحتاج إلى معالجة».

توجّهنا من أمام الفندق إلى الشارع الرئيسي، ثم دخلنا إلى الزقاق الضيّق المليء بالأقذار، والمارّ تحتَ نافذة الغرفة التي لقي فيها الأميركي حتفَه. كانت النافذةُ مرئيّةً بوضوح في حوالى منتصف الزقاق، وشاهدنا

صندوقًا خشبيًا متروكًا تحتَها تمامًا. كان من الثابت أنّ القاتل استخدم هذا الصندوق ليتمكّن من الدخول إلى الغرفة، ولم تكن النافذةُ نفسُها مُقفلةً فسَهُلَ فتحها من الخارج. ألقى هولمز نظرةً عابرةً على الأرض، لكنْ لم يظهرْ هناكَ أيُّ شيء قد يسترعي انتباهه. تتبّعنا الزقاق معًا إلى النقطة التي ينتهي فيها سياجٌ خشبيّ عالٍ وخلفَه فناءٌ خاوٍ. عُدنا من هناك أدراجَنا إلى الشارع الرئيسي، وكان هولمز مستغرقًا آنذاك في تفكير عميق، واستطعتُ أنْ أرى الضيقَ مرتسمًا على وجهه الشاحب الطويل.

قال: «أنتَ تتذكّر الصبيّ – روس – من ليلة أمس».

«لقد ظننتَ أنّه كان يتكتّم على أمرٍ ما».

«والآن أنا متأكّد من هذا الأمر. كان أمامه مجالُ رؤيةٍ واضح من حيثُ وقفَ منتظرًا. كان يرى بوضوح كلًّا من الفندق والزقاق المسدود في آخره كما رأينا. لذلك لا يمكن القاتل أنْ يكونَ قد دخل إلّا من الشارع، ومن المحتمل جدًّا أنْ يكون روس قد رأى مَن هو».

«لقد بدا مضطربًا بكلّ تأكيد. لكنْ لماذا لم يُبلّغنا إنْ يكن قد رأى شيئًا؟»

«لأنّه كانت لديه خطّتُه الخاصّة، يا واطسون. كان لستراد محقًّا في ناحية معيّنة. هؤلاء الفتية يعيشون بدهائهم في كلّ ساعة من حياتهم. وهم مضطرّون إلى تعلّم هذه الأساليب لكي يبقوا على قيد الحياة. وإذا ظنّ روس أنّ هناك إمكانيّةً لكسب مال فسوف يتصارع مع الشيطان نفسه! ومع ذلك يوجد هنا أمرٌ لا أفهمه على الإطلاق. ما هو الشيءُ الذي يمكن هذا الصبيّ أنْ يكون قد رآه؟ طيف شخصٍ كَشَفه ضوءُ مصباح الغاز وهو يجري في ممرٍّ إلى أنْ اختفى عن الأنظار. ربّما سمع صرخةً عندما سُدِّدت الطعنة. بعد ذلك بلحظات، يظهَر القاتلُ من جديد راكضًا ليتوارى في ظلام الليل. روس يبقى حيثُ هو وبعد قليل نصل نحن الثلاثة».

قلت: «كان خائفًا. التبس عليه الأمر فظنّ أنّ كارستيرز ضابطُ شرطة».

«كان ذلك أكثرَ من مجرّدِ خوف. أميل إلى القول إنّ الفتى كان واقعًا في قبضةِ ما هو أقربُ إلى الهلع. لكنّني افترضتُ...». لطم جبينَه بيده لطمةً

قوية، وقال: «علينا أنْ نجده من جديد وأنْ نتكلّم معه. أرجو أنْ لا أكونَ قد ارتكبتُ خطأً جسيمًا في حسابي».

توقّفنا في مكتب بريد ونحن في طريق عودتنا إلى شارع بيكر ستريت، وأرسل هولمز برقيةً ثانية إلى ويغينز مساعدِه الأوّل في قيادةِ قوّته اللانظامية الصغيرة. لكنّ ويغينز لم يأتِ إلينا حتّى بعد مرور أربع وعشرين ساعة. وما هي إلّا فترةٌ قصيرة حتّى سمعنا النبأ الأسوأ.

لقد اختفى روس.

6

مدرسة كورلي غرينج للفتيان

في عام 1890 الذي أكتبُ عنه كان حوالى خمسةُ ملايين ونصف مليون شخص يعيشون في المساحةِ البالغة ستّمائة ميل مربّع التي تغطّيها المنطقةُ المعروفةُ بدائرة شرطة العاصمة لندن. ولطالما تعايش الجاران الدائمان – الغنى والفقر – متنافرَيْن جنبًا إلى جنب آنذاك كما في كلّ وقت. وبعد أنْ أصبحتُ شاهدًا على كلّ هذه التغيُّرات الهائلة على مرّ السنين، يتراءى لي أحيانًا أنّه كان ينبغي أنْ أقدّم وصفًا أكثر تفصيلًا للفوضى المستشرية في المدينة التي عشتُ فيها، ربّما على غرار ما فعل غيسينغ – أو ديكنز – قبل خمسين عامًا. وكلُّ ما أستطيعُ قولَه دفاعًا عن نفسي إنّني كنتُ كاتبَ سيرة لا مؤرِّخًا ولا صحافيًّا، وإنّ مغامراتي قادتني دائمًا وبدون استثناء إلى مسالك الحياة الأكثرَ رفعةً – المنازل الأنيقة، الفنادق، النوادي الخاصّة، ومدارس الحكومة ومكاتبها. صحيحٌ أنّ عملاءَ هولمز كانوا ينتمون إلى جميع الطبقات (ولعلّ شخصًا ما يتوقّف يومًا للتفكير في أهمّية هذا الواقع)، لكنّ الجرائم الأشدّ إثارةً للاهتمام، وهي الجرائم التي اخترتُ أنْ أسردَ وقائعها، كانَ يرتكبُها في الغالب أناسٌ ميسورون.

مع ذلك، أصبح من الضروري الآن التركيزُ على الأعماق الدنيا للحمأةِ الكبيرة لمدينة لندن التي أسماها غيسينغ «العالم السفليّ» لفهم استحالةِ المهمّة التي كنّا في صددِها. كان علينا أنْ نعثر على طفل، على صعلوك

مسكين واحد بين كثيرين من أمثاله. وإذا كان هولمز محقًّا وكان هناك خطرٌ متربّص، فلم يكن لدينا وقتٌ نُضيّعه. أين نبدأ؟ لن تسهّل حيويةُ المدينة استفساراتنا، فالسكّان يتنقّلون باستمرار بين منزل ومنزل ومن شارع إلى آخر في حركةٍ شبهِ سرمدية، فلا يعرف إلّا قليلون أسماءَ جيرانهم، حتّى المقيمين إلى جانبهم. ومن أسباب هذا الحراك عملياتُ إزالة أحياء الصفيح والتوسُّع في مدّ خطوط السكك الحديد، بالرغم من أنّ كثيرين من سكّان لندن أتوا إليها أصلًا بروحٍ لا يقرّ لها قرار ولا تسمح لهم بالإقامة طويلًا في مكان واحد. كانوا يتنقّلون كالغجر ويتتبّعون أيَّ عمل يستطيعون الحصول عليه، فيقطفون الثمار ويشتغلون في البناء في الصيف. وعندما يحلّ الطقسُ البارد ينكمشون على أنفسهم ويجهدون في البحث عن الفحم والفضلات. وقد يبقون لفترةٍ معيَّنة في مكان واحد، لكنْ عندما تنفد نقودُهم، تدبّ فيهم الحركة ويبدأون ترحالهم من جديد.

ثمّ كانت هناك اللعنةُ الأسوأ لعصرنا، وهي اللامبالاة التي شَرَّدت عشراتِ آلاف الأطفال في الشوارع يتسوّلون وينشلون ويسرقون. أمّا غيرُ القادرين منهم على تدبُّر أمرهم فيموتون صامتين مجهولين منبوذين وذووهم غيرُ مهتمّين. هذا إنْ كان هؤلاء على قيد الحياة. كان هناك أطفال يتشاركون أماكنَ النوم في مآويَ رخيصة بشرط أنْ يجد واحدُهم حصّته من أجرة المبيت، فينحشرون مزدحمين معًا في ظروف تكاد لا تصلح للبهائم. كان أطفالٌ ينامون على الأسطح وفي زرائب سوق سميثفيلد ماركت وفي المجاري وحتّى في حُفَرٍ داخل أكوام الفضلات في منطقة مستنقعات هاكين مارشز كما سمعت. كانت هناك جمعيّاتٌ خيرية – وهذا ما سأتحدّث عنه قريبًا – بذلت جهودًا لمساعدة هؤلاء الأطفال وتزويدهم الملابس وتعليمهم. لكنّ هذه الجمعيات كانت قليلةً جدًّا كما كان الأطفالُ كثيرين جدًّا. وحتّى عندما وصل القرن إلى نهايته، كان هناك كلُّ مبرّر لتخجلَ لندن من نفسها.

تعالَ يا واطسون. كفاك هذا الكلام. إرجع إلى قصّتنا. ولو كان هولمز حيًّا لما تغاضى عن ذلك إطلاقًا!

تملّكت هولمز حالةٌ من الاضطراب المستمرّ منذ اللحظةِ التي غادرنا فيها فندقَ السيّدة أولدمور، وظلّ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا طول النهار وكأنّه دُبّ. وبالرغم من تدخينة بدون انقطاع، فإنّه بالكاد لمس غداءَه أو عشاءَه. وشعرتُ أنا بالقلق لرؤيته ينظر مرّةً أو مرّتين إلى العلبة المغربية الجميلة التي كان يحتفظ بها على رفّ المدفأة. كنت أعلم أنّها تحتوي على إبرة طبّية، لكنْ كان من المستبعد تمامًا أنْ يلجأ هولمز إلى تهدئة نفسِه بحقنةِ محلولِ كوكايين بتركيزِ سبعة في المائة وهو في منتصفِ قضيّةٍ يعمل عليها. وكانت هذه بالتأكيد العادةَ الأسوأ بين عاداته. ولا أعتقد أنّه نام ولو لفترة قصيرة. ففي ساعة متأخّرة من الليل، وقبل أنْ أغمضَ عينيّ، سمعتُه يجرّب عزفَ لحن على كمانه الثمين من صنع ستراديفاريوس، لكنّ موسيقاه كانت بائسة وحافلةً بالنشاز، وعرفتُ أنّ قلبَه لم يكن فيها. فهمتُ تمامًا سببَ هذه الطاقة القلقة التي اجتاحت صديقي. كان قد تحدّث عن سوءِ تقديرٍ خطير، وقد أشار اختفاءُ روس إلى احتمال أنْ يكونَ حدسُه مصيبًا، وإذا ثبتت صحّةُ ذلك، فهو لن يسامح نفسَه أبدًا.

فكّرتُ في أنّنا قد نعود إلى ويمبلدون. وقد أوضح هولمز من خلال ما قاله في الفندق أنّ مغامرةَ الرجل ذي القلنسوة المسطّحة قد انتهت وأنّ القضيةَ حُلّت، وكلُّ ما بقي عليه أنْ يفعله هو تقديمُ أحد تلك الشروح التي تجعلُني أتساءل كيف أمكنني أنْ أكونَ غبيًّا إلى درجةِ أنّ رسالةً من كاثرين كارستيرز وصلت مع وجبة الفطور تُبلّغنا فيها أنّها سافرت هي وزوجُها مدّةَ أيّام قليلة للبقاء مع أصدقاء لهما في سافولك. كان إدموند كارستيرز، بطبيعته الواهنة، يحتاج إلى بعض الوقت لاستعادة رباطة جأشه، ولن يُفصِح هولمز عمّا يعرفه بدون إجراءِ مقابلةٍ شخصية معه. لذا كانَ عليّ أنْ أنتظر.

مرّ يومان إضافيّان، في الواقع، قبل عودة ويغينز إلى B221 شارع بيكر ستريت، وقد جاء بمفرده هذه المرّة. تلقّى ويغينز برقيةَ هولمز (لا أعلم كيف ولم أعرفْ أبدًا أينَ يقيم ويغينز وفي أيّة ظروف). وانهمك فورًا في البحث عن روس، لكنْ بلا جدوى. قال شارحًا بلهجته السوقية: «لقد جاء إلى لندن في آخر الصيف».

«جاء إلى لندن من أين؟»

«ليست لديّ أيُّ فكرة. عندما التقيتُه، كان يتشارك السكن في مطبخ في منطقةِ كنغركروس مع عائلةٍ مؤلّفة من تسعة أشخاص يشغلون غرفتَيْن. لقد تكلّمت معهم لكنّهم لم يشاهدوه منذ تلك الليلة في الفندق. لم يشاهده أحد. يبدو لي وكأنّه متوارٍ عن الأنظار».

قال هولمز بنبرةٍ صارمة: «يا ويغينز، أريدك أنْ تُطلِعني على ما حدث في تلك الليلة. أنتما الاثنان تبعتما الأميركي من محلّ الرهنيّات إلى الفندق. أنتَ تركتَ روس ليراقبَ المكان وجئتَ إليّ. لا بدّ وأنْ يكون قد أمضى ساعتَيْن بمفرده».

«كان روس يخادع. أنا لم أطْلب منه أنْ يخادع».

«أنا لم ألمّح إلى ذلك إطلاقًا. في آخر الأمر رجعنا كُلُّنا: السيّد كارستيرز والدكتور واطسون وأنت وأنا. روس كان هناك. أعطيتُكما النقود وصرفتُكما، فغادرتما معًا».

أجاب ويغينز: «لم نبقَ معًا لفترة طويلة. هو ذهب في سبيله وأنا ذهبتُ في سبيلي».

«هل قال لكَ أيَّ شيء؟ هل تكلّمتُما معًا؟»

«كان روس في حالةٍ نفسية غريبة، ولا ريبَ إطلاقًا في أنّه شاهد شيئًا ما...».

«عند الفندق؟ هل أبلغَك ما كان ذلك؟»

«كان هناك رجل. هذا كلُّ شيء. كان روس شديد الانفعال. إنّه في الثالثة عشرة من عمره فقط لكنّه يدركُ حقائقَ الأمور عادةً. أتعرفُ ذلك؟ حسنًا، كان روس مصدومًا في أعماق نفسه».

صحتُ: «لقد رأى القاتل!».

«لا أعلم ما رأى لكنّني أستطيع أنْ أكرّر لكما ما قاله. قال: ‹أنا أعرفُه وأستطيعُ أنْ أكسبَ شيئًا منه، شيئًا أكثرَ من الجنيه الذي نلتُه من السيّد هولمز اللعين›. سامحني يا سيّدي، لكنّ هذه كانت كلماته بالضبط. وأظنّ أنّه كان عازمًا على ابتزاز شخصٍ ما».

«هل يوجد أمرٌ آخر؟»

«فقط إنّه كان مستعجلًا للرحيل. لقد ركض واختفى في الليل. لم يذهبْ إلى كنغركروس. لا أعرف إلى أين ذهب. الأمرُ الوحيد هو أنّ أحدًا لم يشاهده منذ ذلك الوقت».

كان هولمز، وهو يستمع إلى ويغينز، متجهًما أكثر من أيّ مرّة أخرى رأيتُه فيها. اقترب الآن من الصبيّ أكثر، ومالَ بجسمه نحوه، فبدا ويغينز ضئيل الحجم جدًّا إلى جانبه. كان مصابًا بسوء التغذية سقيمًا متلبّد الشعر مزكومَ العينَيْن وبشرتُه متّسخة بقذارةِ لندن، فكان من المستحيل تمييزُه ضمنَ حشدٍ من الناس. وربّما كان هذا من الأسباب التي جعلت من السهلِ جدًّا تجاهلَ بؤس هؤلاء الأطفال. كان عددُهم كبيرًا جدًّا وكانوا جميعًا متشابهين. قال هولمز: «اسمعْني، يا ويغينز. يبدو لي أنّ روس قد يكون معرّضًا لخطر كبير».

«لقد بحثتُ عنه. فتّشتُ في كلّ مكان».

«أنا واثقٌ من ذلك. لكنْ عليك أنْ تطلعني على ما تعرفُه عن ماضيه. من أينَ أتى قبل أنْ تلتقيه. من كان أهلُه؟»

«لم يكن له أهلٌ أبدًا. كانوا قد ماتوا قبل زمن بعيد. لم يقل ولا مرّة من أين أتى وأنا لم أسألْه أبدًا. من أين تظنّ أنّ أيًا منّا يأتي؟ ما أهميّةُ ذلك؟»

«فكّرْ يا فتى. إذا وجد نفسَه واقعًا في متاعب، هل يوجد أيُّ شخص يلوذ به، هل يوجد أيُّ مكان قد يلجأ إليه؟»

هزّ ويغينز رأسه. لكنّه بدا وكأنّه يفكّر من جديد. سأل: «هل سأكسب جنيهًا آخر من هذه المسألة؟»

ضاقت عينا هولمز، واستطعتُ أنْ أرى كيف كان يُجهد نفسه ليتمالكَ أعصابه، وسأل: «هل حياةُ مواطنك رخيصةٌ إلى هذه الدرجة؟»

«لا أفهم كلمةَ مواطن. لقد كان لا شيء بالنسبة إليّ، يا سيّد هولمز. لماذا أهتمّ إذا عاش أو مات؟ وإذا لم يعد روس يُرى من جديد فهناك عشرون آخرون سيحلّون محلّه». ظلّ هولمز يحملق فيه، وما لبث ويغينز أنْ ليّن موقفه، وقال: «حسنًا، كان هناك من يعتني به، لفترةٍ ما على الأقلّ. كانت هناك هيئةٌ خيرية وفّرت له مأوى. اسمُها كورلي غرينج في هاموورث. إنّها

مدرسة للصبيان. وقال لي مرّةً إنّه كان هناك لكنّه كره المكان وهرب. كان ذلك عندما استقرّ في كنفركروس. لكنّي أظنّ أنّ من المحتمل أنْ يكون عاد إلى هناك إذا كان مذعورًا. إذا كان أحدٌ يطارده، كما يقول المثل: الأفضلُ لك هو الشيطان الذي تعرفه...».

استقام هولمز في وقفته، وقال: «شكرًا يا ويغينز. أريدك أنْ تواصلَ البحثَ عنه. أريدك أنْ تسأل عنه أيَّ شخص تقابله». أخرج هولمز قطعةً نقدية وأعطاه إيّاها، وأضاف قائلًا: «إذا وجدتَه، عليك أنْ تُحضرَه فورًا إلى هنا. ستتولّى السيّدة هادسون إطعامَكما وستهتمّ بكما إلى أنْ أعود. هل تفهمني؟»

«نعم، يا سيّد هولمز».

«هذا جيّد. واطسون، أنا واثقٌ بأنّك سترافقني، أليس كذلك؟ نستطيع أنْ نستقلّ القطار من محطة شارع بيكر ستريت».

بعد ساعة أنزلتنا عربةُ أجرة أمام ثلاثةِ مبانيَ أنيقة متجاورة على طرف طريق ضيّق يصعد بانحدارٍ شديد مسافةَ نصف ميل من قرية روكست إلى تلّة هاموورث. كان أكبرُ هذه المباني، وهو الأوسط، شبيهًا بمنزلٍ ريفيّ لنبيل إنكليزيّ وفقَ الطراز الذي كان سائدًا قبل مائة سنة بسقفٍ من القرميد الأحمر وشرفة ممتدّة على طول الطابق الأوّل. كانت واجهةُ المبنى مغطّاةً بعروق كرمةٍ بريّة قد تكتسي بأوراقٍ خضراء في الصيف، لكنّها كانت الآن عاريةً وهزيلة. كانت المنطقةُ السكنيّة كلُّها محاطةً بحقول زراعية وأمامَها مرجةٌ هابطة إلى بستان تملأه أشجارُ تفّاح عتيقة. صَعُبَ علينا أنْ نصدّقَ أنّنا كنّا قرب لندن لأنّ الهواءَ كان عليلًا والريف المحيط بنا بالغَ الجمال، أو لربّما ازدادَ جمالًا لو كان الطقسُ ألطف، فالبردُ عادَ قارسًا جدًّا أو بدأت السماءُ تمطر رذاذًا. كان المبْنيان الجانبيّان في الأصل إمّا مخزنَيْن أو مصنعَيْن للجعة لكنّهما عُدِّلا على الأرجح ليتناسبا وحاجات المدرسة. كان هناك بناءٌ رابع على الجانب الآخر من الطريق، لكنّه كان محاطًا بسور معدنيّ مُزخرَف فيه بابٌ مفتوح، وقد أعطى انطباعًا بأنّه فارغٌ لعدم وجود نورٍ أو حركة فيه. كانت هناك لافتةٌ خشبية كُتِب عليها مدرسة كورلي غرينج للصبيان. لاحظتُ على الطرف الآخر من الحقول مجموعةً من الفتيان يعملون في مسكبة خضار، وفي أيديهم رفوش ومعاول.

قرعنا جرس الباب الرئيسي واستقبلَنا رجلٌ صارمُ الهندام يرتدي بذلةً رمادية داكنة. استمع صامتًا إلى هولمز وهو يشرح مَنْ نكون والغرضَ من زيارتنا. قال: «حسنًا يا سيّديّ. تفضّلا بالانتظار هنا...». أدخلَنا إلى المبنى وتركَنا واقفَيْن في ردهة متقشّفة كُسِيت جدرانها بألواح خشبيّة لم تُعلّق عليها إلّا صورُ بورتريه قليلة شَحُبَت حتّى كادت معالمها تختفي، بالإضافة إلى صليب فضّي. كان هناك ممرٌّ طويل يتوغّل داخلًا وعلى جانبيه عدّةُ أبواب، وأمكنني أنْ أتصوّرَ وجودَ غرفٍ صفوفٍ في الجانب الآخر، لكنْ لم يصلْ إلينا أيُّ صوتٍ من الداخل. ولفتني أنّ المكانَ كان يشبه ديرًا أكثرَ ممّا يشبه مدرسة.

ثمّ عاد الخادم، إنْ يكن هذا عملُه فعلًا، مصطحبًا معه رجلًا قصيرًا مستديرَ الوجه، كان عليه أنْ يخطو ثلاثَ خطوات مقابلَ كلِّ خطوة لرفيقة وهو يلهث بصوتٍ عالٍ ليجاريَه. كان كلُّ شيء في هذا القادم الجديد دائريًّا، فشكلُه ذكّرني بتماثيلِ رجل الثلج التي قد أراها في أيّ وقتٍ الآن في حديقةِ ريدجنتس بارك، لأنّ رأسَه كان كرةً وجسمُه كرةً. وكانت بساطةٌ تشعّ من وجهِه يمكن التعبيرُ عنها بجزرةٍ وقطعٍ من الفحم كالتي تكمّل وجهَ رجل الثلج. كان في حوالى الأربعين من عمره، أصلعَ الراس باستثناءِ قليل من الشعر الداكن حولَ أذنَيْه، وثيابه من الطراز الذي يرتديه رجالُ الدين بما في ذلك قبّة القساوسة التي شكّلت دائرةً أخرى حول عنقه. وفيما كان يتقدّم نحونا، افترّ ثغرُه عن ابتسامةٍ عريضة، وفَرَدَ ذراعَيْه مرحّبًا.

«السيّد هولمز! إنّك تُسبِغ علينا شرفًا عظيمًا، ولقد قرأتُ عن إنجازاتك بطبيعة الأمر، يا سيّدي. أعظمُ تحرٍّ استشاريّ في البلاد موجودٌ هنا في كورلي غرينج! هذا أمرٌ رائع. وأنتَ لا بدّ وأنْ تكون الدكتور واطسون. لقد قرأنا رواياتك في الصفّ، والفتيانُ مأخوذون بها. لن يصدّقوا أنّكما هنا. هل لديكما وقت للتحدّث إليهم.

إنّي أستعجل الأمور كثيرًا، فسامحاني. لا أستطيع كبحَ حماستي. أنا الموقّر شارلز فيتزسيمونز. لقد أبلغني فوسبر أنّكما هنا في مسألة خطيرة. فوسبر يساعد في إدارة هذه المؤسسة كما يعلّم الحساب والقراءة. رجاءً

تفضّلا معي إلى مكتبي. يجب أن تتعرّفا إلى زوجتي وربّما نستطيع أنْ نقدّمَ إليكما الشاي».

تبعنا الرجلَ القصير عبر ممرٍّ ثانٍ وبابٍ أوصلنا إلى غرفةٍ أكبرَ وأبردَ من أنْ تكون مريحةً بالرغم من الجهد الذي بُذِل بوضع خزائنَ للكتب وتوزيع أريكة وعددٍ من الكراسي حول موقد مفتوح. كانت طاولةُ مكتب ضخمة تكدّستْ فوقها الملفّاتُ عاليًا قد وُضِعت في مكانٍ يُتيح النظرَ خارجًا إلى المرجة والبستان الواقع خلفها عبر نوافذ كبيرة. كان الممرُّ باردًا، لكنّ البردَ هنا كان أشدّ بالرغم من النار المشتعلة فوق منصب الموقد. وكلّ ما كان ينتج من اللهيبِ الأحمر ورائحةِ الفحم المحترق وهْمُ دفءٍ لا أكثر. اشتدّتْ غزارة المطر في هذه الأثناء وصار يطرق على النوافذ متدفّقًا على زجاجها وخاطفًا اللونَ من الحقول. ومع أنّ الوقت لم يتجاوز منتصفَ فترة الأصيل، فقد بدا وكأنّ الليل قد خيّم.

«يا عزيزتي»، صاح مضيفُنا بحماس، «هذان هما السيّد شرلوك هولمز والدكتور واطسون. لقد جاءا طلبًا لمساعدتنا. يا سيّدي، هل لي أنْ أعرّفكما إلى زوجتي جوانا؟»

لم أكنْ قد لاحظتُ المرأةَ التي لبثتْ جالسةً على مقعدٍ ذي مسندَيْن في الزاوية الأشدّ ظلمةً من الغرفة تقرأ مجلّدًا من عدّةِ مئاتٍ من الصفحات وضَعَتْه على حضنها. وإذا صحّ أنّها هي السيّدة فيتزسيمونز لكانَ الاثنان زوجَيْن غير اعتياديَّيْن لأنّها كانت طويلةَ القامة بصورة ملحوظة وأكبرَ منه عمرًا بعدّة سنوات حسب ظنّي. كان كلُّ ملبسِها أسودَ اللون، وهو كنايةٌ عن ثوبٍ من الساتان قديمِ الطراز له قبّةٌ عالية ملتصِقةٌ برقبتها وكُمّان ضيّقان حول ذراعيها وتطريزٌ بالخرز على الكتفين. كان شعرُها معقوصًا في عقدةٍ خلفَ رأسِها، وبدت أصابعها طويلةً ونحيلة. ولو كنتُ ولدًا لشبّهتُها بساحرة. وفيما كنتُ أنظر إلى الاثنين ساورتْني فكرةٌ لئيمةٌ ربّما هي أنّني أستطيع أنْ أفهمَ لماذا فضّل روس الهروب. ولو كنتُ أنا في مكانه، فمن المرجّح جدًّا أنْ أكون فعلت الشيء ذاتَه.

سألتْ السيّدة: «هل تودّان تناول الشاي؟». كان صوتُها رفيعًا مثل كلّ شيء آخر فيها، وقد تعمّدَتْ أنْ تتكلّم بلهجةٍ مصقولة.

أجاب هولمز: «لن نسبّب لكما إزعاجًا، وكما تعلمان نحنُ هنا من أجلِ مسألةٍ مستعجلة إلى حدٍّ ما. إنّنا نبحث عن صبيّ، فتى شوارع مشرّد لا نعرف عنه إلّا أنّ اسمَه روس».

«روس؟ روس؟». نقّب القسّ في ذاكرته، وقال: «آه، نعم. روس الصغير المسكين. نحن لم نَرَهُ منذ فترةٍ من الزمن، يا سيّد هولمز. لقد أتى إلينا من خلفيةٍ بالغةِ الصعوبة، علمًا أنّ كثيرين من الفتية الذين نرعاهم يأتون من خلفيّات مشابهة. وهو لم يبقَ معنا طويلًا».

قاطعته زوجتُه قائلة: «كان طفلًا صعبًا وسيّئ الطباع. أبى إطاعةَ التعليمات وعطّل الصبيةَ الآخرين. لقد رفض أنْ يتكيّف».

«إنّكِ قاسيةٌ جدًّا، قاسيةٌ جدًّا يا عزيزتي. لكنْ من الصحيح، يا سيّد هولمز، أنّ روس لم يكنْ ممتنًّا قط للمساعدة التي حاولنا تقديمَها إليه وأنّه لم يتقبّل أبدًا أساليبَنا. لم يبقَ هنا إلّا أشهرًا قليلة قبل هروبه. كان ذلك في الصيف الماضي، في شهر تمّوز أو آب. وعليّ مراجعةُ سجلّاتي لأتأكّد. هل لي أنْ أسأل لماذا تبحثان عنه؟ آمل أنْ لا يكونَ قد ارتكب فعلًا مشينًا».

«كلّا، على الإطلاق. لقد شهد أحداثًا معيّنةً في لندن قبل لياليَ قليلة، وكلُّ ما أريدُ معرفتَه هو ما رآه لا أكثر».

«يبدو الأمرُ في غاية الغموض، ألا توافقين يا عزيزتي؟ لن أطلبَ إليكَ أنْ تشرح أكثر. نحن لا نعلم من أينَ جاء ولا إلى أين ذهب».

«إذًا، لن آخذ مزيدًا من وقتِك». استدار هولمز نحو الباب ثم بدا أنّه غيّر رأيَه، فقال: «مع ذلك قد تودُّ قبلَ رحيلنا أنْ تعطيَنا بعضَ المعلومات عن العمل الذي تقومان به هنا. هل كورلي غرينج ملككُما؟»

«أبدًا، يا سيّدي. زوجتي وأنا نعمل كموظّفيْن لدى جمعيّةٍ تحسين أوضاع أطفال لندن». أشار بإصبعه إلى صورةِ سيّدٍ أرستقراطيّ مستندٍ إلى عمود، وقال: «هذا هو المؤسّس، السيّد كريسبين أوغيلفي الذي لم يعد على قيد الحياة. لقد اشترى هذه المزرعةَ قبل خمسين سنة، ونحن قادرون على إبقائها بفضل وصيّته. لدينا خمسةٌ وثلاثون فتًى هنا انتُشِلوا جميعًا من شوارع لندن وأُنقِذوا من مستقبلٍ يُمضونه في لمّ الفضلات أو من تبديد

ساعاتِ عمرِهم في ما لا طائلَ تحتَه. إنّنا نقدّم إليهم الطعامَ والمأوى. والأهمُّ من ذلك أنّنا نوفّر لهم تعليمًا مسيحيًا جيّدًا. وبالإضافة إلى القراءة والكتابة والرياضيّات الأساسية يتعلّم الفتيةُ صناعة الأحذية والنجارةُ والخياطة. ومن المؤكّد أنّكما لاحظتما الحقولَ الزراعية. نمتلك مائةَ إيكر ونزرع كلّ غذائنا تقريبًا. كذلك يتعلّم الفتية كيف يربّون الخنازير والدواجن. وعندما يغادرون هذا المكان، سيسافر كثيرون منهم إلى كندا وأوستراليا وأميركا ليبدأوا حياةً جديدة. ونحن على اتّصال مع عدد من المزارعين الذين سيسعدُهم الترحيبُ بهم وإعطاؤهم بدايةً جديدة».

«كم معلّمًا لديكما؟»

«هناك أربعةٌ منّا فقط بالإضافة إلى زوجتي، ونحن نتقاسم المسؤوليّات في ما بيننا. لقد قابلتما السيّد فوسبر عند المدخل. إنّه الحاجب ويعلّم الرياضيّات والقراءة، كما أظنُّني قلتُ قبل قليل. لقد وصلتُما في فترةِ دروس بعد الظهر، والمعلّمان الآخران موجودان في صفَّيْهما».

«كيف وصل روس إلى هنا؟»

«لقد عُثِر عليه بلا ريب في أحد المهاجع العادية أو المآوي الليلية. وللجمعيةِ متطوّعون يعملون في المدينة ويجلبون الفتيانَ إلينا. وفي وسعي أنْ أقوم باستقصاءات إضافية إذا رغِبْتُما في ذلك مع أنّنا لم نسمع أيَّ شيء عنه منذ زمن طويل، ما يجعلني أشكّ في أنّنا سنتمكّن من تقديم أي مساعدة».

قالت السيّدة فيتزسيمونز: «لا نستطيع إرغامَ الفتية على البقاء».

«إنّ الأغلبيةَ العظمى منهم تختار البقاء وستنشأ لتصبح مصدرَ فخرٍ لنفسها وللمدرسة. لكن هناك بين حين وآخر مشاغبين لا يُظهِرون أيّ امتنان على الإطلاق».

«علينا أنْ نؤمن بصلاحِ كلِّ طفلٍ، يا جوانا».

«أنتَ رقيقُ القلب أكثر ممّا ينبغي، يا تشارلز. إنّهم يستغلّون طيبتك».

«لا يمكن لومُ روس على وضعه. كان أبوه جزّارًا انتقلت إليه عدوى من خروف مريض فمات ميتةً بطيئةً نتيجةً لذلك. أدمنَتْ أمُّه الكحول وماتت أيضًا. وتولّت رعايةَ روس لفترةٍ من الزمن شقيقةٌ أكبرُ منه عمرًا، لكنّنا لا نعرف

ما آل إليه مصيرُها. آه! نعم. أتذكّر الآن. لقد سألتَ كيف وصل روس إلى هنا. أُلقي القبضُ على روس بسبب السرقة من المتاجر. أشفقت عليه المحكمةُ وسلّمته إلينا».

هزّت السيّدة فيتزسيمونز رأسَها، وقالت: «كانت هذه فرصةً أخيرة. إنّني أرتعد عندما أفكّر في ما سيكون مصيرُه الآن».

«إذًا، ليست لديكما فكرة على الإطلاق عن المكان الذي قد نتمكّن من العثور عليه فيه».

«يؤسفني أنّك أهدرتَ وقتَك، يا سيّد هولمز. إنّنا لا نمتلك المواردَ اللازمة للبحث عن فتية فضّلوا أن يغادرونا. وفي الحقيقة، ماذا سيفيد ذلك؟ وكما يُقال ‹أنتَ تخلّيتَ عنّي لذلك تخلّيتُ أنا عنكَ أيضًا›. هل تستطيع أنْ تطلِعَنا على ما شهده روس ولماذا يهمّك العثورُ عليه إلى هذه الدرجة؟»

«نعتقد أنّه معرّض لخطر».

«جميعُ هؤلاء الصبية المشرّدين معرّضون لخطر». صفّق فيتزسيمونز بيديه وكأنّ فكرةً مفاجئةً خطرت له. قال: «لكنْ هل سيُفيدُكما ربّما التكلُّم مع بعضِ رفاق صفّه السابقين؟ من المحتمل دائمًا أنْ يكون قد أبلغ واحدًا منهم شيئًا فضّل أنْ يكتمه عنّا. وإذا شئتما مرافقتي، ستتيحان لي الفرصةَ لأُريَكما المدرسة ولأشرحَ لكما عملَنا أكثرَ قليلًا».

«سيكون هذا لُطفًا كبيرًا من جانبك، يا سيّد فيتزسيمونز».

«هذا من دواعي سروري أنا».

غادرنا المكتب ولم ترافقنا السيّدة فيتزسيمونز، وظلّت جالسةً على مقعدها في الزاوية ورأسُها غارقٌ في مجلّدها الثقيل.

تمتم القسّ فيتزسيمونز قائلًا: «أرجوكما أنْ لا تؤاخذا زوجتي. قد تظنّان أنّها قاسيةٌ قليلًا، لكنْ في استطاعتي أنْ أؤكّد لكما أنّها تعيش من أجل هؤلاء الفتيان. إنّها تعلّمُهم أصول الدين وتساعد على غسل الثياب وفي تمريضهم عندما يعتلّون».

سألتُه: «أليس لديكما أولادٌ أنجبتماهم؟»

«ربّما لم يكن كلامي واضحًا، يا دكتور واطسون. لدينا خمسةٌ وثلاثون طفلًا هم بمثابة أولادنا ونحن نعاملهم وكأنّهم من لحمنا ودمنا تمامًا».

عاد بنا عبرَ الممرّ الذي لاحظتُه في البداية، ودخلْنا إلى غرفةٍ كانت مشبعةً برائحة الجلد وخيوط القنّب. كان في الغرفة ثمانيةُ أو تسعةُ صبيان، جميعُهم نظيفون ومُهَندَمون. كانوا يرتدون مآزر ويركّزون انتباهَهم صامتين على الأحذية الموضوعة أمامهم تحت إشراف الرجل الذي التقيناه عند الباب، السيّد فوسبر. نهضوا جميعًا عندما دخلنا ووقفوا صامتين احترامًا لنا، لكنّ فيتزسيمونز أومأ إليهم وقال بنبرةٍ مرحة: «إجلسوا يا فتيان! إجلسوا! هذا السيّد شرلوك هولمز من لندن الذي جاء لزيارتنا. دعونا نُريه كم نحن مجدّون في العمل». واصل الفتية عملَهم. «هل كلُّ شيء على ما يرام، يا سيّد فوسبر؟»

«في الواقع نعم يا سيّدي».

افترّ وجهُ فيتزسيمونز عن ابتسامة عريضة تعبيرًا عن رضاه، وقال: «جيّد! جيّد! أمامَهم ساعتان أُخريان من العمل ثم لديهم ساعةُ فراغ قبل موعد تناول الشاي. نهارنا ينتهي في الساعة الثامنة مساء بالصلاة ثم النوم».

انطلق من جديد وساقاه القصيرتان تعملان بجهد لتحريكه إلى الأمام، واتّجه هذه المرّة إلى الطابق الأعلى ليُرينا قاعةَ النوم التي بدت بسيطةَ التجهيز إلى حدٍّ ما، لكنّها كانت نظيفةً جدًّا وحسنةَ التهوية، وكانت الأسِرّة مصفوفةً مثل جنود وبين السرير والآخر مسافةُ أقدام قليلة. رأينا المطابخ وقاعةَ الطعام ومشغلًا، ثم زرنا في الختام صفًّا كان يُلقى فيه درس. كان الصفُّ غرفةً مربّعة تضمّ مدفأةً صغيرةً في إحدى زواياها ولوحًا أسود على أحد الجدران. وعُلِّقتْ على جدار آخر لوحةٌ مطرّزة بنَصّ السطر الأوّل من أحد المزامير. وكانت هناك كتبٌ قليلة مرتّبة بعناية على رفوف وعـدّادةُ خرز وأغراضٌ مختلفة – أكواز صنوبر وأحجار وعظام حيوانات – لا بدّ وأنْ تكون قد جُمِعت في رحلات ميدانية. كان رجلٌ شابٌّ جالسًا يكتب في دفتر بينما وقف أمام التلاميذ فتًى في الثانية عشرة أو الثالثةَ عشرة من عمره كعريفٍ للصف يقرأ على رفاقه نصًّا من إنجيلٍ بدت عليه كثرةُ الاستعمال. توقّف الفتى عن القراءة فورَ دخولنا إلى الغرفة. كان هناك خمسةَ عشر تلميذًا يجلسون في

ثلاثة صفوف من المقاعد يُصغون بانتباه. وقفوا أيضًا احترامًا لنا وركَزوا نظرهم علينا بوجوه شاحبة تنمّ عن الجدية.

قال القسيس بصوتٍ جهوريّ: «اجلسوا من فضلكم، أعذرنا على هذه المقاطعة، يا سيّد ويكس. هل كان هذا كتاب أيّوب الذي سمعتُه للتوّ يا هاري؟ ‹عريانًا خرجتُ من بطن أمّي وعريانًا أعود إلى ...»[1].

«نعم، يا سيّدي».

«جيّد جدًّا. اختيار ممتاز للنصّ». أشار فيتزسيمونز إلى المعلّم الذي ظلّ وحدَه جالسًا. كان في أواخر العشرينات من عمره وله وجهٌ غريبٌ مُلْتَوٍ وشعرٌ بنّيّ أشعث مُرتَدٌّ إلى جهةٍ واحدة من رأسه؛ وقال: «هذا روبرت ويكس، إنّه خرّيج كلّية باليول كولدج. كان السيّد ويكس يبني لنفسِه مسيرةً مهنيةً ناجحة في المدينة، لكنّه قرّر أنْ ينضمّ إلينا لمدّة سنة لمساعدة الأشخاص الأقلّ حظًّا منه. هل تذكر الصبيّ روس، يا سيّد ويكس؟»

«روس؟ هو كان الفتى الذي هرب».

«هذا السيّد هنا هو شرلوك هولمز، التحرّي الشهير بلحمه ودمه». أثارت هذه الكلمات همهماتِ تعرُّف من بعض الفتية. «السيّد هولمز متخوّفٌ من احتمالِ أنْ يكون روس قد أوقع نفسَه في متاعب».

علّق السيّد ويكس متمتمًا: «هذا لا يفاجئني. إنّه لم يكن ولدًا سهلًا».

«هل كنتَ رفيقًا له، يا هاري؟»

«حسنًا. لا بدَّ وأنْ يكونَ أحد الموجودين في هذه الغرفة قد صادقه وربّما تكلّم معه، فيستطيع بالتالي أنْ يساعدَنا الآن على العثور عليه. ستتذكّرون، يا فتيان، أنّنا تكلّمنا كثيرًا بعد رحيل روس، وقد سألتكم جميعًا عن المكان الذي يُحتمل أنْ يكونَ قد ذهب إليه لكنّكم لم تتمكّنوا من إبلاغي أيِّ شيء. وأناشدكم الآن أنْ تفكّروا في الموضوع مرّةً أخيرة».

أضاف هولمز: «كلّ ما أرغب فيه هو مساعدةُ صديقكم».

[1] كتاب أيّوب 1-20 (المترجم).

سادَ الصمتُ لفترة قصيرة، ثم رفع صبيّ جالسٌ في الصفّ الخلفي يده. كان شعره فاتح اللون وجسمُه واهنًا جدًّا، وقدّرتُ عمرَه بحوالى أحدى عشرة سنة. سأل: «هل أنتَ الرجلُ المذكور في الروايات؟»

«هذا صحيح. وهذا هو الرجل الذي يكتبها». كان من النادر بالنسبة إليّ أنْ أسمعَ هولمز يقدِّمُني بهذه الطريقة، وعليّ أنْ أقول إنّني سُرِرت إلى أبعد حدّ لسماعي ذلك. «هل تقرأونها؟»

«لا، يا سيّدي. إنّ فيها كلماتٍ طويلةً كثيرةً جدًّا. لكنّ السيّد ويكس يقرأها لنا في بعض الأحيان.»

قال فيتزسيمونز: «يجب أنْ ندعَكم تعودون إلى دروسكم»، وبدأ يوجّهنا نحو الباب.

لكنّ الصبيّ في الخلف لم يكن قد انتهى بعد. قال: «إنّ لروس شقيقةً، يا سيّدي».

استدار هولمز، وسأل: «في لندن؟»

«أعتقد ذلك. نعم. تكلّم عليها مرّةً. إسمُها سالي وقال إنّها تعمل في حانةٍ اسمها ذي باغ أوف نيلز[2] The Bag of Nails».

ظهرت إماراتُ الغضب على القسّ فيتزسيمونز للمرّة الأولى، وراحتْ بقعةٌ حمراء داكنة تنتشر على وجنتيه المستديرتَيْن. قال: «هذا خطأٌ كبير منك يا دانيال. لماذا لم تخبرْني بذلك من قبل؟»

«لقد نسيتُ، يا سيّدي.»

«لو كنتَ تذكّرتَ لربّما استطعنا العثورَ عليه لحمايته من أيّة متاعب قد يتعرّض لها.»

«أنا آسفٌ، يا سيّدي.»

«لن نتكلّم على هذا الأمر بعد الآن. لنذهبْ يا سيّد هولمز.»

مشينا نحن الثلاثة عائدين في اتجاه الباب الرئيسيّ للمدرسة. كان هولمز قد دفع لسائق العربة أجرًا لقاء انتظارنا، وسرّني أنْ أراه موجودًا هناك لأنّ المطر كان لا يزال ينهمر بغزارة.

[2] كيس المسامير (المترجم).

قال هولمز: «المدرسةُ مفخرةٌ لك. وأجد من المثير للاهتمام مدى ما يُبديه الفتيةُ من هدوء وانضباط».

أجاب فيتزسيمونز، وقد زال تشنُّجه مع عودته إلى دماثته الطبيعية: «أنا ممتنٌّ لكَ جدًّا. إنّ أساليبي بسيطةٌ جدًّا، يا سيّد هولمز. العصا والجزرة – بالمعنى الحرفيّ للكلام. عندما يُسيء الفتيةُ التصرُّف أضربهم. لكنْ إذا عملوا بجدّ وتقيّدوا بتعليماتنا، يجدون أنفسَهم متمتّعين بتغذية جيّدة جدًّا. وخلالَ السنوات الستّ التي أمضيتُها هنا مع زوجتي مات صبيّان، الأوّل بمرضِ قلبٍ لازَمَه منذ ولادته، والثاني بمرض السلّ. لكنّ روس هو الوحيد الذي هرب. وعندما تجده، وأنا واثقٌ بأنّك ستجده، أرجو أنْ تقنعَه بالعودة إلينا. والحياةُ هنا ليست قاسيةً إلى الدرجة التي قد تبدو عليها في هذا الطقس الكريه. وعندما تشرق الشمس ويستطيعُ الفتية أنْ يجروا على هواهم في الهواء الطلق، يمكن مدرسةَ كورلي غرينج أنْ تكون مكانًا بهيجًا أيضًا».

«أنا واثقٌ من ذلك. سؤالٌ أخير يا سيّد فيتزسيمونز – المبنى المقابل، هل هو جزءٌ من المدرسة؟»

«في الواقع، نعم. عندما جئنا إلى هنا في بادئ الأمر، كان المبنى مشغلًا لصانعِ عربات، لكنّنا عدّلناه ليتلاءم مع حاجاتنا، وهو يُستعمل الآن للحفلات والعروض العمومية. هل ذكرتُ لكما أنّ كلَّ صبيّ في المدرسة عضوٌ في فرقة موسيقية؟»

«هل كانت لديكم حفلةٌ في الآونة الأخيرة؟»

«قبل ليلتَيْن فقط. ومن المؤكّد أنْ تكونا لاحظتُما آثارَ العجلات الكثيرة. وسيشرّفني أنْ تحضرا حفلتنا الموسيقية القادمة، يا سيّد هولمز – وأنتَ أيضًا يا دكتور واطسون. وأتساءل في الواقع ما إذا كنتما تفكّران ربّما في أنْ تصبحا من المتبرّعين للمدرسة؟ إنّنا نفعل كلَّ ما في وسعنا، لكنّنا نحتاج أيضًا إلى كلّ مساعدة تتوفّر لنا».

«سأفكّر في الأمر بالتأكيد». صافحناه وغادرنا. قال هولمز، فور صعودنا إلى العربة: «علينا أنْ نذهبَ مباشرةً إلى حانة ذي باغ أوف نيلز، يا واطسون. ليست لدينا ثانيةٌ واحدة نُهدِرها».

«هل تظنّ فعلًا...؟»

«لم يبلغنا الفتى دانيال بما رَفَضَ الإفصاحَ عنه لمعلّميه إلّا لأنّه عرف مَن نكون، واعتقد أنّ في استطاعتنا إنقاذَ صديقه. في هذه المرّة استثنائيًّا، أسمح لغريزتي بأنْ تقودَني بدلًا من عقلي، يا واطسون. أتساءل ما الذي يسبّب لي هذا الإحساس بالخطر؟» أيُّها السائق، استعجِل حصانَيك وخُذنا إلى المحطّة. ولنبتهل أنْ لا نكون قد تأخّرنا كثيرًا.

7

الشريط الأبيض

كم كان محتملًا أنْ تختلف الأمور لو لم يتبيَّنْ أنّ في لندن حانتَيْن تحملان اسم «ذي باغ أوف نيلز» The Bag of Nails. كنّا نعلم بوجودِ واحدة في شارع إيدج لين في قلب منطقة شورديتش، فتوجّهنا إلى هناك مباشرةً اعتقادًا منّا بأنّ هذه الحانة هي المكان الذي يُرجَّح أنّ تعملَ فيه اليتيمةُ شقيقةُ طفلِ الشوارع المُعدَم. كانت الحانةُ مكانًا صغيرًا حقيرًا على زاوية تتسرّبُ، حتّى من بينِ ألواحِه الخشبية، الرائحةُ الكريهة للجعةِ البائتة ودخان السجائر. ومع ذلك، كان مالكُ الحانة لطيفًا إلى درجةٍ معقولة عندما راح يتفحّصنا عبر نُضُد البار ويسمح يدَيْه الضخمَتيْن بمئزرٍ قذر.

قال لنا بعد أنْ عرَّفنا عن أنفسِنا: «لا توجد فتاةٌ اسمُها سالي تعمل في هذا المكان، لا الآن ولا في أيّ وقتٍ مضى. ما الذي يجعلكما، يا سيّديَّ، تعتقدان أنكما قد تعثران عليها هنا؟»

«إنّنا نبحث عن شقيقها، وهو صبيٌّ اسمُه روس».

هزّ الرجلُ رأسَه، وقال: «أنا لا أعرف كذلك أيّ شخص يُدعى روس. هل أنتُما متأكّدان من أنكما وُجّهتما إلى المكان الصحيح؟ توجدُ حانةٌ أُخرى باسم باغ أوف نيلز في شارع لامبث حسب اعتقادي. وربّما ينبغي أنْ تجرّبا حظّكما هناك».

خرجنا عائدَيْن إلى الشارع فورًا، وسرعان ما كنّا نعبر لندن في عربةٍ ذات عجلتَيْن، لكنّ الوقتَ كان قد تأخّر بالفعل. وعندما وصلنا إلى الطرف

الجنوبيّ من شارع لامبت، كان الظلام قد خيَّم بالكامل تقريبًا. كانت حانةُ «ذي باغ أوف نيلز» الثانية أبهجَ من سابقتها، لكنّ مالكَها كان في المقابل أقلَّ لطفًا. كان رجلًا فظًّا ملتحيًا ذا أنفٍ مكسور لم يلتئمْ بشكل سليم فتناسَبَ تمامًا مع تقطيبة وجهه.

قال متسائلًا: «سالي؟ أيّة سالي قد تكون هذه؟»

أجابه هولمز: «لا نعرف إلّا اسمَها الأوّل، وأنّها شقيقةٌ لأخٍ أصغر منها اسمُه روس».

«سالي ديكسون؟ هل هذه هي الفتاة التي تريدانها؟ إنّ لها شقيقًا، وستعثران عليها في الفناء الخلفي للحانة، لكنّ عليكما أنْ تقولا لي أوّلًا ماذا تريدان منها».

قال هولمز معقّبًا: «نريد التكلُّمَ معها فقط». كان في استطاعتي أنْ أستشعرَ في هذه المرّة أيضًا التوتّرَ المتأجّجَ داخله وإحساسَه الدائم بالطاقةِ والدافع اللذَيْنِ يحرّكانه على امتداد كلّ قضيّة يتولّاها. ولم يوجدْ رجلٌ من قبل يشعرُ بذلك أكثرَ منه عندما تتكالب الظروفُ عليه لإفشاله. وضع هولمز بعض النقود على النضد، وقال: «هذا تعويضٌ لك عن وقتِها».

«لا داعي لذلك». قال مالكُ الحانة، لكنّه أخذ النقودَ مع ذلك. أضافَ قائلًا: «جيِّد جدًّا. ستكون سالي في الفناء، لكنّي أشكّ في أنّكما ستحصلان على الكثير منها، فهي ليست أكثر الفتيات ولعًا بالكلام. وكنتُ سأحظى برفقةٍ أفضل لو وظّفتُ خرساء بدلًا منها».

وجدنا خلفَ المبنى فناءً ما زالت أحجاره مبتلّةً من المطر. كان مملوءًا بفضلاتٍ وخردة من كلّ نوع، منها أكوامٌ متراكمة عاليًا عند الجدران المحيطة بالمكان، ولم يسعْني إلّا أنْ أتساءل كيفَ وصلت إلى هنا. ومن الأشياء التي رأيتُها بيانو مكسور وحصانٌ هزّاز للأطفال وقفصُ عصفور وعدّةُ درّاجات وأنصافُ مقاعد وأنصافُ طاولات... قطعُ أثاثٍ من جميع الأصناف، لكنْ لم يكن بينها شيءٌ سليم. تراكمتْ في أحد الجوانب صناديقُ خشبيّةٌ مكسورة، وفي جانب آخر أكياسُ فحمٍ قديمة محشوّةٌ بما هبّ ودبّ ممّا لا يعلَمُه إلّا الخالق. وكان هناك زجاجٌ محطّمٌ وأكوامٌ ضخمةٌ من الورق وقطعُ

معدنيّةٌ ملتوية. في وسط كلّ ذلك، وقفتْ فتاةٌ حافيةُ القدمَيْن ترتدي ثوبًا خفيفًا جدًّا لهذا الطقس تبلغُ من العمر حوالى ستّة عشر عامًا تكنس ما تبقّى من فسحةٍ كما لو كان ذلك سيُحدِثُ أيَّ فارق. رأيتُ فيها ملامح شقيقها الأصغر نفسها، لها شعرٌ أشقر وعينان زرقاوان، ولولا الظروف التي وجدتْ نفسَها فيها لقلتُ إنّها كانت جميلة. لكنّ آثار القبضةِ القاسية للفقر والحرمان كانت ظاهرةً بجلاء أيضًا في الخطوطِ الحادّة لعظم وجنتَيْها. كانت ذراعاها رفيعتين كعودَيْن وقد غطّى السخامُ يديها وخدَّيها. وعندما رفعَتْ ناظرَيْها لم ينمّ وجهُها إلّا عن الريبة والازدراء. ستّة عشر عامًا! تُرى ماذا كانت ظروفُ حياتها التي أوصلتْها إلى هذا المكان؟

وقفْنا أمامَها، لكنّها واصلتْ عملَها وتجاهلتْنا نحن الاثنَيْن.

وفيما كانت هُدْبُ المكنسة تروح جيئةً وذهابًا بإيقاع ثابت، سألها هولمز: «آنسة ديكسون؟ سالي؟»

توقَّفَتْ ورفعَتْ رأسها ببطء وراحت تتفحَّصُنا. «نعم؟». رأيتُ يدَيْها تشدّدان قبضتَيْهما على عصا المكنسة وتمسكان بها كما لو كانت سلاحًا.

قال هولمز: «لا نريد أنْ نسبّب لك قلقًا ولا نرغب في إيذائك».

«ماذا تريدان؟». كانت عيناها صارمتَيْن، ولم يكن أيٌّ منّا واقفًا بالقرب منها. لم نمتلك الجرأةَ على ذلك.

«نرغب في التحدُّث إلى شقيقك، إلى روس».

شدّت قبضةَ يدَيْها، وقالت: «مَن أنتما؟»

«نحن صديقان له».

«هل أنتما من بيت الحرير؟ روس ليس هنا. لم يكن هنا في أيّ وقت — ولن تعثرا عليه أبدًا».

«نريد أنْ نساعده».

«هذا ما تقولانه بالطبع. حسنًا، أقول لكما إنّه ليس هنا. تستطيعان أنْ ترحلا كلاكما! إنّكما تثيران اشمئزازي. عودا إلى المكان الذي جئتما منه».

نظر هولمز إليّ، وأملًا منّي في المساعدة خطوتُ خطوةً نحو الفتاة ظنًّا منّي أنّني أُطمئِنُها، لكنّني ارتكبتُ خطأً فادحًا. وما زلتُ حتّى الآن غيرَ متأكّد

ممّا حدث. رأيتُ المكنسة تهوي، وسمعتُ هولمز يصرخ. ثمّ بدت الفتاةُ وكأنّها تلكم الهواءَ أمامي، وشعرتُ بشيءٍ حامٍ كالجمر يلسعني على صدري. تعثّرتُ متراجعًا إلى الوراء وضغطتُ بيدي على الجهة الأمامية من معطفي. وعندما نظرتُ إلى أسفل، شاهدتُ دمًا يقطر من بين أصابعي. كانت صدمتي شديدةً إلى درجةِ أنّني احتجتُ إلى لحظةٍ كي أُدرِكَ أنّني طُعِنتُ إمّا بسكّين أو بشظية زجاج. وقفت الفتاةُ أمامي برهةً، لا كطفلةٍ على الإطلاق، إذْ كانت تزمجر كحيوان وعيناها متوقّدتان وشفتاها مزمومتان في تكشيرةٍ وحشيّة. هُرِع هولمز إليّ قائلًا: «عزيزي واطسون»، ثمّ شعرتُ بحركةٍ خلفي.

انبرى مالكُ الحانة قائلًا: «ما الذي يجري هنا؟»

أطلقت الفتاةُ صرخةً واحدة من أعماق حنجرتها، ثمّ استدارتْ وهربتْ عبر ممرٍّ تعلوه قنطرةٌ ضيّقة يوصل إلى الشارع في الخارج.

كنتُ أتألّم، لكنّني أدركتُ أنّني لم أُصَب بجرحٍ خطر، فقد حَمَتْني سماكةُ معطفي وسترتي تحتَه من أسوأ ما كان يمكن للسكّين أنْ يُحدِثَه من أذى. وقد طهّرتُ وضمّدتُ هذا الجرحَ الطفيف نسبيًا في وقتٍ لاحق من تلك الأمسية. وإذْ أعود بأفكاري إلى الوراء الآن، أتذكّر أنّه كانت هناك بعدَ عشر سنوات مناسبةٌ أُخرى تأذّيتُ فيها وأنا في رفقة شرلوك هولمز. ومهما يكنْ كلامي مستغربًا، فقد ساورني في كلتا الحالتَيْن شعورٌ بالامتنان لمهاجِمَيّ اللذين أظهرا أنّ سلامتي الجسدية كانت تعني شيئًا ما على الأقلّ لشرلوك هولمز العظيم وأنّه لم يكن قليلَ الاكتراث بشخصي مثلما كان يتظاهر في بعض الأحيان.

«واطسون؟»

«هذا لا شيء، يا هولمز. إنّه مجرّد خدش».

سألني مالكُ الحانة وهو ينظر إلى يَديّ الملطّختَيْن بالدم: «ماذا حدث؟ ماذا فعلتَ لها؟»

أجبتُه بصوتٍ أجشّ: «يجدر بك أنْ تسأل ماذا فعلتْ هي بي، وذلك بالرغم من أنّني لم أستطعْ، حتّى تحت التأثير الآنيّ للصدمة، الشعورَ بأيّ حقد على هذه الطفلة المسكينة المهزولة التي هاجمتْني بدافعٍ من الخوف وعدمِ الفهم والتي لم ترغب حقًّا في إيذائي.

قال هولمز: «كانت الفتاةُ مذعورة. هل أنتَ متأكّد من أنّك لم تتأذَّ، يا واطسون؟ تعالَ إلى الداخل. أنت في حاجةٍ إلى الجلوس».

«لا، يا هولمز. أؤكّدُ لك أنّ الجرحَ ليس سيّئًا بقدر ما يبدو».

قال هولمز: «لنشكرِ السماءَ على ذلك. علينا أن نستدعيَ فورًا عربةَ أجرة. يا صاحبَ الحانة، لقد جئنا إلى هنا بحثًا عن شقيق الفتاة. إنّه صبيٌّ في الثالثة عشرة من عمره، أشقر الشعر أيضًا وأفضلُ تغذيةً منها».

«هل تقصد روس؟»

«هل تعرفه؟»

«قلتُ لكما إنّه كانَ يعمل هنا معها. كان ينبغي أن تسألا عنه منذ البداية».

«هل هو هنا الآن؟»

«كلّا. لقد حضر قبل أيّام قليلة وكان في حاجة إلى سقف يأويه. قلتُ له إنّ في استطاعتِه الإقامةَ مع أخته لقاءَ عمله في المطبخ. كانت لسالي غرفةٌ تحت الدرج وقد شاركها السكنَ هنا. لكنّ هذا الفتى كان إشكاليًا أكثرَ ممّا يُحتمَل ولم يكن موجودًا قط عند الحاجة إليه. لا أعلم ماذا كان ينوي فعلَه، لكنْ في وسعي أنْ أقولَ لكما إنّه كان يخطّط لأمرٍ ما في ذهنه. وقد خرج مسرعًا قبل وصولكما مباشرةً».

«هل لديكَ أيُّ فكرة عن المكان الذي ذهب إليه؟»

«كلّا، لكنْ ربّما كان في وسع الفتاة أنْ تبلغكما بذلك، غير أنّها رحلت الآن أيضًا».

«عليّ الآن أنْ أعتنيَ بصديقي. لكنْ إذا عادَ أيٌّ من الاثنَيْن، فمن الضروري جدًّا أنْ تبعث برسالة إلى مسكني 221B شارع بيكر ستريت. إليك هنا مزيدًا من المال لقاءَ أتعابك. تعالَ، يا واطسون، إتّكِئْ عليّ. أظنُّ أنّني أسمع عربةً تقترب...».

وهكذا انتهتْ مغامرةُ ذلك اليوم بجلوسنا نحن الاثنَيْن قرب نار المدفأة، وفي يدي كأسٌ من البراندي المنشّط مع الصودا، فيما كان هولمز يدخّن بشراهة. استرقتُ لحظةً كي أفكّر في الظروف التي أوصلتْنا إلى هذه

النقطة. فقد بدا لي أنّنا شردْنا بعيدًا جدًّا عن مطلبِنا الأصلي وهو الرجلُ ذو القلنسوة المسطّحة، أو في الواقع هويةُ الشخص الذي قتله. هل القاتل هو الشخص الذي رآه روس خارج فندق السيّدة أولدمور، وإذا كان ذلك صحيحًا كيفَ تمكّن الصبيُّ من التعرُّف إليه. وبشكلٍ ما قادتْه تلك المصادفةُ العَرَضيّة إلى الاعتقاد أنّ في وسعه أنْ يكسبَ بعضَ المال لنفسِه فتوارى عن الأنظارِ منذ ذلك الوقت. ولا بدّ من أنْ يكونَ قد أطلع شقيقتَه على شيءٍ ما ممّا يخطّط له لأنّها شعرتْ بالخوف من أجله، وكاد يبدو عليها أنّها كانت تتوقّع قدومَنا. وإلّا لماذا كانت تحمل سلاحًا؟ ثمّ كانت هناك الكلماتُ التي نطقت بها «هل أنتما من بيت الحرير؟». وقد بحث هولمز بعد عودتنا في مراجعِه ومجموعات دائرة المعارف التي كان يحتفظ بها على رفوفه، لكنّنا لم نعثر على ما يفيدُنا في فهم مقصدها. لم نتكلّم على كلّ هذه الأمور في ما بيننا فقد كنتُ منهكًا، كما استطعتُ أنْ أرى انشغالَ صديقي بأفكاره الخاصّة. ولم يكنْ في مقدورنا إلّا الانتظارُ لنرى ما سيجلبه اليومُ التالي.

كان ما جلبه اليومُ التالي ضابطَ شرطة دقّ على بابنا بعد وجبةِ الفطور مباشرةً.

قال: «المفتّش لستراد يرسل إليك تحيّاته يا سيّدي، وهو موجودٌ في منطقة ساوثورك بريدج، وسيكون ممتنًّا إلى أبعد حدّ لو وافيتَه هناك».

«ما هي المهمّة، يا حضرةَ الضابط؟»

«جريمة قتل، يا سيّدي. جريمة بشعة جدًّا».

ارتدى كلٌّ منّا معطفَه وانطلقنا بصورة فورية. ركبنا عربةَ أجرة قطعتْ جسرَ ساوثورك بريدج فوق الأقواس الضخمة الثلاثة المصنوعة من الحديد السميوك والعابرة للنهر من جهة تشيبسايد. كان لستراد ينتظرنا على الضفّة الجنوبية واقفًا هناك مع مجموعة من رجال الشرطة المتجمهرين حول ما بدا من بعيد مثلَ كومة من الخرق البالية المرميّة. كانت الشمس مشرقةً لكنّ الجوّ عادَ شديدَ البرودة، ولم تبدُ مياهُ نهر التايمز يومًا أكثرَ قسوةً وأمواجُه الداكنة تتلاطم برتابةٍ على الشاطئ. هبطنا على درجٍ لولبيّ مصنوع من معدن رماديّ ينزل ملتفًّا من الطريق ومشينا على الوحلِ والحصى. كان المدُّ

منخفضًا، وبدا النهرُ وكأنّه انكمش وتراجع إلى الخلف كما لو تقزّز ممّا حدث هنا. كان قربَنا رصيفٌ للقوارب البخارية ممتدٌ مسافةً قصيرة من النهر وقف عليه ركّابٌ قليلون ينتظرون مراوحين بأقدامهم وأنفاسُهم تتجمّد في الهواء. بدوا غافلين تمامًا عن المنظر الذي تكشّف لنا. كانوا من أبناء الحياة. أمّا هنا فلم يوجد إلّا الموت.

سأل لستراد: «هل هذا من كنتُما تبحثان عنه؟ الصبيّ الذي كان قرب الفندق؟»

أومأ هولمز برأسه. ربّما لم يثِقْ بمقدرتِه على الكلام.

كان الفتى قد تعرّض لضربٍ مبرّح وكُسرت أضلاعُه وذراعاه ورجلاه وكلُّ إصبع من أصابعه. وعندما نظرتُ إلى تلك الإصابات الرهيبة، علمتُ فورًا أنّها أُلحِقت به منهجيًا، الواحدة تلوَ الأُخرى وأنّ الموتَ بالنسبة إلى روس كانَ نفقًا طويلًا من العذاب. ختامًا، وبعد كلّ هذه القطاعات، حُزَّ عنقُه بوحشيّة بالغة حتّى كاد رأسه ينفصل عن رقبته. لقد شاهدتُ جُثَثَ أمواتٍ من قبل، سواء مع هولمز أو أثناء خدمتي كطبيب جرّاح في الجيش، لكنّني لم أرَ شيئًا رهيبًا إلى هذه الدرجة. واعتبرتُ قدرةَ أيِّ كائنٍ بشريّ على ارتكاب مثل هذه الفعلة بحقّ صبيّ في الثالثة عشرة من عمره أمرًا يتجاوز إمكانَ الفهم.

قال لستراد: «هذا أمرٌ بالغُ السوء. ماذا تستطيع أنْ تخبرني عنه، يا هولمز؟ هل كان يعمل لحسابك؟»

أجابه هولمز: «كان اسمُه روس ديكسون. لا أعرفُ إلّا القليلَ عنه، يا حضرة المفتّش. في وسعك أن تستفهم عنه في مدرسةِ كورلي غرينج للفتيان في هامبورث، لكنْ قد لا تكونُ لديهم معلوماتٌ إضافية كثيرة يستطيعون تقديمها. لقد كان ولدًا يتيمًا. لكنّ له شقيقةً كانت تعمل حتّى الآونة الأخيرة في حانة ذي باغ أوف نيلز في لامبث. وقد تعثر عليها هناك. هل فحصتُم الجثّة؟»

«لقد فحصناها. كانت جيوبه خاوية، لكنّ ثمة شيئًا غريبًا يجب أنْ تراه مع أنّ السماءَ وحدها تعلم ما يعنيه. لقد جعلني هذا الشيءُ أتقزّز ولن أقول لك أكثر من ذلك».

أومأ لستراد برأسِه، وجثا شرطيّ وأمسك بإحدى الذراعَيْن الناحلتَيْن المكسورتَيْن. انحسر كمُّ القميص وكشف عن شريطٍ أبيض معقودٍ حول معصم الصبيّ. قال لستراد: «القماشُ جديد، وينمّ مظهره عن أنّه من حرير جيّد النوعية. ولاحظْ إنّه غيرُ ملوَّث بالدم أو بأيّ من أقذار نهر التايمز. لذا أميلُ إلى القول أنّه رُبط على معصم الفتى بعد مقتله كإشارةٍ من نوعٍ ما».

قلت منفعِلًا: «بيت الحرير».

«ما هذا؟»

قال هولمز: «هل تعلم بأمره، يا لستراد؟ هل يعني الاسمُ أيّ شيء؟»

«كلّا. بيت الحرير؟ هل هو مصنع؟ لم أسمع به أبدًا».

سَرَح هولمز بنظره بعيدًا وعيناه تنطقان بالذعر وتأنيب الذات، وقال: «الشريط الأبيض، يا واطسون. لقد شاهدتُه من قبل». تحوّل نحو لستراد من جديد وقال: «أشكركَ على استدعائي إلى هنا وإطلاعي على ما جرى».

«كانَ أملي أنّك قد تتمكّن من تسليط بعض الضوء على المسألة. فمن المحتمل في نهاية المطاف أنْ يكونَ هذا ذنْبَك».

«ذنب؟» استدار هولمز بحدّة كما لو أُصيبَ بلسعة.

«لقد حذّرتُك، يا هولمز، من الاختلاط مع هؤلاء الأطفال. لقد شغّلتَ هذا الصبي وجعلتَه يتعقّب آثارَ مجرمٍ معروف، وأنا أعترفُ لكَ بأنّه ربّما كان يبيّتُ أفكارًا خاصّةً به، ومن المحتمل أن تكون هذه الأفكار هي التي ساقتْه إلى حتفه. لكنّ هذه ليست إلّا النتيجة».

لا أستطيع القولَ ما إذا لستراد قد تعمّد أنْ يكون استفزازيًا، لكنّ كلماته تركتْ أثرًا في نفس هولمز استطعتُ أنْ أكونَ شاهدًا عليه أثناء رحلةِ عودتنا إلى شارع بيكر ستريت. فقد جلس منكمشًا في زاوية العربة والتزم الصمتَ معظم الطريق رافضًا أنْ تتلاقى أعيُننا. بدا وكأنّ بشرةَ وجهه تمدّدت فوق عظم وجنتَيْه، وظهر عليه الهزالُ أكثرَ من أيّ وقت مضى وكأنّ مرضًا فتّاكًا أصابه. لم التكلُّم معه، فقد كنتُ أعرف أنّه لا يحتاج إلى مواساةٍ من جانبي. بدلًا من ذلك، راقبتُ وانتظرت فيما ركّز هولمز طاقتَه العقليةَ الهائلة على التحوُّل الرهيب الذي طرأ على هذه المغامرة.

قال بعد صمتٍ طويل: «من المحتمل أنْ يكونَ لستراد مُحِقًّا. ولا ريبَ في أنّني استخدمتُ أفرادَ فرقة بيكر ستريت اللانظامية بدون التفكير مليًّا في الأمر ومراعاةِ الظروف. لقد أبهجني أنْ أراهم مصطفّين أمامي وأنْ أعطيَ كلًّا منهم شلنًا أو شلنين، لكنّي لم أتعمّد أبدًا أنْ أعرّضَهم للخطر، وأنتَ تعلم ذلك، يا واطسون. وبالرغم من ذلك، أقف اليوم متّهمًا بالإهمال وعليّ أنْ أقرّ بذنبي. لم يكن ويغينز وروس وبقيّتُهم يعنون أيّ شيء بالنسبة إليّ، مثلما لا يعنون أيّ شيء بالنسبة إلى المجتمع الذي تخلّى عنهم وتركهم في الشوارع. ولم يخطر لي أبدًا أنّ أمرًا رهيبًا كهذا يمكن أنْ ينتجَ من أعمالي. لا تقاطعْني! هل كنتُ سمحتُ لصبيّ يافع بأنْ يقف وحيدًا في الظلام أمام فندق. لو كان ابنكَ أو ابني؟ ويبدو أنّه لا يوجد مهربٌ من منطقِ ما حدث. لقد شاهد الطفلُ القاتلَ وهو يدخل إلى الفندق. ولقد رأينا كلانا كيفَ أرعبه الأمر. وبالرغم من ذلك، ظنّ أنّ في وسعِه استغلالَ الوضعِ لمصلحته. وقد حاول أنْ يفعل ذلك فمات. وعليّ أنْ أحمِّلَ نفسي المسؤوليةَ عن هذا الأمر».

«ومع ذلك، ومع ذلك، ما هو موضعُ بيت الحرير في هذه الأحجية؟ وماذا يُفترض بنا أنْ نفهم من الشريط الحريريّ المربوط حول معصم الفتى؟ هذا هو لبّ المسألة، وأقول مرّةً أخرى إنّني أنا الملوم. لقد حُذِّرت! هذه هي حقيقةُ الأمر. وبكلّ أمانة أقول، يا واطسون، إنّ ثمّة أوقاتًا أتساءل فيها ما إذا كان ينبغي أنْ أتخلّى عن هذه المهنة وأنْ أسعى إلى رزقي في مجالٍ آخر. وما زالت هناك أبحاثٌ قليلة أريد أنْ أكتبَها، كما أنّني كنتُ أتطلّع دائمًا إلى تربية النحل. ومن المؤكّد أنّ النتائج التي توصّلتُ إليها خلال تحقيقاتي في هذه القضية لا تعطيني الحقّ في أنْ أدعو نفسي تحرّيًا. إنّ طفلًا قد مات، وقد رأيتَ بنفسك ما فعلوا به. كيف لي أنْ أتعايش مع هذا الواقع؟»

«يا صديقي العزيز...».

«لا تقلْ شيئًا. هناك ما يجب أنْ أُرِيَكَ إيّاه. لقد حُذِّرتُ سلفًا. كان في استطاعتي أنْ أمنعَ وقوعَ الجريمة...».

كنّا قد وصلنا عائدَيْن إلى المنزل. هُرِع هولمز إلى داخل المبنى وراح يصعد السلالم درجتَيْن في كلّ خطوة. تبعتُه بخطوات أبطأ. فبالرغم من أنّني

لم أقلْ شيئًا، فقد كان الجرح الذي أُصِبتُ به في اليوم السابق يسبّب لي ألمًا أشدَّ كثيرًا من الذي شعرتُ به عند إصابتي. وعندما وصلتُ إلى غرفة الجلوس، رأيتُ هولمز ينحني إلى الأمام ويلتقط مغلّفًا بيده. كانت من الميزات الفريدة الكثيرة لصديقي مقدرتُه على إيجاد أيّ شيء يبحث عنه بالرغم من أنّه كان يعيش في محيطٍ منعدم الترتيب تمامًا، بل بالغ الفوضى، تبعثرتْ في كلّ مكانٍ منه أكوامُ الرسائلِ والوثائق. صاح: «ها هو. المغلّف لا يقول لنا شيئًا. إسمي مكتوبٌ على جبهته الامامية لكنْ بدون العنوان. لقد سُلِّمت الرسالةُ باليد، وكائنًا من يكون مرسلُها فإنّه لم يحاول تمويهَ خطِّه، ومن المؤكّد أنّني سأتعرّف إليه مرّةً أخرى. وستلاحظ الطريقةَ اليونانية في كتابة حرف «هـ» في كلمة هولمز (Holmes). ولن يغيب عن ذهني بسهولة هذا التألُّق الزائد في الكتابة».

سألتُه: «وماذا يوجد في داخله؟»

أجاب هولمز وهو يناولني المغلّف: «تستطيع أنْ ترى بنفسك».

فتحتُ المغلّف، وبرجفةٍ لم أستطعْ إخفاءَها، سحبتُ من داخلِه قطعةً قصيرة من شريط حريريّ أبيض. سألتُه: «ما معنى هذا، يا هولمز؟»

«لقد طرحتُ على نفسي ذاتَ السؤال عندما تلقّيتُ الرسالة. وبالنظر إلى ما سبق يبدو لي أنّها كانت إنذارًا».

«متى أُرسِلتْ؟»

«قبل سبعة أسابيع. كنتُ منشغلًا آنذاك بقضية غريبة متعلّقة بمُستَرهِنٍ يُقرِض مالًا لقاء رهن هو السيّد جابِز ويلسون الذي دُعي للإنضمام إلى ــــــ».

«ــــــ إلى رابطة الرأس الأحمر»، قلتُ مقاطعًا لأنّني تذكّرتُ القضية بوضوح وكان من حسنِ طالعي أنْ أتابعَها حتّى نهايتها.

«بالضبط. كانت تلكَ مشكلةً بالغةَ الغموض بقدرِ ما يمكن لمشكلةٍ أنْ تكون غامضة. وعندما وصلت الرسالة، كان عقلي في وادٍ آخر. فحصتُ محتوياتها وحاولتُ استنباطَ مدلولها، غير أنّني وضعتُها جانبًا ونسيتُها بسبب انشغالاتي الأُخرى. وها هي تعود الآن لتؤرقني كما ترى».

«لكنْ مَن الشخص الذي يمكن أنْ يكونَ قد أرسلها إليك؟ وما غايته من ذلك؟»

«لا فكرةَ لديّ، لكنّني عازمٌ على اكتشاف الحقيقة كُرمى لذلك الطفل القتيل». مدّ هولمز يده وأخذ الشريط الحريري منّي. لفّه حول أصابعه النحيلة الطويلة ورفعه إلى مستوى ناظرَيْه وراح يتمعّن فيه كما قد يتفحّص رجلٌ أفعى سامّة. قال: «إذا كانت هذه الرسالةُ قد وُجّهت إليّ كتحدٍّ، فهذا تحدٍّ أقبله الآن». أغلق قبضةَ يده على الشريط الأبيض وسدّد بها لكمةً في الهواء، وأضاف: «أقول لك، يا واطسون، إنّني سأجعلهم يندمون على اليوم الذي بعثوا فيه هذه الرسالة».

8

غُراب أسود ومفتاحان

لم تَعُدْ سالي إلى مكانِ عملِها في تلك الليلة ولا في صباح اليوم التالي. ولم يكنْ ذلك مُستغرَبًا في الواقع نظرًا إلى أنّها هاجمتْني وتخشى العواقبَ بالتأكيد. يُضاف إلى ذلك أنّ الصحفَ نشرتْ في هذه الأثناء نبأَ مقتل أخيها. وبالرغم من أنّها لم تذكر اسمَه، فقد كان من المحتملِ إلى حدٍّ بعيد أنْ تعرف هي أنّ شقيقها هو الذي عُثِر عليه تحت جسر ساوثورك بريدج لأنّ الأمور كانت تسير على هذا النحو في تلك الأيّام، لا سيّما في الأحياء الأفقر من المدينة. كانت للأخبار السيّئة طريقتُها الخاصّة في الانتشار كالدخان المتصاعد من نار فتجد سبيلَها إلى كلّ غرفةٍ مزدحمة وكلّ قبوٍ بائس منسلّةً بخفّة وثبات لتلوّثَ كلَّ ما تلامسه. كان مالكُ حانة «ذي باغ أوف نيلز» يعلم أنّ روس قد مات لأنّه تلقّى بالفعل زيارةً من لستراد، وقد بدا أقلّ اغتباطًا لرؤيتنا ممّا كان في اليوم السابق.

قال سائلًا: «ألم تسبّبا ما يكفي من المتاعب حتّى الآن؟ ربّما لم تكن تلك الفتاة ذاتَ أهمّية تُذكر، لكنّها كانت عاملةً جيّدة ويؤسفني أنْ أخسرَها. كما لا تستفيد أعمالي من وجودُ رجال القانون في هذا المكان! وليتكما أنتما الاثنين لم تأتيا إلى هنا أبدًا».

ردّ هولمز قائلًا: «لم نكنْ نحن من جلب المتاعبَ، يا سيّد هاردكسل»، إذ كان قد قرأ اسم المالك على لوحةٍ وعلّقه فوق الباب – إفراييم هاردكسل – وأضاف يقول: «كانت المتاعبُ موجودةً هنا بالفعل ونحنُ تتبّعناها فقط.

ويبدو من المرجّح أنّك كنتَ آخر شخص شاهدَ الصبيَّ حيًّا. ألم يُخبرك بأي شيء قبل مغادرته؟»

«ما الذي يجعله يتكلّم معي أو يجعلني أتكلّم معه؟»

«لكنّك قلتَ إنّه كان يخطّط لأمرٍ ما في ذهنه».

«لم أعرف أيّ شيء من هذا القبيل».

«لقد عُذِّبَ حتّى الموت، يا سيّد هاردكسل. كُسِرت عظامُه واحدًا بعد الآخر، وقد أقسمتُ أنْ أجد القاتل وأنْ أسوقَه إلى العدالة. ولا أستطيع أنْ أفعلَ ذلك إذا رفضتَ أنْ تساعدني».

أومأ مالكُ الحانة ببطء، وعندما تكلّم من جديد كانت نبرتُه أكثر اتّزانًا. قال: «لا بأسَ إذًا. لقد جاء الفتى قبل ثلاث ليالٍ وروى قصّةً عن تشاجُره مع جيرانه وحاجته إلى مأوى إلى أنْ يتمكّن من ترتيب أحواله. استأذنتْني سالي ووافقتُ أنا. ولِمَ لا؟ لقد رأيتُما الفناء، فيه الكثيرُ من القمامة التي يجب التخلّص منها، وظننتُ أنّه يستطيع أنْ يساعد في ذلك. وقد عمل قليلًا بالفعل في ذلك اليوم الأوّل، لكنّه خرج بعد الظهر، وعندما رجع رأيتُ أنّه كانَ مسرورًا جدًّا بنفسِه».

«هل كانت شقيقتُه تعرف ما كان يفعل؟»

«هذا ممكن، لكنّها لم تقلْ لي أيَّ شيءٍ».

«أرجوك أنْ تتابع».

«ليس لديّ كثيرٌ أُضيفُه، يا سيّد هولمز. رأيتُه مرّةً واحدةً أُخرى فقط في الدقائق التي سبقت وصولكما، فقد حضر إلى قاعة العموم في الحانة عندما كنتُ أحمل براميلَ الجعة إلى أعلى وسألني عن الوقت، ما أظهرَ مدى انعدامَ ثقافته لأنّ في وسعِك أنْ تقرأ ذلك بوضوح من ساعة الكنيسة على الجانب الآخر من الشارع».

«إذًا، كان في طريقه إلى موعدٍ محدَّد».

«هذا ممكن كما أعتقد».

«هذا أكيد. ماذا تفيد معرفةُ الوقت طفلًا مثل روس إلّا إذا كان قد طُلِب إليه أنْ يحضر إلى مكانٍ معيّن في وقتٍ معيَّن؟ لقد قلتَ إنّه أمضى ثلاثَ ليالٍ هنا مع شقيقته».

«نعم. شاركها غرفتها».

«أرغبُ في رؤية هذه الغرفة».

«لقد سبق للشرطة أن دخلتْ إليها وفتّشتْها ولم تعثر فيها على أيّ شيء».

«أنا لستُ الشرطة». وضع هولمز شلنات قليلة على نضد البار، وقال: «هذه من أجل الإزعاج الذي سبّبناه لك».

«لا بأس. لكنّني لن آخذَ نقودَك هذه المرّة. إنّك تتعقّب وحشًا ضاريًا وسيكفي أنْ تفعلَ ما تقولُه وأنْ تحرص على منعِهِ من إيذاء أيّ شخص آخر».

قادنا حول الناحية الخلفية للمكان وعبر ممرّ ضيّق بين المشرب والمطبخ ونزلنا درجًا أوصلَنا إلى الأقبية. أضاء مالكُ الحانة شمعةً، وأخذنا إلى غرفة صغيرة موحشة محشورة تحت الدرج. كانت صغيرةً فعلًا لا نافذةَ لها، وذاتَ أرضيّة خشبيّة عارية. إلى هذا المكان كانت سالي تأوي منهكةً بعد يوم طويل من العمل المضني لتنامَ على حَشِيّةٍ مطروحة على الأرض ولا تغطّيها إلّا بطانيةٌ واحدة. كان هناك غرضان في وسط هذا الفراش المؤقّت: الغرضُ الأوّل سكين والغرضُ الثاني دمية لا بدّ وأنْ يكون قد انتشلتها من مكبّ قمامة. وعندما نظرتُ إلى أطرافها المكسّرة ووجهها الشاحب البياض، لم أستطع تجنُّبَ التفكير في شقيق الفتاة الذي جرى التخلُّص منه بذاتِ اللامبالاة. ضمّت إحدى الزوايا كرسيًّا وطاولةً صغيرة عليها شمعة. ومن المؤكّد أنّ الشرطة لم تُمضِ وقتًا طويلًا في تفتيش الغرفة لأنّ سالي لم تمتلك أيّة أشياء باستثناء السكّين والدمية، لأنّه لم يكن هناك ما تستطيعُ القولَ إنّه ملكها باستثناء اسمها.

جال هولمز بناظرَيْه في أرجاء الغرفة، وقال متمتمًا: «لماذا السكّين؟»

قلتُ مقترحًا: «لحماية نفسها».

«أنتَ تعلم أكثر من أيّ شخص آخر أنّها كانت تحمل معها السلاحَ الذي استخدمتْه لحماية نفسها، ومن المؤكّد أنّها أخذته معها. وهذا السكّين الثاني كليلٌ تقريبًا».

عقّب هاردكسل بصوت خفيض: «إنّه مسروقٌ من المطبخ».

«الشمعةُ أيضًا. إنّها مثيرةٌ للاهتمام حسبَ ظنّي». كان هولمز يشير إلى الشمعةِ المطفأة الجاثمة على الطاولة. أمسكها بيده وانحنى، ثمّ بدأ يدلف

متمهّلًا على الأرضية. أمّا أنا فقد احتجتُ إلى برهة لأُدرِكَ أنّه كان يتتبّع أثرًا لقطراتٍ من الشمع الذائب كادت تكون غير مرئيّة للعين البشرية. أمّا هو، فقد لاحظها فورًا وقادته إلى الزاوية الأبعد عن الفراش. قال: «لقد حملت الفتاةُ الشمعةَ إلى هذه الزاوية البعيدة... ومرّةً أُخرى لأيّ سبب؟ إلّا إذا ... ناوِلْني السكّين، من فضلك يا واطسون». أخذ السكّينَ منّي وأقحم النصلَ في أحد الشقوق بين ألواح الأرضية الخشبية. كان أحدُ الألواح غير مُثَبَّت، واستعمل هولمز السكّين لرفعه إلى أعلى ثمّ مدّ يده إلى الداخل، وسَحَبَ منديلًا مطويًّا كصُرّة. «هل تتكرّم عليّ، يا سيّد هاردكسل...».

قرّب مالك الحانة شمعتَه المضاءة، وفتح هولمز المنديل، ورأينا على نور اللهب المترجرج عدةَ قطع نقود معدنية داخلَه كانت ثلاثة فارذنغات وفلورينَيْن وكروانًا واحدًا[1] وجنيهًا ذهبيًّا وخمسة شلنات. كان هذا كنزًا حقيقيًّا لطفلَيْن مُعدَمَيْن، لكنْ لأيٍّ منهما كان هذا المال؟

قال هولمز وكأنّه قرأ أفكاري: «هذا المال لِروس. أنا أعطيتُه الجنيه الذهبي».

«عزيزي هولمز، كيف تستطيع أن تكون متأكّدًا من أنّ هذا هو الجنيه نفسُه؟»

رفع هولمز الجنيه تحت الضوء، وقال: «التاريخ هو ذاتُه. لكنْ أنظر أيضًا إلى الرسم. القدّيس جورج راكبٌ على حصانه غير أنّ هناك خدشًا على ساقه سبق لي أنْ لاحظتُه عندما أعطيتُ الفتى الجنيه. إنّه من المال الذي كسبه روس لقاء عمله مع اللانظاميّين. لكنْ ماذا عن النقود الباقية؟»

قال هاردكسل مهمهمًا: «لقد حصل عليها من عمّه». استدار هولمز نحو مالك الحانة الذي تابع قائلًا: «عندما أتى وطلب أنْ يُمضي الليلة هنا وقال لي إنّه يستطيع دفع أجرة الغرفة، ضحكتُ منه، فأخبرني أنّ عمّه أعطاه نقودًا لكنّني لم أصدّقه وقلتُ له إنّه يستطيع أنْ يعمل في الفناء بدلًا من ذلك. ولو عرفتُ أنّ معه كلَّ هذا المال لعرضتُ عليه إقامةً لائقة في الطابق العلوي».

[1] فارذنغ = ربع بنس، فلورين = 2 شلن، كروان = 5 شلن (المترجم).

«المسألة بدأت تتوضَّح وتتماسك. لقد قرّر الفتى استغلالَ المعلومات التي استقاها من وجودِه قربَ فندق السيّدة أولدمور. خرج مرّةً واحدة وعرّف عن نفسه وقدّم مطالبَه. دُعي إلى اجتماع... في مكان معيَّن ووقت معيَّن. إنّه الاجتماع الذي سيُقتل خلالَه. لكنّه كان قد اتّخذ بعض الاحتياطات على الأقلّ، فترك كاملَ ثروته مع شقيقته التي خبّأتها تحت ألواح الأرضية. ومن المؤكّد أنّها تشعر بجزعٍ بالغِ الشدّة الآن لعلمِها أنّها لم تستطعِ استرجاعَ هذه الثروة عندما هربت بسببنا أنا وأنت، يا واطسون. لديّ سؤال أخير أوجّهه إليك، يا سيّد هاردكسل ثم سنرحل. هل ذكرتُ لك سالي مرّةً بيت الحرير؟»

«بيت الحرير؟ كلّا، يا سيّد هولمز. أنا لم أسمعْ به أبدًا. ماذا أفعل بقطع النقود هذه؟»

«إحتفظْ بها. لقد فَقَدتِ الفتاةُ شقيقَها. لقد فقدتْ كلَّ شيء. ولعلّها تعودُ إليكَ يومًا محتاجةً إلى مساعدة. وأقلُّ ما تستطيع فعلَه هو أنْ تردَّ لها هذه النقود».

خرجنا من حانة «ذي باغ أوف نيلز»، وتبعنا مجرى نهر التايمز في طريق عودتنا نحو منطقة برموندزي. تساءلتُ بصوتٍ عالٍ ما إذا كان هولمز يعتزم القيامَ بزيارة أُخرى للفندق. قال: «لن نقصدَ الفندقَ، يا واطسون، بل جوارَه. يجب أنْ نكتشفَ مصدرَ ثروة الفتى. وقد يتبيّن أنّ هذا كانَ السببَ الرئيسي لمقتله».

قلتُ: «لقد تلقّى المال من عمّه. لكنْ إذا كان والداه ميّتَيْن، كيف نستطيع العثورَ على أيٍّ من أقربائه الآخرين؟»

ضحكَ هولمز، وقال: «أنتَ تدهشني، يا واطسون. ألستَ مطَّلِعًا حقًّا على اللغةِ التي يستخدمها نصفُ سُكّان لندن على الأقلّ؟ في كلّ أسبوع يزور آلافُ العمّال والشغّيلة المترحِّلين أعمامَهم، وهم يقصدون بذلك المسترهنين. وهذا هو المصدر الذي حصل منه روس على أرباحه غير المشروعة. والسؤالُ الوحيد المطروح هو ماذا باعَ لقاء فلوريناته وشلناته؟»

أضفتُ قائلًا: «وأينَ باعَ ما باعه؟ لا بدّ من وجود مئات المسترهنين في هذا الجزء من لندن وحده».

«هذا صحيح بالتأكيد. لكنّك ستتذكّر من ناحية أخرى أنّ ويغينز تبع مهاجمَنا الغامض من محلّ مسترهنٍ في شارع بريدج لين إلى الفندق، وقال إنّ روس تردّد على هذا المحلّ مرّات عديدة. ولعلّ هذا المحلّ هو المكانُ الذي يمكن العثور فيه على 'عمّه' هذا».

تكشّفَ محلُ المسترهِن عن كونه مرتعًا، وأيّ مرتع، للوعود الكاذبة والآمال الضائعة! كانت كلُّ طبقة، كلُّ مهنة وكلّ سيرةٍ حياة ممثَّلةً خلفَ الزجاج القذر لنوافذه. كانت قطعٌ من حطامِ حَيواتٍ كثيرةٍ لا حصْر لها معروضةً خلفَ الزجاج كفراشاتٍ مشكوكة بالدبابيس. كانت لافتةٌ خشبية رُسمت عليها ثلاثُ كُراتٍ حمراء على خلفية زرقاء مُعلّقةً فوق الباب بسلاسلَ صدئة. كانت تأبى التأرجُحَ مع النسيم، وكأنّها تؤكّد أنّ لا شيءَ هنا سيتحرّك يومًا، وأنّ مالكي المقتنيات لن يروها أبدًا من جديد بعد أنْ رهنوها فخسروها. كُتِبَ على لوحةٍ تحت اللافتة: نسلِّف مالًا مقابلَ معادن ثمينة ومجوهرات وملابس وكلّ المقتنيات الموصوفةِ. وهكذا كان الحال في الواقع، فحتّى علاء الدين ما كان ليعثر على كنزٍ بهذا الغنى في مغارته. ضمَّ المحل مشابكَ من العقيق الأحمر وساعاتٍ فضّية وفناجينَ من الخزف الصيني ومزهريّاتٍ ومسكاتِ لرِيَش الكتابة وملاعقَ شاي وكتبًا كانت تتنافس كلُّها على المكان فوقَ الرفوف مع أغراض متنوّعة من رقّاصِ ساعة حائط إلى طائر زرياب محنَّط. وتدلّت على الأطراف بياضاتٌ كتّانية، من المناديل الصغيرة إلى أغطيةِ الطاولات والشراشف المطرّزة بألوان زاهية. وكان هناك جيشٌ كامل من قطع الشطرنج يحرس ميدانَ معركة مملوءًا بالخواتم والأساور المصفوفة على مخمل أخضر. تُرى مَن يكون هذا العامل الذي ضحّى بأزاميله ومناشيره من أجل الجعة والنقانق في عطلة الأسبوع؟ ومن هي الفتاة الصغيرة التي تدبّرت أمرَها بدون فستان يوم الأحد فيما كان أبواها يجاهدان لوضع طعام على المائدة؟ لم تكن نافذةُ المحلّ معرضًا لانحطاط البشر فحسب، بل كانت بمثابة مهرجانٍ أيضًا. وربّما كان هذا هو المحلّ الذي قصده روس.

لقد سبق لي أنْ رأيتُ محلّاتِ مسترهنين في حيّ وست إند من لندن، وكنتُ أعرفُ أنّ من المألوفِ لديها امتلاكَ بابٍ جانبيّ يتيح للعملاء الدخول

والخروج من دون أنْ يُشاهَدوا. لكنّ هذه العادةَ لم تكن سائدةً هنا لأنّ الناس المقيمين حول شارع بريدج لين لم يكونوا يبيّتون مثل هذه المخاوف. امتلك المحلّ بابًا رئيسيًّا واحدًا وكان مفتوحًا. تبعتُ هولمز إلى الداخل المُعتِم حيث كان رجلٌ وحيد جالسًا على مقعد بلا مسند يحمل في يدٍ كتابًا يقرأه ويضع يده الأخرى على النَضَد، وأصابعُها تلتفّ ببطءٍ نحو الداخل وكأنّه يُدير غرضًا غيرَ منظور في قبضته. كان رجلًا مخيفًا باديَ الهشاشة في حوالى الخمسين من عمره ذا وجه ناحل يرتدي قميصًا مُزرّرًا حتّى العنق وصدريةً ولِفاعَ رقبة. كان في هيئتِه ما ينطقُ بالأناقةِ والاهتمام الدقيق بالتفاصيل، ما أيقظ في ذهني صورةَ صانع الساعات.

سأل، من دونِ أنْ يحيدَ بعينَيْه عن صفحة كتابه: «وكيفَ أستطيع أنْ أخدمَكما يا سيّديّ؟» لكنْ كانَ من الأكيد أنّه تفحّصنا بعناية عندما دخلْنا، لأنّه تابع قائلًا: «يبدو لي أنّكما هنا في عملٍ رسميّ. هل أنتما من الشرطة؟ إذا كنتُما كذلك، فأنا لا أستطيع أنْ أساعدَكما لأنّني لا أعرف شيئًا عن زبائني. ومن عادتي أنْ لا أطرحَ أبدًا أيّةَ أسئلة. وإذا كان لديكما غرضٌ تودّان تركَه عندي، فسأعرض عليكما ثمنًا عادلًا. عدا ذلك، لا بدّ لي من أنْ أتمنّى لكما يومًا سعيدًا».

«إسمي شرلوك هولمز».

«التحرّي؟ هذا شرفٌ لي. وما الذي يأتي بك إلى هنا، يا سيّد هولمز؟ ربّما يتعلّق الأمر بعقد ذهبيّ مرصّع بأحجار من الياقوت الأزرق، حلية صغيرة جميلة؟ لقد دفعتُ خمسة جنيهات ثمنًا له لكنّ الشرطة استعادته، فلم أكسبْ أيّ شيء على الإطلاق. خمسة جنيهات وكان من الممكن أن يجلبَ لي العقد ضعفَ هذا المبلغ إذا لم يستردّه الشخص الذي رهنه. لكن هذه هي الحال وجميعُنا نسير نحو الإفلاس، لكنّ البعضَ متقدّمٌ على الآخرين في هذا الاتّجاه».

أدركتُ أنّه كان يكذب في ناحية واحدة على الأقلّ. ومهما تكن قيمةُ عقد السيّدة كارستيرز، فلا ريبَ في أنّه لم يدفع إلّا جزءًا بسيطًا من

ثمنه الحقيقي لأنّ هذا الإجحاف الأساسي كان مصدر رزقه. وربّما جاءت الفارذينغات التي عثرنا عليها من هذا المحلّ.

قال هولمز: «لسنا مهتمَّيْن بالعقد ولا بالرجل الذي جلبه إلى هنا».

«وهذا مناسبٌ جدًّا لأنّ الرجلَ الذي جلبه إلى هنا، وهو أميركي، قد مات، أو هذا ما قالته لي الشرطة».

«إنّنا مهتمّان بزبون آخر من زبائنك. طفل اسمُه روس».

«سمعتُ أنّ روس فارق أيضًا هذه الدنيا التي أدعوها وادي الدموع. وإنّها لاحتمالاتٌ سيّئةٌ لي أنْ أخسَر هاتَيْن الحمامتَيْن[2] في مثل هذه الفترة الزمنية القصيرة؛ ألا تظنّان ذلك؟»

«لقد دفعتَ مالًا لروس في الآونة الأخيرة».

«من أخبرك بذلك؟»

«هل تُنكِر الأمر؟»

«أنا لا أُنكِره ولا أؤكّده. أقول فقط إنّني منشغل وسأكون ممتنًّا إلى أبعد حدّ إذا غادرتما».

«ما اسمُك؟»

«راسل جونسون».

«جيّد جدًّا، يا سيّد جونسون. سأقدِّم إليك عرضًا. سأشتري منك بثمن جيّد أيَّ غرض جلبَه إليكَ روس، لكنْ بشرط واحد هو أنْ تكون صادقًا معي. أنا أعرف الكثير عنك، يا سيّد جونسون. وإذا حاولتَ الكذبَ عليّ، فسأكتشف ذلك وسأعود ومعي الشرطة لآخذَ ما أريد. وستجد عندئذٍ أنّك لم تحقّقْ أيَّ ربح على الإطلاق».

ابتسم جونسون، لكنّ وجهه بدا لي شديدَ الكآبة، وقال: «إنّك لا تعرف أيَّ شيء عنّي، يا سيّد هولمز».

«لا؟ أعتقد أنّك نشأتَ في عائلة ثرية وتلقّيتَ تعليمًا راقيًا. كان في وسعك أنْ تصبح عازفَ بيانو ناجحًا لأنّ هذا كان طموحَك. وقد نجم فشلُك عن إدمانٍ ما، أرجِّح أنّه المقامرة، ومن المحتمل جدًّا بألعابِ النرد. وكنتَ

[2] Pigeon = حمامة: وصف دارج للشخص الساذج أو ضحيّة الاحتيال (المترجم).

مسجونًا في وقتٍ سابق من هذه السنة لتلقّيك بضائعَ مسروقة، واعتُبِرت شخصًا مشاغبًا من قبل القيّمين على السجن. وقد نفّذتَ عقوبةَ ثلاثة أشهر على الأقلّ، لكنْ تمّ الإفراجُ عنكَ في شهر أيلول، وها أنت تمارس تجارةً مزدهرة منذ ذلك الوقت».

أعار جونسون هولمز كاملَ انتباهِه لأوّل مرّة، وسأل: «مَن أخبرك بكلّ هذه الأمور؟»

«لم أحتَجْ إلى أنْ يخبرني أحد، يا سيّد جونسون. كلّ ذلك واضح إلى درجة موجعة. والآن يجب أنْ أسألكَ من جديد إذا سمحت: ماذا جلب لك روس؟»

فكّر جونسون ثمّ أومأ ببطء. قال: «التقيتُ هذا الصبيّ روس قبل شهرين. كان حديثَ الوصول إلى لندن ويقيم في منطقة كنغركروس، وقد جلبَه إلى هنا صبيّان آخران من أولاد الشارع. لا أتذكّر إلّا القليلَ جدًّا عنه باستثناء أنّه بدا جيّد التغذية وأفضلَ لباسًا من الآخرين وأنّه حمل معه ساعةَ جيب رجّالية. لا شكّ لديّ في أنّها مسروقة. جاء بعد ذلك مرّاتٍ قليلة، لكنّه لم يجلب أبدًا أيّ شيء بذات الجودة». توجّه جونسون إلى خزانة ونقّب فيها إلى أنْ أخرج ساعةً ذهبيةَ الغلاف معلّقة بسلسلة. قال: «هذه هي الساعة، وقد أعطيتُ الفتى خمسة شلنات فقط مقابلها بالرغم من أنّها تساوي عشرة جنيهات على الأقلّ. في وسعك أخذُها لقاء المبلغ الذي دفعتُه أنا».

«وفي المقابل؟»

«عليكَ أنْ تقول لي كيفَ تعرف كلّ هذه الأمور عنّي. أعلم أنّك تحرٍّ، لكنّني لن أصدّق أنّك استقيتَ من الهواء كلّ هذه المعلومات على أساس هذا الاجتماع القصير الواحد».

«الأمر بسيطٌ إلى أقصى حدّ، ولو شرحتُه لك فسترى أنّك قمتَ بصفقة خاسرة».

«لكنْ إذا لم تخبرْني فلن أنام أبدًا».

«جيّد جدًّا، يا سيّد جونسون. كونُك رجلًا متعلّمًا واضحٌ من أسلوبِك في الكلام. كذلك لاحظتُ كتابَ رسائل فلوبير إلى جورج صاند، غير المترجمة، الذي كنتَ تقرأه. ولا تستطيع إلّا عائلةٌ ثريّة تزويدَ طفل ثقافةً فرنسيةً راسخةً.

كما أنّك تمرّنتَ ساعات طويلة على البيانو، ومن السهل تمييزُ أصابع عازف البيانو. وكونُك وجدتَ نفسَك تعمل في هذا المحلّ يشير إلى وقوع كارثةٍ ما في حياتك وخسارةٍ سريعة لثروتك ومكانتك. وليست هناك وسائلُ كثيرة يمكنها أنْ تسبّبَ ذلك: الكحول، المخدّرات، ربّما مضاربةٌ تجارية فاشلة. لكنّك تتحدّث عن احتمالات وتشير إلى زبونَيْك كحمامتَيْن، وهو الاسم الذي كثيرًا ما يُطلق على المقامرين الجدد قليلي الخبرة. وهكذا تكون المقامرة هي الكلمة التي تتبادر إلى الذهن. وقد لاحظتُ أنّ لديك عادة عصبيّة تتمثّل في طريقة طيّ يدك – وهي إشارة إلى مائدة ألعاب النرد».

«وعقوبةُ السجن؟»

«لقد أُخضِعتَ لحلاقةِ شعرٍ أظنّ أنّها تسمّى قَصّة كلب التيرْيِر، وهي حلاقةُ السجون. ومن الظاهر أنّ شعرك نما من جديد بمقدارِ حوالى ثمانية أسابيع، ما يعني أنّك خرجتَ من السجن في شهر أيلول. ويؤكّد لونُ بشرتك هذا الواقع، فقد كان الشهرُ الماضي دافئًا ومشمسًا بصورة غير مألوفة، ومن الواضح أنّك كنت متمتّعًا بحرّيتك خلاله. وهناك علاماتٌ على معصمَيْك الاثنين، ما يوحي إليّ بأنّك كنتَ مقيّدًا أثناء وجودِك في السجن وأنّك كافحتَ ضدّ قيدِك. واستلامُ بضائع مسروقة هو الجريمةُ الأكثر بديهيّةً بالنسبة إلى مسترهِن. وفي ما يتعلّق بهذا المتجر، فإنّ غيابك عنه لفترة زمنية طويلة واضحٌ من كونِ الكتب المعروضة في النافذة قد بهتت بفعل ضوء الشمس ومن طبقات الغبار التي تراكمت على الرفوف. وألاحظ في الوقت ذاته أغراضًا كثيرة، من بينها هذه الساعة، لم يتراكم عليها أيّ غبار، ما يعني أنّها اقتُنِيَتْ حديثًا، وهذا دليلٌ على ازدهار تجارتك».

سلّم جونسون الساعةَ المسروقة إلى هولمز، وقال: «أشكرك يا سيّد هولمز. أنت محقّ تمامًا من كلّ ناحية. أنا أنتمي إلى أسرةٍ كريمة في ساسكس وكنتُ آمل يومًا أنْ أصبحَ عازفَ بيانو. وعندما فشلتُ في ذلك، توجّهتُ إلى دراسة الحقوق. وكان من المحتمل جدًّا أنْ أنجحَ وأُثري في هذه المهنة غير أنّني وجدتُها مُمِلّةً إلى أبعد حدّ. بعد ذلك، عرّفني صديقٌ في إحدى الأمسيات بالنادي الفرنسي-الألماني في شارع شارلوت ستريت. ولا أخالك تعرفه، فليس

فيه ما هو فرنسيّ أو ألمانيّ، والشخصُ الذي يديره يهوديٌّ في الواقع. حسنًا، في اللحظة التي رأيتُ النادي فيها – البابَ غير المُعلَّم ذا الفتحةِ الصغيرة المشبّكة بالحديد والنوافذ المطليّة لحجب الرؤية والدرج المُعتِم المؤدّي إلى الغرفِ ساطعةِ الإنارة في الطابق العلوي، حلّت عليّ اللعنة. هنا كانت الإثارة التي طالما افتقدتُها في حياتي. دفعتُ رسمَ الاشتراك البالغ شلنَيْن وستّة بنسات. وتعرّفتُ إلى ألعاب البكارا والروليت والهزَرد، وكذلك النرد. وجدْتُ نفسي أجرجر قدميّ بصعوبة طول النهار لمجرّدِ أنْ أصل إلى إغراءات الليل. فجأةً، أصبحتُ محاطًا بأصدقاء مبهرَجين جدد يبتهجون جميعًا لرؤيتي. وكانوا كلُّهم مدسوسين عليّ بطبيعة الأمر، أيْ إنّ مالكَ النادي كان يدفع لهم ليحثّوني على اللعب. كنتُ أربح أحيانًا، وكنتُ أخسر في الغالب. خمسة جنيهات في ليلة، عشرة جنيهات في الليلة التالية. هل من الضروري أنْ أبلّغكما بالمزيد. أصبحتُ مهمِلًا في عملي وطُردتُ من وظيفتي. استعملتُ آخر مدّخراتي لتأسيس هذا المحلّ اعتقادًا منّي بأنّ مهنةً جديدة، مهما تكن وضيعةً ومبتذلَة، سوف تشغل تفكيري. لم يتحقّق شيءٌ من ذلك البتّة، وما زلتُ أعودُ إلى هنالك ليلةً بعد ليلة. لا أستطيع أنْ أمنع نفسي عن ذلك، ومن يدري ماذا يخبّئ لي المستقبل؟ أشعر بالخجل من التفكير في ما كان والداي سيقولان لو استطاعا أن يشاهداني. لكنّهما ميّتان لحسنِ الحظّ. لا زوجةَ لي ولا أطفال، وإنْ يكن ثمّةَ عزاءٌ لي فهو أنّ لا أحدَ في هذا العالم يأبه لي. لذا لا يوجد سببٌ يجعلني أشعر بالخجل».

دفع لهُ هولمز النقود، وعُدْنا معًا إلى شارع بيكر ستريت. لكنّني لو ظننتُ أنّ مشاغلَ ذلك النهار قد انتهت لكنتُ مخطئًا جدًّا. كان هولمز قد تفحّص الساعة أثناء ركوبنا في العربة. كانت قطعةً جميلة ذاتَ آليةٍ لتعيير الدقائق ووجهٍ من الميناء في غلافٍ ذهبي من صنع توشون وشركاه في جنيف. لم تكن الساعةُ تحمل اسمًا آخر أو أيّ كتابة، لكنّه وجد على جهتِها الخلفية رسمًا محفورًا: طائرٌ جاثم على مفتاحين متصالبَيْن.

قلتُ متسائلًا: «شعارٌ عائلي؟»

أجابني: «فكرُك يتوقَّد، يا واطسون. هذا ما أعتقده بالضبط. وأرجو أنْ تزوّدَنا دائرةُ المعارف مزيدًا من المعلومات».

وبالتأكيد، كشفت صفحات دائرة المعارف أنّ شعار الغُراب والمفتاحين هو لعائلة رافنشو، وهي إحدى أعرق الأُسَر في المملكة وتمتلك قصرًا في الجوار المباشِر لقرية كولن سينت ألدوين في مقاطعة غلاوسسترشير. وكان اللورد رافنشو الذي تميَّز كوزير للخارجية في الحكومة الحالية قد فارق الحياة قبل فترة قصيرة عن اثنين وثمانين عامًا تاركًا ابنَه صاحبَ السعادة أليك رافنشو وريثًا وحيدًا له، وقد ورث عنه الآن لقبَه وأملاكَ العائلة. وأفزعني قليلًا: «إصرارُ هولمز على مغادرة لندن فورًا، لكنّي كنتُ أعرفه أكثرَ من أنْ أستغرب، كما كنتُ أعرف بشكلٍ خاصّ نزعتَه إلى الحراك الدائم التي كانت جزءًا أساسيًا من طباعه. لم أحاول أنْ أجادلَه، ولم يخطر ببالي طبعًا أنْ أتخلَّف عن مرافقته. وعندما أعود بأفكاري الآن إلى تلك الأحداث يتأكّد لي أنّني كنت جادًّا في القيام بواجباتي ككاتب سيرةٍ له بقدر ما كان هو جادًّا في متابعة تحقيقاته المختلفة. وربّما كان هذا سببَ التوافق الممتاز الذي كان قائمًا بيننا.

لم يُتح لي من الوقت إلّا ما يكفي لتوضيب مستلزماتٍ قليلة للمبيتِ ليلة واحدة خارج المنزل. وما إنْ غربت الشمس حتّى كنّا مستقرّين في فندق ريفيّ بهيج نتناول عشاءً من فخذ الحمل المحمّر بصلصة النعناع وباينت من النبيذ الجيّد من نوع كلاريت الفرنسيّ الأحمر. لا أذكر الآن موضوعَ حديثنا أثناء وجبة العشاء، وقد سألني هولمز عن أحوالِ عيادتي، وأظنّ أنّني وصفتُ له بعضًا من العمل المثير للاهتمام الذي كان متشينكوف يقوم به عن نظرية الخلايا. كان هولمز دائمًا شديد الاهتمام بالأمور المتعلّقة بالطبّ أو العلوم على الرغم من حرصه على عدم حشوِ ذهنه بمعلومات لا قيمةً ماديةً لها، حسب رأيه. والسماءُ وحدَها كانت كفيلةً بحمايةِ أيّ شخص يحاول الدخولَ معه في حوار حول السياسة أو الفلسفة. فطفلٌ في العاشرة من عمره كان أكثر إلمامًا منه في هذين المجالَيْنِ. وهناك شيءٌ واحد أستطيع قولَه عن تلك الأمسية: لم نناقشْ في أيّ لحظة الموضوعَ الذي كنّا بصدده. وبالرغم من أنّ الوقت مرّ سريعًا مع الحميمية التلقائية التي كثيرًا ما استمتعنا بها معًا،

استطعتُ أنْ أحدس أنّ ذلك كان مقصودًا بلا ريب. كان هولمز لا يزال مضطربًا في داخله، إذ ظلّ موتُ روس يؤرقه ولا يترك له مجالًا للراحة.

وحتّى قبل أنْ يتناول فطوره في صباح اليوم التالي، كان هولمز قد أرسل بطاقتَه إلى قصر رافنشو هول راجيًا تحديد موعد له. ولم يتأخّر وصول الردّ إليه. كان على اللورد رافنشو الجديد أنْ يصرّفَ بعضَ الأعمال لكنّه سيُسَرُّ باستقبالِنا في الساعة العاشرة. وصلنا إلى هناك عندما دوّت من برج الكنيسة دقّات الساعة العاشرة، وصعدنا طريقًا خاصًّا إلى قصرٍ أنيق إليزابيتّي الطراز مبنيّ بأحجار تلال كوتسولد ومحاطٍ بمروج التمعت بصقيع الصباح. وأطلّ علينا صديقُنا الغُراب ذو المفتاحين منقوشًا في الحجر إلى جانب البوابة الرئيسية، ثم عاد إلى الظهور في أُسكُفّة أعلى الباب الأمامي. أتينا إلى القصر سيرًا على الأقدام، وكانت هذه مشيةً ممتعةً قصيرة من فندقنا. لكنّنا لاحظنا، عندما اقتربنا من القصر، عربةً متوقّفةً أمامه. وفجأة هُرِع رجلٌ خارجًا من المبنى وركب في العربة وأغلق بابَها خلفَه بقوّة. ضرب الحوذيُّ الحصانَيْن بسوطه. وما هي إلّا لحظة حتّى انطلق بها مارًّا قربنا بسرعة وعجلاتُها تصرصر على الطريق. لكنّني كنتُ قد تبيّنتُ مَن هو الرجل بالفعل. قلت: «هولمز، أنا أعرف الرجل».

«في الواقع، يا واطسون، كان هذا السيّد توبياس فينتش. أليس كذلك؟» الشريك الأكبر عمرًا في صالة عرض كارستيرز وفينتش للأعمال الفنّية في شارع ألبيمارل ستريت. هذه مصادفةٌ فريدةٌ من نوعها، ألا تعتقد؟»

«يبدو الأمر غريبًا جدًّا بالتأكيد».

«علينا ربّما أنْ نتطرّق إلى الموضوع بقدر معيّن من الكياسة. وإذا كان اللورد رافنشو يجد من الضروريّ أنْ يبيع بعضًا من المقتنيات الثمينة المتوارثة لعائلته».

«من الممكن أنْ يكونَ شاريًا لا بائعًا».

«هذا محتمَل أيضًا».

قرعنا جرس الباب، واستقبلَنا خادمٌ قادنا إلى قاعةِ استقبالٍ ذات مقاييسَ تليق برجل نبيل وجدرانٍ مكسوّة بألواحٍ خشبية عُلِّقت فوقها رسومٌ

بورتريه عائلية وسقفٍ شاهق العلوّ إلى درجة أنّ ما من ضيف كان ليجرؤ على رفعِ صوته خوفًا من الصدى. كانت النوافذُ ذاتَ درفاتٍ مفصولةٍ بأعمدة وتطلّ على حديقةٍ زهور وخلفَها مرجٌ للغزلان. ورتِّبت في القاعة بعضُ المقاعد والآرائك حول موقدٍ حجريّ ضخم. رأينا الغُرابَ من جديد محفورًا على أسكفّة الموقد الذي كانت حطباتٌ خضراء تطقطق فيه بين ألسنةِ اللهب. كان اللورد رافنشو واقفًا هناك يدفّئ يديه. ولم يكن انطباعي الأوّل إيجابيًا تمامًا. كان له شعرٌ فضيّ مسرَّح إلى الوراء ووجهٌ ضاربٌ إلى الحمرة خالٍ من الجاذبية وعينان نافرتان بصورة ملحوظة، وقد خطر لي أنّ ذلك قد يكون ناجمًا عن اعتلالٍ ما في غدّته الدرقية. كان يرتدي سترةً لركوب الخيل وجزمةً جلدية، ويتأبّط سوطَ فارسٍ تحت ذراعه. بدا حتّى قبل انْ نقدّمَ نفسَيْنا إليه قليلَ الصبر ومتشوّقًا للذهاب في حال سبيله.

قال: «السيّد شرلوك هولمز. نعم، نعم. أظنّ أنّني سمعتُ بك. أنتَ تحرٌ؟ لا أستطيع أنْ أتخيّل أيّةَ ظروف تجمع بين عملك وعملي».

«لديّ شيءٌ أعتقد أنّه قد يكون ملكًا لك، يا لورد رافنشو». لم نكن قد دُعينا إلى الجلوس، وأخرج هولمز الساعةَ وحملها إلى سيّد القصر.

تفحّص رافنشو الساعة في يده كأنّه يزنُها وكما لو لم يكن متأكّدًا حتّى من أنّها له. وببطء أدرك أنّه يحمل في يده قطعةً من ممتلكاته. تساءل كيف حصل هولمز عليها وسُرَّ لاسترجاعها. لم ينطقْ بكلمةٍ واحدة، لكنّ هذه الأحاسيس كلّها تجلّت على وجهه، وحتّى أنا وجدتُ من السهلِ قراءتَها. قال بعد لأْيٍ: «حسنًا، أنا شاكرٌ جدًّا لكما. أنا متعلّقٌ جدًّا بهذه الساعة التي تلقّيتُها هديّةً من شقيقتي. لم يخطر ببالي قطّ أنّني سأراها من جديد».

«يهمّني أنْ أعرفَ من فضلك كيفَ فقدتَها، يا لورد رافنشو».

«أستطيع أنْ أقول لك ذلك على وجه التحديد، يا سيّد هولمز. فقدتُها في الصيف في لندن حيث كنتُ لحضور الأوبرا».

«هل تستطيع أنْ تتذكّر الشهر؟»

«كان شهرَ حزيران. عندما كنتُ أترجّل من عربتي، اصطدَمَ بي ولدٌ صغير من أطفال الشوارع المشرّدين. لم يزد عمره على اثني عشر عامًا أو ثلاثة عشر. لم أُعِرِ الأمر أيّ أهمّية آنذاك، لكنّني أردتُ معرفةَ الوقت أثناء الاستراحة، فاكتشفتُ طبعًا أنّني تعرّضتُ للنشل».

«الساعةُ قطعةٌ جميلة ومن البديهي أنّك تعتزّ بها. هل أبلغتَ الشرطة بالحادث؟»

«لا أفهمُ تمامًا الغايةَ من هذه الأسئلة، يا سيّد هولمز. وبما أنّ الشيءَ بالشيء يُذكَر، فإنّني مندهشٌ من أنْ يتكبّد رجلٌ له سمعتُك مشقّةَ المجيء كلَّ هذه المسافة من لندن ليعيد الساعة. هل لي أنْ أفترضَ أنّك تأمل الحصولَ على مكافأة؟»

«قطعًا لا. الساعةُ جزءٌ من تحقيقٍ أوسع، وكنتُ أعلّل نفسي بأنّك قد تتمكّن من المساعدة».

«حسنًا، لكنّني أخشى أنّ عليّ أنْ أخيِّبَ رجاءَك، لا أعلم أيَّ شيء أكثر ممّا قلت. ولم أبلِّغ الشرطة بالسرقة لعلمي أنّ هناك لصوصًا وأشرارًا في كلّ زاوية شارع ولشكّي في قدرةِ رجال الشرطة على القيام بأيّ شيء، لذا ما الفائدة من إهدارِ وقتِهم؟ أنا ممتنّ جدًّا لك، يا سيّد هولمز، على إعادة الساعة إليّ، وسيُسعدني تمامًا أنْ أدفعَ لك تكاليف سفرك ووقتك. لكنْ عدا ذلك أعتقد أنّ عليّ أنْ أتمنّى لكما يومًا سعيدًا».

قال هولمز بلهجة حازمة: «لديّ سؤالٌ واحدٌ أخير، يا لورد رافنشو. كان هنا رجلٌ غادر هذا المكان عندما وصلنا، ولسوء الحظّ فاتّنا لقاؤه بلحظة، وأتساءل ما إذا كنتُ محقًّا في ظنّي أنّه صديقٌ قديم لي، السيّد توبياس فينتش؟»

«صديق؟». وكما ارتاب هولمز لم يكن اللورد رافنشو مسرورًا بأن يُكتشَف وجودُه في رفقة تاجر القطع الفنّية.

«إنّه من معارفي».

«حسنًا، بما أنّك تسأل. نعم كان هو، ولا يطيب لي انْ أناقشَ أعمالَ العائلة يا سيّد هولمز، لكنْ لا بأس في أنْ تعرف أنّه كانَ لوالدي ذوقٌ بالغُ

الـرداءة في الفنّ وأنّني أنوي التخلّص من جـزءٍ من مجموعته على الأقلّ. وقد أجريتُ اتصالاتٍ مع عدّة صالات عرض في لندن بهذا الشأن، وشركةُ كارستيرز وفينتش هي الأكثر تكتُّمًا».

«وهل ذكر لك السيّد فينتش مرّةً بيتَ الحرير؟»

طرحَ هولمز هذا السؤال، وصادفَ أنْ تزامنَ الصمتُ الذي تلاه مع انفصامِ حطبةٍ في النار، فجاء صوتُها وكأنّه علامةٌ فاصلةٌ في الكلام.

«قلتَ إنّ لديكَ سؤالًا واحدًا، يا سيّد هولمز. وهذا سؤالٌ ثانٍ، وأظنّ أنّني نلتُ كفايتي من وقاحتك. هل استدعي خادمي أم هل سترحلان الآن؟»

«سعدتُ كثيرًا بالتعرُّف إليك، يا لورد رافنشو».

«أنا شاكرٌ لك على إعادة ساعتي، يا سيّد هولمز».

سرّني الخروج من الغرفة التي شعرتُ فيها وكأنّني حبيسٌ وسط هذا القدر من الثراء والتميُّز. وعندما خرجنا إلى الطريق وبدأنا السير هبوطًا نحو البوّابة، ضحك هولمز ضحكةً خافتة، وقال: «هناك إذًا أحجيةٌ أخرى لك، يا واطسون».

«لقد بدا عدائيًا بصورة غير عاديّة، يا هولمز».

«أنا أتحدّث عن سرقة الساعة. لو كانت سُرقَت في شهر حزيران لما أمكن تحميلُ روس المسؤولية لأنّه كان في مدرسة كورلي غرينج في ذلك الوقت، على حدّ علمنا. وبحسب ما قاله جونسون، رُهِنت الساعة قبل شهرين، أي في أيلول. إذًا ماذا حدث لها في الأشهر الثلاثة بين التاريخين؟ وإذا كان روس هو الذي سرقها لماذا احتفظ بها كلّ هذه المدّة؟»

كنّا قد بلغنا البوّابةَ تقريبًا عندما حلّق فوقنا طائر أسود، لم يكن غُرابًا أسود بل غُدافًا. تابعتُه بنظري، وفيما كنتُ أفعل ذلك جعلني شيءٌ ما أستدير وأنظر في اتّجاه القصر. كان اللورد رافنشو واقفًا هناك عند النافذة يراقبنا ونحن نبتعد. كانت يداه على وركَيْه وعيناه المستديرتان النافرتان مركّزتَيْن علينا. وبالرغم من احتمال كوني مخطئًا لأنّنا كنّا بعيدَيْن إلى حدٍّ ما، فقد بدا لي وجهه مليئًا بالكراهية.

9

الإنذار

قال هولمز بنبرة امتعاض: «لا مفرّ من ذلك. سيتعيّن علينا أنْ نطلبَ مساعدةَ مايكروفت».

قابلتُ مايكروفت هولمز أوّل مرّة عندما طلبَ مساعدةً بالنيابة عن جارٍ له كان مترجمًا يونانيًا تورّط مع مجرمَيْن شرّيرَيْن. وحتّى ذلك الوقت، لم تكنْ لديّ أدنى فكرة عن وجود أخٍ لهولمز يكبره بسبع سنوات. لم أفكّر قطّ في امتلاك هولمز أيَّ أسرةٍ على الإطلاق. وقد يبدو غريبًا أنْ لا يكون رجلٌ أمكنني اعتبارُه صديقي الأقرب وأمضيتُ في رفقته مئاتٍ عديدة من الساعات قد ذَكَر، ولو مرّةً واحدة، طفولتَهُ أو والدَيْه أو مكانَ ولادته أو أيّ شيء آخر ذي علاقة بحياته قبل استقراره في شارع بيكر ستريت. لكنّ تلك كانت سجيّته بالطبع. لم يحتفلْ قطّ بعيد ميلاده، ولم أعرف تاريخَ ميلاده إلّا عندما قرأته في نعيه. وذكر لي مرّةً أنّ أسلافَه كانوا في ما مضى من ملّاكي الأراضي في الريف وأنّ أحد أقربائه كان فنّانًا واسع الشهرة، لكنّه كان يفضّل إجمالًا التظاهرَ وكأنّه لم تكن له عائلةٌ قطّ، وكأنّ نابغةً مثله انبثق فجأةً على مسرح الدنيا بدون مساعدةٍ من أحد.

عندما سمعتُ لأوّلِ مرّة أنّ لهولمز شقيقًا، ازداد إنسانيةً في نظري، على الأقلّ إلى ان التقيتُ شقيقَه. كان مايكروفت فريدًا مثلَه من نواحيَ كثيرة: عازبًا، غيرَ مرتبط، يعيش في عالم صغير من صنعِه هو. تمثّل عالمُه

هذا إلى حدٍّ بعيد في نادي «ديوجينس كلوب» في شارع «بِل مِل» حيث كان يتواجد يوميًا من الساعة الخامسة إلّا ربعًا حتّى الساعة الثامنة. وأعتقد أنّه كان يمتلك شقّةً في مكانٍ ما قربَ النادي. كان نادي ديوجينس كلوب معروفًا جيّدًا كموئل للرجال الأكثر انطوائيّةً في المدينة والذين ترفض النوادي الأخرى ضمّهم إلى عضويّتها. لم يكن أحدٌ يكلّم شخصًا آخر في هذا النادي أبدًا، بل كان الكلام ممنوعًا منعًا باتًّا إلّا في غرفةِ الغرباء. وحتّى هناك قلّما كان حوارٌ يدور. وأذكر أنّني قرأتُ في إحدى الصحف أنّ حارسَ قاعةِ النادي تمنّى لأحدِ الأعضاء مرّةً أمسيةً سعيدةً فطُرِد فورًا من عمله. وكان لغرفةِ الطعام كلُّ ما في دير للرهبان الترايست الصامتين من حميمية وبهجة، بالرغم من أنّ الطعام على الأقلّ تميّز بجودته لأنّ النادي كان يوظّف طاهيًا فرنسيًا واسعَ الشهرة. وكان ميلُ مايكروفت إلى الاستمتاع بطعامه واضحًا من منظر جسمِه مُفرِط البدانة. وما زال في وسعي رؤيتُه محشورًا في مقعد يحمل كأسَ براندي في يد وسيجارًا في اليد الأخرى. وكان لقاؤه مربِكًا دائمًا لأنّني كنتُ ألحظُ فيه لبرهةٍ واحدة لا أكثر، بعضًا من ملامحِ صديقي: العينَيْن الرماديتَيْن الفاتحتَيْن وتعابيرَ الوجه الصارمة ذاتها. لكنّ هذه الملامح كانت تبدو في غير مكانها إلى حدٍّ عجيب وكأنّها استُنسِخَت في هذا الطود المتحرّك من اللحم والشحم. وعندما كان مايكروفت يدير رأسَه، يصبح شخصًا غريبًا تمامًا بالنسبة إليّ، يصبح رجلًا من النوع الذي يُنذِرك على نحوٍ ما بضرورة الابتعاد عنه. وقد تساءلتُ بالفعل أحيانًا عمّا كانا عليه ربّما كصبيّين. هل تشاجرا مرّةً، هل قرآ معًا، هل ركلا كرةً بينهما؟ كان من المستحيل تخيُّل ذلك لأنّهما نشآ ليصبحا من نوع الرجال الذين يريدونك أنْ تعتقدَ أنّهم لم يكونوا أولادًا قطّ في يوم من الأيّام.

وعندما وصف لي هولمز شقيقَه مايكروفت لأوّل مرّة، قال إنّه مدقّق حسابات يعمل مع عدد من دوائر الحكومة. لكنّ هذه لم تكن في الواقع إلّا نصفَ الحقيقة. فقد علمتُ في وقتٍ لاحق أنّ أخاه كانَ أهمَّ من ذلك وأعظمَ نفوذًا بكثير. وأنا أشير هنا طبعًا إلى المغامرة الخاصّة بمخطّطات بروس بارتنغتون عندما سُرقَت تصاميمُ غوّاصة سرّية للغاية من أميرالية سلاح البحرية. وكان مايكروفت الشخص الذي كُلِّف باستعادتها، وحينَها اعترفَ لي

هولمز بأنّ شقيقَه شخصيّةٌ بالغةُ الأهمّية في أوساط الحكومة وبأنّه مستودعُ بشريّ لوقائع سريّة مكتومة والرجلُ الذي تستشيره كلُّ دائرة عند الحاجة إلى معرفةِ شيء ما. وكان رأيُ هولمز أنّ شقيقَه، لو اختار أنْ يصبح تحرّيًا، لصارَ صُنوَه أو حتّى أفضلَ منه، وهو إقرارٌ أدهشني سماعُه. لكنّ مايكروفت هولمز كان يعاني عيبًا واحدًا في سجيّته هو نزعةُ خمول متجذّرة إلى درجةٍ من شأنِها أنْ تمنعَه من حلّ أيّ جريمة لسببٍ بسيط هو عجزُه عن جعل نفسِه يهتمّ بها. وبالمناسبة، ما زال مايكروفت على قيد الحياة. وعندما سمعتُ عنه آخر مرّة، كان قد مُنح لقب فارس وعُيّن رئيسًا لإحدى الجامعات المشهورة، وذلك قبل أن يتقاعد.

سألتُ: «هل هو في لندن؟»

«إنّه نادرًا ما يكون في أيّ مكان آخر. سوف أُبلِغه أنّنا نعتزمُ زيارةَ النادي».

كان نادي ديوجينس واحدًا من النوادي الأصغر في شارع بِل مِل وقد صُمّم كقصرٍ صغيرٍ من قصور البندقية على الطراز القوطي، له نوافذُ مقوّسة غنيّة بالزخارف ودرابزينات صغيرة، ما جعل الداخل يبدو كئيبًا إلى حدٍّ ما. كان الباب الرئيسيّ يوصل إلى ردهة ممتدّة على طول المبنى بكامله ولها نافذةٌ مقبّبة عالية، لكنّ المهندسَ المعمار بالغ في حشو المكان بالكثير من الشرفات والأعمدة والسلالم، فكانت النتيجة أنّ كميّة الضوء التي استطاعت التسرُّبَ إلى الداخل كانت ضئيلة جدًّا. ولم يكن يُسمح للزوّار إلّا بارتياد الطابق الأرضي. وحدّدت قوانينُ النادي يومين في الأسبوع يُسمح فيهما للزوّار بمرافقة عضوٍ إلى غرفة الطعام في الطابق الأعلى، لكنّ هذا لم يحدث أبدًا طوال السنوات السبعين التي انقضت منذ تأسيس النادي. استقبلنا مايكروفت كالعادة في غرفة الغرباء ومكتبتها ذات الرفوف المصنوعة من خشب السنديان التي انحنت تحت وزن كتبها الكثيرة وتماثيلها النصفية الرخامية المختلفة.ونافذتها المقوّسة المطلّة على شارع بِل مِل. كانت صورة بورتريه للملكة معلّقةً فوق المدفأة رسمَها، كما قيل، عضوٌ في النادي أهانَها بتضمين اللوحة كلبًا شاردًا ورأسَ بطاطا، ومع ذلك لم أستطع أبدًا أنْ أفهم دلالةَ أيّ منهما في الصورة.

قال مايكروفت بحماس وهو يدخل متهاديًا في مشيته: «عزيزي شرلوك، كيفَ حالك؟ لقد نقص وزنُكِ في الآونة الأخيرة كما أُلاحظ. لكنْ يُسعِدني أنْ أراك تعافيتَ وغُذتَ كما كنت».

«وأنتَ شُفيتَ من الإنفلونزا».

«كانت إصابةً خفيفةً جدًّا. وقد استمتعتُ بقراءة بحثِك عن الأوشام الذي أعتقدَ جازمًا أنّك كتبتَه في الليل. هل كنتَ تعاني أرقًا؟»

«لقد كان الصيفُ حارًّا إلى درجةٍ مزعجة. ولم تُخبرني أنّك اشتريتَ ببغاء».

«لم أشترِه بل استعرتُه، يا شرلوك. يسرّني أنْ أراك يا دكتور واطسون. وبالرغم من أنّك لم ترَ زوجتَك منذ قرابة أسبوع فإنّني أرجو أنْ تكون بخير. لقد عدتَ للتوّ من غلاوسسترشير».

«وأنتَ من فرنسا».

«هل كانت السيّدة هادسون مسافرة؟»

«لقد عادت في الأسبوع الماضي. لديك طبّاخةٌ جديدة».

«الطبّاخة السابقة استقالت».

«بسبب الببغاء؟»

«لقد كانت متوتّرةَ الأعصاب جدًّا؟»

دار هذا الحوارُ بسرعة كبيرة إلى درجةِ أنّني ظننتُ نفسي متفرّجًا في مباراة لكرة المضرب، فكان رأسي يتحرّك جيئةً وذهابًا بين هذا وذاك. أشار مايكروفت علينا بالجلوس على الأريكة واستقرّ هو بجسمه الضخم على كرسيّ استرخاء. قال فجأةً بلهجة أكثر جدّية: «حزنتُ كثيرًا عند سماعي نبأ موتِ الفتى روس. أنتَ تعلم أنّني نصحتُك بعدم استخدام أطفال الشوارع هؤلاء، يا شرلوك. أرجو أنْ لا تكونَ أنتَ من عرّضه للخطر».

«من السابق لأوانِه قولُ أيّ شيء على نحوٍ مؤكّد، هل قرأتَ المقالات التي نشرتها الصحف؟»

«طبعًا. لستراد هو من يتولّى التحقيق. إنّه ليس رجلًا سيّئًا إلى هذا الحدّ. لكنّني أجدُ هذه المسألةَ المتعلّقة بالشريط الأبيض مقلقةً إلى أبعد حدّ.

وأميلُ إلى الظنّ أنّ الشريطَ الأبيض، مقترنًا بطريقة القتل المديدة والمؤلمةِ جدًّا، وضع هناك كإنذار. والسؤال الرئيسيّ الذي يجب أن تطرحَه على نفسك هو ما إذا كان هذا الإنذار ذا طبيعةٍ عامّة أو موجّهًا إليك أنتَ بالذات».

«لقد أُرسِلتْ إليّ قطعةٌ من شريطٍ أبيض قبل سبعة أسابيع». كان هولمز قد جلب المغلّف معه، فأخرجه وناوله إلى شقيقه الذي تفحّصه.

قال: «المغلّف لا يقول لنا الكثير. لقد أُقحِم في صندوقك البريدي على عجل لأنّ طرفَه مهلهَل، ومَن كَتَبَ اسمَك عليه رجلٌ مثقّفٌ أيمن». أخرج الشريطَ من المغلّف وقال: «هذا الحريرُ هنديٌّ ولا أشكّ في أنّك لاحظتَ ذلك. تعرّض هذا الشريط لنور الشمس لأنّ النسيجَ ضَعُف. طول الشريط تسعةُ إنشات بالضبط، وهو أمرٌ مثيرٌ للاهتمام. لقد اشتُرِي لدى صانعِ قبّعات ثمّ قُصّ من جديد. تستطيعُ أنْ ترى أنّ أحدَ الطرفَيْن قُصّ احترافيًا بمقصٍّ حادّ بينما قُطِع الطرف الثاني بخشونة بواسطة سكّين. وليس في استطاعتي أنْ أزوّدَك معلومات إضافية كثيرة علاوةً على ما قلتُ، يا شرلوك».

«ولا أنا توقّعتُ ذلك منكَ، يا أخي مايكروفت. لكنّي تساءلتُ بالفعل ما إذا كنتَ تستطيعُ ربّما أنْ تخبرني ما هي دلالته. هل سمعتَ بمكانٍ أو تنظيم يُدعى بيت الحرير؟»

هزّ مايكروفت رأسَه، وقال: «هذا الاسم لا يعني لي أيَّ شيء. ويبدو أنّه اسم متجر. في الواقع، وفيما أفكّر في الأمر، يتراءى لي أنّني أتذكّر أنّه كان يوجد متجرٌ مختصّ بملابس الرجال ولوازمهم يحمل هذا الاسم في مدينة إدنبره. أليس من المحتمل أنْ يكون هذا المتجر هو المحلّ الذي ابتيع فيه هذا الشريط؟»

«يبدو ذلك مستبعدًا في الظروف الراهنة، إذ أنّنا سمعنا هذا الاسم لأوّلِ مرّة من فتاةٍ يكاد يكون من المؤكّد أنّها عاشتْ طولَ حياتها في لندن. وقد ملأها الاسمُ بالرعب إلى درجةٍ أنّها هاجمت الدكتور واطسون وجرحتْه بسكّين في صدره».

«يا للهول!»

«ذكرتُ الاسم لِلّورد رافنشو أيضًا».

«إبن وزير الخارجية السابق؟»

«هو بعينه، وظننتُ أنّ ردّ فعلِه اتّسم بالخوف بالرغمِ من أنّه بذل ما في وسعه لإخفاء خوفه».

«حسنًا، أستطيع أنْ أطرحَ أسئلةً قليلة من أجلك، يا شرلوك. هل سيزعجك أنْ تأتي لرؤيتي في الوقت نفسه غدًا؟ وفي هذه الأثناء سأحتفظ بهذا الشيء». أكمل كلامه وأغلق قبضة يده السمينة على الشريط الأبيض.

لكنّنا لم نُضطَرّ في الواقع إلى الانتظار أربعًا وعشرين ساعة للاطّلاع على نتائج استفسارات مايكروفت. فقد سمعنا في حوالى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي صوتَ عجلات آتية، وصادفَ أنْ كان هولمز واقفًا عند النافذة، فنظر إلى الخارج، وقال: «إنّه مايكروفت».

توجّهتُ نحوه وانضممتُ إليه قبل أنْ تفوتَني رؤيةُ شقيق هولمز وهو يُعاني في النزول من عربةٍ مُغلَقة رباعية العجلات. أدركتُ فورًا أنّ هذا حدثٌ جديرٌ بالملاحظة لأنّه لم يسبق لمايكروفت أبدًا أنْ زارنا في شارع بيكر ستريت، ولم يرجع بعد ذلك إلّا مرّةً واحدة فقط. التزم هولمز نفسُه الصمت، وارتسمتْ على وجهه إماراتُ القلق، وفهمتُ من ذلك أنّ أمرًا سيئًا لا بدّ وأنْ يكونَ قد طرأ على القضية ليسبّبَ مثلَ هذا الحدث الخارج عن المألوف. كان علينا أنْ ننتظرَ بعض الوقت قبل انْ ينضمّ مايكروفت إلينا في الغرفة. كان الدرجُ الرئيسيّ ضيّقًا وشديدَ الإنحدار، ما جعلَه غيرَ ملائم من ناحيتَيْن لرجلٍ في مثل حجمه. وصل إلى الباب في آخر الأمر، وألقى نظرةً حوله وجلس على أقرب مقعد. سأل: «هل هذا هو المكان الذي تعيش فيه؟»

أومأ هولمز برأسه إيجابًا.

«إنّه كما تخيّلتُه تمامًا. حتّى موقع المدفأة – أنت تجلس إلى اليمين وصديقُك يجلس إلى اليسار بالطبع. أليس من الغريب كيف نعتاد هذه الأنماط، كيف نقع تحت إملاءاتِ المكان المحيط بنا».

«هل لي انْ أقدّمَ لك الشاي؟»

«لا، يا شرلوك. أنا لا أنوي البقاء طويلًا». أخرج مايكروفت المغلّفَ وأعطاه لهولمز قائلًا: «هذا لك. أنا أُعيدُه إليك مقترنًا بنصيحةٍ أرجو كلَّ الرجاء أنْ تتقبّلَها».

«تابعْ كلامَك من فضلك».

«ليس لديّ جوابٌ عن سؤالك. ليست لديّ أيُّ فكرة عن ماهية بيت الحرير أو أين قد يمكنُ العثورُ عليه. صدّقْني عندما أقول لك إنّني أتمنّى لو كانت الأمورُ خلافَ ذلك لأنّ أسبابًا إضافيةً قد تتوفّر لكَ آنذاك لقبول ما أوشِكُ على قوله. عليك أنْ توقِفَ هذا التحقيقَ فورًا. يجب أنْ تمتنعَ عن إجراء أيّة استقصاءات أخرى. إنسَ بيتَ الحرير، يا شرلوك. لا تذكرْ هاتَيْن الكلمتَيْن أبدًا بعد الآن».

«أنت تعلم أنّني لا أستطيع أنْ أفعل ذلك».

«أنا أعرف طباعك. وهذا هو السبب الذي جعلني أنتقل عبرَ لندن كي آتيَ إليك شخصيًا. وخَطَر لي أنّني لو حاولتُ تحذيرَك فلن تكونَ النتيجةُ إلّا جعلَك تحوّل هذه المسألة إلى حملةٍ شخصيّة. وأملتُ أنْ يؤكّد حضوري إلى هنا خطورةَ ما أقول. كان في وسعي الانتظارُ حتّى مساء هذا اليوم وأنْ أخبرك آنذاك أنّ استقصاءاتي لم تُسفر عن أيّ نتيجة لأتركَكَ بعد ذلك تتدبّر أمرَك بنفسِك، لكنّني لم أستطع أنْ أفعلَ ذلك بسبب قلقي من أنّك تعرّض نفسك لأسوأ المخاطر، أنتَ والدكتور واطسون أيضًا. ودَعْني أشرح لك ما حدث منذ لقائنا في نادي ديوجينس كلوب. لقد فاتحتُ شخصًا أو اثنين من معارفي العاملين في دوائر حكوميّةٍ معيّنة، وكنتُ أفترض حينذاك أنّ بيتَ الحرير هذا لا بدّ وأنْ ينمّ عن مؤامرةٍ جنائية من نوعٍ ما، واقتصرتْ رغبتي على اكتشاف ما إذا كان أحدٌ في الشرطة أو إحدى الدوائر الاستخباراتية يحقّق في الأمر. ولم يتمكّن الذين تكلّمتُ معهم من المساعدة، أو هذا ما قالوه على الأقلّ».

تابع مايكروفت قائلًا: «غير أنّ ما حدث بعد ذلك باغتَني كمفاجأةٍ مزعجة جدًّا. فعندما غادرت مسكني هذا الصباح، كانتْ عربةٌ في انتظاري أخذتني إلى مكتبٍ تابع للحكومة البريطانية حيث التقيتُ رجلًا لا أستطيعُ الإفصاحَ عن هويّته. لكنّ اسمه معروفٌ لديك بالتأكيد، وهو يعمل عن كثب مع رئيس الوزراء نفسه. وعليّ أنْ أضيفَ أنّني أعرف هذا الشخص جيّدًا وأنا لن أُشكّك أبدًا في حكمته وسداد رأيه. لم يكن مسرورًا على الإطلاق برؤيتي وتطرّق إلى الموضوع مباشرةً، فسألني ما إذا كنتُ أجري استقصاءاتٍ عن

بيت الحرير وعمّا أعنيه بذلك. ومن الضروريّ أنْ أقول، يا شرلوك، إنّ سلوكَه كان عدائيًا بكلّ معنى الكلمة، وكان عليّ أنْ أفكّر مليًا قبل انْ أُجيب. قرّرتُ فورًا أنْ لا أذكر اسمَك – وإلّا لما كنتُ أنا مَنْ طَرَقَ بابك الآن. وبعد قولي هذا، قد لا يُحدِثُ موقفي أيَّ فارق بأيّ حال لأنّ علاقتي معك معروفةٌ جيّدًا، ومن المحتمل أنْ تكون مشبوهًا بالفعل. ومهما يكن من أمر، أبلغتُ الرجلَ فقط أنّ أحد المخبرين العاملين معي ذكر الاسم في ما يتعلّق بجريمة قتل وقعت في برموندزي وأنّ ذلك أثار فضولي. سألني عن اسم المخبر، فراوغتُ وحاولتُ إعطاء انطباع بأنّ الأمر تافه وأنّ استقصاءاتي الأولية كانت عرضيةً لا أكثر».

تابع مايكروفت: «ثمّ بدا أنّه هدّأ روعَه قليلًا مع أنّه واصل انتقاءَ كلماته بحذر شديد. قال لي إنّ بيتَ الحرير كان بالفعل موضعَ تحقيق تقوم به الشرطة، ولهذا السبب أُحيلَ إليه طلبي المفاجئ لمعلومات. قال إنّ الأمور بلغت مرحلةً حسّاسة وإنّ أيَّ تدخُّلٍ من جهةٍ خارجيّة قد يسبّب ضررًا لا يمكن تقديرُه. وأنا لا أظنّ أنّ أيّ كلمةٍ ممّا قاله كانت صحيحة، لكنّني تظاهرتُ بالاقتناع وأعربتُ له عن أسفي لكونِ استفهامي العرضي قد أثار كلَّ هذا الهلع. تحدَّثنا دقائقَ قليلةً أخرى، ثم انصرفتُ بعد أنْ تبادلنا عباراتِ المجاملة وإثرَ تقديمي اعتذارًا أخيرًا عن إضاعة وقت هذا السيّد. لكنّ النقطةَ الأساسية، يا شرلوك، هي أنّ للسياسيّين على هذا المستوى الرفيع جدًّا من المسؤولية طريقةً في قولِ الكثير بدون الإفصاح عن النذْر اليسير. وقد نجح هذا السيّد بالذات في إفهامي بوضوح ما أحاولُ أنْ أقولَه لكَ الآن عليكَ أنْ تتركَ هذه القضيةَ وشأنها! وموتُ طفل شوارع، مهما قد يكون مأسويًا، لا يحظى بأي أهمية على الإطلاق عندما يوضع في إطارِ الصورة الأوسع. وكائنًا ما يكون بيتُ الحرير فهو يحظى بأهمّية وطنية، والحكومةُ تدرك وجودَه وتتعامل مع هذا الأمر. ولا فكرةَ لديكَ أنت عن الضررِ الذي يمكن أنْ تسبّبَه والفضيحةِ التي قد تثيرُها إذا واصلتَ التدخُّل في هذه القضية، هل تفهم ما أقول؟»

«ما كانَ في استطاعتك أنْ تنطقَ بمزيد من الوضوح».

«وهل ستبالي بما قلتُه لك؟»

تناول هولمز سيجارة وأمسكَ بها لحظةً وكأنّه يفكّر في ما إذا كان سيُشعِلها. قال: «لا أستطيع أنْ أعدّ بذلك بينما أشعرُ بأنّني مسؤولٌ عن موتِ طفل، وأنا أدينُ له بفعلِ كلّ ما أستطيع لِسَوْقِ قاتلِه – أو قتلتِه – إلى العدالة. كانت مهمّتُه ببساطة مراقبةَ شخصٍ موجود في فندق. لكنْ إذا كان ذلك ورّطه عن غير قصد في مؤامرةٍ ما أوسعَ نطاقًا، أخشى أنْ لا يكونَ لديّ أيُّ خيار سوى متابعةِ المسألة».

«لقد فكّرتُ في أنّك قد تقول ذلك، يا شرلوك، وأفترض أنّ كلماتِك هذه ترفعُ من شأنِك. لكنْ دعني أُكمل كلامي». وقف مايكروفت على قدميه وكان متلهّفًا للمغادرة، وقال: «إذا تجاهلتَ نصيحتي فعلًا وواصلتَ هذا التحقيق، وإذا أدّى ذلك إلى كارثة – وأنا أظنّ أنّ هذا محتمل – فلن تستطيع الرجوعَ إليّ لأنّه لن يكون هناك ما أستطيعُ فعلَه لمساعدتك. ومجرّدُ كوني كشفتُ نفسي بطرحي أسئلةً من أجلك يعني أنّ يديّ أصبحتا مُكَبّلتَيْن الآن. وفي الوقتِ ذاته، أحثُّك مرّةً أخرى على التفكير في الأمر من جديد. وهذه القضية ليست إحدى أحجياتك الصغيرة في محكمة الشرطة، وإذا أثرتَ استياءَ الاشخاص الواجب تجنُّبهم فقد يعني ذلك نهاية حياتك المهنية... وما هو أسوأ».

لم يبقَ هناك ما يُقال، وهذا ما أدركه كِلا الأخوَيْن. انحنى مايكروفت انحناءةً خفيفة ورَحَل. مال هولمز فوق مصباح الغاز وأشعل سيجارته. قال بصوتٍ عالٍ: «حسنًا، يا واطسون، ما رأيك في ما قال؟»

أجبتُه بحذر: «أرجو أحرّ رجاء أنْ تفكّر مليًا في ما قاله مايكروفت».

«لقد انتهيتُ من التفكير في كلامه».

«هذا ما كنتُ أخشاه».

ضحك هولمز، وقال: «إنّك تعرفني معرفةً تامة، يا عزيزي. والآن يجب أنْ أبارِحك لأنّ لديّ عملًا أقوم به وعليّ أن أُسرِعَ إذا أردتُ أن ألحقَ صحفَ المساء».

هُـرِعَ إلى الخارج وتركني وحدي مع مخاوفي. رجع وقتَ وجبة الغداء لكنّه لم يأكل، وهذه إشارةٌ أكيدة إلى أنّه منشغلٌ بمسارٍ تحقيقيّ مثيرٍ لاهتمامه. قد سبق لي أنْ شاهدتُه في مثل هذه الحال مرّاتٍ عديدة

من قبل. وذكّرني سلوكُه بكلبِ صيدِ ثعالب يتعقّبُ رائحةً قويّةً لطريدة لأنّ هولمز كان يشبه حيوانًا في مقدرته على تكريسِ كاملِ كيانه لفعلٍ واحد وتركِ الأحداث تستحوذ عليه إلى درجةٍ تمكّنُه حتّى مَن تناسى أهمّ حاجات الإنسان الأساسية – الطعام والماء والنوم. وعندما وصلتْ صحفُ المساء، تبيّن لي ما قام به هولمز، فقد نَشَر إعلانًا في بابِ الأمور الشخصية هذا نصّه:

20 جنيهًا مكافأة – لمعلومات عن بيت الحرير. ستُعامَل بسرّية مطلقة. الاتّصال مع عنوان 221B شارع بيكر ستريت.

صحتُ: «هولمز، لقد فعلتَ عكسَ ما اقترحَه شقيقُك. وإذا صمّمتَ على متابعةِ تحقيقك، وأنا أفهم دافعَك للقيام بذلك، فقد كان حريًّا بك أنْ تتقدّم بتكتُّم».

«التكتُّم لن ينفعَنا، يا واطسون. لقد حان الوقتُ لأخذِ زمام المبادرة. مايكروفت يُقيم في عالمِ رجالٍ يهمسون في غرفٍ مُعتّمة. حسنًا – لنرَ كيف سيكون ردُّ فعلهم على هذا الاستفزاز الصغير».

«أتعتقد أنّك ستتلقى ردًّا؟»

«سنعرف ذلك مع مرور الوقت. لكنّنا قُمنا على الأقلّ بإشهارِ بطاقةِ الدعوة الخاصّةِ بنا في هذه المسألة. وحتّى إذا لم تتأتَّ عنها أيُّ نتيجة لا يكونُ ثمّة ضرر».

كانت تلكَ كلماته. لكنْ لم تكن لدى هولمز أيُّ فكرة عن نوعية الأشخاص الذين كان يتعامل معهم والمدى الذي سيذهبون إليه لحماية أنفسهم. لقد دخل إلى مستنقعِ شرٍّ حقيقي، ولن يطولَ الزمن حتّى يأتينا الأذى بأسوأ طريقة ممكنة.

10

بلوغيت فيلدز

«ها يا واطسون! يبدو أنّ الطعمَ الذي ألقيناه في مياهٍ مجهولة ربّما جاءنا بصَيْدا!».

هكذا تكلّم هولمز بعد أيّام قليلة، وهو واقفٌ في الصباح أمام نافذتنا المقوّسة مرتديًا معطفَه المنزلي ويداه مغروستان عميقًا في جيبَيْه. انضممْتُ إليه فورًا ووجّهتُ نظري نزولًا إلى شارع بيكر ستريت والحشود العابرة على جانبَيْه.

سألتُه: «من تقصد؟»

«ألا تراه؟»

«أرى أناسًا كثيرين جدًّا».

«نعم، لكنّ قليلين جدًّا منهم يحبّذون الوقوفَ بلا حراك في هذا الطقس البارد. غير أنّ هناك رجلًا يفعل ذلك بالضبط. هناك! إنّه ينظر في اتّجاهنا».

كان الرجلُ المعنيّ يتدثّر بمعطفٍ ووشاح ويعتمر قبّعةً سوداء من اللبّاد عريضةَ الحافّة، ويدسّ يدَيْه تحت ذراعَيْه. وباستثناءِ كونِه رجلًا، لم أستطع أنْ أتبيّنَ منه إلّا القليلَ ممّا يمكن وصفُه بأيّ درجة من الدقّة، عدا ما بدا عليه من تجمُّدٍ في مكانِه وحيرةٍ حول متابعةِ طريقه أو البقاء حيثُ هو.

سألت: «هل تظنّ أنّه أتى استجابةً لإعلاننا؟»

أجابني هولمز: «هذه هي المرّةُ الثانية التي يمرّ فيها أمام باب منزلنا. لاحظتُه أوّلَ مرّة قبل خمس عشرة دقيقة وهو يسير آتيًا من محطّة قطار المترو.

ثمّ رجع بعد ذلك، وبالكاد تحرّك منذ ذلك الوقت. إنّه يتأكّد من عدمِ خضوعِه لمراقبة. وها هو قد حزم أمره أخيرًا!». وفيما كنّا نراقب الرجلَ ونحن متواريان لكي لا يتمكّن هو من رؤيتنا، عبر الطريق، وقال هولمز وهو عائدٌ إلى مقعده: «سيكون معنا بعد لحظة».

صدق حدسُه وفُتِح الباب، وقدّمت السيّدة هادسون زائرَنا الجديد الذي خلع قبّعتَه ووشاحَه ومعطفَه لنكتشفَ أمامنا رجلًا شابًّا غريبَ المظهر بدتْ على وجهِه وبنيتِه تناقضاتٌ كثيرة إلى درجةِ أنّني اقتنعتُ بأنّه سيكون من الصعب استشفافُ حقيقته حتّى بالنسبة إلى هولمز. أقول إنّه كان شابًّا – لا يمكن أن يكون قد تجاوز عامَه الثلاثين – وله جسمٌ ملاكم محترف، بالإضافةِ إلى شعر خفيف وبشرةٍ رمادية وشفتَيْن مشقّقتَيْن، فبدا نتيجةً لكلّ ذلك أكبر عمرًا. كانت ملابسُه غاليةَ الثمن ومن أحدثِ طراز، لكنّها كانت متّسخةً أيضًا. بدا عصبيًّا لوجوده هنا، ومع ذلك كان ينظر إلينا بثقةٍ شديدة بنفسه كادت تنمّ عن عدائية. وقفتُ منتظرًا أنْ يتكلّم لأنّني لم أكن متأكّدًا حتّى تلك اللحظة ممّا إذا كنتُ إزاء نبيل أرستقراطيّ أو وغدٍ من أحطّ أصناف الرعاع.

قال هولمز بأقصى دماثته: «تفضّل بالجلوس، لقد أمضيتَ بعضَ الوقت واقفًا في الخارج، وأكرهُ أنْ أظنّ أنّك أُصِبت بنزلةِ برد. هل تريد شايًا ساخنًا؟»

أجاب الرجل: «أُفضّل جرعةً من الروم».

«ليس لدينا روم، لكنْ أتريد بعضَ البراندي؟». أومأ هولمز في اتّجاهي، وصببتُ أنا جرعةً كبيرة في كأس وقدّمته إليه.

أفرغ الرجل الكأس بصورة فورية ورجع بعضُ اللون إلى وجهه ثم جلس، وقال: «شكرًا». كان صوتُه أجشَّ ومصقولًا. أضاف قائلًا: «لقد حضرتُ إلى هنا من أجل المكافأة. ما كان ينبغي أنْ أفعلَ ذلك. والناسُ الذين أتعامل معهم سيقطمون عنقي لو عرفوا أنّني جئتُ إلى هنا، لكنّني في حاجةٍ إلى المال، وهذا كلُّ ما في الأمر، وستُبقي الجنيهات العشرة الشياطينَ بعيدة عنّي لفترةٍ لا بأس بها، وهذا يبرّر تعريضَ نفسي للخطر من أجلك. هل المالُ موجودٌ لديك هنا؟»

أجابه هولمز: «سندفع لك المال عندما نحصل على معلوماتك. أنا شرلوك هولمز، وأنت ...؟»

«في استطاعتك أنْ تدعوني هندرسون، وهذا ليس اسمي الحقيقي لكنّه يفي بالغرض كأيّ اسم آخر. أنتَ ترى، يا سيّد هولمز، أنّ عليّ أنْ أكونَ حذرًا. لقد نشرتَ إعلانًا تطلب فيه معلوماتٍ عن بيت الحرير، ولا بدّ أنْ يكون هذا المنزل قد وُضِع تحت المراقبة منذ ذلك الوقت، ومن المؤكّد أنّه تمّت ملاحظةُ أيّ شخص يدخل إليه أو يخرج منه. ومن المحتمل جدًّا أنْ يُطلَب إليك في أحد الأيّام أنْ تقدّمَ لائحةً بأسماء جميع زوّارك. ولقد حرصتُ على تغطيةِ وجهي قبل عبوري عتبةَ منزلك. وسوف تتفهّمُ ضرورةَ قيامي بالأمر ذاته بالنسبة إلى هويّتي».

«ومع ذلك ما زال عليك أنْ تخبرنا شيئًا عن شخصك قبل أنْ أدفعَ أيَّ مبلغ من المال. أنتَ معلّم، أليس هذا صحيحًا؟»

«ما الذي يجعلك تقول ذلك؟»

«يوجد غبارُ طبشور على طرفِ كمّك، كما أُلاحظ بقعةَ حبر أحمر على الجانب الداخليّ لإصبعك الثالثة.

ابتسم هندرسون، إذا كان هذا هو الاسم الذي سأدعوه به، ابتسامةً عابرة كشفت عن أسنانٍ مبقّعة غيرِ متساوية، وقال: «يؤسفني أنْ أُضطرَّ إلى التصحيح لكَ، لكنّني في الواقع مفتّشُ جمارك في الميناء، غيرَ أنّني أستعمل الطباشير لتعليم الطرود قبل إنزالها وأدوّنُ الأرقام في سجلٍّ مستخدمًا الحبر الأحمر. عملتُ في الماضي مع ضابط الجمارك في تشاتهام، لكنّني أتيتُ إلى لندن قبل سنتَيْن ظنًّا منّي أنّ تغييرَ مكان العمل سيكون مفيدًا لمسيرتي المهنية، لكنّ هذه النقلة أوصلتني إلى حافّة الدمار. ماذا يمكنني أنْ أخبرك أيضًا عن شخصي؟ أنتمي أصلًا إلى هامبشير، وما زال والداي يعيشان هناك. أنا متزوّج لكنّني لم أرَ زوجتي منذ مدّة. أنا منكودٌ من أسوأ نوعٍ، وبالرغم من ميلي إلى تحميلِ الآخرين مسؤوليةَ سوء طالعي، لا يفوتني أنْ أُدرِكَ في قرارةِ نفسي أنّ بؤسي كلّه هو من صنع يديَّ. والأسوأ من ذلك أيضًا أنّ لا مجال أمامي للعودةِ إلى الوراء. إنّني مستعدّ لبيعِ أمّي مقابل عشرين جنيهًا، يا سيّد هولمز. ليس هناك شيءٌ لن أفعلَه».

«وما سببُ خرابك، يا سيّد هندرسون؟»

«هل تعطيني كأسًا آخر من البراندي؟» صببتُ كأسًا ثانيًا تفحّصه قليلًا في هذه المرّة. قال: «الأفيون». ابتلع الشراب وتابع قليلًا: «هذا هو سرّي. أنا أدمن الأفيون، وقد اعتدتُ تعاطيه لأنّه أعجبني. والآن لا أستطيع العيشَ بدونه».

تابع قائلًا: «إليكما قصّتي. تركتُ زوجتي في تشانهام ريثما أستقرّ وأقمتُ في شادول لأكون قريبًا من مقرّ عملي الجديد. هل تعرفان المنطقة؟ يسكنها بالطبع بحّارةٌ وعمّالُ ميناء وصينيّون وهنود وسود. آه، إنّها منطقةٌ غنيّةٌ بالتنوّع نابضةٌ بالحياة، وفيها ما يكفي من الإغراءات كالحانات وصالونات الرقص لتجريد أيّ أحمق من نقوده. يمكنني أنْ أقولَ لكما إنّني كنتُ أشعر بالوحدة وأفتقد عائلتي. وفي وسعي أنْ أقول ببساطة إنّني كنتُ أكثر غباءً من أنْ أدرِكَ الحقيقة. لكنْ ما الفارق الذي يُحدِثه ذلك؟ لقد مضَتْ اثنا عشر شهرًا منذ أنْ دفعتُ بنساتي الأربعةَ الأولى لقاء هذه الكرة الصغيرة الشمعيّة البنّية التي تُدخَّن بواسطة غليون خاصّ. كم بدا الثمنُ زهيدًا آنذاك! كم كنتُ غافلًا! كانت المتعةُ المستمدّةُ منها أعظمَ من أيّ شيء عرفتُه سابقًا. شعرتُ وكأنّني لم أعِشْ حقًّا من قبل. عدتُ من جديد بالطبع. أوّلًا بعد شهر ثم بعد أسبوع، وفجأة أصبحتُ أعودُ كلّ يوم، وسرعان ما بدا لي أنّ عليّ أنْ أكون هناك كلّ ساعة. لم أعد قادرًا على التفكير في عملي. ارتكبتُ أخطاءً وصِرْت أُصابُ بنوبات غضب لاعقلانية عندما أُنتَقَد. وتخلّى عنّي أصدقائي الحقيقيون، وشجّعني رفاقي الكاذبون على التدخين أكثر فأكثر. ولم يمضِ وقتٌ طويل قبل أنْ يدركَ أربابُ عملي الحضيضَ الذي سقطتُ إليه وهدّدوا بفصلي من العمل لكنّني لم أعدْ أبالي. إنّ شهوةَ الأفيون تملأُ كلّ لحظة من ساعات صحوي وهي تلازمني حتّى في هذه اللحظة. لقد مضَتْ ثلاثةُ أيّام منذ أنْ دخّنتُ الأفيون آخرَ مرّة. أعطياني المكافأة لأتمكّن من إغراق نفسي مجدّدًا في غلالات النسيان».

نظرتُ إلى الرجل بذعر وشفقة، ومع ذلك كان فيه شيءٌ معيَّن ازدرى تعاطفي معه، إذ كاد يبدو فخورًا بالحال التي وصل إليها. كان هندرسون شخصًا مريضًا يُدمّر نفسه ببطء من الداخل.

كان هولمز مكفهرَّ المزاج أيضًا. سأل: «المكانُ الذي تذهبُ إليه لتعاطي هذا المخدِّر، هل هو بيتُ الحرير؟»

ضحك هندرسون، وصاح: «هل تظنّ فعلًا أنّني كنتُ شعرتُ بهذا القدر من الخوف أو اتّخذتُ كلّ هذه الاحتياطات لو كان بيتُ الحرير مجرّد وكرٍ لتدخين الأفيون؟ هل تعلم كم يوجد من أوكارٍ لتعاطي الأفيون في شادول ولايمهاوس؟ يقولون إنّ عددَها الآن أقلُّ ممّا كان قبل عشر سنوات. لكنّك ما زلتَ تستطيعُ الوقوفَ عند تقاطع شوارع والعثورَ على أحد هذه الأوكار في أيّ اتّجاه تسير. هناك محلُّ موتّ ومحلّ أمّ عبدالله ومحلّ كريرزيليس ومحلّ ياهي. وأسمع أنّ في وسعِك شراءَ هذا المخدّر، إذا شئتَ، في الملاهي الليلية في منطقة هاي ماركت وميدان ليستر سكوير».

«ما هو بيتُ الحرير إذًا؟»

«أعطِني المال!»

تردّد هولمز، ثم ناوله أربعَ ورقات من فئة خمسة جنيهات. اختطف هندرسون الأوراقَ المالية وراح يتلمّسها بشغف. التمع في عينيه بريقٌ باهت عندما استفاق إدمانُه من جديد، هذا الوحشُ الكامنُ في داخله. قال الرجل: «من أين تظنّان يأتي الأفيون الذي يموّن لندن وليفربول وبورتسموث وجميعَ نقاط البيع الأخرى في انكلترا – وفي سكوتلندا وإيرلندا أيضًا؟ إلى أين يذهب كرير أو ياهي عندما يتناقص مخزوناهما؟ أين هو مركزُ الشبكة الممتدّة عبر البلد بأجمعه؟ هذه هي الإجابةُ عن سؤالِك، يا سيّد هولمز. إنّهما يذهبان إلى بيت الحرير!»

واصل هندرسون كلامَه قائلًا: «إنّ بيت الحرير منظّمةٌ إجرامية تعمل على نطاقٍ واسع. وقد سمعتُ – وهذه إشاعات، مجرّدُ إشاعات – أنّ لها أصدقاءَ في أرفع المراكز العليا وأنّ أذرُعَها الأخطبوطية امتدّت وأوقعت في حبائلها وزراءَ في الحكومة وضبّاط شرطة. إنّنا نتكلّم على عمليةِ استيرادٍ وتصدير، إذا شئت، لكنّها عمليةٌ تساوي آلافًا كثيرة من الجنيهات سنويًّا. يأتي الأفيون من الشرق ويُنقَل إلى هذا المستودع المركزي، ثمّ يوزّع من هناك. لكنْ بسعر متضخّم جدًّا».

«أينَ هو موجود؟»

«في لندن، لكنّني لا أعرف أينَ بالضبط».

«من يديره؟»

«لا أستطيع القول. لا فكرةَ لديّ».

«إذًا، لم تقدِّمْ إلينا مساعدةً تُذكَر، يا سيّد هندرسون. كيف نستطيعُ التأكُّدَ من صحّة ما تقول؟»

«أستطيع أنْ أثبتَ ما أقول». سعل هندرسون بصورةٍ منفِّرة، وتذكَّرتُ أنّ تشقُّقَ الشفتَيْن وجفافَ الفم هما من أعراضِ تعاطي المخدّر لأمدٍ طويل. «أنا زبونٌ كريرز يليس منذ زمن طويل، والمكانُ مُصَمَّم ليشبه محلًّا صينيًّا وفيه لوحاتٌ مطرّزةٌ قليلة وبضعُ مراوح. وأشاهدُ هناك أحيانًا بعضَ الآسيويّين الذين يجلسون متقاربين على الأرض. لكنّ الرجلَ الذي يدير المحلّ إنكليزيّ، تمامًا مثلك ومثلي، لكنّه شخصٌ أكثرُ لؤمًا وقسوةً من أنْ ترغبَ في لقائه. له عينان سوداوان ورأسٌ شبيه بجمجمة رجل ميّت. آه، إنّه لا يتردّد في الإبتسام لك ووصفِك بصديقه عندما تمتلكُ بنساتك الأربعة. لكنْ إذا طلبتَ منه معروفًا أو حاولتَ خداعَه فسيرسل إليك من يضربك ويرميك في خندق بدون أنْ يرفَّ له جفن. وبالرغم من ذلك، فإنّ العلاقةَ بينه وبيني جيّدةٌ إلى درجةٍ كافية. لا تسألني لماذا. له مكتبٌ صغير على طرف القاعة الرئيسية، وهو يدعوني إلى هناك أحيانًا لأدخِّن معه – التبغَ وليس الأفيون. إنّه يحبّ سماعَ قصصٍ عن الحياة في أحياء الميناء. حسنًا، كنتُ جالسًا معه في إحدى المرّات عندما سمعتُ اسمَ بيت الحرير لأوّل مرّة. إنّه يستخدم أولادًا ليجلبوا إليه إمداداتِه، وكذلك للعثور على زبائن جدد في منطقتَيْ مناشر الخشب ومخازن الفحم».

قاطعتُه سائلًا: «أولاد؟ هل التقيتَ أيًّا منهم مرّةً؟ هل كان اسمُ أحدهم روس؟»

«ليست لهم أسماء وأنا لا أتكلّم مع أيّ منهم. لكنْ أصغِيا إلى ما أقولُ! كنتُ هناك قبلَ أسابيعَ قليلة ودخل أحدُ هؤلاء الفتيان، وقد جاءَ متأخِّرًا كما تبيَّنَ لي. كان كرير يعاقر الخمر ومتعكِّرَ المزاج، فأمسك بالصبيّ وضربه وأوقعه على الأرض. سأله بحدّة: «أينَ كنت؟»

أجابه الصبي: «في بيت الحرير».

«وماذا لديك من أجلي؟»

سلّمه الصبيُّ رزمةً وانسلّ خارجًا من الغرفة. سألتُه: «ما هو بيتُ الحرير؟»

«كانت تلك هي المناسبةَ التي أخبرني فيها كرير ما قلتُه لكما الآن. ولولا الويسكي لما أطلقَ العنانَ للسانِه. وعندما انتهى من كلامه أدركَ ما فعل، فَساءَ خلقُه فجأةً وفتح درجًا صغيرًا قرب طاولته. وما هي إلّا لحظة حتّى رأيتُه يصوِّب مسدّسًا نحوي. صرخ سائلًا: «لماذا تريد أنْ تعرف؟» لماذا توجّهُ إليّ هذه الأسئلة؟»

دُهِشتُ وخفتُ في الوقت ذاته، وقلتُ له مؤكّدًا: «لا اهتمامَ لي على الإطلاق. كنتُ أتبادل معك حديثًا تافهًا. هذا كلُّ ما في الأمر».

قال لي متسائلًا: «حديث تافه؟ لا يوجد ما هو تافه في هذا الحديث، يا صديقي. إذا كرّرتَ أمام أيّ إنسان كلمةً واحدة ممّا قلتُه أنا للتوّ، فسننتَشل بقايا جثّتك من نهر التايمز. هل تفهم ما أقول؟ إذا لم أقتلك أنا فسيقتلونك هم». بدا عليه بعد ذلك أنّه يفكّر من جديد. أنزلَ المسدّس، وعندما تكلّم ثانيةً كانت نبرةُ صوته ألطفَ من ذي قبل. قال: «تستطيع أنْ تدخّن غليونك بدون أنْ تدفعَ في هذه الليلة. إنّك زبون جيّد. وأنا وأنتَ نعرف أحدنا الآخر معرفةً وثيقة وعلينا أنْ نَعتَني بك. انسَ أنّني تحدّثْتُ إليك يومًا ولا تذكرْ الموضوعَ أبدًا بعد الآن. هل تفهمني؟»

تابع هندرسون سردَه قائلًا: «وكانت هذه نهاية المسألة. كنتُ قد نسيتُ الحادثةَ تقريبًا. لكنّني رأيتُ إعلانَك بعد ذلك، فعادت إلى ذهني طبعًا. ولو عرفَ أنّني جئتُ إلى هنا لا أشكّ إطلاقًا في أنّه سينفّذُ تهديدَه. لكنْ إذا كنتما تبحثان عن بيت الحرير، فعليكما البدءُ بمكتبِه لأنّ في مقدوره أنْ يقودكما إلى هناك».

«أين نجده؟»

«في منطقة بلوغيت فيلدز. المبنى ذاته يقع على زاوية شارع ميلوورد ستريت. إنّه مكانٌ قذر له مصباح أحمر مضاءٌ على مدخله».

«هل ستكون هناك في هذه الليلة؟»

«أنا هناك كلّ ليلة، وبفضلِ كرمِكما سأكونُ هناك في لياليَ كثيرةٍ قادمة».

«هل يغادر هذا الرجل كرير مكتبَه على الإطلاق؟»

«في أحيانٍ كثيرة. المكانُ مزدحم وعابقٌ بالدخان فيذهبُ هو إلى الخارج ليستنشق الهواء».

«إذًا، قد تشاهدني في هذه الليلة. وإذا مرّ كلُّ شيء على خير وعثرتُ على ما أبحث عنه، سأُضاعفُ مكافأتك».

«لا تقلْ إنّك تعرفني. لا تنتبهْ إلى وجودي، لا تتوقّعْ أيَّ مساعدةٍ إضافية منّي إذا ساءت الأمور».

«أفهمك».

«إذًا، أتمنّى لك حظًّا طيّبًا، يا سيّد هولمز. أتمنّى لك النجاح من أجلي أنا لا من أجلك أنت».

انتظرنا حتّى غادر هندرسون. ثمّ استدار هولمز نحوي وعيناه تبرقان. قال: «وكرٌ لتعاطي الأفيون، ويتعامل أيضًا مع بيت الحرير. ما رأيك، يا واطسون؟»

«لا تعجبُني هذه المسألةُ على الإطلاق، يا هولمز. أظنّ أنّ عليك الابتعادَ تمامًا عن هذا المكان».

«هذا هراء. أظنّ أنّ في وسعي الاعتناءَ بنفسي». سار هولمز بخطوات واسعة نحو طاولةِ مكتبه، وفتح درجًا أخرج منه مسدّسًا وقال: «سأذهبُ مسلَّحًا».

«إذًا، سأذهبُ معك».

«لا يمكنُني أنْ أسمح بذلك، يا عزيزي واطسون. فبقدرِ ما أنا شاكرٌ لك على اهتمامِك بي، عليّ أنْ أقول إنّ وجودَنا معًا نحن الاثنين لن يوحي على الإطلاق بأنّنا من نوع الزبائن الذين قد يرغبون في الذهابِ إلى وكرٍ لتعاطي الأفيون في شرق لندن ليلةَ الخميس».

«ومع ذلك أنا أُصرّ، يا هولمز. سأبقى في الخارج إذا شئتَ أنت. وسنجد بالتأكيد مكانًا قريبًا أبقى فيه. وإذا احتجتَ بعد ذلك إلى مساعدة، تكفي طلقةٌ واحدة لأصل إليك. ومن المحتمل أنْ يكونَ كرير يشغّلُ مجرمين آخرين لحسابه. وهل تستطيعُ الوثوق بأنّ هندرسون لن يخونك؟»

«أنت محقٌّ في هذه النقطة. حسنًا. أين مسدّسُك؟»

«لم أجلبْه معي».

«لا بأس. لديّ مسدّسٌ آخر. ابتسم هولمز ورأيتُ الحبور باديًا على وجهه. قال: «سنزور مقرّ كرير في هذه الليلة وسنرى ما سنراه هناك».

خيّم الضبابُ من جديد في تلك الليلة، وكانت غمامتُه أسوأ ما شهده الشهرُ حتّى ذلك الحين. وكنتُ أميلُ إلى حثّ هولمز على تأجيل زيارته لمنطقةِ بلوغيت فيلدز لو ظننتُ أنّ ذلك قد يجدي نفعًا، لكنّني استطعتُ أنْ أرى على وجهه الصفريّ الشاحب أنّه لن يرتدعَ عن تنفيذ العملية التي ألزَم نفسَه بها. ومع أنّه لم يقلْ شيئًا من هذا القبيل فقد كنتُ أعلم أنّ موتَ الطفل روس كان الدافعَ المحرّك له. فما دام يعتبر نفسَه مسؤولًا ولو جزئيًا عمّا حدث، لن يرتاح وسيضعُ جانبًا بملءِ إرادته كلَّ تفكير في سلامتِه الشخصية.

ومع ذلك، كم كنتُ شاعرًا بالضيق عندما أنزلنا سائقُ العربة على جانب الزقاق قربَ حوض لايمهاوس. كان الضبابُ الأصفرُ الكثيف يتمدّد وينتشر في الشوارع كاتمًا كلّ صوت، ويشبه بقباحته وحشًا ضاريًا يتسلّل تحت جُنح الظلام بحثًا عن فريسته. وبدا لي وكأنّنا نرمي بنفسَيْنا بين شدقَيْه فيما كنّا نتلمّسُ طريقَنا قُدُمًا. مررنا عبر الزقاق محصورَيْن بين جدرانٍ من الآجرّ الأحمر تتدحرج عليها قطراتُ البَلَل وترتفع عاليًا حتّى تكاد تحجبُ السماء تمامًا لولا بصيص ضوء القمر. بدايةً، كان وقعُ خطواتنا الصوتَ الوحيد الذي سمعناه، ثمّ اتّسع طريقُنا، وتردّدت من اتّجاهاتٍ مختلفة أصداءُ صهيل حصان ونقرةِ آلةٍ بخاريّة رتيبة وخرير ماء وصراخِ طفل جافاه النوم؛ وكان كلّ صوتٍ يحدّدُ بطريقته الخاصّة الغموضَ المحيط بنا من كلّ جانب. كنّا قربَ قناة، ومرّ أمامنا بسرعة جرذٌ أو مخلوقٌ آخر وانزلقَ فوقَ حافّة الممشى وسقط في الماء الداكن الذي تطاير رذاذه. سمعنا عواءَ كلب، سرنا قربَ منزلٍ عائم مربوطٍ من جانبه وبصيصُ نور يتسلّل بخجل من خلفِ ستائرِ نوافذه ودخانٌ يتصاعدُ من مدخنتِه. خلفَه كان يوجد حوضٌ جافّ وزحمةُ سفنٍ تكادُ لا تُرى وهي جاثمةٌ كهياكلَ عظميّة من عصور ما قبل التاريخ، وحبالها ووصلاتُ أشرعتها متدليّةٌ في انتظارِ أنْ يتمّ إصلاحُها. وما إن انعطفْنا حولَ زاوية حتّى اختفى كلُّ ذلك في طيّات الضباب الذي هبط وراءَنا كستارة، وتراءى لي عندما استدرتُ إلى

الخلف وكأنّني أتيتُ من لا مكان. أمامَنا أيضًا لم يكن هناك أيُّ شيء، ولو كنّا على وشكِ السقوط من حافّةِ العالم لما لاحظْنا شيئًا على الإطلاق. لكنّنا سمعنا بعد ذلك نقراتٍ على بيانو صادرة عن إصبع واحدة تحاولُ إسماعَ نغم. وفجأةً، برزت أمامنا امرأةٌ لمحتُ عليها وجهًا مجعّدًا مغطًّى بأصباغ قبيحة ترتدي قبّعةً مُبتذَلة ووشاحًا من الريش. استشعرتُ رائحتَها التي ذكّرتني بورودٍ تموت ذبولًا في مزهرية. ضحكتْ ضحكةً مُقتَضبة ثم اختفت. وأخيرًا شاهدتُ أنوارًا أمامنا، نوافذَ حانة. ومن هذا المكان كانت الموسيقى تنسلّ إلى الخارج.

كان اسم الحانة «ذي روز أند كراون»، ولم نتمكّن من قراءة الاسم إلّا عندما وقفنا تحت اللافتة مباشرةً. كانت الحانة محلًّا صغيرًا عجيبًا مبنيًّا من طوبات آجرّ متماسكة بخليط مُنوّعٍ من العوارض الخشبية، لكنّها ظلّت بالرغم من ذلك مائلةً بصورةٍ غريبة وكأنّها توشك على الانهيار. لم تكن أيٌّ من النوافذ مستقيمة وكان البابُ واطئًا إلى درجةِ أنّنا كنّا اضطُرِرنا إلى الانحناء لو أردنا الدخولَ عبره.

قال هولمز هامسًا وأنا أرى نَفَسَه يتجمّد أمام شفتَيْه: «لقد وصلنا، يا واطسون». أشار بيده، وقال: «هذا هو شارع ميلوورد ستريت، وأتصوّر أنّ ذاكَ هو محلّ كريرز بليس. هل ترى الضوءَ الأحمر فوق المدخل؟»

«هولمز، أتوسّل إليك مرّةً أخيرة أنْ تسمح لي بمرافقتك».

«لا، لا. من الأفضل أنْ يبقى أحدُنا في الخارج، فإذا تبيّنَ أنّ ثمّة مَن يتوقّعُ مجيئي ستكون أنتَ في موقفٍ أقوى لتأتِيَ وتساعدَني».

«أتعتقد أنّ هندرسون كذب عليك؟»

«بدت لي قصّتُه صعبةَ التصديق من كلّ ناحية».

«إذًا، بحقّ السماء يا هولمز».

«لا يمكنني أنْ أكون واثقًا تمامًا، يا واطسون، بدون أنْ أذهب إلى الداخل. فما زال من المحتمل أنْ يكونَ هندرسون قد صَدَق. لكنْ إذا كان هذا فخًّا فسوف نختبره لنرى إلى أين سيأخذُنا. فتحتُ فمي لأحتجَّ لكنّه واصل كلامه: «لقد لامسْنا شيئًا عميقًا جدًّا، أيّها الصديقُ العزيز. هذه مسألةٌ

فريدةٌ من نوعها إلى أبعد حدّ ولن نتمكّن من كشفِ خباياها إذا رفضْنا القيامَ بمجازفات. انتظرْني ساعةً، وأنا أقترحُ عليك أنْ تستفيدَ من وسائلِ الراحة التي توفّرها هذه الحانة. وإذا لم أرجعْ عند ذاك، عليك أنْ تلحقَ بي، لكنْ كنْ شديدَ الحذر. وإذا سمعتَ صوتَ إطلاق نار، تعالَ فورًا».

«كما تشاء، يا هولمز».

لكنّ أسوأ الهواجس كانت تساورني وأنا أراقبه يعبر الطريق ويغيب عن ناظريّ بعدما احتواه الضبابُ والظلام. ظهر من على الجانب الآخر من الطريق واقفًا تحتَ وهج الضوء الأحمر في فتحةِ المدخل. سمعتُ دقّاتِ ساعةٍ بعيدة تعلن الوقت، فدوّى جرسُها إحدى عشرة مرّة. وقبل أن يخبو صدى الدقّة الأولى كان هولمز قد اختفى.

كان البردُ أقسى من أنْ أتحمّلَه واقفًا في الخارج مدّةَ ساعة حتّى وأنا متدثّرٌ بمعطفي السميك، كما لم أشعرْ بالارتياح منتظرًا في الشارع في منتصف الليل، لا سيّما في منطقةٍ يُعرَف سكّانُها بأنّهم من أحطّ الرعاع وبأنّهم أشرارٌ وأشباهُ مجرمين. دفعتُ باب حانة ذي روز أند كراون، ووجدتُ نفسي في غرفةٍ واحدة مقسّمة إلى نصفَيْن بواسطةِ نُضُد بار ضيّق تتخلّله صنابر جعة ذاتُ مسكاتٍ مصنوعةٍ من خزفٍ ملوّن ورفَّيْن صُفّت عليهما مجموعةٌ من الزجاجات. ودُهِشتُ لرؤية زبائنَ تراوح عددُهم بين خمسةَ عشر وعشرين شخصًا تحدّوا الطقسَ البارد وتجمّعوا في هذا المكان الصغير. كانوا جالسين حول طاولات يلعبون الورق ويشربون ويدخّنون. كان الهواء عابقًا بدخان تبغ السيجارة والغليون، وتفوح منه بقوّة رائحةُ الفحم الفجّ المشتعل في مدفأةٍ متهالكة مصنوعةٍ من الحديد المسبوك موضوعة في إحدى الزوايا. وباستثناء شمعاتٍ قليلة، كانت المدفأة المصدرَ الوحيد للنور في الغرفة، لكنْ بدا مفعولُها عكسيًّا تقريبًا لأنّ اللهبَ الأحمر الظاهر خلفَ زجاج نافذتها السميك بدا كأنّه يمتصّ الضوءَ إلى باطنه ويستهلكُه، ثم يطرحه خارجًا كدخانٍ أسود ورماد عبرَ مدخنةٍ نافثةٍ في غلالةِ الليل. كان هناك بيانو مهلهَل قرب الباب، وقد جلستْ إليه امرأةٌ تضغطُ على مفاتيحه بلا همّة. وكانت هذه النقرات هي التي سمعتُها في الخارج.

توجّهتُ إلى البار حيث صبّ لي رجلٌ عجوز شائب تظلّل المياهُ الزرقاء عينَيْه، كأسًا من الجعة بقيمة بنسَيْن. وقفتُ هناك دون أنْ أشرب متجاهلًا أسوأَ ما يمرّ في مخيّلتي من صُوَرٍ ومحاولًا عدمَ التفكير في هولمز. كان معظمُ الرجال المحيطين بي بحّارةً وعمّالَ ميناء، بينَهم أجانبُ عديدون – إسبان ومالطيون. لم يُعِرني أيٌّ منهم اهتمامًا، الأمرُ الذي أسعدني. وفي الواقع كانوا بالكاد يتحادثون في ما بينهم، وكان الصوتُ الحقيقيّ الوحيد في الغرفة هو ذلك الصادر عن لاعبي الورق. وكانت ساعةٌ معلّقةٌ على الحائط تُشير إلى تناقص الدقائق الستّين، وبدا لي أنّ العقربَ الكبير يجرجر نفسَه متجاهلًا قوانين الزمن. وقد سبق لي أن انتظرتُ مرّاتٍ كثيرة، مع هولمز وبدونه، أنْ يُظهر مجرمٌ نفسَه، سواء في منطقةِ المستنقعات قرب باسكرفيل هول أو على ضفاف نهر التايمز أو في حدائق منازل كثيرة في الضواحي. لكنّني لن أنسى أبدًا الدقائق الخمسين من نوبة الترقُّب التي أمضيتُها في تلك الغرفة الصغيرة وسطَ أصواتِ صَفْقِ أوراقِ اللعب على الطاولة والنغماتِ النشاز الصادرة عن البيانو، وبين الوجوه الداكنة المحدّقة إلى الكؤوس، وكأنّ الأجوبةَ عن ألغاز الحياة كامنةٌ فيها.

خمسون دقيقةً بالضبط قد انقضت لأنّ الساعة كانت منتصفَ الليل إلّا عشر دقائق، عندما خرق سكونَ الليل فجأةً دويُّ طلقَيْن ناريَّيْن أعقبَه مباشرةً تقريبًا العويلُ الحادّ لصفّارة شرطيّ وصراخُ أشخاصٍ مذعورين. خرجتُ فورًا إلى الشارع مقتحمًا دَرفتَيِ الباب، وأنا مشمئزٌّ من نفسي وغاضبٌ عليها لأنّني تركتُ هولمز يُقنِعُني هذه المرّة بقبول هذه الخطّة المحفوفة بالخطر. لم يكن لديّ أيُّ شكٍّ بتاتًا في أنّ هولمز نفسَه هو الذي أطلق الرصاصتَيْن. لكنْ هل أطلقَهما كتحذير لتنبيهي أمْ هل كان معرّضًا لخطرٍ ما فاضطُرّ إلى الدفاع عن نفسِه؟ كانت كثافةُ الضباب قد خفّت قليلًا، واندفعتُ عبر الشارع إلى بابِ كريرز يليس وأدرتُ مسكتَه فوجدتُه مفتوحًا. سحبتُ سلاحي من جيبي وهرعتُ إلى الداخل.

لفحَتِ الرائحةُ الجافّة للأفيون المحترق أنفي، وهيّجت عينيَّ بصورة فورية، وحملتْ إلى رأسي ألمًا غائرًا حادًّا إلى درجةِ أنّني كنتُ غير راغب في

التنفُّس خوفًا من أنْ أقع أنا نفسي في براثن المخدّر. كنتُ واقفًا في غرفةٍ رطبة مظلمة زُيّنت على الطراز الصينيّ بأبسطةٍ عليها رسومٌ وظلّاتِ مصابيحَ حمراء وستاراتٍ حريرية معلّقة على الجدران، مثلما وصفها هندرسون تمامًا. لم يكن هناك أيُّ مؤشّر إلى وجود الرجل نفسه في المكان. كان أربعةُ رجال ممدَّدين على حَشِيّات وإلى جانبهم طاولاتٌ واطئة وُضِعت عليها لوازمُ تدخين الأفيون من أطباق صغيرة مصقولة وسُرُجٍ لإشعال المخدّر. وكان ثلاثةٌ منهم غائبين عن الوعي، ولعلّهم كانوا جثثًا هامدة بالفعل. كان الرابع يسند ذقنَه بيده ويحملق فيّ بعينَيْن زائغتَيْن. ثمّ كانت هناك حشيّةٌ واحدة فارغة.

جاء رجلٌ مسرعًا نحوي، وعرفتُ أنّ هذا لا بدّ وأنْ يكون كرير نفسَه. كان أصلعَ الرأس تمامًا وله بشرةٌ بيضاءُ كالورق وممطوطةٌ بشدّة فوقَ عظامه وعيناه سوداوان غائرتان في وجهه حتّى بدا وكأنّه يحملُ على كتفَيْه جمجمة شخص ميّت لا رأسَ إنسان حيّ. لاحظتُ أنّه كان على وشكِ أن يقول شيئًا وأنْ يتحدّاني، لكنّه شاهد مسدّسي وتراجع.

سألته بحدّة: «أين هو؟»

«من؟»

أنتَ تعلم مَن أعني!»

تحرّكتْ عيناي إلى ما وراءَه نحو بابٍ مفتوح في الطرف البعيد من الغرفة وممرٍّ واقع بعده مُضاءٍ بمصباح غاز. كنتُ توّاقًا إلى الخروج من هذا المكان البغيض قبل أن تستحوذ عليّ أبخرةُ الأفيون، فتجاهلتُ كرير واندفعتُ إلى الأمام بقوّة. ناداني أحدُ الناعسين الممدّدين على الحشيّات وبسط يدًا مستجديةً نحوي، لكنّني تجاهلتُه. كان هناك بابٌ آخر في الطرف الخلفي للممرّ، وبما أنّه لا يمكن أن يكون قد غادر المحلَّ من الباب الأمامي، فلا بدّ وأنْ يكون قد سلك هذا الطريق. فتحتُ البابَ عنوةً وشعرتُ بالهواء البارد يندفع نحوي. كنتُ في الجهة الخلفية من المبنى وسمعتُ مزيدًا من الصراخ وجلبةَ حصان وعربة ودويَّ صفّارة شرطي. كنتُ قد عرفتُ بالفعل أنّنا خُدِعنا وأنّ جميعَ الأمور قد ساءت. لكنْ لم تكنْ لديّ بعد أيُّ فكرة عمّا يجب أنْ أتوقّع. أينَ هولمز؟ هل تعرّض لأذى؟

جريتُ على امتدادِ طريقٍ ضيّق وعبرتُ بوابةً ذات قنطرة إلى داخل فناءِ مبنى. كان حشدٌ من الناس متجمهرًا هنا. من أين يمكنُ أنْ يكونوا قد أتوا في هذا الوقت من الليل؟ رأيتُ رجلًا في ملابسِ سهرة وشرطيًّا وشخصَيْن آخرَيْن. كانوا يحدّقون جميعًا إلى مشهدٍ ماثلٍ أمامه من دون أنْ يتجرأ أيٌّ منهم على التحرُّك إلى الأمام وتولّي زمام الموقف. شققتُ طريقي بينهم، ولن أنسى أبدًا ما وقعتْ عليه عيناي بعد ذلك.

كان هناك جسمان بشريّان أحدُهما لفتاة شابّة عرفتُها فورًا – لسبب واضح هو أنّها حاولتْ قتلي قبل أيّام قليلة فقط، هي سالي ديكسون شقيقةُ روس الأكبر عمرًا منه التي كانت تعمل في حانة ذي باغ أوف نيلز. كانت مصابةً برصاصتَيْن في صدرها ورأسِها وممدّدةً على أحجار الرصف في بركةِ سائلٍ بدا أسود اللون في الظلمة، لكنّني عرفتُ فورًا أنّه دم. كذلك كنتُ أعرفُ الرجلَ الممدَّدَ أمامها فاقدَ الوعي وإحدى يديه إلى جانبِه وهي ما زالت تمسك بالمسدّس الذي قتل الفتاة.

كان هذا الرجل شرلوك هولمز.

11

قيد التوقيف

لم أنسَ قطّ تلك الليلة وما نجم عنها من عواقب.

هأنذا جالسٌ وحدي هنا بعد خمسٍ وعشرين سنة وكلُّ تفصيلٍ من تفاصيلها لا يزال مطبوعًا في ذاكرتي. وبالرغم من اضطراري في بعض الأحيان إلى إجهاد بصريّ عبر عدسةِ الزمن المشوّهة للصُوَر كي أتذكّر ملامحَ أصدقاء وخصومٍ على حدٍّ سواء، ما عليّ إلّا أنْ أطرفَ بعيني لأتذكّر جميع الذين كانوا هناك: هاريمان، كرير، أكلاند وحتّى الشرطيّ... ماذا كان اسمُه؟ بيركنز! الواقعُ هو أنّني خضتُ مغامراتٍ عديدة مع شرلوك هولمز وكثيرًا ما رأيتُه واقعًا في مآزق. وكانت هناك مرّاتٌ ظننتُه ميتًا فيها، وقبل أسبوعٍ واحد فقط من تلك الليلة لاحظتُ في الواقع أنّه كان واهنًا تمامًا يهذي من الحمّى بزعْمِ أنّه مصابٌ بمرضٍ استوائيّ وافد من سومطره. وكان هناك أيضًا الوقتُ الذي أمضيناه في بولدو باي في مقاطعةِ كورنولٍ حيثُ كان سيقعُ بالتأكيد فريسةً للجنون وتدمير الذات لو لم أرغمْه على مغادرة الغرفة. وأذكر أيضًا سهري عليه في سارّي عندما أتَتْه أفعى مستنقعات قاتلة منسلّة في الظلام. وكيف لي أن أُكمِلَ هذه القائمةَ القصيرة بدون تذكيرِ نفسي بالقنوط المُطلق والخواء اللذَيْن شعرتُ بهما عندما عدتُ وحدي من منطقة شلّالات راشينباك فولز؟ ومع ذلك تبدو جميع هذه الأحداث تافهةً بالمقارنة مع تلك الليلة في بلوغيت فيلدز. هولمز المسكين. أراه الآن في عين ذاكرتي يسترجعُ وعيَه ليجدَ نفسه

محاطًا بحشد من الناس وقيدَ التوقيف وغير قادرٍ البتّة على أنْ يفسّر لنفسِه أو لأيّ شخص آخر ما حدث في ذلك المكان قبل قليل. لقد اختار هو نفسُه طوعًا أنْ يسيرَ إلى كمين، فكانت هذه النتيجة المحزِنة.

كان رجلُ شرطة قد وصل إلى المكان، ولم أعرفْ من أين جاء. كان شابًا وعصبيًّا، لكنّه قام بعمله إجمالًا بكفاءةٍ يستحقُّ الثناء عليها. بدايةً، أجرى معاينةً للتثبُّت من أنّ الفتاة ميّتة، ثمّ وجّه انتباهَه إلى صديقي. بدا هولمز في حالة يُرثى لها وكان وجهُه أبيض كالورق، وبالرغم من أنّ عينَيْه كانتا مفتوحتَيْن فقد بدا عاجزًا عن الرؤية بوضوح... ومن الثابت أنّه لم يتعرّف إليّ. ولم يساعد وجودُ هذا الحشد من الناس على تحسين الوضع، وتساءلتُ مرّةً أخرى مَنْ يكون هؤلاء وكيف أمكنهم أنْ يختاروا ليلةً كهذه للتجمهر هنا. كانت هناك امرأتان شبيهتان بالحيزبون العجوز المخيفة التي مرّت إلى جانبنا قرب القناة، ومعهما بحّاران يستند أحدُهما إلى الآخر وتفوح منهما بقوّة رائحةُ الجعة. وكان زنجيٌّ يحملق بعينَيْن واسعتَيْن وقد وقف إلى جانبه اثنان من المالطيين الذين كانوا يشربون بالقرب منّي في حانة ذي روز أند كراون. وظهر في المكان حتّى أطفالٌ قليلون مهترئو الثياب وحفاة متفرّجين على المشهد وكأنّ تمثيليّةً تُعرض لتسليتهم. وفيما كنتُ أستوعب كلّ هذه الوقائع، كان رجلٌ طويل أحمرُ الشعر أنيقُ الملبس يصيح ويؤشّر بعصاه.

«إعتقلْه أيّها الضابط! لقد رأيتُه يطلق النار على الفتاة. رأيتُ ذلك بأمّ عينيّ». كانت له لكنةٌ اسكتلنديّة ثقيلة ذات وقعٍ مصطنَعٍ تمامًا تقريبًا، وكأنّ ما يحدث هنا مسرحيّة، وكما لو كان متفرّجًا اعتلى المسرح بدون دعوة. كان يقول: «فليكن الربُّ في عونها، المخلوقة المسكينة. لقد قتلها بدم بارد».

سألَه الشرطيّ: «من أنت؟»

«إسمي توماس أكلاند. كنتُ متوجّهًا إلى منزلي وقد شاهدتُ ما حدث بالضبط».

لم يعد في استطاعتي الوقوفُ متفرّجًا مكتوفَ اليدَيْن أكثر من ذلك، فشققتُ طريقي إلى الأمام، وجثَوْتُ إلى جانب صديقي المتأذّي، وصحتُ به: «هولمز، هولمز، هل تستطيع أنْ تسمعني؟ قلْ لي بحقّ السماء ماذا حدث».

لكنّ هولمز كان لا يزال عاجزًا عن الإجابة، واكتشفتُ حينَها أنَ الشرطي كان يتفحّصني. سألني: «هل تعرف هذا الرجل؟»

«أعرفه بالتأكيد. إنّه شرلوك هولمز».

«وأنت؟»

«إسمي جون واطسون وأنا طبيب. حضرة الضابط، يجب أنْ تسمحَ لي بالاعتناءِ بصديقي. ومهما تبدُ الوقائعُ واضحةً أستطِع أنْ أؤكّدَ لك أنّه بريء من أيّ جناية».

«هذا غير صحيح. لقد رأيتُه يطلق النار على الفتاة. رأيتُ كيف أطلق الرصاصةَ عليها بيده». تقدّم أكلاند خطوةً إلى الأمام، وأضاف: «أنا طبيبٌ أيضًا وأستطيع أنْ أقول لك فورًا إنّ هذا الرجل واقع تحت تأثير الأفيون. هذا واضحٌ من عينيه ومن نَفَسِه ولا حاجةَ بك إلى البحث عن دافعٍ إضافيّ لهذه الجريمة المنكرة التي لا معنى لها».

هل كان محقًّا؟ كان هولمز ممدَّدًا هناك وعاجزًا عن الكلام. كان بالتأكيد واقعًا تحت تأثير مخدِّرٍ ما؛ وبما أنّه كان في محلّ كريرزيليس خلال الساعة الماضية، فقد بدا من السخف تحميلُ أيِّ شيءٍ آخر سوى المخدّر الذي ذكره الطبيب، مسؤوليةَ ما حدث. ومع ذلك، كان في هذا التشخيص أمرٌ حيّرني. دقّقتُ النظر في عينَيْ هولمز، وبالرغم من اضطراري إلى الاعتراف بأنّ بؤبؤَيْهما كانا متوسّعَيْن فقد افتقدتُ فيهما النقاطَ الصغيرة القبيحة الوامضة التي كان ينبغي أنْ أتوقّعَ وجودَها هناك. جسستُ نبضَه ووجدتُه أبطأ قليلًا مِمّا يجب، الأمر الذي أشار إلى أنّه استيقظ للتوّ من نوم عميق ولم يكن منهكًا من بذل مجهودٍ مُضنٍ، بدءًا بمطاردةِ ضحيّته ثم قتْلِها بالرصاص. علاوةً على ذلك، منذُ متى كان الأفيون يدفع إلى أفعالٍ من هذا النوع؟ قد تشمل تأثيراتُ الأفيون الشعورَ بنشاطٍ مفرِط والاسترخاء التام والتحرُّر من الألم الجسدي، لكنّني لم أسمعْ أبدًا أنّ الأفيون دفع متعاطيًا إلى ارتكاب أعمال عنيفة. وحتّى لو كان هولمز واقعًا تحت تأثيرِ أشدّ نوعٍ من هوس الارتياب، فما هو الدافعُ المحتمَل الذي يمكنُ لوعيه المشوَّش أنْ يستنبطه لقتلِ الفتاة التي كان يتوق أشدَّ التوق إلى العثور عليها وحمايتها؟ وبالمناسبة، كيف صادفَ لها أنْ تكونَ

موجودةً في ذلك المكان؟ وأخيرًا، شككتُ في أن يكون هولمز قادرًا على إطلاق النار بدقّة وهو تحت تأثير الأفيون، والأرجح أنّه كان سيجد صعوبةً حتّى في حمل مسدّسه بيد ثابتة. توصّلتُ هنا إلى هذه الاستنتاجات كما لو أُتيح لي أنْ أدرسَ الأدلّةَ الماثلة أمامي دراسةً مطوّلة، لكنّها كانت في الواقع حصيلة لحظةٍ من البصيرة النابعة من سنواتي الطويلة في ممارسة مهنة الطبّ ومعرفتي الوثيقة بالرجل المتّهم.

سألني الشرطي: «هل رافقتَ هذا الشخص إلى هنا في هذه الليلة؟»

«نعم، لكنّنا افترقنا لفترة قصيرة. وكنتُ أنا في حانة ذي روز أند كراون».

«وهو؟»

«هو...». أوقفتُ نفسي عن الكلام، فالأمرُ الوحيد الذي لم يكن في وسعي البوحُ به هو المكانُ الذي كان فيه هولمز. تابعت قائلًا: «صديقي تحرٍّ مشهور وكان يتابع قضيّة. وستكتشف أنّه معروفٌ جيّدًا لدى سكوتلاند يارد. راجع المفتّش لستراد الذي سيشهد لمصلحته. ومهما تبدُ هذه المسألةُ سيّئة لا بدّ من وجود تفسير آخر.

تدخّل الدكتور أكلاند قائلًا: «لا يوجد تفسيرٌ آخر. لقد جاء مترنّحًا حولَ تلك الزاوية. كانت الفتاةُ في الشارع تتسوّل وأخرج هو مسدّسًا وأطلقَ النار عليها».

قال الشرطي موافقًا: «يوجد دمٌ على قميصه». لكنْ بدا عليه أنّه يتكلّم بقدرٍ من التردّد. أضاف قائلًا: «من المؤكّد أنّه كان قريبًا منها عندما قُتِلت، ولم أشاهدْ أيَّ شخصٍ آخر لحظة وصولي إلى هذا الفناء».

سألتُه: «هل شهدتَ إطلاق النار؟»

«كلّا، لكنّي وصلتُ بعد لحظات قليلة ولم يهرُبْ أحدٌ من موقع الجريمة».

صاح أحدُ الأشخاص المحتشدين: «هو الذي فعلها». ثمّ صدرت عن الجمع همهماتٌ موافقة قلّدها الأطفال الذين أبهجهم أنْ يجدوا أنفسَهم في الصفّ الأوّل أمام هذا المشهد.

«هولمز»، صحتُ وأنا جاثٍ إلى جانبه محاولًا أنْ أسندَ رأسه بيديّ. «هل تستطيع أنْ تقول لي ماذا حدث هنا؟»

لم يُجِزْ هولمز جوابًا. وما هي إلّا لحظة حتّى استشعرتُ وجودَ رجلٍ آخر اقتربَ بصمت وكان واقفًا فوقي قربَ الطبيب الإسكتلندي». قال لي بصوتٍ بارد كصقيع الليل: «من فضلك، انهضْ على قدميك».

بادرتُه بالقول: «هذا الرجل صديقي».

«وهذا مسرحُ جريمة لا يحقّ لك التدخُّل فيه. انهضْ وارجعْ إلى الوراء. شكرًا. والآن إذا كان أيُّ شخص هنا قد رأى شيئًا فليعطِ ضابط الشرطة اسمَه وعنوانَه. خلافَ ذلك، عودوا إلى منازلكم. وأنتم يا أطفال، أخرجوا من هنا قبل أنْ أضعكم جميعًا رهنَ الاعتقال. أيُّها الضابط، ما هو اسمك؟ بيركنز! هل أنت المسؤول هنا؟»

«نعم يا سيّدي».

«هذه منطقةُ دوريّتك؟»

«بالفعل يا سيّدي».

«حسنًا. يبدو أنّك قمتَ بعمل جيّد إلى حدٍّ معقول حتّى الآن. هل تستطيع أن تحكي لي ما رأيتَ وما تعرفُه؟ حاولْ أن تختصر كلامَك، فهذه ليلة باردةٌ جدًا. وكلّما عجّلنا في إنهاءِ الإجراءات، بكّرنا في العودة إلى أسرّتنا».

وقف الرجل صامتًا فيما كان الشرطي يسرد عليه روايتَه عن الأحداث، لكنّه لم يُضِف شيئًا يُذكَر عمّا كنتُ أعرفه بالفعل. أومأ الرجل برأسه، وقال: «هذا جيّد جدًّا، أيّها الشرطي بيركنز. اهتمّ بأمر هؤلاء الناس، دوّن التفاصيل في مفكّرتك، وسأتولّى أنا المسؤولية الآن».

أنا لم أصِفْ بعد هذا الشخصَ الواصل حديثًا، وأجدُ حتّى الآن صعوبةً في ذلك لأنّه كان ببساطة أحدَ أكثر الرجال الذين قابلتهم شبهًا بالزواحف، بعينَيْه الصغيرتَيْن وبشرته الملساء إلى درجةٍ بدت معها منعدمةَ التقاسيم. وكانت سمته الأكثر بروزًا شعره الكثيف الأبيض بصورةٍ غير طبيعية تقريبًا، أي إنّه كان في الواقع فاقدَ اللون تمامًا ولعلّه لم يكن ذا لونٍ في أيّ يوم على الإطلاق. لم يتعلّق الأمرُ بكونه متقدّمًا في العمر، إذْ لم يكن قد تجاوز عامَه الثلاثين أو الخامس والثلاثين. كان شعرُه مناقضًا تمامًا لملابسه المكوّنة من معطف أسود وقفّازين أسودين ووشاح أسود. وبالرغم من أنّه لم يكن رجلًا

ضخم البنية، فقد بدتْ عليه هيبةٌ معيَّنة، بل حتّى عجرفةٌ سبق لي أنْ لاحظتُها من طريقته في الإمساك بزمام القيادة في ذلك الوضع. كان كلامَه هادئًا، لكنّ نبرةَ صوته لم تدعْ مجالًا للشكّ في أنّه اعتاد أنْ يُطاع. لكنّ أكثر ما أزعجني فيه كانت طبيعتَه التلصُّصيّة ورفضَه التواصلَ عاطفيًا مع أيّ شخص، وهذا ما جعلني أفكّر فيه كأفعى. فمِن اللحظة التي تكلّمتُ فيها معه لأوّل مرّة، شعرتُ به ينسلّ من حولي. كان شخصًا من النوع الذي ينظُر عبرَك أو خلفك لكنّه لا ينظر إليك أبدًا. ولم يسبق لي قطّ أنْ التقيتُ شخصًا يتحكّمُ بنفسه إلى هذه الدرجة ويعيشُ في عالم لا يمكن لبقيّة الناس أنْ يكونوا فيه إلّا متطفّلين على حدود الغير ويُحظّر عليهم الاقتراب.

قال: «إذًا، إسمُك دكتور واطسون».

«نعم».

«وهذا شرلوك هولمز! حسنًا، أنا أميلُ إلى الشكّ في أنّنا سنقرأ عن هذه الواقعة في سيرةٍ من السير الشهيرة التي تكتبها إلّا إذا صدرتْ تحت عنوان ‹مغامرة مدمن الأفيون المهووس›. هل كان زميلُك في محلّ كريرز يليس هذه الليلة؟»

«كان يتابع تحقيقًا».

«يتابعُه بغليون وإبرة كما يبدو. طريقةٌ غير تقليديّة في التحقيق، حسب رأيي. حسنًا، في استطاعتك المغادرة، يا دكتور واطسون. ليس في استطاعتك القيامُ بأيّ شيء آخر في هذه الليلة. ما أبشعَ هذه المسألةَ التي نواجهها هنا! لا يمكن أنْ تكونَ هذه الفتاة أكبرَ من ستّةَ عشر عامًا أو سبعة عشر».

«إسمُها سالي ديكسون. كانت تعمل في حانةٍ تُدعى ذي باغ أوف نيلز في منطقة شورديتش».

«هل كان مهاجمُها يعرفها؟»

«السيّد هولمز لم يكن مهاجمَها».

«هذا ما تريدنا أنْ نعتقد. لكنّ هناك لسوء الطالع شهودًا لهم وجهة نظر أخرى». نظر إلى الرجل الإسكتلنديّ، وسأله: «هل أنتَ طبيب؟»

«نعم، يا سيّدي».

«وشاهدتَ ما حدث هنا هذه الليلة؟»

«لقد سبق أنْ قلتُ ذلك للشرطي، يا سيّدي. كانت الفتاةُ تتسوّل في الشارع، وجاء هذا الرجل من ذلك المبنى هناك. ظننتُه ثملًا أو مخبولًا. تبع الفتاةَ إلى هذا الفناء وقتلها بمسدّس. هذا ما حدث ببساطة».

«في رأيك، هل السيّد هولمز في حالة صحّية تؤهّله للانتقال معي إلى مركز شرطة هولبورن؟»

«إنّه لا يستطيع المشي، لكنْ لا يوجد سببٌ يحول دون انتقاله في عربة».

«هناك عربةٌ قادمة». توجّه الرجلُ أبيضُ الشعر الذي لم يعْطِني اسمَه بعد بخطواتٍ بطيئة نحو هولمز الذي كان لا يزال ممدَّدًا على الأرض، وقد استعادَ وعيَه قليلًا وهو يكافح لاستعادةِ رباطة جأشِه. قال الرجل: «سيّد هولمز، هل تستطيعُ أنْ تسمعني؟»

«نعم». كانت هذه أوّلَ كلمة نطق بها.

«إسمي المفتّش هاريمان. أنا أُلقي القبضَ عليك بتهمة قتل هذه المرأة الشابّة سالي ديكسون. أنتَ لستَ مُجبرًا على قول أيّ شيء، إلّا إذا أردتَ ذلك. لكنّني سأُدوّن كتابةً كلَّ ما تقولُه ويمكن استعمالُ ذلك كدليل ضدّك في ما بعد. هل تفهم ما أقول؟»

صحتُ: «هذا فظيع! أنا أقولُ لك إنّ لا علاقة على الإطلاق لشرلوك هولمز بهذه الجريمة. شاهدُك يكذب، هذه مؤامرة من نوع ما».

«إذا كنتَ لا تريد أنْ تجدَ نفسَك رهنَ الاعتقال بتهمةِ إعاقةِ العدالة وربّما في المحكمة بتهمة التحقير، أقترح عليك أنْ تحاول البحثَ عن حكمةِ التزام الصمت. وستحظى بفرصتك للإدلاءِ بأقوالك عندما تصل هذه القضية إلى المحكمة. وفي هذه الأثناء، سأطلبُ منك مرّةً أخرى أنْ تتنحّى جانبًا وأنْ تتركني أقوم بعملي».

«أليست لديك أيّ فكرة عمّن يكون هذا الرجل ومدى ما تدين به لهذا الرجل قوّةُ الشرطة في هذه المدينة، بل في هذه البلاد في الواقع؟»

«أنا أعرف تمامًا مَن هو ولا أستطيعُ القولَ إنّ ذلك يُحدِث أيّ فارق في الوضع كما أراه. لدينا فتاةٌ ميّتة وسلاحُ الجريمة موجود في يده، وعندنا

شاهد. وأظنّ أنّ هذا كافٍ لنمضي بالقضية إلى الأمام. الساعةُ قاربت الثانيةَ عشرة ولا أستطيعُ أنْ أتجادل معك طول الليل. وإذا كان لديك أيُّ سبب للشكوى من تصرُّفي، تستطيع تقديمَها في الصباح. أسمع عربة تقترب. لنأخذ هذا الرجل إلى زنزانة وهذه الفتاة الصغيرة البائسة إلى المشرحة».

لم يبقَ هناك شيءٌ أستطيعُ فعلَه إلّا الوقوف والنظر عندما عاد الشرطي بيركنز وتعاونَ مع الطبيب في إنهاض هولمز على قدميه وجرّه بعيدًا. لُفّ المسدّس الذي كان يحمله في قطعة قماش وأُخذ معه. أدار هولمز رأسَه في الدقيقة الأخيرة عندما كان يُسنَد للدخول إلى العربة، والتقتْ أعينُنا وشعرتُ أنا بالارتياح لرؤية بعضِ الحياة تعودُ إلى عينَيه على الأقلّ ولأنّ مفعولَ المخدِّر، مهما يكن نوعُه، الذي تعاطاه أو أُعطي له لا بدّ وأنْ يكونَ آخذًا في التلاشي. كان رجالُ شرطة آخرون قد وصلوا إلى المكان، ورأيتُ كيف غُطِّيت سالي ببطّانية وحُمِلت على نقّالة. صافح الدكتور أكلاند المفتّش هاريمان وأعطاه بطاقتَه وعليها عنوانُ عمله، ثم غادر المكان. وقبل أنْ أنتبهَ، وجدتُ نفسي وحيدًا في حيٍّ لندنيّ عنيف سيّئِ السمعة. تذكّرتُ فجأةً أنّني ما زلتُ أحمل في جيب معطفي المسدّسَ الذي أعطانيه هولمز. انغلقتْ يدي عليه وخطرتْ لي فكرةٌ جنونية أنّه ربّما كان من واجبي أنْ أستعملَه لإنقاذ هولمز بإنهاضِه وحملِه معي بعيدًا عن المكان وأنا أهدّد هاريمان والحشدَ بالمسدّس ليبتعدوا عنّي. لكنّ محاولةً من هذا النوع ما كانت ستفيد أيًّا منّا، وهناك وسائل أخرى لردّ الأذى. وبهذه الأفكار في رأسي والفولاذ البارد في يدي، استدرتُ مبتعدًا بسرعة لأعود إلى المنزل.

جاءني زائرٌ في ساعةٍ مبكّرة من صباح اليوم التالي. كان هو الرجل الذي أردتُ رؤيتَه أكثر من أيّ شخص آخر – المفتّش لستراد. عندما دخل وقطع عليّ وجبةَ فطوري، كانت فكرتي الأولى أنّه يحمل إليّ خبرًا مفادُه أنّه تمّ الإفراج فعلًا عن هولمز وسيصل إلى المنزل بعد فترة قصيرة أيضًا. غير أنّ نظرةً واحدة إلى وجهه كانت كافيةً لتحطيم آمالي. كان كالحَ الوجه عابسًا، وبدا من منظرِه أنّه إمّا استيقظَ في ساعةٍ مبكّرة جدًّا أو ربّما لم ينمْ على الإطلاق. وبدون استئذانٍ، جلس إلى الطاولة متثاقلًا إلى درجةِ أنّني تساءلتُ ما إذا كان سيجد بعد ذلك القوّةَ الكافية للنهوض من جديد.

سألته: «هل تودّ تناولَ الفطور، يا حضرة المفتّش؟»

«سيكون ذلك منتهى اللطف منك، يا دكتور واطسون. أنا أحتاج بالتأكيد إلى شيء ما لاستعادة قوامي. يا لهذه المسألة! إنّها بصراحة عسيرةٌ على التصديق. شرلوك هولمز بحقّ السماء! هل نسي هؤلاء الناس كم من نجاح نَدينُ له به في سكوتلند يارد؟ يا لفظاعة أنْ يعتبروه مذنبًا! ومع ذلك لا يبدو الوضعُ جيّدًا، يا دكتور واطسون. كلّا، إنّه لا يبدو جيّدًا».

صببتُ له الشاي مالئًا الكوب نفسَه الذي كانت السيّدة هادسون قد وضعته لهولمز، فهي لم تكن تعلم بالطبع ما حدث في الليلة السابقة. رشف لستراد الشاي بصوتٍ مسموع. سألتُه: «أين هولمز؟»

لقد أوقفوه خلال الليل في مركز شرطة بووستريت».

«هل رأيتَه؟»

«لم يسمحوا لي برؤيته! ذهبتُ إلى هناك فور سماعي ما حدث في الليلة الماضية. لكنّ هذا الرجل، هاريمان، إنّه شخصٌ غريب الأطوار بلا ريب. معظمُنا في سكوتلند يارد، أقصد نحن الذين نحمل الرتبة نفسها، نسهّلُ أمورَ بعضنا بعضًا قدرَ استطاعتنا. لكنْ ليس هو. لقد احتفظ هاريمان دائمًا برأيِه لنفسه وليسَ له أصدقاء ولا عائلة على حدّ علمي. وأعترف له بأنّه يؤدّي عمله بكفاءة. وبالرغم من أنّنا نتقابل في الممرّ فإنّني لم أخاطبْه أبدًا بأكثر من بضع كلمات، وهو لم يحبّني ولا مرّةً واحدة. وكما هي الأمور عادةً، فقد رأيتُه صباح اليوم بصورة عابرة وطلبتُ زيارةَ هولمز اعتقادًا منّي أنّ هذا أقلُّ ما أستطيعُ القيامَ به، لكنّه تجاهلني وواصل سيرَه. وما كانت بادرةُ كياسةٍ صغيرة لتضيرَ أحدًا، لكنّ هذا هو الرجلُ الذي نحن بصدده. إنّه مع هولمز الآن يستجوبه. وكم كنتُ أتمنّى أنْ أكونَ معهما في الغرفة لأنّ ما يدور بينهما معركةُ ذكاء إنْ وُجِدت يومًا معركةُ ذكاء. وبحسب ما وصل إلى علمي، فإنّ هاريمان كوّن رأيه بالفعل، لكنّ الاتّهام برمّته سخيف. لذلك أتيتُ إلى هنا راجيًا أنْ تتمكّن من تسليط بعض الضوء على هذه المسألة. لقد كنتَ هناك في الليلة الماضية؟»

«كنتُ في منطقة بلوغيت فيلدز».

«وهل صحيحٌ أنّ السيّد هولمز زار وكرًا للأفيون؟»

«لقد ذهب إلى هناك، لكنْ ليس للانغماس في هذه الآفة البغيضة».

«كلّا؟ توجّهت عينا لستراد نحو أسكفة الموقد والعلبة المغربية التي كانت تحوي إبرةً للزرع تحت الجلد. وتساءلتُ كيفَ علم بأمر هذه العادة التي كان هولمز يمارسها بين حين وآخر.

قلتُ له بلهجةِ عتاب: «أنتَ أوثقُ معرفةً بهولمز من أنْ تفكّر خلافَ ذلك. إنّه ما زال يحقّق في مقتل الرجل ذي القبّعة المسطّحة والطفل روس. وهذا ما حمله على الذهاب إلى شرق لندن».

أخرج لستراد مفكّرتَه وفتحها قائلًا: «أظنّ أنّ من الأفضل أنْ تطلعَني على التقدّم الذي أحرزتماه أنت والسيد هولمز، يا دكتور واطسون. وإذا كنتُ سأكافح من أجلِه، ومن المحتمل جدًّا أنْ تكونَ أمامَنا معركةٌ عاتيةٌ، فكلّما عرفتُ أكثر، تحسّنتْ فرصُنا. لذا أطلب إليك ألّا تغفل أيّ شيء».

كان الأمر غريبًا في الواقع. فقد ظلّ هولمز يعتقد باستمرار أنّه يتنافس مع الشرطة وما كان ليطلعَهم على أيّ من تفاصيل تحقيقه في ظروفٍ عادية. لكنْ لم يكن لديّ أيُّ خيار في هذه المناسبة بالذات سوى إبلاغ لستراد بكلّ ما حدث قبلَ مقتل الطفل وبعدَه على حدّ سواء، بدءًا بزيارتِنا لمدرسةِ كورلي غرينج للفتيان، هذه الزيارة التي قادتنا إلى سالي ديكسون وحانة ذي باغ أوف نيلز. أخبرتُه بهجومها عليّ واكتشافِنا ساعةَ الجيب المسروقة واجتماعنا العقيم مع اللورد رافنشو وقرار هولمز نشرَ إعلان في الصحف المسائية. وختامًا، وصفتُ له زيارة الرجل الذي سمّى نفسَه هندرسون وكيف قادنا إلى محلّ كريرز يليس.

«هل كان مفتّشًا جمركيًّا في الميناء؟»

«هذا ما قاله يا لستراد، لكنّني أخشى أنّه كان يكذب في هذا الأمر كما كذب في بقية روايته».

«قد يكون بريئًا، فأنت لا تعرف ما حدث في محلّ كريرز يليس».

«صحيح أنّني لم أكنْ هناك، لكنّ هندرسون لم يكن هناك أيضًا وغيابُه يجعلني أشعر بالقلق. وبالنظر إلى جميع الأمور التي حدثت، أعتقد أنّ هذا كان فخًّا متعمّدًا لإلباس هولمز التهمةَ وإنهاءِ تحقيقه».

«لكنْ ما هو بيتُ الحرير هذا؟ لماذا يذهب أيُّ شخص إلى هذا المدى للإبقاء على سرّيته؟»

«لا أعلم».

هزّ لستراد رأسَه، وقال: «أنا رجلٌ عمليّ، يا دكتور واطسون. وعليّ أنْ أقول لك إنّ كلّ هذه المسألة مضت أبعد كثيرًا من النقطة التي بدأنا عندها – وهي وجود رجل ميّت في غرفةِ فندق. وعلى حدِّ علمِنا، كانَ هذا الرجل كيلان أودوناهيو، وهو مجرمٌ عنيف ولصُّ مصارف من مدينة بوسطن وقد جاء إلى إنكلترا في مهمةِ ثأرٍ من تاجر اللوحات الفنّية السيّد كارستيرز من ويمبلدون. إذًا، كيف تنتقل من هذه النقطة إلى موتِ طفلَيْن ومسألةِ الشريط الأبيض وهذا الرجل اللغز هندرسون وجميع الأمور الأخرى المتبقّية؟»

«هذا بالضبط ما كان هولمز يحاول اكتشافَه. هل أستطيع أن أراه؟»

«هاريمان هو المسؤول عن هذه القضية ولن يسمح لأحدٍ بالتحدُّث إلى السيّد هولمز إلى انْ توجَّه إليه التهمةُ بصورةٍ رسميّة. وسيأخذونه إلى محكمةِ شرطة بعد ظهر هذا اليوم».

«يجب أنْ نكونَ هناك».

«بالطبع. أنت تُدرِك أنّ المحكمةَ لن تستدعيَ شهودَ دفاعٍ في هذه المرحلة، يا دكتور واطسون. لكنّني سأحاول بالرغم من ذلك أنْ أُزكّيَه وأنْ أشهدَ على حُسن أخلاقه».

«هل سيُبقونه في مركز شرطة بودستريت؟»

«في الوقت الحاضر، لكنْ إذا ارتأى القاضي أنّ هناك مبرّرًا لرفع قضيّته ضدّه – ولا أتصوّر أنّه سيرتأي خلاف ذلك – فسوف يودعونَه السجن».

«أيّ سجن؟»

«لا أعلم، يا دكتور واطسون، لكنّني سأفعل كلّ ما أستطيع القيامَ به من أجله. وفي هذه الأثناء، هل يوجد أحدٌ تستطيع اللجوءَ إلى خدماته؟ أتصوّر أنّه لا بدّ من أنْ يكونَ لسيّدَيْن مبجَّلَيْن مثلكما أصدقاءُ ذوو نفوذ، لا سيّما بعد تعاملكما مع كلّ هذه القضايا الكثيرة التي قد تُعتبر ذاتَ طبيعةٍ حسّاسة. وربّما يوجد بين عملاءِ السيّد هولمز شخصٌ ما تستطيع التوجُّهَ إليه؟»

كان مايكروفت أوّلَ شخص فكّرتُ فيه. لم أذكر اسمَه بالطبع لكنّه كان في ذهني حتّى قبل أنْ يبدأ لستراد كلامه. هل سيوافقُ على رؤيتي؟ كان قد وجّه تحذيرًا في هذه الغرفة بالذات، وأصرّ على أنّه سيكون عاجزًا عن عمل أيِّ شيء إذا تمّ تجاهلُ تحذيره. بالرغم من ذلك، اتّخذتُ قرارًا بالذهاب إلى نادي ديوجينس كلوب في أوّلِ فرصة سانحة. لكنّ هذه الخطوة يجب انْ تنتظر إلى ما بعد انعقادِ محكمة الشرطة. نهض لستراد واقفًا على قدميه، وقال: «سأمرّ عليك في الساعة الثانية».

«شكرًا، يا لستراد».

«لا تشكرني بعد، يا دكتور واطسون. قد لا يكون هناك شيءٌ أستطيعُ فعلَه. وإنْ وُجِدتْ مرّةً قضيّةٌ واضحة لا لبسَ فيها، فهي هذه القضية». تذكّرتُ أنّ المفتّشَ هاريمان كان قد قال كلامًا مشابهًا جدًّا في الليلة الماضية. أضاف لستراد قائلًا: «إنّ هاريمان يريد محاكمةَ السيّد هولمز بتهمة القتل، وأظنّ أنّ عليك تحضيرَ نفسِك لمواجهةِ الأسوأ».

12

أدلّة القضية

لم يسبقْ لي قطّ أنْ حضرتُ جلسةً لمحكمةِ شرطة. ومع ذلك، خالجني وأنا أقتربُ من ذلك المبنى الجسيم الكائن في شارع بوو ستريت برفقة لستراد إحساسٌ غريب بالأُلفة، وكأنّ استدعائي إلى هناك إجراءٌ صحيح وكما لو كان مجيئي إلى هذه المحكمة أمرًا لا مفرّ منه. ومن المؤكّد أنّ لستراد لاحظ تعابير وجهي لأنّ ثغرَه افترّ عن ابتسامةٍ حزينة، وقال: «لا أفترض أنّك توقّعتَ أنْ تجدَ نفسَك في مكانٍ كهذا، إيه، يا دكتور واطسون؟». أجبتُه بأنّه استوحى تلك الفكرة من رأسي مباشرةً، وقلتُ له: «حسنًا، عليك أنْ تسأل نفسَك عن عددِ الرجال الآخرين الذين ساروا هذا الدرب ذاتَه بفضلِكما – وأقصد بذلك طبعًا شخصَك والسيّد هولمز».

كان محقًّا. كانت هذه المحكمةُ المحطّةَ الأخيرة في المسار الذي كثيرًا ما بدأناه والخطوةَ الأولى على الطريق إلى محاكم الجنايات في أولد بيلي، وبعد ذلك إلى المشنقة ربّما. ومن المثير للفضول أنْ يخطر في بالي الآن في أواخر مسيرتي في الكتابة أنّ كلَّ سردٍ كتبتُه عن قضايانا انتهى بإماطة اللثام عن شخصٍ شرّير أو باعتقاله. وقد افترضتُ ببساطة أنَّ مصيرَ هؤلاء، بدون استثناء تقريبًا، لا يعود مثيرًا لاهتمام قرّائي بعد ذلك، فتناسيتُهم وكأنّ جرائمَهم كانت مبرّرَ وجودِهم، وأنّهم لم يعودوا بعدَ حلِّ جرائمهم بشرًا لهم قلوبٌ نابضة ونفوسٌ محطّمة. لم أفكّر، ولا مرّةً واحدة، في الخوفِ والعذاب

اللذَيْن لا بدّ وأن يكون هؤلاء قاسوهما عندما عبروا هذه الأبواب الدوّارة وساروا في تلك الممرّات الكئيبة. هل بكى أيٌّ منهم ذارفًا دموعَ التوبة أو هل صلّى متضرِّعًا من أجلِ الخلاص؟ هل كافح بعضُهم حتّى النهاية؟ لم أكنْ أبالي وذلك لم يكن جزءًا من روايتي.

لكنْ عندما أعودُ بذاكرتي إلى ذلك اليوم قارسِ البرودة من أيّام شهر كانون أوّل الذي واجه فيه هولمز نفسَه القوى التي طالما أطلقَها من عقالها، يخطر لي أنّني ربّما ظلمتُ هؤلاء، ومنهم حتّى مجرمون عُتاة مثل كالفرتون سميث، أو متآمرون مثل جوناس أولداكر. كتبتُ آنذاك ما تسمّى اليوم قصص رجال التحرّي، وصادفَ أنْ كان التحرّي الذي كتبتُ عنه أعظمَهم جميعًا. لكنّ عظمته كانت تُقاس من ناحية معيّنة بنوعيّة الرجال، وكذلك النساء، الذين تصدّى لهم، وقد تغاضَيْتُ عنهم بسهولةٍ لا مبرّرَ لها. وعندما دخلتُ محكمةَ الشرطة، عادوا جميعًا إلى ذاكرتي بقوّة وكأنّني أسمعُهم ينادونني قائلين: «أهلًا بك، أنتَ واحدٌ منّا الآن».

كانت قاعةُ المحكمة مربّعةَ الشكل لا تحتوي على أيّة نوافذ وفيها مقاعدُ خشبية طويلة وحواجز، وقد زُيّن جدارُها الخلفي بالشعار الملكيّ. هناك جلس القاضي الذي كان رجلًا صارمًا متقدّمًا في العمر متخشّب السلوكِ بشكل ما كانت أمامه فسحةٌ محاطةٌ بحاجز يُساق إليها السجناء واحدًا بعد الآخر، لأنّ الإجراء المتّبع هنا كان سريعًا ومتكرّرًا إلى درجةِ أنّه يكادُ يصبح مملًّا، بالنسبة إلى النظارة على أقلّ تقدير. وصلْنا، لستراد وأنا، مبكرَيْن وجلسنا في شرفة العموم مع متفرّجين قليلين آخرين. راقبنا كيف أمَرَ القاضي بإبقاء مزوِّرٍ ولصّ ومروّجٍ مسروقات رهنَ الاعتقال انتظارًا لمحاكمتهم. ومع ذلك، استطاع القاضي أنْ يكون رحيمًا أيضًا، فقد أطلق سراحَ عاملٍ متدرّب متّهمٍ بالثمالةِ والسلوكِ العنيف – وكان ذلك في عيد ميلاده الثامن عشر – وأمر بإيداع تفاصيلِ جريمته في ملفّ الدعاوى المرفوضة. وأُحضِر أمام القاضي طفلان لم يتجاوزْ أيٌّ منهما عامَه الثامن أو التاسع بتهمة التسوُّل، فأمَرَ بتسليمهما إلى الإرساليّة الدينيّة العامّة في محكمة الشرطة وأوصى بأن ترعاهما جمعيّة العناية بالمشرّدين والضالّين أو ميتم الدكتور برناردو أو جمعية تحسين أوضاع

أطفال لندن. وكان من المستغرب سماعُ الاسم الأخير من هذه الأسماء الثلاثةُ لأنّه المنظمةُ المسؤولة عن مدرسةِ كورلي غرينج التي زرتُها برفقة هولمز.

تمّ كلُّ شيء بيُسر، لكنّ لستراد وَكَزَني الآن وأدركتُ أنّ إحساسًا جديدًا بالخطورة خيّم على قاعةِ المحكمة. دخل مزيدٌ من الكَتَبة ورجالِ الشرطة بلباسهم الرسمي وجلسوا في المقاعد المخصّصة لهم. اقترب مباشِرُ المحكمة الذي كان رجلًا مملوءَ الجسم شبيهًا بطائر البوم في ردائه الأسود، من القاضي وبدأ يكلّمه بصوت منخفض. دخل رجلان تعرّفتُ إليْهما وجلسا على أحد المقاعد الطويلة متباعدَيْن أقدامًا قليلة. كانَ أحدُهما الدكتور أكلاند والآخر رجلًا أحمرَ الوجه ربّما كان أحدَ المحتشدين أمام محلّ كريرز يليس، لكنّه لم يترك لديّ أيّ انطباع آنذاك. جلس خلفَهما كرير نفسه (دلّني لستراد عليه) وكان يمسح يدَيْه وكأنّه يحاول تجفيفَهما. رأيتُ فورًا أنّهم حضروا جميعًا كشهود.

ثم أُدخِل هولمز إلى القاعة وعليه الملابس نفسها التي كان يرتديها عند اعتقاله خلافًا لطبائعه تمامًا. ولو لم أكنْ أعرفه معرفةً وثيقة لربّما ظننتُ أنّه تنكّر عمدًا لكي يربكني مثلما فعل مرّاتٍ كثيرة. كان واضحًا أنّه لم يَنَمْ وقد استُجوِب مطوّلًا، وحاولتُ أنْ أُبعدَ عن مخيّلتي الإهاناتِ المختلفة المألوفة لدى المجرمين العاديّين التي لا بدّ وأنْ يكون قد تعرّض لها. ورغم كونه نحيلًا في أفضل أيّامه، فقد بدا الآن هزيلًا تمامًا. وعندما كان يُساق إلى قفص الاتّهام، استدار ونظر إليّ فشاهدتُ ومضةً في عينيه أفهمتْني أنّ المعركةَ لم تنتهِ بعد وذكّرتْني بأنّ هولمز كان دائمًا في ذروة أدائه كلّما تكاثرت في وجهه الظروف المناوئة له. اعتدل لستراد الموجود إلى جانبي في جلسته وتمتم شيئًا بصوت هامس. كان غاضبًا وحانقًا تعاطفًا مع هولمز، فكشف عن جانبٍ من شخصيّته لم يسبقْ لي أنْ رأيتُه.

بادر محامٍ بدينٌ قصيرٌ ذو شفتين غليظتَيْن وأجفان متثاقلة إلى تقديم نفسِه. وسُرعان ما اتّضح أنّه تولّى دورَ المدّعي، بالرغم من أنّ لقبَ مدير حلبة سيرك قد يكون الوصفَ الأنسبَ له استنادًا إلى الطريقةَ التي أدار بها الإجراءات، فكاد يتعامل مع المحكمة وكأنّها سيرك قانونيّ.

بدأ كلامه، فقال: «إنّ المتّهم تحرٌ معروفٌ جيّدًا. وقد حقّق السيّد شرلوك هولمز شهرةً لدى عامّة الناس بفضل سلسلة من القصص تستند إلى الحقيقة جزئيًا على الأقلّ بالرغم من افتقارها إلى الذوقِ السليم وجنوحها إلى الإثارة». غضبتُ أشدّ الغضب لهذا الكلام، وكان من المحتمل أنْ أنهضَ وأحتجَّ لو لم يمدّ لستراد يدَه ويربّتْ بلطفٍ على ذراعي. أضاف محامي الادّعاء قائلًا: «بعد قولي هذا، لنْ أُنكرَ أنّ في سكوتلاند يارد ضابطًا أو اثنين أقلُّ كفاءةً من الآخرين يدينان له بالشكر على المساعدة التي كان يقدّمها إليهما بين حين وآخر في توجيه تحقيقاتهما بصورة نصائح وتحليلات أثبتت جدواها». عندما سمع لستراد هذا الكلام، جاء دورُه ليقطّبَ وجهه. تابع محامي الادعاء فقال: «لكن حتّى أفضل الرجال يقعون فريسةً لشياطينهم، وفي حالة السيّد هولمز كان الأفيون ما حوّلَه من صديقٍ للقانون إلى مجرم من أحطِّ نوع. ولا خلافَ إطلاقًا على أنّه دخل إلى وكرٍ لتعاطي الأفيون يُدعى كريرز يليس في لايمهاوس بعد الساعة الحاديةَ عشرةَ بقليل من ليلة أمس. وشاهدي الأوّل هو صاحبُ هذا المحلّ آيزيا كرير».

وقف كرير على منصّة الشهود ولم يكن حلفُ اليمين مطلوبًا في هذه الإجراءات. لم استطعْ أنْ أرى إلّا مؤخّرةَ رأسه التي كانت بيضاء وخاليةً من الشعر ومطويّةً على رقبته بطريقة جعلت من الصعب رؤية أينَ تنتهي الواحدة وأينَ تبدأ الثانية. وبتوجيهٍ من محامي الادّعاء، أدلى بالرواية التالية.

نعم، لقد دخل المتّهم إلى محلّه – وهو يا حضرةَ القاضي مؤسّسةٌ خاصّةٌ وقانونيّة يستطيع السادةُ المحترمون أنْ يمارسوا فيها عادتَهم براحة وأمان. وقد وصل المتّهم بعد الساعةِ الحاديةَ عشرة بقليل. كان كلامه قليلًا جدًّا. طلب حقنةً من المخدّر ودفع ثمنها ودخّنها فورًا. وبعد نصف ساعة، طلب حقنةً ثانية. وقد شعر السيّد كرير بالقلق لأنّ السيّد هولمز اهتاج وثار – علمًا أنّه لم يعرف اسمَه إلّا في وقت لاحق. وأكّد للمحكمة أنّ المتّهمَ كان غريبًا تمامًا عنه عندما التقيا. وقد أشار السيّد كرير إلى أنّ أخذ حقنةٍ ثانية قد لا يكون عملًا حكيمًا، لكنّ السيّد المحترَم خالفه بأقسى العبارات. ومن أجل المحافظة على النظام وتفادي إشكالٍ والإبقاء على الهدوء الذي تتمّز

به مؤسّستُه، وفّر له الضروريّات مقابل دفعةٍ ثانية. وقد دخّن السيّد هولمز الغليون الثاني وتفاقمت حالةُ هياجه إلى درجةٍ جعلت السيّد كرير يرسل صبيًّا إلى الخارج بحثًا عن شرطيّ لخوفِه من احتمالِ حدوث ما يعكّر صفوَ الأمن. وقد حاول التكلُّمَ بعقلانيّةٍ مع السيّد هولمز وتهدئتَه، لكنْ بلا جدوى. وبعينَيْن جامحتَيْن وخروج تامّ عن السيطرة، أصرّ السيّد هولمز على وجود أعداء في الغرفة وأنّه يُطارَد وأنّ حياتَه في خطر، ثمّ أخرج مسدّسًا من جيبه. وعند ذاك، طلب إليه السيّد كرير بحزم أن يغادر المكان.

قال للمحكمة: «خفتُ على حياتي وكانت فكرتي الوحيدة جعلَه يغادر المكان. لكنّني أرى الآن أنّني كنتُ مخطئًا وأنّه كان ينبغي أن أدعَه يبقى في الداخل إلى أنْ يصلَ العون في شخصِ الشرطيّ بيركنز. فعندما أخرجتُه إلى الشارع كان فاقدًا عقله ولم يدركْ ماذا يفعل، ولقد شاهدتُ مثل هذا الأمر من قبل، يا سيّدي القاضي. إنّه أمرٌ شاذٌ نادرُ الحدوث، لكنّه تأثيرٌ جانبيّ للمخدّر. ولا أشكّ في أنّ السيّد هولمز كان يظنّ أنّه يواجهُ وحشًا رهيبًا عندما أردى تلك الفتاة المسكينة بالرصاص. ولو كنتُ أعلم أنّه يحمل سلاحًا لما زوّدتُه أصلًا وأبدًا تلك المادّة، والربّ يشهد على ما أقول».

أكّد هذه الروايةَ من كلّ ناحية شاهدٌ ثانٍ هو الرجل أحمرُ الوجه الذي لاحظتُه من قبل. كان شخصًا متمهّلًا ذا هيئةٍ أرستقراطيّة جدًّا، له أنفٌ مستدقّ يستنشق هواءَ عامّة الناس بتقزّز. لم يزدْ عمرُه على ثلاثين عامًا في أيّ حال وكانت ملابسُه من أحدثِ طراز. لم يكشفْ معلومات جديدة بل كرّر بصورةٍ حرفية تقريبًا ما ذكره كرير. قال إنّه كان متمدّدًا على حشيّةٍ في الجانب الآخر من الغرفة، وبالرغم من أنّه كان مسترخيًا جدًّا فهو مستعدّ لأنْ يحلِف أنّه كان واعيًا تمامًا بما يجري حوله. واختتم شهادتَه بقوله: «إنّ الأفيون بالنسبة إليّ عادةٌ مريحة أمارسُها بين حين وآخر لأنّه يوفّر لي ساعاتٍ قليلة أستطيع خلالها الابتعاد عن الهموم والمسؤوليّات التي تزخر بها حياتي. ولا أرى في هذه العادة ما يعيبني، وأنا أعرفُ أشخاصًا كثيرين يتعاطون اللودانوم[1] بعيدًا عن العيون في منازلهم للسبب ذاتِه تمامًا. وتعاطي الأفيون لا يختلفُ، في رأيي،

[1] مادّة مستحضرة من الأفيون ولها تأثير مخدّر (المترجم).

عن تدخينِ التبغ أو شربِ الكحول». ثمّ أضاف جملةً مسمومةً عندما قال: «لكنّني أستطيعُ السيطرةَ على مفعوله».

ولم يُثر هذا الرجل الشابّ اهتمامَ الناسِ في القاعة إلّا بعد أنْ طلبَ إليه القاضي أنْ يذكر اسمَه لتدوينه في السجلّ، فأجاب: «اسمي هو اللورد هوراس بلاكووتر».

حدّق إليه القاضي، وقال: «هل أفهم يا سيّدي أنّك من عائلة بلاكووتر في هالامشير؟».

أجاب الشاب: «أجل. الإيرل[2] أوف بلاكووتر هو والدي».

ذُهلتُ مثل أيٍّ من الآخرين. بدا مستغربًا، وحتّى صادمًا أنْ يكونَ سليلُ إحدى أعرق العائلات في انكلترا قد وجد طريقَه إلى وكر مخدّراتٍ، مُبتذل في منطقة بلوغيت فيلدز. واستطعتُ في الوقتِ ذاته أنْ أتصوّر الوزنَ الذي ستعطيه شهادتُه للتهمةِ الموجّهة إلى صديقي. لم يكن هذا الرجل مجرّدَ بحّار حقير أو دجّالٍ رخيص يحكي روايتَه عن الأحداث، بل كان رجلًا يُحتمل أنْ يدمّر نفسَه لمجرّدِ اعترافِه بأنّه كان في محلّ كريرز يليس.

كان الرجل محظوظًا لكونِ هذه الدائرة محكمةَ شرطة لا يوجد فيها صحافيون. ولا حاجةَ بي لأنْ أضيفَ أنّ الأمر ذاتَه ينطبق على هولمز. وفيما نزل اللورد بلاكووتر من منصّةِ الشهود، سمعتُ همسًا يدور بين أفرادٍ آخرين من النظّارة. وفهمتُ أنّهم لم يأتوا إلى هنا إلّا للفرجة وإشباع نهمهم بمثل هذه التفاصيل البذيئة التي يتعيّشون عليها كقوتِ يومهم.

تبادل القاضي كلماتٍ قليلة مع مباشِر المحكمة ذي الرداء الأسود، بينما كان ستانلي بيركنز، الشرطي الذي التقيتُه في الليلةِ المعنيّة، يأخذ مكانه على منصّةِ الشهود. وقف متجمّدًا يحمل خوذتَه إلى جانبه ويمسك بها كما لو كان شَبَحًا في برج لندن يحمل رأسَه المقطوع[3]. كانَ الأقلُّ كلامًا لا سيّما أنّ سواه روى نيابةً عنه الكثيرَ من أحداثِ قصّته. قال إنّ الصبيَ الذي أرسله كرير اقتربَ منه وطلب منه المجيءَ إلى المبنى الواقع على زاوية شارع

[2] EARL لقب نبالة انكليزي (المترجم).

[3] شهد برج لندن في تاريخه الطويل إعدامات كثيرة بقطع الرأس وتروج حكايات كثيرة عن أشباحٍ ضحايا تسكنه (المترجم).

ميلوورد ستريت. كان متوجِّهًا إلى هناك عندما سمع طلقَيْن ناريَّيْن فهُرِع إلى ساحةِ كوبرغيت سكوير حيثُ اكتشف رجلًا ممدَّدًا على الأرض فاقدَ الوعي وفي يده مسدَّس وإلى جانبه فتاةً غارقة في بركة من الدماء. تولّى مسؤوليّةَ مسرح الجريمة بينما كان جمعٌ من الناس يتجمهرون هناك. وقد رأى فورًا أنّه لم يكن هناكَ ما يستطيعُ فعلَه من أجل الفتاة، ووصفَ كيفَ وصلتُ أنا وعرَفتُ الرجلَ فاقدَ الوعي بأنّه شرلوك هولمز.

قال بيركنز: «لم أستطعْ أنْ أصدّق ذلك عندما سمعتُه. وقد سبق لي أنْ قرأتُ عن بعضِ النجاحات الكبيرة التي حقّقها السيّد هولمز، والظنّ بعد ذلك أنّه قد يكون متورِّطًا في فعلةٍ كهذه ... حسنًا، هذا أمرٌ لا يُصدّق».

بعد بيركنز، جاء دورُ المفتّش هاريمان الذي يسهل التعرُّف إليه فورًا بفضل شعره الأبيض الكثّ. وكان في وسع المرء أنْ يتصوّر هاريمان يمضي ساعاتٍ في التدرُّب على خطابه من الطريقة التي تكلّم بها وكيف لفظ كلَّ كلمةٍ بتعمُّد وعناية لتترك الوقعَ الأمثل لدى السامع، وهو ما يمكن أنْ يكونَ قد حقّقه. وهو لم يحاول حتّى أنْ يُخليَ صوتَه من نبرةِ الازدراء وكأنّ مهمّتَه الوحيدة في الحياة هي الزجُّ بصديقي في السجن، بل وإعدامُه فعلًا.

قال مستهِلًّا شهادته: «دعوني أُطلِعُ المحكمة على تحرُّكاتي في الليلة الماضية. لقد استُدعيتُ بسببِ عملية اقتحام وسرقة تعرّض لها مصرفٌ في شارع هوايت هورس رود القريب من محلّ كريرز يليس. وعندما هممتُ بالمغادرة، سمعتُ صوتَ إطلاق نار وصوتَ صفّارة رجل الشرطة فغيّرتُ وجهتي نحو الجنوب لأرى ما إذا كنتُ أستطيعُ المساعدة. وعندما وصلتُ، كان الشرطي بيركنز ممسكًا بزمام الأمور ويؤدّي عملَه على نحو جدير بالثناء. وسوف أرفع توصيةً بترقيةِ الشرطي بيركنز. كان هو مَن أطلعني على هويّةِ الرجل الماثل أمامَكم الآن. وكما سبق أنْ سمعتم فإنّ السيّد هولمز يتمتّع بشهرة معيَّنة وأنا واثقٌ بأنّ كثيرين من مُعجَبيه سيصابون بخيبة أمل عندما يكتشفون أنّ الطبيعةَ الحقيقية لهذا الرجل، بما فيها إدمانُه المخدّرات وما ينتجُ عنه من عواقبَ قاتلة، بعيدة كلّ البعد عن الصورة الخيالية التي استحسنّاها جميعًا».

تابع هاريمان شهادتَه، وقال: «لا مجال للشك في أنّ السيّد هولمز قتل سالي ديكسون. وحتّى المواهبُ التخيُّلية لكاتب سيرته لن تتمكّنَ في الواقع من إثارةِ أدنى شكٍّ في عقول قرّائه. وقد لاحظتُ في مسرح الجريمة أنّ المسدّس في يده كان لا يزال ساخنًا وأنّ بقايا بارود سَوَّدت كُمَّه وأنّ بقعَ دماءٍ كانت على معطفه، وهي لا يمكن أنْ تكون قد وصلتْ إلى هناك إلّا إذا كان واقفًا قرب الفتاة عندما أُصيبت بالرصاص. وكان السيّد هولمز نصفَ واعٍ وهو يخرج تدريجيًا من غشوةِ الأفيون وبالكاد مُدركًا للفعلةِ الرهيبة التي ارتكبها. أقول كان بالكاد مدركًا، لكنّني لا أعني بذلك أنّه كان غافلًا عن الأمر تمامًا، فقد كان يعرف ذنبه، يا سيّدي القاضي. لم يدفَعِ التهمةَ عن نفسِه وعندما حذرتُه ووضعتُه رهنَ الاعتقال لم يقمْ بأيّ محاولة لإقناعي بأنّ الظروفَ كانت مختلفةً بأيّ شكل عمّا وصفتُه لكم».

أضافَ قائلًا: «فقط بعد أنْ نام ثماني ساعات وأخذ دوشًا باردًا، طلع هولمز في الساعة الثامنة من صباح اليوم بقصّةٍ لا تُصدَّق، مدّعيًا أنّه بريء. قال لي إنّه زار محل كريرز يليس، لا بسببِ انجذابِه إلى هناك لإشباع شهوته الدنيئة، بل لأنّه يحقّق في قضيةٍ رفض إطلاعي على تفاصيلها، وقال إنّ رجلًا لا يعرفه إلّا باسم هندرسون وجّهه نحو لايمهاوس بحثًا عن دليل مُعيَّن، لكنْ تبيّن أنّ هذه الإخبارية كانت فخًّا لأنّه ما إنْ دخل إلى المحلّ حتّى تمّ التغلُّب عليه وأُرغِم على تناولِ مادّةٍ مخدّرةٍ ما. وأنا أجد من الغريب قليلًا أنْ يقصد رجلٌ وكرًا لتعاطي الأفيون وأنْ يدّعي بعد ذلك أنّه خُدِّر. وبما أنّ السيّد كرير يُمضي كلَّ عمرِه في بيع المخدّرات إلى رجالٍ يرغبون في شرائها، فمن غير المنطقيّ أنْ يكونَ قد اختار في هذه الحالة إعطاءَها بدون مقابل... لكنّنا نعرفُ أنّ هذا الكلام كذبٌ بكذب. وقد استمعْنا بالفعل إلى شاهدٍ محترمٍ رأى السيّد هولمز يدخّن غليونًا ثم يطلب غليونًا ثانيًا. كذلك يدّعي السيّد هولمز أنّه يعرف الفتاةَ المقتولة وأنّها كانت هي أيضًا جزءًا من تحقيقه الغامض. وأنا مستعدٌّ لقبول هذا الجزء من شهادته. ومن المحتمل جدًّا أنْ يكونَ قد التقاها من قبل ثم التبس عليه الأمر في خَدَرِهِ فظنّها مجرمًا عاتيًا من نسج خياله. ولم يكن لديه دافعٌ آخر لقتلِها».

تابع يقول: «يبقى عليّ فقط أنْ أضيفَ أنّ السيّد هولمز يصرّ الآن على أنّه جزءٌ من مكيدة تشملني أنا والشرطي بيركنز وآيزيا كرير واللورد هوراس بلاكووتر، وربّما سعادتك يا سيّدي القاضي. وقد أميلُ إلى وصف هذا الكلام بالمخادع، لكنّه أسوأ من ذلك في الواقع. إنّه محاولةٌ متعمّدة لتخليص نفسه من عواقب الأوهام التي استحوذتْ عليه في الليلة الماضية. وما أسوأ طالعَ السيّد هولمز لوجودِ شاهدٍ ثانٍ لدينا رأى جريمةَ القتل ذاتَها وهي تُرتكب فعلًا. وأنا واثقٌ بأنّ شهادته ستُنهي هذه الإجراءات. ومن جانبي، أستطيعُ القولَ فقط إنّني لم أعرفْ خلال سنواتي الخمس عشرة مع شرطةِ العاصمة قضيّةً أدلّتُها أكثر وضوحًا وطرفُها الجاني أكثرُ بديهية».

توقّعتُ أنْ ينهي هاريمان شهادتَه بانحناءة، لكنّه اكتفى بدلًا من ذلك بإيماءةِ احترام للقاضي ثم جلس.

كان الشاهدُ الأخير الدكتور توماس أكلاند الذي بالكاد تفحّصتُه في الظلمةِ والفوضى اللتَيْن كانتا سائدتَيْن في الليل. لكنّه فاجأني الآن وهو واقفٌ أمامي بكونه رجلًا مُنَفّرًا له شعرٌ مجعّد فاقع الحُمرة (يؤهّله بعضوية أكيدة في جمعية أصحاب الرؤوس الحمراء) يتهدّل بلا انتظام من رأس مستطيل؛ كما كان له نمشٌ داكنٌ جعل بشرته تكاد تبدو مريضة. كان له شاربٌ في بداية نموّه وعنقٌ طويل إلى حدٍّ غير معهود وعينان زرقاوان رطبتان. وأفترضُ أنّني ربّما بالغتُ في وصفِ مظهره لكوني شعرتُ عندما كان يتكلّم، باشمئزازٍ عميقٍ لاعقلاني حيال هذا الرجل الذي بدا وكأنّ كلماتِه تُقدّمُ الإثباتَ النهائيّ على أنّ صديقي مذنب. لقد راجعتُ المحاضرَ الرسمية للجلسة وأستطيع بالتالي أنْ أنقلَ بدقّةٍ تامّة ما سُئِل وما قاله هو نفسُه لكي لا يتمكّن أحدٌ من الادّعاء بأنّ تحامُلي الشخصيّ عليه يشوّه سجلَّ الأحداث.

محامي الادّعاء: هل تتكرّم بإطلاعِ المحكمة على اسمك.

الشاهد: إسمي توماس أكلاند.

محامي الادّعاء: أنت من اسكتلندا.

الشاهد: نعم، لكنّني أعيشُ الآن في لندن.

محامي الادّعاء: هل تتفضّل بالتحدُّث إلينا قليلًا عن سيرتك المهنيّة، يا دكتور أكلاند.

الشاهد: لقد وُلدتُ في مدينة غلاسكو ودرستُ الطبّ في الجامعة هناك وحصلتُ على شهادة طبيب في عام 1867. أصبحتُ محاضِرًا في معهد المستشفى الملكيّ للطبّ في مدينة إدنبره، وبعد ذلك أستاذًا للجراحة السريريّة في المستشفى الملكيّ للأطفال المرضى في إدنبره. وانتقلتُ إلى لندن قبل خمس سنوات إثر وفاة زوجتي، ودُعيتُ لأصبحَ مديرًا في مستشفى وستمنستر حيث أعملُ الآن.

محامي الادّعاء: لقد أُسِّس مستشفى وستمنستر لمصلحة الفقراء ويُموَّل بتبرُّعات العموم. هل هذا صحيح؟

الشاهد: نعم.

محامي الادّعاء: وأنتَ نفسُك تبرَّعتَ بسخاء لصيانة المستشفى وتوسيعه كما أعتقد.

القاضي: أرى أنّ علينا الدخولَ في صلب الموضوع إذا كنتَ لا تمانع، يا سيّد إدواردز.

محامي الادّعاء: بالتأكيد، يا سيّدي القاضي. دكتور أكلاند، هل تستطيع من فضلك أنْ تبلغَ المحكمة كيفَ صادَفَ أنْ كنتَ في محيط شارع ميلوورد وساحةِ كوبر غيت في الليلة الماضية؟

الشاهد: كنتُ أزور أحد مرضاي. إنّه رجلٌ طيّب جادٌّ في عمله، لكنّه من عائلةٍ فقيرة. وبعد أنْ غادر المستشفى كنتُ قلقًا على حاله، وقد قصدتُه في ساعةٍ متأخِّرة لأنّني حضرتُ قبل ذلك حفلَ عشاء في الجمعيّة الملكيّة للأطبّاء. غادرتُ منزلَه في الساعة الحادية عشرة وكنتُ أنوي أنْ أقطع جزءًا من الطريق إلى منزلي سيرًا على قدميّ، علمًا أنّني أُقيم في منطقة هولبورن، غير أنّني ضللتُ طريقي في الضباب وقادتني مصادفةً محضة إلى الساحة قبل منتصف الليل بقليل.

محامي الادّعاء: وماذا رأيت؟

الشاهد: رأيتُ الأمرَ بكامله. كانت هناك فتاةٌ في ملابس مهلهلة في هذا الطقس الذي لا يرحم، لم تتجاوز عامَها الرابع عشر أو الخامس عشر. ويقشعرّ بدني عندما أفكّر في ما كانت رُبّما تفعله في الشارع في تلك الساعة لأنّ هذه المنطقة معروفةٌ جيّدًا كبؤرةٍ لجميع أنواع الرذيلة. وعندما لاحظتُها لأوّل مرّة، كانت يداها مرفوعتَيْن، وبدا عليها الخوفُ بوضوح. نطقتْ بكلمة واحدة «أرجوك...!» ثمّ انطلقت رصاصتان وسقطت هي على الأرض. أدركتُ حالًا أنّها ماتت، فقد اخترقت الرصاصةُ الثانية جمجمتها وقتلتها فورًا بلا ريب».

محامي الادّعاء: هل رأيتَ الشخص الذي أطلق الرصاصتَيْن؟

الشاهد: ليس في البداية، كلّا. كان الظلامُ دامسًا وكنتُ أنا مذهولًا تمامًا من الصدمة وخائفًا على حياتي أيضًا، إذ خطر في بالي أنّ من يرغب في إيذاء هذه الفتاة اليافعة الضعيفة، لا بدّ وأنْ يكونَ رجلًا مجنونًا فالتًا من عقاله. بعد ذلك، تبيّنتُ هيئةَ شخص واقف على بُعد مسافة قصيرة وفي يده مسدّسٌ ما زال الدخان يخرج من فوّهتِه. وفيما كنتُ أراقبُ المشهد، تأوّه وسقط على ركبتَيْه، ثم تمدّد على الأرض فاقدَ الوعي.

محامي الادّعاء: هل ترى هذا الشخصَ اليوم؟

الشاهد: أجل. إنّه واقفٌ أمامي في قفص الاتّهام.

عَلَتْ همهماتٌ جديدة من شرفةِ النظارة لأنّه كان من الواضح لجميع الحاضرين مثلما كان واضحًا بالنسبة إليّ أنّ هذا الكلام هو دليلُ الإدانةِ الأقوى من أيّ شيء آخر. التزم لستراد الجالسُ إلى جانبي الصمتَ تمامًا وزمّ شفتَيْهِ بشدّة، وخَطَر لي أنّ الثقةَ بهولمز التي أعطتْه هذا القدر من الصدقيّة لا بدّ وأنْ تكونَ قد اهتزّت في صميمها بالتأكيد. وماذا عن وضعي أنا؟ أعترفُ بأنّني كنتُ في حال من الاضطراب، فتِبعًا لظاهر الأمور بدا من غير المعقول أنْ يكونَ صديقي قد أقدم على قتل هذه الفتاة بالذات التي كان يرغب بشدّة في التحدُّث إليها، بالنظر إلى بقاءِ احتمالِ أنْ تكونَ سالي ديكسون اطّلعتْ من شقيقها على أمر ما يمكن أنْ يقودَنا إلى بيت الحرير. ثم كان هناك أيضًا السؤالُ عمّا كانت تفعله أصلًا في ساحةِ كوبرغيت سكوير. هل كانت قد اعتقلت وأُبقِيت مسجونةً حتّى قبلَ أنْ يزورنا هندرسون؟ وهل من الممكن أنْ

يكونَ قد قادنا عمدًا إلى فخّ بنيّةِ الوصول إلى هذه النتيجة؟ بدا لي أنّ هذا هو الإستنتاجُ المنطقي الوحيد. لكنّني تذكّرتُ في الوقتِ ذاته أمرًا سبق لهولمز أنْ قالَه لي مرّاتٍ كثيرة: إذا أقصيتُ المستحيل فإنّ أيّ شيءٍ يبتقّى لا بدّ وأن يكونَ الحقيقة مهما اعتُبِر بعيدَ الإحتمال. قد أستطيعُ إقصاءَ الدليلَ الذي قدّمه آيزيا كرير لأنّ رجلًا مثله لا يرفض رشوةً بالتأكيد ومن شأنه أنْ يقولَ أيَّ شيء يُطلب منه. لكنْ كان من المستحيل، أو من السخف على الأقلّ، الإيحاءُ بأنّ طبيبًا بارزًا من غلاسكو وضابطًا عاليَ الرتبة في سكوتلند يارد وابنَ إيرل بلاكووتر المنتمي إلى الطبقة النبيلة الإنكليزية وقد تآلفوا معًا بدون مبرّرٍ واضح سوى تلفيق قصّة لتوريط رجل لم يسبقْ لأيٍّ منهم أنْ التقاه. كان هذا هو الخيارُ الماثل أمامي: إمّا أنْ يكون الأربعةُ كاذبين جميعًا أو أنْ يكون هولمز قد ارتكب فعلًا جريمة مروّعة تحت تأثير الأفيون.

لم يكن القاضي في حاجة إلى مثل هذه التأمّلات، فبعد أنْ استمع إلى الأدلّة أمر بإحضارِ سجلّ الإتّهام وتدوين اسم هولمز فيه، بالإضافةِ إلى عنوانِه وعمرِه والتهمة الموجّهة إليه علاوةً على ذلك سُجّلت أسماءُ محامي الإدّعاء وشهودِه وعناوينُهم وجميعُ الأشياء التي عُثر عليها في حوزة السجين. (تضمّنتْ هذه نظّارةً أنفية وقطعةَ خيط وخاتمَ إمضاء عليه شعارُ الدوق كاسل – فلستاين وعقبَيْ سيجارتَيْن ملفوفيْن في صفحةٍ مُزّقت من جريدة لندن كورن سيركولار وأنبوبَ مختبر كيميائي وقطع نقودٍ معدنية يونانية وحجرَ بربل صغيرًا. وما زلتُ أتساءل حتّى هذا اليوم عن الكيفية التي يمكن للسلطات أنْ تكون قد تعاملت بها مع هذه الأشياء). بعد ذلك أُبلِغ هولمز الذي لم ينطقْ بكلمةٍ واحدة خلال هذه الإجراءات أنّه سيبقى رهنَ الاعتقال إلى حين مثوله أمام محكمةِ المحقّق في أسبابِ الوفيّات التي ستنعقد بعد عطلةِ نهاية الأسبوع، ومن ثمّ ستبدأ محاكمتُه. وبهذا انتهى النظر في هذه المسألة. وكان القاضي مستعجلًا لمتابعة أعمال المحكمة إذ كان عليه إصدارُ قراراتٍ في عدّة قضايا أخرى فيما بدأ ضوءُ النهار يخبو. وكنتُ أراقبُ هولمز عندما اقتيد إلى خارج القاعة.

قال لي لستراد: «تعال معي يا واطسون. سرِّع خطاك الآن. ليسَ لدينا متَّسعٌ من الوقت».

تبعتُه إلى خارج القاعة الرئيسية للمحكمة ونزلنا درجًا إلى منطقةٍ في القبو كانت خاليةً تمامًا من أيِّ وسيلةٍ للراحة. وحتّى طلاؤها كان رديئًا وقبيحًا، ومن المحتمل أنْ تكونَ صُمِّمت خصّيصًا للسجناء، للرجال والنساء الذين افترقوا عن العالم العادي النابض فوق القبو. وقد سبق للستراد أنْ كانَ هنا من قبل بطبيعة الأمر، وقادني بسرعة عبرَ ممرّ أوصلَنا إلى غرفةٍ واسعة لها أرضيةٌ من البلاط الأبيض ونافذةٌ واحدة، وفيها بنكٌ يلتفُّ حولَها كلِّها، كان البنكُ مقسّمًا بسلسلةٍ من القواطع الخشبية بحيثُ يكونُ أيُّ شخصٍ جالسٍ هناك معزولًا تمامًا وغيرَ قادر على التواصُلِ مع الشخصَيْن الجالسين إلى جانبَيْه. أدركتُ فورًا أنّ هذه غرفةُ انتظار السجناء وربّما كان هولمز محتجزًا هنا قبل مثوله أمام المحكمة.

ما إنْ أصبحنا داخل الغرفة حتّى سُمِعتْ حركةٌ عند الباب وظَهَر هولمز يرافقُه ضابطٌ في بزّة رسمية. هُرِعتُ نحوه وكم كان في ودّي أنْ أعانقَه لولا إدراكي أنّ ذلك سيكون في رأيه إهانةً له تُضاف إلى الإهاناتِ الكثيرة التي تعرَّض لها. وبالرغم من ذلك تقطّع صوتي عندما خاطبتُه قائلًا: «هولمز، لا أدري ماذا أقول. ظُلم اعتقالك. الطريقة التي عوملتَ بها... الأمر يتجاوز أيَّ خيال».

أجاب: «من المؤكَّد أنّ الأمرَ مثيرٌ للاهتمام إلى أبعدِ حدّ. كيفَ حالك، يا لستراد؟ تحوُّلٌ غريبٌ في الأحداث، ألا تظنّ ذلك؟ ما هو رأيك في ما يحدث؟»

قال لستراد متمتمًا: «لا أعرفُ حقًّا ماذا أظنُّ، يا سيّد هولمز».

«حسنًا، هذا ليس بالشيء الجديد. يبدو أنّ صديقَنا هندرسون أوقعنا في مكيدة محكمة، أليس كذلك يا واطسون؟ الآن علينا أنْ لا ننسى أنّني توقّعتُ ذلك إلى حدٍّ ما وأنّ ما حدث كان مفيدًا لنا بالرغم منْ كلّ شيء. لقد ساورتني الريبةُ سابقًا في أنّنا تورّطنا مصادفةً في مؤامرة أوسع كثيرًا من جريمةِ قتلٍ في غرفة فندق. والآن أصبحتُ متأكِّدًا من ذلك».

أجبتُه: «لكنْ ما الفائدة من معرفةِ كلّ هذه الوقائع إذا سُجِنتَ ودُمِّرتْ سمعتُك؟»

قال هولمز: «أعتقد أنّ سمعتي ستتدبَّر أمرَها بنفسها. وإذا شنقوني فسأوكِل إليك، يا واطسون، مهمّةَ إقناعِ قرّائك بأنّ الأمر كلَّه كان سوءَ فهم».

قال لستراد مدمدمًا: «قد تستخفّ بهذه المسألةِ كلّها يا سيّد هولمز، لكنّ عليّ أنْ أحذّرك من أنّ الوقتَ المتوفّر لنا قصيرٌ جدًّا. كما أنّ الأدلّةَ ضدّك دامغة – بكلمةٍ واحدة».

«ما قولُك في هذه الأدلّة، يا واطسون؟»

«لا أدري ما أقول، يا هولمز. يبدو أنّ هؤلاء الرجال لا يعرفون بعضهم بعضًا. لقد جاؤوا من مناطق مختلفة من البلاد، ومع ذلك هناك توافقٌ تامٌّ بينهم حول ما حدث».

«وبالرغم من كلّ شيء، فمن المؤكّد أنّك تعطي كلامي اعتبارًا أعلى ممّا تعطيه لكلام صديقنا أيزيا كرير؟»

«بالطبع».

«إذًا، دعني أقولُ لك فورًا إنّ ما قلتُه أنا للمفتّش هاريمان هو الصيغةُ الحقيقية للأحداث. وبعد أنْ دخلت إلى محلّ تعاطي الأفيون، اقترب كرير منّي ورحّب بي كزبون جديد، أيْ إنّ ترحيبَه كان مزيجًا من الدماثةِ والحذر. كان هناك أربعةُ رجال ممدَّدين على الحشيّات نصفَ واعين، أو متظاهرين بذلك، وكان أحدُهم اللورد هوراس بلاكووتر بالفعل، مع أنّني لم أكنْ أعرفُ مَن هو آنذاك. تظاهرتُ بأنّني جئتُ للحصول على حاجتي من المخدّر بقيمة أربعة بنسات، فأصرّ كرير على أنْ أتبعَه إلى مكتبِه لأدفعَ المال هناك. ورغبةً منّي في عدم إثارة شكوكه، امتثلتُ لطلبه. وما إنْ ولجتُ الباب حتّى انقضّ عليّ رجلان وأمسكا بعنقي وثبّتا ذراعيّ بشدّة. نحنُ نعرفُ أحدَهما يا واطسون، إنّه هندرسون نفسُه. أمّا الرجلُ الآخر فكان حليقَ الرأس ويشبهُ مصارعًا بكتفيه وذراعيه وقوّته. كنتُ عاجزًا عن الحركة. قال هندرسون: «كانت حماقةً كبيرة منكَ، يا سيّد هولمز، أنْ تتدخّل في أمور لا تعنيك، ولم يكن من الحكمةِ أنْ تعتقدَ أنّ في استطاعتك مقارعةَ أناس أقوى منك».

كانت هذه كلماته أو فحوى ما قاله. وفي الوقت نفسه، اقترب منّي كرير وفي يده كأسٌ صغير مملوء بسائل كريه الرائحة. كان مخدّرًا من نوع ما ولم يكنْ هناكَ ما أستطيعُ فعلَه عندما أُقحِم هذا السائل عنوةً بينَ شفتيّ. كانوا ثلاثةً وكنتُ وحدي. لم أتمكّن من الوصولِ إلى مسدّسي، وكان مفعولُ السائل فوريًا تقريبًا. مادتْ الغرفةُ بي وفقدتْ ساقاي قوّتَهما. رفعوا أيديهم عنّي وسقطتُ أنا على الأرض».

صحتُ: «هؤلاء الأبالسة!».

سأل لستراد: «وبعد ذلك؟»

«لا أذكُر أيّ شيء لاحق إلى أنْ أفقتُ وواطسون إلى جانبي. ومن المؤكّد أنّ المخدّر كان بالغَ القوّة».

«هذا كلّه جيّد جدًّا، يا سيّد هولمز. لكنْ كيفَ تفسّر الشهادات التي سمعناها من الدكتور أكلاند ومن اللورد هوراس بلاكووتر ومن زميلي هاريمان؟»

«لقد تواطأوا».

«لكن لأيّ سبب؟ إنّهم ليسوا رجالًا عاديّين».

«هذا صحيح تمامًا. ولو كانوا عاديّين لكنتُ أكثرَ استعدادًا لتصديقهم. لكنْ ألا يلفتُكَ كأمرٍ غريب أنّ يكونَ ثلاثةُ أشخاص بمثل هذه الصفات قد انبثقوا من الظلام في ذاتِ الوقت بالضبط؟»

«ما قالوه كان معقولًا. لم تُسمَع في هذه المحكمة كلمةٌ واحدة مثيرةٌ للريبة».

«هل أنتَ واثق من ذلك، يا لستراد؟ أرجو، إذًا، أنْ تسمحَ لي بالاختلاف معك لأنّني سمعتُ عدّة كلمات من هذا النوع. لعلّنا نبدأ بالدكتور أكلاند طيّب الذكر. ألم يفاجئْكَ قولُه في ذات الجملةِ من شهادته إنّ الظلام كان دامسًا جدًّا بحيث لم يستطع رؤيةَ مَن أطلق النار، لكنّه تمكّن من رؤية الدخان يخرج من فوهةِ المسدّس؟ لا بدّ وأنْ يكون نظره فريدًا جدًّا من نوعه، هذا الدكتور أكلاند. ثم هناك هاريمان نفسُه، وقد تجد من المفيد أنْ تتثبّتَ من

أنّ مصرفًا في شارع هوايت هورس رود قد تعرّض للسرقة فعلًا، فالأمرُ يبدو لي كأكثرَ من مصادفة سعيدة رتّبتْها الأقدار.

«لماذا؟»

«لأنّ مَن يريد السطو على بنك ينتظر إلى ما بعد منتصف الليل عندما تقلّ حركة الناس في الشوارع. ولو كنتُ أنا سارقَ مصارف، لذهبتُ إلى أحياء مايفير أو كنزنغتون أو بلغرافيا أو أيّ منطقة أخرى حيثُ يستطيع السكّان المحلّيون أنْ يودعوا أموالًا كافية تستأهلُ أنْ تُسرَق».

«وماذا عن بيركنز؟»

«كان الشرطيّ بيركنز الشاهدَ الصادقَ الوحيد. واطسون، أتساءل ما إذا كان في وسعي أنْ أكلّفك...؟»

وقبل أنْ يتمكّن هولمز من إكمالِ جملتِه، ظهر هاريمان في بابِ الغرفة ووجهُه محتقنٌ بالغضب. سأل بلهجةٍ حادّة: «ماذا يحدث هنا بحقِّ الشيطان؟ لماذا لا يؤخَذُ السجينُ إلى زنزانة؟ من أنتَ، يا سيّدي؟»

«أنا المفتّش لستراد».

«لستراد! أنا أعرفُك. لكنّ هذه قضيّتي. لماذا تتدخّل؟»

«إنّني أعرف السيّد شرلوك هولمز معرفةً وثيقةً جدًّا».

«السيّد شرلوك هولمز معروفٌ جيّدًا لأناسٍ كثيرين. هل ندعوهم جميعًا ليتعرّفوا إليه شخصيًا؟» التفتَ هاريمان إلى الشرطيّ الذي أحضر هولمز من قاعةِ المحكمة والذي كان واقفًا في الغرفة ويبدو مُحْرَجًا بصورة متزايدة، وقال له: «أيّها الشرطي، سآخذ اسمَك ورقمَك وستسمع المزيدَ عن هذه المسألة في الوقتِ المناسب. بالنسبة إلى الآن، في وسعِكَ أن تصطحبَ السيّد هولمز إلى الفناء الخلفي حيثُ تنتظر عربةُ شرطة لنقلِه إلى مكانِ إقامته الجديد».

سأل لستراد: «وأينَ هو ذلك؟»

«من المقرَّر أنْ يُحتجَز في المؤسّسةِ الإصلاحيّة في هولواي».

شحبَ لوني عند سماعي ذلك، لأنّ لندن بأسرها كانت تعرف الأحوالَ السائدة في تلك القلعةِ الرهيبةِ الضخمة. قلت: «هولمز، سوف أزورك».

«يؤسفني كثيرًا أنْ أناقض كلامَك، لكنْ لن يُسمح للسيّد هولمز باستقبالِ زوّار إلى أن يكتمل تحقيقي».

لم يبقَ شيء يستطيعُ لستراد أو أستطيعُ أنا فعلَه. لم يحاولْ هولمز أنْ يقاوم، وسمح للشرطي بأن يُنهِضه ويقودَه إلى خارجِ الغرفة، تبعهما هاريمان وتُرِكنا نحن الاثنان وحدَنا.

13

السمّ

غطّت جميعُ الصحف أخبارَ موت سالي ديكسون والمحاكمة التي جرتْ بعد ذلك. وأمامي الآن واحدٌ من تقارير تلك الصحف التي أصبح ورقُها هشًا وباليًا مع مرور الزمن:

ارتُكبت جريمةٌ خطيرة ذاتُ طبيعة مروِّعة قبل ليلتَيْن في ساحة كوبرغيت سكوير القريبة من النهر وحوض الميناء في لايمهاوس. وكان الشرطي بيركنز من فرقة H يقوم بدورية في المنطقة قبل منتصف الليل بقليل عندما سمع إطلاقَ نار فهُرِع إلى مصدر الإشكال، لكنّه وصل متأخِّرًا ولم يتمكّن من إنقاذ الضحية التي كانت فتاةً عمرُها ستّة عشر عامًا تعمل خادمةً في حانة لندنية وتقيم قريبًا من المكان. ويُعتقد أنّها كانت عائدةً إلى مسكنِها عندما التقتْ بصورةٍ غير متوقَّعة قاتلَها الذي كان قد خرج للتوّ من أحدِ أوكار تعاطي الأفيون التي تشتهر بها المنطقة. وعُرِّف هذا الرجل بأنّه السيّد شرلوك هولمز، وهو تحرٍّ استشاريّ، وقد وُضع فورًا رهنَ التوقيف لدى الشرطة. وبالرغم من إنكارِه أيّ معرفةٍ بالجريمة، فقد انبرى عددٌ من الأشخاص المحترمينَ جدًّا إلى الشهادة ضدّه، ومنهم الدكتور توماس أكلاند من مستشفى وستمنستر واللورد هوراس بلاكووتر الذي يمتلك مزرعةً مساحتُها ألف إيكر في هالامشير. وقد نُقِل السيّد هولمز في هذه الأثناء إلى المؤسَّسة الإصلاحيّة في هولواي. ومرّةً أخرى تشير هذه الواقعةُ المؤسِفةُ بِرُمَّتها إلى آفةِ

المخدّرات المستشرية في مجتمعِنا وتطعن في استمرار شرعية أوكار الرذيلة هذه التي يمكن تعاطي المخدّرات فيها بلا قيود.

غنيٌّ عن القول إنّ قراءةَ هذا الكلام على مائدةِ الفطور صباحَ يوم الاثنين الذي أعقب توقيف هولمز، كانت مزعجةً إلى أبعد حدّ. وقد تضمَّنَ تقريرُ الصحيفة نواحيَ مشكوكًا جدًّا في صحّتها. وبما أنّ حانةَ ذي باغ أوف نيلز كانت في منطقة لامبت، لماذا افترض المراسلُ أنّ سالي ديكسون كانت ذاهبةً إلى مسكنِها؟ وكانَ مثيرًا للفضول غيابُ أيّ ذكرٍ لانغماسِ اللورد بلاكووتر نفسِه في ممارسات «وكر الرذيلة» هذا.

حلّتْ عطلةُ نهاية الأسبوع ورحلت. يومان لم أستطعْ خلالهما إلّا أنْ أكظمَ غيظي وأنتظرَ الأخبار. كنتُ قد أرسلتُ ثيابًا نظيفة وأطعمة لهولمز في هولواي. لكنّني لم أستطعْ التأكُّدَ ممّا إذا كان قد استلمها فعلًا. ولم أسمعْ شيئًا من مايكروفت بالرغمِ من استحالة أنْ تكون أنباء الصحف قد فاتتْه، علاوةً على قيامي بتوجيهِ رسائلَ متكرِّرة إليه في نادي ديوجينس كلوب. ولم أعلمْ ما إذا كان عليّ أنْ أشعرَ بالغضب أو القلق. من ناحية أخرى، بدا امتناعُه عن الردّ فظًّا، وحتّى وقحًا، وبالرغم من كونِه حذّرنا فعلًا من السير على هذا الدرب الذي اتّبعناه دونَ سواه، فمن المؤكّد أنّه ما كان ليتردّد في استخدامِ نفوذِه نظرًا إلى خطورةِ وضع شقيقه. لكنّني تذكّرتُ في الوقت نفسِه قولَه: «لن يكون هناك ما استطيعُ فعلَه لمساعدتك» – وتساءلتُ عن القوّةِ التي يتمتّع بها بيتُ الحرير، كائنًا ما يكون، القادرةِ على شلّ قدرة رجلٍ يصل نفوذه إلى الدوائر الداخلية للحكومة.

قرّرتُ الذهابَ إلى النادي سيرًا على قدميّ لأطلبَ مقابلتَه شخصيًا عندما رنّ جرسُ الباب، ثمّ جاءت السيّدة هادسون بعد هُنَيهة لتُدخِلَ امرأةً جميلةً جدًّا حسنةَ الملبس، كاملةَ الزينة تشعّ منها أناقةٌ وجاذبيةٌ لا تكلُّفَ فيهما. كنتُ مستغرقًا في أفكاري إلى درجةِ أنّني احتجتُ إلى لحظاتٍ قليلة لأتعرّفَ إلى السيّدة كاثرين كارستيرز، زوجةِ تاجر الأعمال الفنّية في ويمبلدون الذي أطلقتْ زيارتُه لمكتبنا هذه الأحداثَ المؤسفة. وعندما شاهدتُها، وجدتُ في الواقع صعوبةً في إدراكِ الرابط الهامّ بين الأحداث، أيّ إنّني لم

أفهمْ كيفَ أمكننا انْ نصلَ إلى هذا المأزق الراهن كنتيجةٍ لأفعال عصابةٍ من المجرمين الإيرلنديين في مدينةٍ أميركية ولتدمير أربع لوحاتٍ لمناظرَ طبيعية بريشة جون كونستابل ولمعركةٍ بالأسلحةِ النارية مع فريقٍ أمنيّ من عملاء وكالة بنكرتون. كان هنا تناقضٌ ظاهرٌ بالتأكيد، فمن ناحية، كان العثورُ على الرجل القتيل في فندق السيّدة أولدمور السببَ في كلّ ما حدث، لكنْ بدا من ناحيةٍ ثانية أنّه لم تكنْ لمقتلِ الرجل أيُّ علاقة بما حدث. وربّما كانت ذهنيةُ الكاتب في داخلي هي التي برزت في الواجهة، لكنْ كان من الممكن أيضًا أنْ أقول إنّ روايتَيْن من رواياتي تداخلتا في ما بينهما بشكلٍ و آخر بحيثُ أصبحت شخصياتُ إحداهما تظهر بصورةٍ غير متوقَّعة في الرواية الأخرى. كان إحساسي بالتشوُّش قد بلغ هذا المدى عند رؤيتي السيّدة كارستيرز. كانت هناك، واقفةً أمامي عندما أجهشتْ في البكاء فيما كنتُ أحدِّق إليها ببساطة كأحمق.

هَبَبْتُ واقفًا، وقلتُ بانفعال: «السيّدة كارستيرز العزيزة، أرجوكِ أنْ لا تستسلمي للحزن. إجلسي من فضلك. هل أُحضِر لك كأسًا من الماء؟»

لم تكن قادرةً على الكلام. قُدتُها إلى مقعد، وأخرجت هي منديلًا واستعملتْه لتجفيف عينَيْها برفق. سكبتُ لها بعضَ الماء وحملتُ الكأس إليها لكنّها رفضتْه بإشارةٍ من يدها. وأخيرًا، قالت بصوتٍ خفيض: «دكتور واطسون، أرجو أنْ تغفر لي حضوري إلى هنا».

«لا داعيَ لذلك على الإطلاق. أنا سعيد جدًّا برؤيتك. عندما دخلتِ كنتُ منشغلًا. لكنّني أستطيع أنْ أؤكّد لك أنّك تحظين بكامل انتباهي. هل وَصَلتْكِ أنباءٌ جديدة من ريدجواي هول؟»

«أجل. أنباءٌ رهيبة. لكنْ هل السيّد هولمز في الخارج؟»

«أنت لم تسمعي الأخبار؟ ألم تشاهدي إحدى الصحف؟»

هزّتْ رأسَها. «أنا لا أهتمّ بالأخبار وزوجي لا يشجّعني على ذلك».

فكّرتُ في إطلاعها على المقال الذي كنتُ أقرأه للتوّ، لكنّني قرّرتُ الامتناعَ عن ذلك. قلتُ لها: «أخشى أنّ السيّد شرلوك هولمز غائبٌ عن السمع حاليًّا، والأرجح أنْ يبقى كذلك لفترة من الزمن».

«الأملُ مفقودٌ إذًا. ليس هناكَ شخصٌ آخر ألجأ إليه». أحنتْ رأسَها، وتابعتْ قائلة: «إدموند لا يعلم أنّني جئتُ إلى هنا. وقد نصحني بإلحاح في الواقع بعدم المجيء. لكنّني أقسِمُ لك، يا دكتور واطسون، إنّني سأصابُ بالجنون. أما من نهايةٍ لهذا الكابوس الذي جاء فجأةً ليدمِّرَ حياتَنا جميعًا؟»

بدأتْ تنتحبُ من جديد، وجلستُ أنا عاجزًا عن فعل أيّ شيء إلى أنْ جفّت دموعُها في آخر الأمر. قلتُ لها بنبرةٍ مشجِّعة: «قد يكون من المفيد أنْ تخبريني ما الذي جاء بك إلى هنا».

«سأخبرك. لكنْ هل تستطيعُ مساعدتي؟» انفرجت أساريرُ وجهها فجأةً، وأضافتْ: «بالطبع، فأنتَ طبيب! لقد راجعَنا أطباء بالفعل. شَهِد المنزلُ أطباءَ داخلين وخارجين. لكنّك قد تكون مختلفًا. سوف تتفهّم».

«هل زوجُك مريض؟»

«ليس زوجي المريض. أختُ زوجي إليزا هي المريضة. هل تذكرها؟ عندما التقيْتُماها لأوّل مرّة كانت تشكو فعلًا من نوباتٍ صداع وأوجاعٍ متنوّعة، لكنّ حالتَها ساءت فجأةً منذ ذلك الحين. ويعتقد إدموند الآن أنّها قد تكون مشرفةً على الموت ولا يوجد شيءٌ يمكن لأيِّ شخصٍ أنْ يفعلَه».

«ما الذي جعلَك تظنّين أنّك قد تجدين مساعدةً هنا؟»

اعتدلتْ السيّدة كارستيرز في مقعدِها ومسحتْ عينَيْها، واستشعرتُ فجأةً قوّتَها النفسيّة التي سبق لي أنْ لاحظتُها عندما التقينا أوّلَ مرّة. قالت: «ليست هناك مودّةٌ ضائعة بين شقيقة زوجي وبيني أنا، ولن أتظاهرَ بعكس ذلك. فمنذُ البداية، اعتبرتْني امرأةً مغامِرة أمدّ مخالبي لإيقاع أخيها في شراكي عندما كانت حالتُه النفسيّة في أدنى حضيضها، وصائدةَ ثروات لا تخطّطُ إلّا للانتفاع من ثروته. لننسَ حقيقةَ أنّني أتيتُ إلى هذا البلد ومعي مالٌ وفيرٌ يخصُّني أنا. لننسَ أنّني كنتُ أنا من اعتنى بإدموند على متن السفينة كاتالونيا إلى أن استعاد صحّته. كان من المحتَّم لها ولأُمِّها أن تكرهاني كائنةً من أكون، وهما لم تُعطياني أيّ فرصة أبدًا. لقد كان إدموند دائمًا مَلَكًا لهما – أترى – كان الأخَ الأصغر والابنَ الوفيّ. لم يكن في وسعِهما أبدًا أنْ تحتملا فكرةَ عثورِه على السعادة مع أيّ شخص آخر. وإليزا تلومُني حتّى على موتِ

والدتها. هل يمكنك أنْ تصدّقَ ذلك؟ ما كان حادثًا منزليًا مأساويًا نجم عن انطفاءِ لهبِ مدفأتِها العاملة على الغاز، تحوّل في تفكيرها إلى انتحار مقصود. كما لو أنّ السيّدة المجوز فضّلت الموتَ على رؤيتي أصبِحُ السيّدةَ الجديدةَ في المنزل. الاثنتان مجنونتان بشكلٍ ما، وأنا لا أتجرأ على قول ذلك لإدموند، لكنّ هذه هي الحقيقة. لماذا لم تستطعِ المرأتان أبدًا أنْ تتقبّلا حقيقةَ أنّه يحبّني وأنْ تفرحا من أجلنا نحن الاثنين؟»

«وهذا المرض الجديد...؟»

«تعتقد إليزا أنّه يجري تسميمُها. والأسوأ من ذلك أنّها تُصرّ على أنّني المسؤولةُ عن ذلك. لا تسألْني كيف توصّلتُ إلى هذا الاستنتاج. إنّه الجنون – أقولُ لك».

«هل يعلمُ زوجُك بهذا الأمر؟»

«إنّه يعلم طبعًا. لقد اتّهمتني أثناءَ وجودي معهما في الغرفة. إدموند المسكين! لم أرَه أبدًا مشوّشًا كما في ذلك الوقت. لم يعرفْ كيفَ يجيب. فمن يدري ما كان سيحدث لحالتِها العقلية لو وقف إلى جانبي ضدّها؟ كان حائرًا متعذّبًا، لكنْ ما إنْ أصبحنا وحدَنا حتّى هُرِع إلى جانبي وتوسّل سماحي. إنّ إليزا مريضة، لا ريبَ في ذلك، ويرى إدموند أنّ أوهامَها جزءٌ من مرضها، ومن المحتملِ جدًّا أنْ يكون مُحِقًّا. ومع ذلك، أصبحَ الوضعُ غيرَ قابلٍ للاحتمال بالنسبة إليّ. وأصبح طعامُها يُحضَر الآن بشكلٍ منفصل في المطبخ ويُحمَل إليها مباشرةً في غرفتِها من قبل كيربي الذي يحرص على أنْ لا يغيبَ هذا الطعامُ أبدًا عن ناظرَيه ويشاركها إدموند الأكل من ذات الطبق بالفعل متظاهرًا بالتعاطفِ معها، لكنّ تصرُّفَه لا يعدو كونه تشبُّهًا بذائقي الطعام في روما القديمة لتأكيد خلوّه من السمّ. ربّما ينبغي أنْ أكونَ ممتنّةً، فقد مضى الآن أسبوعٌ وهو يأكلُ كلّ ما تأكلُه هي، وهو في صحّة ممتازة بينما تزداد هي مرضًا كلّ يوم. ولو كنتُ أُضيفُ سمًّا قاتلًا إلى طعامها لكانَ لغزًا كاملًا لماذا لا تتأثّر به إلّا هي وحدَها».

«ما هو السببُ الذي يعتقد الأطبّاءُ أنّه يصيبها بالاعتلال؟»

«جميعُهم في حيرة. في بادئ الأمر، ظنّوا أنّه مرضُ السكّري، وبعد ذلك تسمُّم الدم. والآن يخشون الأسوأ ويعالجونها من مرض الكوليرا». أسدلتُ

رأسَها، وعندما رفعتْه ثانيةً كانت عيناها غارقتَيْن بالدموع. قالت: «سأخبرك أمرًا رهيبًا، يا دكتور واطسون. إنّ جزءًا منّي يريد لها أنْ تموت. لم تخطر لي مثلُ هذه الفكرة أبدًا بالنسبة إلى أيّ إنسان، ولا حتّى بالنسبة إلى زوجي الأوّل عندما كان في أسوأ حالات ثمالته وعنفه. لكنّني أجد نفسي، في بعض الأحيان، أفكّر أنّه لو رحلتْ إليزا لتركِنا، إدموند وأنا، نعيشُ في سلام. إنّها مصمّمةٌ على التفريق بيننا».

سألتُها: «هل تريدين أنْ آتي معك إلى ويمبلدون؟»

لمعتْ عيناها، وقالت: «هل تفعلُ ذلك؟ لم يُرِدْ إدموند أنْ أرى شرلوك هولمز، وكان لذلك سببان. فبالنسبة إليه، انتهى تعاملُه مع زميلك لأنّ الرجلَ الذي جاء من بوسطن وتعقّبَه مات وبدا أنّه لم يعد هناك ما يجب القيام به بعد ذلك. كما خشي أنّ إليزا لن تزدادَ إلّا اقتناعًا بأنّها محقّةٌ إذا أحضرنا تحرّيًا إلى المنزل».

«في المقابل بل فكّرتِ أنت...؟»

«أمِلتُ أنْ يُثبتَ السيّد هولمز براءتي».

قلتُ: «سيُسعدني أنْ أرافقكِ إذا كان ذلك يساعد على تهدئة بالك. لكنّ عليّ أنْ أنبّهك إلى أنّني طبيبٌ عامٌّ فقط وإلى أنّ خبرتي محدودة، غير أنّ تعاوني مع شرلوك هولمز أعطاني القدرةَ على رؤيةِ الأشياءِ الخارجة عن المألوف، ومن المحتمل أنْ ألاحظَ شيئًا فاتَ مستشاريكِ الآخرين».

«هل أنتَ متأكّد، يا دكتور واطسون؟ سأكونُ ممتنّةً لك إلى أبعد حدّ. وما زلتُ أشعر أحيانًا بأنّني غريبةٌ تمامًا في هذا البلد إلى درجةِ أنّني أعتبرُ وقوفَ أيّ إنسان إلى جانبي نعمةً كبيرةً».

خرجنا من المنزل معًا. لم أكنْ راغبًا على الإطلاق في مغادرة شارع بيكر ستريت، لكنْ كان في وسعي أنْ أرى أنّ لا فائدةَ تُرجى من بقائي جالسًا هناك وحدي. وبالرغم من أنّ لستراد كان ينشط لمساعدتي، فإنّني لم أحصلْ حتّى ذلك الوقت على إذنٍ لزيارةِ هولمز في هولواي. كما أنّ مايكروفت لن يصلَ إلى نادي ديوجينس كلوب حتّى بعد الظهر. وبالرغم ممّا قالتْه السيّدة كارستيرز، فإنّ لغزَ الرجلِ صاحبِ القلنسوة المسطّحة كان لا يزال بعيدًا تمامًا

عنِ الحلّ. وسيكونُ مثيرًا للاهتمام أنْ أرى إدموند كارستيرز وشقيقتَه مرّةً أخرى. وبالرغم من إدراكي أنّني لستُ بديلًا كفؤًا لهولمز نفسِه، يظلُّ من المحتمل أنْ أرى أو أسمعَ شيئًا قد يُلقي بعضَ الضوء على ما يجري ويُسرِّعُ الإفراجَ عن صديقي.

لم يكن كارستيرز مسرورًا برؤيتي في بادئ الأمر عندما قدّمتُ نفسي في بهوِ منزله المزدان بقطعٍ فنيةٍ أنيقة وساعةٍ تدقّ بنعومة. كان على وشكِ المغادرة لتناولِ غدائه مرتديًا ملابسَه المنتقاةَ بعنايةٍ فائقة والمكوّنة من سترةِ فراك وربطةِ عنق رمادية من الساتان وحذاءٍ فائق اللمعان. كانت قبّعتُه الرسميةُ العالية وعصاه موضوعتَيْن على طاولةٍ قرب الباب. قال مندهشًا: «دكتور واطسون!». استدار نحو زوجته قائلًا: «ظننتُ أنّنا اتّفقنا على عدم اللجوءِ إلى خدماتِ شرلوك هولمز».

قلتُ: «أنا لستُ شرلوك هولمز».

«أنتَ لستَ هولمز في الواقع. كنتُ أقرأ لتوّي في الصحيفة أنّ السيّد هولمز تورّط في أمورٍ مزرية إلى أبعد حدّ».

«لقد حدثَ له ذلك وهو يلاحقُ القضية التي حملتَها أنتَ إلى بابه».

«وهي قضيةٌ حُلّت في هذه الأثناء».

«إنّه لا يعتقد ذلك».

«أنا أخالفُ هذا الرأي إنْ لم تمانع».

تدخّلت السيّدة كارستيرز في الحديث، وقالت: «تعالَ، يا إدموند. لقد تكرّم الدكتور واطسون وأتى معي كلَّ المسافةِ من لندن، وقد وافق على رؤيةِ إليزا وإفادتِنا برأيه».

«لقد سبقَ لعدّةِ أطبّاء أنْ فحصوا إليزا».

تأبّطتْ ذراعَه، وقالت: «ولن يضرّنا سماعُ رأيٍ إضافيّ. ليست لديكَ أيُّ فكرة عمّا عانيتُه خلالَ الأيّام القليلة الماضية. أرجوك يا عزيزي، اسمحْ له برؤيتها، وقد ينفعُها ذلك، حتّى إذا اقتصرَ الأمرُ على وجودِ شخصٍ آخر تستطيعُ الشكوى إليه».

ليّن كارستيرز موقفَه، وربّت على يدها قائلًا: «لا بأس، لكنْ لن تمكنَ رؤيتُها إلّا بعد فترةٍ من الوقت. شقيقتي نهضتْ متأخّرةً صباح اليوم وسمعتُها

تملأ مغطسَ الحمّام. إنّ إلزي معها الآن وهي لن تكونَ جاهزةً قبل ثلاثين دقيقةً على الأقلّ».

قلت: «يسرّني أنْ أنتظر، لكنّني سأستغِلُّ الوقتَ لتفحُّص المطبخ إذا سمحت. وإذا كانت شقيقتك تواصلُ الظنَّ أنّ طعامَها يتعرّض للعبث، فقد يكونُ من المفيد رؤيةُ المكان الذي يُحضَّر فيه».

«بالطبع، يا دكتور واطسون. وأرجوك أنْ تغفرَ لي فظاظتي قبل قليل. إنّني أتمنّى كلَّ الخير للسيّد هولمز. وقد سعدتُ برؤيتك، لكنّ الإشكالَ كلّه هو أنّ هذا الكابوسَ لا ينتهي أبدًا كما يبدو. أوّلًا بوسطن، ثمّ والدتي المسكينة، وتلك المسألة في الفندق، والآن إليزا. في الأمسِ فقط اشتريْتُ لوحة غواش من مدرسة روبنز تُعتبر دراسةً ممتازة للنبي موسى عند البحر الأحمر. لكنّني أتساءل الآن ما إذا كنتُ مبتليًا بلعناتٍ رهيبة كتلك التي حلّت بالفراعنة».

هبطْنا إلى الطابق السفلي ودخلنا إلى مطبخٍ واسع حسنِ التهوئة مملوءٍ بالقدور والمقالي وألواحِ التقطيع والطناجر نافثةِ البخار إلى درجةِ الإيحاء بكثرةِ الانشغال بالرغم من أنّنا لم نشاهدْ نشاطًا يُذكر. كانَ في المطبخ ثلاثةُ أشخاص تعرّفتُ إلى واحدٍ منهم هو الخادم كيربي الذي استقبلَنا في ريدجواي هول في زيارتنا الأولى. كان جالسًا إلى الطاولة يدهنُ بعضَ الخبز بالزبدة لغدائه. ووقفتْ قربَ الموقد امرأةٌ قصيرةٌ ممتلئةُ الجسم كستنائيةُ الشعر وهي تحرّك حساءً من لحمِ البقر والخُضَر عبقَ برائحتِه هواءُ المطبخ. وكان الشخصُ الثالث رجلًا شابًّا ماكرَ الهيئة جالسًا في إحدى الزوايا يلمّع فضّية المائدة. وبالرغم من أنّ كيربي هبّ واقفًا على قدميْه فورَ دخولنا إلى المطبخ، لاحظتُ أنّ الرجل الشاب بقي جالسًا في مكانه ونظر إلينا فوقَ كتفِه وكأنّنا دُخَلاء لا يحقّ لنا انْ نزعجَه. كان له شعرٌ طويلٌ أصفرُ اللون ووجهٌ فيه لمحةُ أنوثة. وقدّرتُ عمرَه بحوالى ثمانية عشر أو تسعة عشر عامًا. وتذكّرتُ أنّ كارستيرز أبلغَنا، هولمز وأنا، أنّ لزوجةِ كيربي نسيبًا يُدعى باتريك يعمل في الطابق السفلي، وافترضتُ أنّه هذا الشابُ بالتأكيد.

قدّمني كارستيرز قائلًا: «هذا الدكتور واطسون الذي يحاولُ تحديدَ سببِ مرضِ شقيقتي، وقد تكونُ لديه اسئلةٌ يودّ طرحَها عليكم، وسيسرّني أنْ تجيبوا عنها بأمانه قدرَ استطاعتكم».

وبالرغمِ من كوني مَن طَلَبَ دخولَ المطبخ، لم أكن متأكّدًا في الواقع ممّا سأقوله. لكنّني بدأتُ بالطبّاخة التي بدت أكثرَ الثلاثة انفتاحًا. سألتُها: «أنتِ السيّدة كيربي؟»

«أجل، يا سيّدي».

«وأنتِ تُعِدّين كلّ الطعام؟»

«كلُّ شيء يُعَدّ في هذا المطبخ يا سيّدي، من قبلي وقبل زوجي. باتريك ينظّف البطاطا ويساعد على غسل الأطباق عندما يروقُ له ذلك. لكنّ كلَّ الطعام يمرّ عبرَ يديّ. وإذا كان هناك ما يُسمِّم في هذا المنزل فلن تعثر عليه هنا، يا دكتور واطسون. إنّ مطبخي نظيفٌ تمامًا، يا سيّدي. إنّنا نفركُه بكربولات الليمون مرّةً كلّ شهر. وفي وسعِك أنْ تدخلَ إلى غرفة المؤونة إذا شئت. كلُّ شيء موجودٌ في مكانِه وهناك الكثيرُ من الهواءِ النقيّ. إنّنا نشتري الموادَّ الغذائية محلّيًا ولا يدخل عبرَ هذا الباب أيُّ شيء غير طازج».

قال كيربي متمتمًا وهو ينظر إلى سيّد المنزل: «أستميحك عذرًا يا سيّدي. الطعامُ ليس سبب مرض الآنسة كارستيرز. أنتَ والسيّدة كارستيرز لم تتناولا طعامًا مختلفًا عمّا تأكله هي، وكلاكُما بخير».

قالت السيّدة كيربي: «إنْ سألتموني فأنا أظنّ أنّ أمرًا غريبًا قد حلّ في هذا المنزل».

سألتْها السيّدة كارستيرز: «ماذا تقصدين بذلك، يا مارغاريت؟»

«لا أدري، يا سيّدتي. أنا لا أقصد شيئًا بقولي هذا. لكنّنا جميعًا قلقون أشدّ القلق بسبب الآنسة كارستيرز المسكينة، إذ يبدو وكأنّ هناك شيئًا غيرَ سويّ يحيط بهذا المكان، لكنْ مهما يكن هذا الشيء فإنّ ضميري مرتاح وأنا أفضّل أنْ أوضّبَ حقائبي وأرحلَ غدًا إذا قال أيُّ شخص عكس ذلك».

«لا أحدَ يلومك، يا سيّدة كيربي».

«لكنّها محقّةٌ مع ذلك. هناكَ أمرٌ غيرُ سويّ في هذا المنزل». كانَ هذا ما قالَه صبيُّ المطبخ الذي تكلّم للمرّة الأولى. وقد ذكّرتْني لكنتُه بأنّ كارستيرز أبلغَنا أنّه من إيرلندا.

سألتُه: «إسمُك باتريك، أليس كذلك؟»

«هذا صحيحٌ، يا سيّدي».

«ومن أين أنت؟»

«من بلفاست، يا سيّدي».

من الأكيد أنّ الأمر كان مجرّدَ مصادفة لا أكثر، لكنّ روورك وكيلان أودوناهيو كانا من بلفاست أيضًا. سألتُه: «كم من الزمن مضى على وجودك هنا، يا باتريك؟»

«لم يمضِ على وجودي هنا زمنٌ طويل، يا سيّدي، لكنّهم أشعروني بأنّني مُرَحَّب بي جدًّا». ثمّ اصطنع الفتى ابتسامةً ماكرة وكأنّها لنكتةٍ خاصّة به.

لم يكن الأمرُ يعنيني، لكنّ كلَّ شيء في سلوكه، كطريقةِ جلوسه متهدّلًا على الكرسي وحتّى أسلوبه في الكلام، لَفَتَني كقلّةِ احترام متعمَّدة. وقد أدهشني أنّ كارستيرز كان يسمح له بالتمادي في حين كانت زوجتُه أقلّ تساهلًا.

قالت: «كيف تتجرّأ على مخاطبتنا بهذه الطريقة، يا باتريك. إذا كنتَ تلمّح إلى شيء ما، فعليك أنْ تقولَه صراحةً. وإذا كنتَ غير سعيد هنا، فيجدر بك أن ترحل».

«أُحبُّ هذا المكان بما يكفي للبقاءِ فيه وليسَ هناك أيُّ مكان آخر قد أودّ الذهابَ إليه».

«يا لهذه الصفاقة! إدموند، ألنْ تتكلّمَ معه؟»

تردّد كارستيرز، وفي لحظة الصمت القصيرة تلك، سُمِع رنينٌ. والتفت كيربي نحو مجموعةِ أجراس استدعاء الخدم المعلّقة على الجدار المقابل، وقال: «هذا جرسُ الآنسة كارستيرز، يا سيّدي».

قال كارستيرز: «لا بدّ وأنْ تكونَ قد انتهيتُ من الاستحمام. نستطيعُ الصعودَ إليها الآن، إلّا إذا كانت لديك أسئلةٌ أخرى، يا دكتور واطسون؟»

أجبتُ: «لا – لا أسئلة إضافية». كانت الأسئلةُ القليلةُ التي طرحتُها عديمةَ الجدوى، وشعرتُ فجأةً بالقنوط بعد أنْ خطر لي أنّ هولمز، لو تواجد هنا – لكان تمكّنَ الآن من حلِّ هذا اللغز بكاملِه. ماذا كان استنتج عن الخادم الإيرلندي وعلاقتِه مع الآخرين؟ وماذا كان رأى لو جالتْ عيناه في أنحاءِ

الغرفة؟ «أنت ترى، يا واطسون، لكنّك لا تلاحظ». هذا ما قاله لي هولمز مرّات كافية ولم أشعرْ مرّةً من قبل بأنّه محقٌّ في ذلك مثلما شعرتُ الآن. سكّين المطبخ على الطاولة، الحساءُ المبقبق فوق الموقد، طائرا التدرُّج المعلّقان بخطّاف في غرفةِ المؤونة، كيربي يُسدِل ناظرَيْه إلى أسفل، زوجتُه واقفةً ويداها على مئزرِها وباتريك لا يزال مبتسمًا... هل كان من شأنِ هذه الأمور كلّها أنْ تقولَ لهولمز أكثر ممّا قالت لي؟ لا ريبَ في ذلك. دعْ هولمز يرى قطرةَ ماء وسيستنتج وجودَ المحيط الأطلسي. دعني أنا أراها وسأبحث عن حنفية. هذا كان الفارقَ بيننا.

صعدنا الدرج راجعين إلى أعلى حتّى الطابق الأخير. وفيما نحنُ على الدرج التقينا فتاةً يافعة تمشي بسرعة في الاتّجاه الآخر وتحمل طستًا ومنشفتَيْن. كانت هذه إلزي خادمة الغسيل. أبقت رأسها مُسدَلًا إلى أسفل ولم أرَ شيئًا من معالمِ وجهها. مرّتْ قربنا بخفّة وتوارتْ عن الأنظار.

قرع كارستيرز البابَ بلطف، ثمّ دخل إلى غرفةِ نوم شقيقته ليرى ما إذا كانتْ تقبلُ بأنْ أزورَها. انتظرتُ في الخارج مع السيّدة كارستيرز التي قالت لي: «سأتركك هنا، يا دكتور واطسون، لأنّ دخولي لن يُسفِر إلّا عن مفاقمة محنةِ شقيقة زوجي. لكنْ أرجو أنْ تُبلغَني ما إذا كان هناكَ أيُّ شيء تلاحظه له علاقةٌ بمرضها».

«بالتأكيد».

«وأشكرك من جديد على مجيئك معي. إنّني أشعر بارتياح كبير لكونك صديقًا لي».

ابتعدتْ مسرعة في اللحظة التي فَتح فيها كارستيرز البابَ ودعاني إلى الدخول. ولجتُ غرفةَ نوم صغيرةً مترفةَ الفرش ومبنيّةً تحت سقف المنزل ولها نوافذُ صغيرة عليها ستائرُ مسدلةٌ جزئيًا، وفيها نارٌ مشتعلة على منصب المدفأة. ولاحظتُ وجودَ باب ثانٍ يؤدي إلى حمامٍ ملاصق للغرفة وتنسّمْتُ أملاحَ الحمّام المستخرَجةَ من الخزامى التي ملأ أريجُها هواء الغرفة. كانت إليزا كارستيرز ممدّدة في سريرها وظهرُها مستندٌ إلى وسادات وقد التفّتْ بوشاح. استطعتُ أنْ أرى فورًا أنّ صحّتها تدهورتْ بسرعة منذُ زيارتي الأخيرة.

بدتْ عليها أماراتُ الذبول والإنهاك التي كثيرًا ما لاحظتُها على مرضاي ذوي الحالاتِ الأكثرَ خطورة. كانت عيناها جاحظتَيْن بصورة مثيرة للشفقة فوقَ الحوافّ الحادّة التي تحوّلت إليها عظامُ وجنتَيْها. كانت قد مشّطت شعرَها لكنّه ظلّ مشعّثًا متراميًا حول كتفَيْها. وكانت يداها المسترخيتان أمامها على ملاءة السرير أشبه امرأةٍ ميّتة.

رحّبتْ بي بصوتٍ أجشّ صادر من حلقها: «دكتور واطسون لماذا أتيتَ لزيارتي؟»

أجبتُها: «زوجةُ شقيقِك طلبتْ منّي الحضورَ، يا آنسة كارستيرز».

«زوجةُ شقيقي تريدُ لي الموت».

«هذا ليس الانطباعَ الذي أعطتْه. هل تسمحين لي بأخذِ نبضك؟»

«تستطيعُ أنْ تأخذَ ما تريد. لم يعدْ لديّ شيءٌ أعطيه. وعندما أرحل عن هذه الدنيا، صدّقني أنّ إدموند سيكونُ الراحلَ التالي».

قال شقيقُها مؤنّبًا: «اصمتي إليزا! لا تتفوّهي بكلام من هذا النوع».

أمسكتُ برسغِها لأجسّ نبضَ قلبها الذي كان يدقّ بسرعة أعلى كثيرًا ممّا ينبغي، فيما كان جسمُها يحاول التغلّبَ على المرض. كانت بشرتُها مشوبةً بزُرقةٍ خفيفة جعلتْني هي والأعراضُ الأخرى التي أُبلِغتُ بها أتساءلُ ما إذا كان أطبّاؤها أصابوا ربّما في اعتبارِهم الكوليرا سببَ اعتلالِها. سألتُها: «هل تعانين ألمًا في البطن؟»

«نعم».

«وآلامًا في المفاصل؟»

«أستطيعُ أنْ أشعرَ بعظامي تتعفّن».

«لديك أطبّاء يعالجونك، ما هي الأدوية التي وصفوها لك؟»

أجاب كارستيرز: «شقيقتي تأخذُ دواءَ لودانوم».

«هل تأكلين؟»

«الطعامُ هو الذي يقتلني».

«يجب أنْ تحاولي تناولَ طعامك، يا آنسة كارستيرز. إنّ تجويعَ نفسِك سيؤدّي فقط إلى إضعافِك أكثر فأكثر». تركتُ رسغَها وقلت: «ليس هناك إلّا

نصحٌ قليل أستطيعُ إضافتَه قد يكون من الأفضل فتحُ النوافذ للسماح بتجدُّد الهواء. وللنظافةِ طبعًا الأهميّةُ القصوى».

«أنا أستحمّ كلّ يوم».

«قد يفيدك تبديلُ ملابسك وبياضاتِ سريرك كلّ يوم أيضًا. لكنْ يجب أنْ تأكلي، وهذا أهمّ من أيّ شيء آخر. لقد زرتُ المطبخ ورأيتُ أنّ وجباتِك تُحضَّر بشكل جيّد، وليس هناك ما تخشينه».

«أنا أتعرّض للتسميم».

عقّب كارستيرز على ذلك قائلًا بصوتٍ عالٍ: «إذا كنتِ تُسمَّمين فأنا أُسمَّم أيضًا. أرجوك، يا إليزا، لماذا لا تتعقّلين؟»

استلقت المرأةُ المريضة من جديد وأغمضتْ عينيها، وقالتْ: «أنا مُتعَبة. أشكرك على زيارتك يا دكتور واطسون. فتحُ النوافذ وتبديلُ بياضات السرير! أستطيعُ أنْ أرى أنّك بلغتَ الذروةَ في مهنتك!».

رافقني كارستيرز إلى خارجِ الغرفة، وكنتُ في الحقيقة سعيدًا بالمغادرة. كانت إليزا كارستيرز وقحةً ومستهزئة في لقائِنا الأوّل معها، ولم يُسفرْ مرضُها إلّا عن مفاقمةِ هاتَيْن الخصلتَيْن في سلوكها. وقبل أنْ نفترقَ عند الباب الأمامي، قال لي كارستيرز: «شكرًا على زيارتك، يا دكتور واطسون. أنا أتفهّمُ العواملَ التي دفعتْ زوجتي العزيزة كاثرين إلى طرقِ بابك، وأرجو من كلّ قلبي أنْ يتمكّن السيّد هولمز من تخليص نفسه من المصاعب التي يعانيها الآن».

تصافحنا، وكنت على وشك الرحيل عندما تذكّرتُ أمرًا، فقلتُ له: «ما زال لديّ سؤالٌ واحدٌ فقط، يا سيّد كارستيرز. هل تُحسِن زوجتُك السباحة؟»

«أنا آسف. يا له من سؤال غريب! لماذا تريد أنْ تعرفَ ذلك؟»

«لديّ أساليبي...»

«حسنًا، كاثرين لا تستطيعُ السباحة على الإطلاق. في الواقع، بل إنّها تخشى البحر حقيقةً. وقد قالتْ لي إنّها لن تدخل في الماء في أيّ ظرف من الظروف».

«شكرًا، يا سيّد كارستيرز».

«طاب يومُك، يا دكتور واطسون».

أُغلِق الباب. وتلقّيتُ جوابًا عن السؤال الذي سبق لهولمز أنْ طرحه عليّ. وكلُّ ما بقي عليّ أنْ أعرفَه هو لماذا طرحتُ أنا هذا السؤال».

14

إلى الظلمة

كانت رسالةٌ قصيرةٌ من مايكروفت في انتظاري عند عودتي. أبلغني أنّه سيكونُ في نادي ديوجينس كلوب ذلك المساء، وسيُسعِده أنْ يلقاني إذا أردتُ زيارته في حدود هذا الوقت. كنتُ منهكًا تمامًا تقريبًا من رحلةِ الذهاب إلى ويمبلدون والعودة منها، بالإضافة إلى النشاط الذي قمتُ به في الأيّام الماضية... ولم يكن في استطاعتي أبدًا أنْ أُبالغَ في إجهادِ نفسي بدون أنْ تستيقظَ في ذاكرتي الجروحُ التي أُصِبتُ بها في أفغانستان. بالرغم من ذلك، قرّرتُ الخروجَ مرّةً أخرى بعد استراحةٍ قصيرة لأنّني كنتُ أعي بعمقٍ، العذابَ الذي يعانيه هولمز بالتأكيد بينما أتمتّع أنا بحرّيتي. وكان هذا الواقع أهمَّ من أيّ اعتبارٍ آخر يتعلّق برفاهي. وقد لا يمنحني مايكروفت فرصةً ثانيةً لزيارته لأنّ مزاجيّته كانت بحجم بدانته، وهو يتنقّل كشبح متضخّم عبرَ أروقةِ النفوذ. وجدتُ أنّ السيّدة هادسون أعدّت لي غداءً متأخّرًا تناولتُه قبل أنْ يغلبَني النوم وأنا في مقعدي. وكانت السماء قد بدأت تُظلم عندما خرجتُ وأخذتُ عربةً للعودةَ إلى شارع بِل مِل.

قابلني مايكروفت من جديد في غرفةِ الغرباء، لكنّ أسلوبَه، في هذه المرّة، كان مقتضبًا ورسميًا أكثر ممّا كان عندما زرتُه هناك برفقةِ هولمز. بدأ مباشرةً بدون مجاملات: «هذه قضيةٌ سيّئة. قضيّةٌ سيّئة جدًّا. لماذا طلبَ شقيقي نصيحتي إذا لم يكن مستعدًّا لقبولها؟»

أجبتُه: «أعتقد أنّه كان يحتاج إلى معلوماتٍ منك وليس إلى نصيحة».

«نقطةٌ معقولة. لكنْ بالنظر إلى أنّني تمكّنتُ من إعطائه النصيحةَ وليس المعلومات، فقد كان حريًّا به أنْ يستمعَ إلى ما قلتُه. أبلغتُه أنّ لا خيرَ سينتجُ من المتابعة – لكنّ هذه هي طباعُه، حتّى عندما كان صغيرًا جدًّا. إنّه متهوّر، وكانت والدتُنا تقول الشيءَ ذاتَه وتتخوّفُ دائمًا من أنّه سيوقِعُ نفسَه في متاعب. ولو قُدِّر لها أن تعيش لتراه وقد أصبح تحرّيًا محترمًا لابتسمتْ جذلًا!»

«هل تستطيعُ أنْ تساعدَه؟»

«أنتَ تعرف مُسبَقًا الجوابَ عن هذا السؤال، يا دكتور واطسون، لأنّني نبّهتُكما في آخر اجتماع لنا. ليسَ هناك ما أستطيعُ فعلَه».

«ألا تمانع في رؤيته يُعدَم شنقًا بتهمة القتل؟»

«لن يحدثَ ذلك. لا يمكن أن تصلَ الأمور إلى هذا المدى، وقد بدأتُ العملَ فعلًا خلفَ الكواليس، وبالرغم من أنّني أصطدمُ بقدرٍ مفاجئ من التدخُّلات والتشويش، فإنّ شرلوك معروفٌ جدًّا لدى أناس هامّينَ كثيرين جدًّا بحيث ينتفي هذا الاحتمال».

«إنّه مُحتجَزٌ في هولواي».

«هذا ما بلغني. وقد عرفتُ أيضًا أنّه يلقى عنايةً جيّدة – على الأقلّ بقدر ما تسمح به ظروف ذلك المكان الكئيب».

«ماذا تستطيعُ أنْ تخبرني عن المفتّش هاريمان؟»

«إنّه ضابطُ شرطة جيّد، رجلٌ نزيه لا تشوّهُ سِجلَّه أيّ نقيصة».

«ماذا تقول عن الشهود الآخرين؟»

أغمض مايكروفت عينَيْه، ورفع رأسَه وكأنّه يتذوّق نبيذًا فاخرًا. بهذه الطريقة، كان يُتيح لنفسِه فسحةً للتفكير. قال بعد تلكُّؤ: «أعرفُ ما تلمّح إليه، يا دكتور واطسون. عليكَ أنْ تصدّقني عندما أقول إنّني ما زلتُ مكرّسًا نفسي تمامًا لكلّ ما فيه مصلحة شرلوك وأعمل على استيعاب ما حدث. ولقد أجريتُ بالفعل تحرّياتٍ عن خلفية كلّ من الدكتور توماس أكلاند واللورد هوراس بلاكووتر بكلفةٍ شخصية كبيرة، ويؤسفني أنْ أقول لكَ إنّ سيرتَهما ممتازة حسبما أستطيع أن أرى وإنّهما من عائلتَيْن طيّبتَيْن وعازبان وثريّان.

ولا ينتمي الرجلان إلى النادي نفسه ولم يذهبا إلى المدرسة ذاتها. وقد عاشا معظم سنوات حياتهما متباعدين مئاتِ الأميال. وباستثناء مصادفة وجودهما في منطقة لايمهاوس في الوقت ذاته من تلك الليلة لا يوجد شيءٌ يربط بينهما.

«إلّا إذا كان بيتُ الحرير الرابطَ بينهما».

«بالضبط».

«وأنتَ لن تقولَ لي ما هو».

«لن أقول لك لأنّني لا أعرف. وهذا هو السببُ عينُه الذي جعلني أنبّه شرلوك إلى ضرورة البقاء بعيدًا. وإذا كانت في قلبِ الحكومة عصبةٌ أو جمعيّةٌ كُتِم وجودُها عنّي وتُحاط بهذا القدر من السرّية بحيثُ كفى ذكْرُ اسمِها لأُستدعى فورًا إلى مكاتبَ معيّنة في مقرّ الحكومة البريطانية، فإنّ غريزتي تُملي عليّ عندئذٍ أنْ أستديرَ وأنْ أنظر في الاتّجاه الآخر، لا أنْ أنشر إعلاناتٍ غبيّةً لعينة في الصحافةِ الوطنيّة! لقد قلتُ لشقيقي قدرَ ما استطعت... وربّما أكثرَ ممّا كان ينبغي».

«ماذا سيحدث إذًا؟ هل ستسمح بأنْ يُحاكَم؟»

«لا علاقةَ بالأمر لما أسمحُ به أو لما لا أسمحُ به، وأخشى أنّك تبالغ في تقدير نفوذي». أخرج مايكروفت من جيبِ صدريّته علبةً مصنوعةً من عظم ظهر السلحفاة وتنشّق قليلًا من تبغ الشمّة. ثم تابع كلامَه قائلًا: «أستطيع أنْ أدافعَ عنه، لا أكثر ولا اقلّ. أستطيع أن أتكلّم لمصلحته. وإذا دعت الضرورةُ سأمثُل في المحاكم كشاهد على حُسن أخلاقِه». كانَ من المؤكّد أنّ خيبةَ الأمل بدت جليةً على وجهي. إذ أعاد مايكروفت علبةَ تبغ الشمّة إلى جيبه ونهض على قدمَيه واتّجه نحوي، وقال ناصحًا: «لا تجزعْ، يا دكتور واطسون. إنّ شقيقي رجلٌ واسعُ الحيلة، وقد يفاجئك حتّى في هذه الساعة الأسوأ في حياته».

سألتُه: «هل ستزوره؟»

«لا أظنّ ذلك. من شأن مثل هذه الزيارة أنْ تُحرجَه وأنْ تربكَني بدون أيّ فائدة ملموسة. لكنّ عليكَ أنْ تبلغَه أنّك استشرتَني وأنّني أبذلُ ما في استطاعتي».

«لن يسمحوا لي برؤيته».

«قدِّم طلبًا جديدًا يومَ غد. في آخر الأمر، سيُضطرّون إلى السماح لك بالدخول. ليس لديهم سببٌ لمنعك». مشى مايكروفت معي إلى الباب وقال ملاحظًا: «شقيقي محظوظٌ جدًا بأنْ يكون له حليفٌ مخلص وفي الوقت ذاته كاتبُ سيرة ممتاز مثلُك».

«أرجو أنْ لا أكونَ قد كتبتُ مغامرتَه الأخيرة».

«مع السلامة، يا دكتور واسطون. سيُزعجني أنْ أُضطرَّ إلى التصرُّفِ بفظاظة معك، لذا سأكونُ شاكرًا إذا امتنعتَ عن التواصُل معي من جديد إلّا في الحالات الطارئة الأشدّ سوءًا بالطبع. أتمنّى لك أمسيةً سعيدة».

عدتُ إلى شارع بيكر ستريت منقبضَ القلب لأنّ مايكروفت كان أقلَّ نفعًا حتّى ممّا كنت أتأمّل، وتساءلتُ عن ماهيّة الحالات التي يمكن أنْ يكون قد قصدها إنْ لم تكن الحالةُ الراهنة طارئةً بالفعل. ولعلّه سيتمكّن على الأقلّ من تأمينِ إذنٍ لي بالدخول إلى هولواي فلا يكون مسعاي قد ذهب هباءً بالكامل. غير أنّني كنتُ أعاني صداعًا وشعرتُ بخفقانٍ في ذراعي وكتفي، وعرفتُ أنّني أوشكتُ على استنفادِ قواي. ومع ذلك لم يكنْ نهاري قد وصلَ إلى نهايته بعد، فعندما نزلتُ من العربة ومشيتُ نحو الباب الأمامي الذي كنتُ أعرفه تمام المعرفة، وجدتُ طريقي مسدودًا من قبلِ رجل قصير القامة متينِ البنية أسود الشعر يرتدي معطفًا أسود ظهر فجأةً على الرصيف.

سألني: «الدكتور واطسون؟»

«نعم؟»

كنتُ متلهِّفًا لمتابعة طريقي، لكنّ الرجلَ القصير زرع نفسَه أمامي، وقال: «أتساءلُ ما إذا كان في وسعي أنْ أطلبَ إليك المجيءَ معي، يا دكتور؟»

«بخصوص أيّ موضوع؟»

«بخصوص موضوعٍ يتعلّق بصديقك السيّد شرلوك هولمز. وهل يمكن أنْ يكون هناك موضوع آخر؟»

تفحّصتُه بمزيد من الدقّة، ولم يشجّعني ما رأيت. قدّرتُ من مجرّدِ النظر إليه أنّه قد يكون صاحبَ حرفة، ربّما خياطًا أو حتّى متعهّد جنازات

لأنّ وجهه كان ينطق بمسحةٍ أسًى تكاد تكون مدروسةً بعناية. كان له حاجبان كثّان وشاربٌ متدلٍّ فوق شفته العليا، وقد ارتدى قفّازًا أسود وقبّعةَ بولر مستديرةً سوداء. وتوقّعتُ من طريقةِ وقوفه على بطّتَيْ قدمَيْه أنْ يُخرِجَ شريطَ قياسٍ في أيّ لحظة. لكنْ ليقيس ماذا بخصوصي – بزّةً جديدة أم تابوتًا؟»

سألتُه: «ماذا تعرف عن هولمز؟ ما هي المعلومات التي تملكها ولا تستطيعُ الإفصاحَ عنها هنا؟»

«ليست لديّ أيّةُ معلومات على الإطلاق، يا دكتور واطسون. أنا مجرّد وكيل، مجرّدُ خادم بسيط جدًّا أعمل لدى شخص يمتلك المعلومات، وهو الذي أرسلني إلى هنا لأطلبَ إليك أنْ تذهبَ للقائه».

«الإلتقاء به أين؟ مَن هو؟»

«يؤسفني أنّني لست مخوّلًا قولَ ذلك».

«إذًا، أخشى أنّك تضيعُ وقتَك. أنا لستُ في مزاجٍ للخروج من جديد في هذه الليلة».

«أنتَ لا تفهم، يا سيّدي. إنّ السيّد النبيل الذي أعمل لديه لا يدعوك إلى الحضور. إنّه يطلب حضورَك. وبالرغم من أنّ هذا الأمر يؤلمني، فمن واجبي أنْ أبلغَك أنّه لم يعتدْ أنْ تُرفَض طلباتُه. بل إنّ رفضَ طلبه سيكون خطأً فظيعًا في الواقع. هل لي أنْ أطلبَ إليك أنْ تنظر إلى أسفل، يا سيّدي؟ هناكَ! لا تفزعْ. أؤكّد لك أنّك في أمان. والآن تفضّل بالمجيء معي...».

كنتُ قد خطوتُ إلى الوراء من فرط الدهشة عندما امتثلتُ لطلبه، إذ رأيتُ أنّه يحمل مسدّسًا مصوّبًا إلى معدتي. لم يكن في إمكاني القولُ ما إذا كان قد شَهَر المسدّس أثناء حديثنا أو كان يحمله في يده طول الوقت. لكنْ بدا الأمر وكأنّه قام بحيلة بغيضة من حيل ألعابِ الخفّة ليظهرَ السلاحُ فجأةً في يده. كان مرتاحًا في طريقةِ إمساكه بالمسدّس لأنّ الشخص الذي لم يسبق لهُ إطلاقُ النار من مسدّس يحمل السلاحَ بطريقةٍ مختلفة عن طريقة الشخص الذي استعملَه مرّاتٍ عديدة. وكان من السهل عليّ أنْ أحرز الفئةَ التي ينتمي إليها مهاجمي.

قلتُ له: «أنتَ لن تطلقَ النارَ عليّ في وسط الشارع».

«على النقيض من ذلك، يا دكتور واطسون. تعليماتي تنصّ على أنْ لا أفعلَ ذلك إلّا إذا اخترتُ أنْ تسبّب لي مصاعب. لكنْ دعنا نكون صريحَيْن واحدنا مع الآخر. أنا لا أرغبُ في قتلِك بقدرِ ما أنا متأكّدٌ من أنّك لا ترغب في الموت. قد يفيدُك أنْ تعرفَ – وأنا أعطيكَ كلمةَ شرف على صحّةِ ما أقول – أنّنا لا نقصد إيذاءَك بالرغم من أنّ الأمرَ قد لا يبدو هكذا في هذه اللحظة. ومع ذلك، سيتمُّ تفسيرُ كلّ شيء بعد قليل وستفهم لماذا تُعتبر هذه الاحتياطات ضرورية».

كان له أسلوبٌ خارجٌ عن المألوف في الكلام يجمع في الوقت ذاته بين التذلُّل والتهديد المفرط. أشار إليّ بالمسدّس، ولاحظتُ عربةً سوداء بجوادَيْن تنتظرُنا وفيها الحوذيّ. كانت عربةً ذاتَ أربع عجلات ولها زجاجٌ مُبَرغَل، وتساءلتُ ما إذا كان الرجلُ الذي طلب الاجتماعَ بي جالسًا داخلَها. سرتُ إلى العربة وفتحتُ بابها، فوجدتُها خالية. كان فرشُها الداخلي أنيقًا ومن نوعية راقية. سألت: «كم هي المسافة التي سنقطعها؟ صاحبةُ منزلي تتوقّع عودتي لتناول العشاء».

«ستحصل على عشاءٍ أفضل حيثُ سنذهب. وكلّما بكّرتَ في الركوب كلّما أسرعنا في الانطلاق».

هل كان مستعدًّا حقًّا لإطلاقِ النار عليّ أمام منزلي؟ اعتقدتُ أنّه كان مستعدًّا تمامًا لفعل ذلك، فقد كان عنيدًا بطبعه وشديدَ المراس. في الوقتِ ذاته، إذا صعدتُ إلى العربة، فقد أُخطَف وأختفي من الوجود. لنفترضْ أنّ هذا الرجل أرسَلَهُ الأشخاص نفسهم الذين قتلوا روس وشقيقتَه وتعاملوا بكلّ هذا المكر مع هولمز؟ لاحظتُ أنّ الجدرانَ الداخلية للعربة كانت مبطّنةً بحرير، لم يكن حريرًا أبيض بل رماديٌّ بطيْف اللؤلؤ. وذكّرتُ نفسي في الوقت ذاته أنّ الرجل قال لي إنّه يمثّل شخصًا يمتلك معلومات. ومهما قلّبتُ نظرتي إلى الوضع، بدا لي أنّني لا أملك أيَّ خيار. صعدتُ إلى العربة وتبعني الرجل وأغلقَ الباب. عند ذاكَ، رأيتُ أنّني كنتُ غافلًا في ناحيةٍ واحدة، إذ افترضتُ بدايةً أنّ الزجاج المبرغَل رُكّب لمنعي من النظر إلى داخل العربة، لكنْ أصبح جليًّا أنّ غرضَه الفعليّ هو منعي من النظر إلى الخارج.

ما إنْ صعد الرجلُ إلى العربة وجلس قُبالتي حتّى انطلقنا بعد أنْ حثّ الحوذيُّ بفرقعةِ سوطِه. كلُّ ما استطعتُ رؤيتَه كان الوهجَ العابر لمصابيح

الغاز. وحتّى هذه غابت عن الأنظار بعد أنْ غادرنا المدينة متّجهين شمالًا على حدّ ظنّي. كانت بطانيّةٌ قد وُضِعت على المقعد من أجلي، فجذبتُها فوق ركبتيّ لأنّ البرد أصبح قارسًا جدًّا كما في جميع ليالي شهر كانون الأوّل. لم ينبس مرافقي بكلمةٍ واحدة وبدا كأنّه استسلم للنوم ورأسُه يتمايل إلى الأمام ومسدّسُه مستريحٌ في حضنه. لكنّه انتفض لعلّي أرى شيئًا في المنطقة يكشف لي عن مكانِ وجودي. هزّ رأسَه وكأنّه يؤنّب تلميذًا مشاغبًا، وقال: «حقًّا، يا دكتور واطسون، كنتُ أتوقّع تصرُّفًا أكثر تعقُّلًا منك. لقد بذل سيّدي جهودًا مُعتَبرة ليُخفي عنوانَه عنك، إنّه رجلٌ شديدُ الانزواء، وها أنا أطلب منك أنْ تُبقي يدَيْك حيثُ هما وأنْ تتركَ النوافذ مغلقة».

«كم من الوقت سنواصل السفر؟»

«قدر ما تستغرق الرحلة».

«هل لك اسم؟»

«لي اسم بالفعل، يا سيّدي، لكنّني أخشى أنْ لا يكونَ في استطاعتي إطلاعك عليه».

«وماذا تستطيع أنْ تخبرني عن الرجل الذي تعملُ لحسابه؟»

«أستطيع أنْ أتحدّثَ عن هذا الموضوع طول الطريق حتّى القطب الشماليّ، يا سيّدي. إنّه شخصٌ استثنائيّ، لكنّه لن يرضى أنْ أتحدّثَ عنه. في الإجمال، قلّةُ الكلام أفضلُ لنا».

كادت الرحلةُ تصبح أكثرَ ممّا يُحتمل بالنسبة إليّ، وأظهرتْ ساعتي أنّها مستمرّةٌ منذ ساعتَيْن، لكنْ لم يكن هناك ما يُفصِح لي عن الاتّجاهِ الذي نسير فيه أو المسافةِ التي علينا قطعُها. وخَطَر لي أيضًا أنّ من المحتمل جدًّا أنْ نكونَ ندور وندور في حلقة، فيما يكون مقصدُنا قريبًا جدًّا في الواقع. بدّلَت العربةُ اتّجاهَها مرّةً أو مرّتَيْن وشعرتُ بنفسي أميلُ جانبًا. بدا لي أنّ العجلات كانت تدور فوق أسفلتٍ ناعم معظمَ الوقت، لكنّها كانت ترتجّ بين حين وآخر، فأشعر بأنّنا انتقلنا إلى طريق مرصوفة. وفي مرحلةٍ معيّنة، سمعتُ قطارًا بخاريًّا يعبر فوقنا، أيّ إنّنا كنّا نمرّ تحت جسر. وخلافَ ذلك، شعرتُ بأنّ الظلمةَ المحيطةَ بي ابتلعتني، وفي آخر الأمر غلبني النعاسُ لأنّ

الأمرَ التالي الذي وعيتُه كان توقُّفَنا المباغت وفتْحَ بابِ العربة بيدِ مرافقي الممدودة أمامي.

قال: «سنذهب مباشرةً إلى داخل المنزل، يا دكتور واطسون. هذه هي التعليماتُ التي تلقّيتُها. أرجوك أنْ لا تتلكّأ في الخارج، فهذه ليلةٌ باردة مقيتة. وإذا لم تدخل إلى المنزل مباشرةً، فمن المحتمل أنْ يكونَ في ذلك هلاكُك كما أخشى».

كان كلُّ ما لمحتُه منزلًا ضخمًا كئيبَ المنظر يغطّي نباتُ اللبلاب واجهتَه الأمامية وتطغى الأعشاب البرّية على حديقته. كان من المحتمل أنْ نتواجد في هامبستير أو هامبشير لأنّ الأرض الملحقة بالمنزل كانت محاطةً بأسوار عالية فيها بوابةٌ مزدوجة من الحديد المشغول أُغلِقتْ بعد دخولِنا مباشرةً. ذكّرني المبنى نفسُه بدَيْرٍ ذي نوافذَ محزَّزةِ الجوانب ومزاريبَ حجريّة ناتئة وبرجٍ ممتدٍّ فوق السطح. كانت جميعُ نوافذ الطابق العلوي مظلمة، لكنْ كانت هناك مصابيحُ مُضاءة في بعض غرف الطابق السفلي. وكان هناك بابٌ مفتوح تحت الشرفة، لكنْ لم يتواجدْ أحد للترحيب بي، كما لو أمكن إلصاقُ صفةِ الترحيب بمكان كهذا، حتّى في أبهى أمسيات الصيف المشمسة. هُرِعتُ داخلًا ورفيقُ سفري يحثّني على الإسراع، ثمّ أغلقَ البابَ خلفي بطرقةٍ عالية تردّدت أصداؤها عبر الدهاليز المعتِمة.

قال بعد أنْ تناولَ قنديلًا في يده: «من هنا، يا سيّدي». سرتُ خلفه في رواق مرورًا بنوافذَ من الزجاج الملوّن وجدرانٍ مكسوّةٍ بألواح من خشب السنديان ولوحات داكنة بهتتْ ألوانها إلى درجة أنّني ما كنت لاحظتُها على الأرجح لولا براويزها. وصلنا إلى باب، فقال: «هنا في الداخل، سأُعلِمهُ أنك وصلت. لن يتأخّر عليك. لا تلمسْ أيَّ شيء، لا تذهبْ إلى أيّ مكان. كُنْ متحفِّظًا!». وبعد أنْ تلا عليّ هذه التعليمةَ العجيبة، عاد أدراجه على الدرب الذي أتى منه.

كنتُ في مكتبة ونارُ حطب مشتعلةٌ في مدفأتها الحجرية التي صُفَّت شمعاتٌ على إفريزها. وكانت في وسط الغرفة طاولةٌ مستديرةٌ من خشب داكن اللون وحولها عددٌ من المقاعد. وقد أُضيئت عدّةُ شمعات هنا أيضًا. ضمّت

الغرفةُ نافذتَيْن لكلٍّ منهما ستائر ثقيلةٌ مُسدَلة، ومُدَّت على أرضيّتها العارية سجّادة سميكة. ولا ريبَ في أنّ المكتبة كانت تحتوي على عدّة مئات من المجلّدات وقد ارتفعت رفوفُها مسافةً مُعتَبَرةً من الأرض إلى السقف. وكان هناك سلّم على عجلات يمكن تحريكُه من طرفٍ إلى آخر على امتدادِ الرفوف. أخذتُ شمعةً وتفحّصتُ عددًا من عناوين الكتب. وكائنًا مَن يكون صاحبُ هذا المنزل، فهو يجيدُ اللغاتِ الفرنسيّةَ والألمانيّةَ والإيطاليّة لأنّ هذه اللغاتِ الثلاث احتلّت مكانًا مرموقًا في المكتبة، بالإضافة إلى اللغة الإنكليزيّة. وشملت نواحي اهتماماتِه الفيزياءَ وعلمَ النبات والفلسفة والجيولوجيا والتاريخَ والرياضيّات. لم تكن هناك أعمالٌ روائيّة بقدر ما استطعتُ أنْ أرى. وواقع الأمر أنّ مجموعةَ الكتب المختارة ذكّرتني كثيرًا بتفكير شرلوك هولمز لأنّها بدت متطابقةً بدقّةٍ بالغة مع ميوله. واستطعتُ أنْ أستنتجَ من هندسةِ الغرفة وشكل المدفأة وزخرفة السقف أنّ المنزل لا بدّ وأنْ يكونَ مصمّمًا على الطراز اليعقوبيّ[1]. والتزامًا منّي بالتعليمات التي تلقّيتُها، جلستُ على أحد المقاعد ومددتُ يديّ إلى قرب نار المدفأة شاعرًا بالامتنان لهذا الدفء لأنّ البرد أثناء الرحلة كان بالغَ الشدّة بالرغم من وجود البطانية.

كان للغرفة بابٌ ثانٍ في الجهة المقابلة للباب الذي دخلتُ أنا منه. فُتِحَ هذا البابُ الثاني فجأةً ليظهرَ رجلٌ مفرِطُ الطولِ والنحول إلى درجةِ أنّه بدا غيرَ متناسقِ الحجم مع الإطار المحيط به وأنّه قد يُضطرّ إلى الانحناء ليتمكّن من الدخول. كان يرتدي سروالًا داكنًا وحذاءً منزليًا تركيًا وسترةَ سموكنغ من المخمل. لاحظتُ عندما دخل أنّه يكاد يكون أصلعَ الرأس تمامًا، بجبهةٍ عالية وعينَيْن عميقتَيْن غائرتَيْن في وجهه. كان يتحرّك ببطء وذراعاه الشبيهتان بعصَوَيْن مطويّتان على صدره وملتصقتان معًا كأنّهما تؤمّنان تماسُكَ جسمه. لاحظتُ أنّ المكتبةَ متّصلةٌ بمختبر كيميائيّ هو المكانُ الذي كان الرجلُ منشغلًا فيه بينما كنتُ أنتظر. رأيتُ خلفه منضدةً طويلة امتلأ سطحُها بأنابيب الاختبار والقوارير وزجاجاتِ الحفظ وشُعلات الغاز خافتة

[1] الطراز اليعقوبي كان دارجًا في عصر الملك جيمس الأوّل وشمل العمارة والأثاث بصورة خاصّة (المترجم).

اللهب. وكانت رائحةُ موادّ كيميائيّة قويّة تُشتَمُّ من الرجل نفسِه. وبالرغم من أنّني تساءلتُ عن طبيعة الاختبارات التي يجريها، فقد ظننتُ أنّ من الأفضل عدمَ السؤال.

قال: «دكتور واطسون، عليّ أنْ أعتذر لتركِكَ تنتظر. كانت هناك مسألةٌ دقيقة تطلّبت عنايتي، لكنّني أوصلتُها إلى خاتمة ناجحة. هل قدّموا إليكَ نبيذًا؟ كلّا؟ مهما يكن أندروود كفوءًا في أداءِ واجباته بلا ريب، لا يمكن وصفه بالرجل الأكثر لباقة. ولسوء الحظّ، لا يسعُ المرء في ميدان عملي أنْ ينتقي ويعيّن مَن يشاء. أرجو أنْ يكونَ قد اعتنى بك خلالَ الرحلة الطويلة إلى هذا المكان».

«لم يقلْ لي حتّى اسمَه».

«هذا لا يدهشني بتاتًا. وأنا لا أنوي أنْ أطلعَك على اسمي. لكنّ الوقت تأخّر وأمامَنا عملٌ نقوم به. أرجو أن تتناولَ عشاءك معي».

«ليس من عادتي أنْ أتناولَ العشاء مع رجالٍ يرفضون حتّى أنْ يعرّفوا عن أنفسهم».

«قد لا يكون هذا من عادتك. لكنّني أريد أنْ أطلبَ منك أنْ تفكّر في ما يلي: أيُّ شيء يمكن أنْ يحدثَ لك في هذا المنزل. والقولُ إنّك موجودٌ تحتَ سيطرتي الكاملة له وقعٌ سخيف وميلودرامي، لكنّه صحيح في الظرف الراهن. أنتَ لا تعرف أينَ أنت ولم يشاهدْكَ أحدٌ تأتي إلى هنا. وإذا قُدّرَ لك أنْ لا تغادرَ هذا المكان أبدًا، فلن يعرفَ العالمُ شيئًا عن مصيرك. لذا أقترح عليك أنْ تعتبرَ تناولَ عشاءٍ ممتعٍ معي الخيارَ الأفضلَ من بين الخيارات المفتوحة أمامك. الطعامُ بسيط لكنّ النبيذَ جيّد. المائدةُ جاهزةٌ في غرفةٍ مجاورة. أرجوك أنْ تأتي معي في هذا الاتجاه».

سار أمامي وخرجنا عائدَيْن إلى الرواق، فعبرناه إلى غرفةِ طعام كان من الأكيد أنّها تشغل جناحًا كاملًا تقريبًا من المنزل، توجد في أحدِ طرفَيْها شرفةُ موسيقيّين وفي طرفها الآخر مدفأةُ جدارٍ هائلةُ الحجم. وامتدّت على طول المسافة بين الطرفين طاولةُ طعام جماعيّة تتّسع لثلاثين شخصًا، وكان من السهل تخيُّلُ هذه الطاولة في الأزمنةِ الماضية وقد اجتمع حولها أفرادُ العائلة

والأصدقاء، فيما الموسيقى تصدح وألسنةُ اللهب تتأجّج وطابورٌ لا ينتهي من الأطباق يُحمل إلى المائدة ومنها. لكنّها كانت خاويةً هذه الليلة، ولم يكن مُضاءً إلّا مصباحٌ مُظلّل واحد يلقي نورَه على شرائحَ قليلة من اللحم البارد وبعض الخبز وزجاجة نبيذ. وبدا أنّنا – سيّدَ المنزل وأنا – سنأكل وحدنا مُحاطَيْن بالظلال. جلستُ في مكاني أحسُّ بشعورٍ من الضيق وفقدِ الشهية. جلس هو في مكانه على رأس الطاولة وكتفاه مائلتان إلى الأمام وظهرُه منحنٍ فوق كرسيّ لم يبدُ مصمّمًا لإجلاسِ جسمٍ يُعوِزُه التناسق على غرار جسمِه.

قال مضيفي، وهو يضعُ طعامًا في صحنه: «كثيرًا ما أردتُ الاجتماعَ بك، يا دكتور واطسون. وقد يفاجئك أنْ تعرفَ أنّني من كبار المعجبين بك ولديّ كلُّ رواية كتبتَها».

كان مضيفي قد جلب معه نسخةً من مجلّة كورنهيل ماغازين وفتحها على المائدة، وقال: «لقد انتهيتُ للتوّ من قراءة الرواية المنشورةِ هنا «مغامرة العيدان النحاسيّة» *Adventure of the Copper Beeches*[2] وأظن أنّها كُتِبت بصورة جيّدة جدًّا». وبالرغم من الظروف الغريبة لتلك الأمسية، لم يسعْني إلّا أنْ أشعرَ بقدرٍ معيَّن من الرضا لأنّني كنتُ سعيدًا بشكل خاصّ للخاتمة التي وصلتُ إليها هذه القصّة. تابع مضيفي كلامه قائلًا: «لم يكن مصيرُ الآنسة فيوليت هانتر يهمّني، ومن الواضح أنّ جفرو روكاسل كان شخصًا متوحّشًا من النوع الأسوأ. ومن الجدير بالملاحظة في رأيي أنْ تكونَ الفتاةُ قد اتّسمت بهذا القدر من السذاجة. لكنّ ما أسَرَني إلى أبعد حدّ، كما في كلّ مرّة، كانَ وصفَك لشرلوك هولمز وأساليبه. ومن المؤسف أنّك لم تستعرضِ التفسيرات المنفصلةَ السبعة للجريمة التي ذكرها لك. ولو فعلتَ ذلك لكنتَ أوضحتَ الأمور إلى أقصى حدّ. لكنّك استطعت، بالرغم من ذلك، أنْ تكشفَ للرأي العام الطرقَ التي يعمل بها عقلٌ عظيم، وعلينا جميعًا أنْ نعترفَ بفضلك في ذلك. هل تودّ بعضَ النبيذ؟».

«شكرًا».

[2] Beech = شجر المزان (الزان) الذي تُصنع من أغصانه الرماح (المترجم).

صبّ كأسَيْن، ثم واصلَ كلامَه قائلًا: «من المؤسف أنْ لا يكرّس هولمز نفسَه حصريًّا لهذا النوع من الجنايات، أيّ الجرائم العائلية حيث تكونُ الدوافع تافهة والضحايا لا يُعتَدّ بهم. ورركاسل لم يُعتقل حتّى لدوْرِه في القضية، وذلك بالرغم من أنّه تشوَّه بشدّة.

«بشكل رهيب».

«ربّما كان ذلك عقوبةً كافيةً له. بالنسبة إلى صديقك، إنّه يتجاوز الحدّ، ويصبح مصدرَ إزعاج عندما يحوّل اهتمامَه إلى مؤسّساتِ الأعمال التي ينظّمُها أشخاصٌ من أمثالي. وأخشى أنّ هذا ما فعله بالضبط في الآونة الأخيرة. وإذا واصلَ على هذا المنوال، فسيكون من الضروريّ على الأرجح أنْ نجتمعَ، هو وأنا، وأستطيعُ أنْ أؤكّد لك أنّ اجتماعًا كهذا لن يكون لمصلحته على الإطلاق».

كانت في صوتِه نبرةٌ جعلتني أرتعد. قلتُ له: «أنتَ لم تُخبرْني مَن تكون. هل تشرح لي ماذا تكون؟»

«أنا عالِمُ رياضيّات، يا دكتور واطسون، ولا أمدح نفسي عندما أقول إنّ أبحاثي عن النظريةِ ذاتِ الحدَّيْن تُدرَّس في معظمِ الجامعات الأوروبية. أنا أيضًا شخصٌ من شأنِكَ حتمًا أنْ تصنّفَه كمجرم، بالرغم من أنّه يطيبُ لي أن أعتقدَ أنّني حوّلتُ الجريمةَ إلى عِلْم. أنا أحاول أنْ أتفادى تلويثَ يديّ فأتركُ ذلك لأشخاصٍ من أمثال أندروود. يمكنك أنْ تقولَ عنّي إنّني مفكّرٌ تجريديّ، فالجريمةُ في أنقى صورها عملٌ تجريديّ، مثل الموسيقى. أنا أقود الجوقة وأترك الأداءَ لآخرين».

«وماذا تريد منّي؟ لماذا أحضرتَني إلى هنا؟»

«عدا السرور بلقائك؟ أرغبُ في مساعدتك. والأدقّ من ذلك – ويدهشني أنْ أسمعَ نفسي أقول هذا الكلام – هو أنّني أرغبُ في مساعدةِ السيّد شرلوك هولمز. كان من المؤسف جدًّا أنّه لم يُصغِ إليّ قبل شهرَيْن عندما أرسلتُ إليه هديّةً رمزيّةً معيَّنة كدعوةٍ إليه للنظرِ في مسألةٍ سبَّبَت له الآن كلَّ هذا الأسى. ربّما وجَب عليّ آنذاك أنْ أكونَ أكثر وضوحًا إلى حدٍّ ما».

«ماذا أرسلتَ إليه؟» وكنتُ أعرف الجواب فعلًا عندما سألت.

«قطعةٌ من شريط أبيض».

«هل أنتَ جزءٌ من بيت الحرير؟»

«لا علاقةَ لي به البتّة». كانَ غاضبًا لأوّل مرّة كما بدا من صوته. أضاف قائلًا: «أرجوك أنْ لا تخيّبَ ظنّي فيك باستنتاجاتك السخيفة. وفّرْ هذه الاستنتاجات لكتبك».

«لكنّك تعرف ما هو».

«أنا أعرف كلَّ شيء. ويتمّ إطلاعي على كلّ عملٍ دنيء يُرتكب في هذا البلد، مهما يكن كبيرًا أو صغيرًا. لديّ عملاء في كلّ مدينة، في كلّ شارع. إنّهم أعيُني، وهي أعينٌ لا ترفّ حتّى». انتظرتُه حتّى يتابعَ كلامه، لكنّه اختار موضوعًا آخر عندما عاد إلى الكلام. قال: «عليكَ أنْ تقدّمَ لي وعدًا، يا دكتور واطسون. عليك أنْ تُقسِم بكلّ ما هو مقدّسٌ لديك على أنّك لن تخبر هولمز أو أيَّ شخص آخر بهذا الاجتماع أبدًا. لا يجوز لك بتاتًا أنْ تكتب عنه. لا يجوز لك أنْ تذكرَه على الإطلاق. وإذا قُدّرَ لك يومًا أنْ تعرفَ اسمي، عليكَ أنْ تتظاهرَ بأنّك تسمعه لأوّلِ مرّة وبأنّه لا يعني شيئًا بالنسبة إليك».

«ما أدراك أنّني سأتقيّد بمثل هذا الوعد؟»

«أعرفُ أنّك رجلٌ يحترم كلمتَه».

«وإذا رفضتُ طلبك؟»

تنهّد الرجلُ، وقال: «دعني أخبركَ الآن أنّ حياةَ هولمز معرّضةٌ لخطر كبير. والأكثر من ذلك أنّه سيكون ميتًا في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة ما لم تفعلْ ما أطلبُه منك. أنا الشخصُ الوحيدُ القادر على مساعدتك، لكنّني لن أفعلَ ذلك إلّا وفقَ شروطي».

«أنا موافقٌ إذًا».

«هل تُقسِم؟»

«نعم».

«بماذا؟»

«بزواجي».

«هذا لا يكفي».

«بصداقتي مع هولمز».

أومأ برأسِه وقال: «الآن يفهمُ واحدُنا الآخر».

«إذًا، ما هو بيت الحرير؟ أين سأعثر عليه؟»

«لا أستطيعُ أنْ أقول لك ذلك. كم أتمنّى لو استطعت، لكنّني أخشى أنّه سيتعيّن على هولمز أنْ يكتشفَ ذلك بنفسه. لماذا؟ حسنًا، إليك الجواب. أوّلًا لأنّني أعلمُ أنّه قادرٌ على ذلك وسيهمّني أنْ أدرسَ أساليبَه وأنْ أراقبَه وهو يعمل. وكلّما ازدادت معرفتي به، نقصتْ هالةُ عظمته. لكنّ الأمر يتعلّق أيضًا بنقطةٍ مبدئية أوسعَ نطاقًا. لقد اعترفتُ لك بأنّني مجرم، لكنْ ماذا يعني ذلك بالضبط؟ إنّه يعني أنّ ثمّة قواعدَ معيّنة تحكم المجتمع لكنّني أعتبرها معتقةً لي، فأفضّل أنْ أتجاهلَها. ولقد التقيتُ مصرفيّين ومحامين محترمين تمامًا من شأنهم أنْ يقولوا الشيءَ ذاتَه. الموضوع برمّته هو مسألةُ الدرجةِ التي نمضي إليها. لكنّني لستُ وحشًا، يا دكتور واطسون. أنا لا أقتل أطفالًا. أنا أعتبر نفسي رجلًا متحضّرًا، وهناك قواعدُ أخرى لا يجوز انتهاكُها حسبَ اعتقادي».

تابع الرجلُ يقول: «إذًا، ماذا يُفترَض بشخصٍ مثلي أنْ يفعلَ عندما تجمعه الأقدار بجماعةٍ من الناس يتجاوزُ سلوكهُم – أيّ إجرامُهم – كلَّ الحدود؟ أستطيعُ أنْ أقولَ لك مَن هم هؤلاء وأين تستطيعُ أنْ تجدَهم. كان في وسْعِ عملٍ كهذا أنْ يُلْحِق ضررًا كبيرًا بسمعتي لدى كثيرين من الأشخاص الذين أوظّفُهم والذين لا يتمتّعون بسموّ التفكير مثلي. هناكَ شيءٌ شبيهٌ بقواعد السلوك الإجرامي، وهي قواعدُ ينظر إليها مجرمون كثيرون من معارفي بجدّية بالغة. وأميل أنا إلى الموافقة على ذلك في الواقع. فبأيّ حقّ أُبيح لنفسي أنْ أحكمَ على زملائي المجرمين. ومن المؤكّد أنّني لا أتوقّعُ منهم أنْ يحكموا عليّ».

«لقد أرسلتَ تنبيهًا إلى هولمز».

«لقد تصرّفتُ نزويًّا، وهذا أمرٌ غريبٌ جدًّا عن طباعي، وهو يُظهِر مدى الغضب الذي شعرتُ به. ومع ذلك، كان تصرّفي بمثابةِ حلٍّ وسط، كانَ بالمُطلق أقلَّ ما استطعتُ فعلَه في تلك الظروف. وإنْ يكن ذلك قد حَفّزَه على التحرُّك، فبإمكاني تعزيةُ نفسي بفكرةِ أنّ ما فعلتُه كان قليلًا جدًّا ولا يمكن توجيهُ اللوم إليّ حقيقة. لكنّه، إنْ يكن قد اختار من ناحيته أنْ يتجاهل تنبيهي، فلا يكون

هناك أيُّ ضرر ويظلّ ضميري مرتاحًا. بعد ذلك، ليست لديك أيُّ فكرة عن مدى أسفي لتبنّيه الخيارَ الثاني، أيّ عدمَ التصرّف بصريح العبارة. ولديّ اعتقادٌ صادق بأنّ العالم سيكون مكانًا أفضل كثيرًا بدون بيت الحرير. وما زلتُ آمل أنْ تتحقّق هذه الأمنية. وهذا هو سببُ دعوتي لك إلى هنا في هذه الليلة».

«إذا كنتَ لا تستطيعُ إعطائي معلومات، ماذا تستطيع إعطائي؟»

«أستطيعُ أنْ أعطيك هذا». أتمّ جملتَه ودفَعَ إليّ شيئًا عبر الطاولة. نظرتُ إلى أسفل، ورأيتُ مفتاحًا معدنيًا صغيرًا.

سألته: «ما هذا؟»

«هذا مفتاحُ زنزانته».

«ماذا؟» كدتُ أضحكُ بصوتٍ عالٍ، وقلتُ: «هل تتوقّع أنْ يفرّ هولمز من السجن؟ هل هذه هي خطّتك الفذّة؟ هل تريدني أنْ أساعدَه على الفرار من هولواي؟»

«لا أعلمُ لماذا تجدُ هذه الفكرة مسلّيةً إلى هذا الحدّ، يا دكتور واطسون. دعني أؤكّد لك أنّه لا يوجد خيارٌ ممكن آخر».

«هناك محكمةُ المحقّق في أسباب الوفيّات. وستظهر الحقيقة».

اكفهرّ وجهه. قال: «إنّك ما زلتَ لا تدركُ طبيعةَ الناس الذين تجابههم، وأنا بدأتُ أتساءل ما إذا كنتُ أُهدِر وقتي معك، دعني أوضح الأمرَ لك: شرلوك هولمز لن يغادرَ المؤسّسة الإصلاحية أبدًا وهو على قيد الحياة. لقد تقرّر انعقادُ محكمةِ المحقّق في أسباب الوفيات يومَ الخميس القادم، لكنّ هولمز لن يكون هناك. لن يسمح أعداؤه بذلك. إنّهم يخطّطون لقتله وهو في السجن.»

سألتُه مذعورًا: «كيف؟»

«لا أستطيع أنْ أقولَ لك ذلك. أسهلُ أسلوبين سيكونان التسميم أو الخنق، لكنّ هناك مائةَ حادث يستطيعون تدبيرَها. ولا شكّ في أنّهم سيجدون طريقةً لجعل الموت يبدو طبيعيًا. لكنْ ثِقْ في كلامي. أمرُ قتلِه قد صدر بالفعل ووقتُه آخذٌ في النفاد».

أخذتُ المفتاح وسألتُه: «كيف حصلتَ على هذا؟»

«لا أهمّيةَ لذلك».

«إذًا، قل لي كيفَ أستطيعُ إيصالَ المفتاح إليه. إنّهم لا يسمحون لي برؤيته».

«عليكَ أنتَ أنْ تتدبَّرَ ذلك، ليس هنا مزيدٌ أستطيع القيام به بدونِ الكشفِ عن دوري في هذه القضية. لديك المفتّش لستراد الذي يقف إلى جانبك. تكلّمْ معه». نهض بصورة مفاجئة دافعًا مقعَدَه بعيدًا عن الطاولة، وقال: «أظنّ أنّه لم يبقَ شيءٌ نقوله، وكلّما بكّرتَ في العودة إلى شارع بيكر ستريت، أسرعتَ في التفكير في ما ينبغي عملُه». استرخى قليلًا، وتابع قائلًا: «سأضيف هذه النقطة فقط. ليست لديك أيُّ فكرة عن عمقِ السرور الذي شعرتُ به بالتعرّف إليك. وأنا أحسد هولمز حقًّا لوجود كاتب سيرة وفيّ مثلك إلى جانبه. ولديّ أنا أيضًا قصصٌ معيّنة مثيرةٌ جدًّا للاهتمام أودُّ إطلاعَ عامّةِ الناس عليها، وأتساءلُ ما إذا كنتُ سألجأ إلى خدماتِك في أحد الأيّام. كلّا؟ حسنًا، كانت هذه مجرّد فكرة عابرة. لكنْ، وبغضّ النظر عن هذا الاجتماع، أفترضُ أنّ من الممكن دائمًا أنْ أظهرَ أنا كشخصيةٍ في إحدى رواياتك، وآمل أن تكونَ منصفًا معي».

كانت هذه آخرَ كلماتِه لي. ولعلّه بعث إشارةً عبر جهازٍ مخفيّ لأنّ الباب فُتِح في تلك اللحظة تمامًا وظهر أنـدروود. شربتُ ما تبقّى في كأسي لأنّني كنتُ في حاجة إلى النبيذ لتقويتي خلال الرحلة. ثمّ أخذتُ المفتاح ونهضتُ قائلًا: «شكرًا».

لم يُجبْ. وعندما وصلتُ إلى الباب، استدرتُ وألقيتُ نظرة. كان مضيفي جالسًا وحده على رأس تلك الطاولة الضخمة يعبث بطعامه تحت ضوء الشموع، وما لبث البابُ أنْ أُغلِق بعد ذلك. ولم أشاهدْ هذا الرجل بعد ذلك في حياتي باستثناء مرّةٍ واحدة لمحتُه فيها على عجل في محطّة فيكتوريا ستيشن بعد سنة واحدة.

15

سجن هولواي

انطوت رحلةُ عودتي إلى لندن في بعضِ نواحيها على معاناةٍ أكبرَ حتّى من تلك عرفتُها في رحلة المغادرة. وجدتُ نفسي آنذاك أسيرًا من نوعٍ ما في أيدي أناسٍ كان من المحتملِ جدًّا أنْ يقصدوا إيذائي، وقد نقلوني إلى جهةٍ مجهولةفي رحلةٍ لعلّها استغرقت نصفَ الليلة. والآن عرفتُ أنّني عائدٌ إلى منزلي وبقيتْ أمامي ساعاتٌ قليلةٌ فقط عليّ أن أتحمّلَها، لكنْ استحالَ عليّ أن أجدَ أيّ نوع من التوازن الداخليّ. لقد أُعِدَّت العدّة لقتل هولمز! لم ترضَ بعد القوى الغامضة التي تآمرتْ لوضعِه رهنَ الاعتقال ولن تكتفي إلّا بموته. كنتُ أُحكِم قبضتي على المفتاح المعدني الذي أُعطيتُه إحكامًا شديدًا إلى درجةِ أنّه كان في استطاعتي صنعُ نسخةٍ لهُ من الطبعةِ التي نقشها في لحمي. كانت فكرتي الوحيدة الوصولَ إلى هولواي لكي أحذّر هولمز ممّا يُخطَّط له ولأساعد على إخراجه بصورة فوريّة من ذلك المكان. وبالرغم من ذلك، كيف كانَ لي أنْ أصلَ إليه؟ لقد سبق للمفتّش هاريمان أنْ أوضح أنّه سيفعل كلَّ ما في استطاعته للتفريق بيننا نحن الاثنين. من ناحية أخرى، قال مايكروفت إنّ في وسعي التواصلَ معه من جديد في الحالات الطارئة الأسوأ، الأمر الذي ينطبق بالتأكيد على الحالةِ الراهنة. لكنْ إلى أيّ مدى يمكن لنفوذه أنْ يصل؟ وهل سيكون الوقتُ متأخِّرًا جدًّا عندما يتمكّن من تأمين دخولي إلى المؤسّسة الإصلاحية؟

بهذه الأفكار المتلاطمة في رأسي، ولا شيءَ حولي إلّا أندروود المحملِق فيَّ بصمت من المقعد المقابل والظلام المخيّم على الجانبِ الآخر من النوافذ المتجلّدة، بدا لي وكأنّ الرحلةَ تمتدّ إلى الأبد. والأسوأ من ذلك أنّ جزءًا منّي كان يعلم أنّني أتعرّض للخداع. ومن المؤكّد أنّ العربةَ كانت تدور وتدور في حلقاتٍ وتتعمّد المبالغةَ في تكبير المسافة بين شارع بيكر ستريت والمنزل الغريب الذي دُعيت لتناول العشاء فيه. وكان من المُربِك بشكلٍ خاصّ التفكيرُ في أنّ هولمز، لو وُجِد في مكاني، للاحظَ جميعَ العناصر المختلفة – من رنّةِ جرسِ الكنيسة إلى زعقةِ صفّارةٍ بخاريّة ورائحةِ مياهٍ راكدة وتبدُّل الأرضيّات تحت عجلات العربة، وحتّى اتّجاه الرياح المرتطمة بالنوافذ – ليرسمَ خريطةً كاملة التفاصيل لرحلتِنا عند انتهائها. لكنّني لم أكن مؤهّلًا بالتأكيد للنهوض بمثل هذا التحدّي، ولم يكن في استطاعتي إلّا أنْ أنتظرَ رؤيةَ وهجِ مصابيحِ الغاز لأطمئنَّ إلى أنّنا عُدنا إلى المدينة، وتباطؤَ سرعة الجياد ربّما بعد نصف ساعة ثمّ التوقُّفَ النهائي المفاجئ للعربة كإشارةٍ إلى ختام رحلتنا. وكما توقّعتُ تمامًا، فتح أندروود الباب بقوّة عند وصولِنا، ورأيتُ على الجانب الآخر من الطريق المنظر المألوف لمسكني.

قال أنـدروود: «ها قد عدتَ سالمًا إلى منزلك، يا دكتور واطسون. وأعتذرُ مرّةً أخرى عن الإزعاج الذي سبّبتُه لك».

أجبتُه: «لن أنساكَ بسهولة، يا سيّد أندروود».

رفع حاجبَيْه، وقال: «سيّدي قالَ لك اسمي؟ يا للغرابة».

«إذًا، قد يجدر بك أنتَ أنْ تقولَ لي اسمَه».

«آه، كلّا، يا سيّدي. أعترفُ بأنّني لستُ أكثرَ من بقعةٍ على رقعة وبأنّ حياتي زهيدةُ القيمة بالمقارنةِ مع عَظَمتِه، لكنّني متعلّقٌ بها على الرغمِ من ذلك وأريد لها أنْ تدوم فترةً أخرى من الزمن. وبودّي الآن أنْ أتمنّى لك ليلةً سعيدة».

نزلتُ من العربة، وأعطى هو إشارةً للحوذيّ، وراقبتُ العربةَ وهي تبتعد بجلبة، ثمّ دخلتُ مسرعًا إلى المنزل.

لكن لم يكن مقدّرًا لي أنْ أرتاحَ في تلك الليلة. كنتُ قد بدأتُ في وضعِ خطّةٍ يُحتمَل أن تضمنَ إيصالَ المفتاح إلى هولمز بأمان وفي إعدادِ رسالة

تنبُّهه إلى الخطر الذي يتعرَّض له حتّى إذا لم يُسمَح لي بأنْ أزورَه شخصيًا كما كنتُ أخشى. وقد سبق لي أنْ استنتجتُ أنّ لا جدوى من توجيه رسالةٍ صريحةٍ إليه لأنّ أعداءَنا كانوا يحيطون بنا من كلّ جانب ومن المرجّح تمامًا أنْ يعترضوها. وإذا اكتشفوا أنّني مُدركٌ لنيّاتهم، فقد يدفعُهم ذلك إلى التعجيل في توجيه ضربتهم. لكنّني كنتُ قادرًا مع ذلك على بعثِ رسالةٍ إليه – لكنْ كان من الضروريّ أنْ أستخدم شِفرةً من نوع ما. كان السؤال كيف أستطيعُ أن أُنبِّهَه إلى وجود الشِفرة لكي يحلّها؟ كان هناك المفتاح أيضًا. كيفَ سأتمكّن من إيصاله إلى يده؟ وفيما كنتُ أجولُ بعينَيّ في أرجاء الغرفة عثرتُ على الجواب: إنّه الكتاب الذي كنّا، هولمز وأنا، نناقشه قبل أيّام قليلة فقط، وهو كتاب «استشهاد الإنسان» لمؤلّفِه وينوود ريد. ما الأمرُ الذي يمكن أنْ يكونَ طبيعيًا أكثرَ من أنْ أُرسِلَ إلى صديقي شيئًا يقرأه أثناء احتجازه؟ ما الذي يمكن أنْ يبدو أكثر براءةً من ذلك؟

كان الكتابُ ذا غلاف من الجلد وسميكًا إلى حدّ بعيد. وعندما تفحّصتُه، رأيتُ أنّ من الممكن دسَّ المفتاح في الفراغ بين ظهره وحوافَّ تجليد صفحاته. فعلتُ ذلك، ثمّ صَبَبْتُ بعناية شمعًا سائلًا في الطرفين فالتصَقَ المفتاح بثباتٍ في مكانه. ظلّ الكتابُ قابلًا للفتح بصورة طبيعية ولم يكن هناك ما يُشيرُ إلى تعرُّضِه لأيّ عبث. بعد ذلك، تناولتُ ريشتي وكتبتُ على الغلافِ الداخلي إسم شرلوك هولمز وتحتَه عنوان 221B شارع بيكر ستريت. بالنسبة إلى مراقبٍ عاديّ، لن يبدو أنّ هناك أيُّ خطأ، لكنّ هولمز سيعرف خطَّ يدي فورًا وسيرى أنّ رقم المنزل قد قُلِب. ختامًا، فتحت الصفحة 221 واستعملتُ قلمَ رصاص لوضعِ سلسلةٍ من النقاطِ الصغيرة جدًّا واللامرئية تقريبًا للعين المجرّدة تحتَ حروف معيَّنة في النصّ تُهجّي رسالةً جديدة: أنت في خطرٍ جسيم وهم ينوون قتلَك. استعمِلْ مفتاحَ الزنزانة. أنا في انتظارك. ج. و.

ذهبتُ إلى سريري في آخر الأمر بعد أنْ رضيتُ عن العمل الذي قمتُ به، واستسلمتُ لنومٍ مضطرب تخلّلته صورٌ للفتاة سالي الممدّدةِ في الشارع والدمُ يحيط بها من كلّ جانب، ولقطعةِ شريطٍ أبيض ملفوفةٍ حولَ رسغِ صبيٍّ

ميّت، وللرجلِ ذي الجبهة المنحنية العالية وهو يُطِلُّ عليّ من الطرفِ الآخر لمائدة الطعام الطويلة.

نهضتُ باكرًا في اليوم التالي، وبعثتُ رسالة إلى لستراد لحثّه من جديد على المساعدةِ في ترتيب زيارةٍ لسجن هولواي، دونَ اعتبارٍ لما يقوله المفتّش هاريمان. وفوجِئتُ بتلقّي جوابٍ مفادُه أنّ في وسعي دخولَ السجن في الساعةِ الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم وأنّ هاريمان اختتم تحقيقَه الأوّلي وأنّ جلسة محكمةِ المحقّق في أسبابِ الوفيات قد حُدِّدت فعلًا ليوم الخميس، أي بعد يومَيْن. بدت لي هذه الرسالةُ عند قراءتها لأوّل مرّة بخبرٍ طيّب، لكنّني ما لبثتُ أنْ فكّرتُ في تفسيرٍ أكثرَ شؤمًا. فإذا كان هاريمان جزءًا من المؤامرة كما اعتقدَ هولمز ومثلما أوحى كلُّ شيء في سلوكِه وحتّى مظهره، فمن المحتمل جدًّا أنْ يكون قد تساهلَ لسببٍ مختلف تمامًا. وكان مضيفي في الليلةِ الفائتة قد أصرّ على أنّه لن يُسمَح لهولمز أبدًا بالخضوع لمحاكمة. وإذا افترضْنا أنّ القتلةَ يستعدّون لتوجيه ضربتهم، فهل من الممكن أنْ يكونَ هاريمان على علم بأنّ الوقتَ فات وأنّ السيفَ سبق العَذلَ.

بالكاد تمكّنتُ من السيطرةِ على نفسي طوال ذلك الصباح. وغادرتُ شارع بيكر ستريت قبل الساعة المحدَّدة بفترةٍ طويلة، ووصلتُ إلى طريقِ كامدن رود قبل أنْ تصدحَ الأجراسُ بدقّاتِ نصفِ الساعة. أنزلني سائقُ العربة أمام البوّابة الخارجية وانطلق مسرعًا رغم احتجاجاتي، وتَركني في البرد والهواء المشبّع بالضباب. لم يكن في استطاعتي أنْ ألومَه في حقيقةِ الأمر، فهذا لم يكن مكانًا قد تُريدُ أيُّ نفسٍ مؤمنة أنْ تتلكّأ فيه.

كان السجنُ مبنيًّا على الطراز القوطي، وبدا للوهلة الأولى كقلعةٍ مشؤومة متراميةِ الأطراف أو ربّما كشيءٍ مستوحى من حكايةٍ خياليّة كُتِبت لتخويف طفلٍ مشاغب، وقد شُيِّد بحجارةِ منطقةِ كنت الصلبة متضمّنًا سلسلةً من نقاط الحراسة والمداخن والسواري والجدران المحصّنة. وكان للسجن برجٌ منفرد شاهقُ الارتفاع حتّى بدا وكأنّه يتوارى في السحاب، وطريقٌ موحِلٌ يوصل إلى المدخلِ الرئيسيّ الذي صُمِّم عمدًا ليكونَ منفّرًا قدرَ المستطاع ببوّابته الخشبية الضخمة وبابِه الإسقاطيّ المصنوع من الفولاذ والشجيرات

الهزيلةِ المتهالكة على جانبيه. وكان جدارٌ من الآجرّ لا يقلّ ارتفاعُه عن خمسةَ عشر قدمًا يزنّر المُجمَّع بكامله، لكنّني استطعتُ أنْ أرى فوقَه أحدَ الأجنحة وله صفّان من النوافذ الصغيرة الموقّتة بقضبان حديد رَمَزَ تماثُلها الصارم بطريقةٍ ما إلى ما تحفلُ به الحياةُ في الداخل من خواءٍ وبؤس. وكان السجنُ قد بُنِيَ على سفحِ هضبةٍ يمكن عندَ النظرِ خلفَها استشرافُ المراعي والسهوب الجميلة الممتدّة صعودًا إلى منطقةِ هايغيت. لكنّ هذه المنطقةَ كانت عالمًا مختلفًا، وكأنّ ستارةَ مشهدٍ خاطئة أُنزِلت عَرضًا على خشبة المسرح. كان سجن هولواي مُشيّدًا على أرضِ مقبرةٍ سابقة، وما زالت رائحةُ الموت والعفن عالقةً هناك كلعنةٍ مُسلّطة على رؤوس القابعين في الداخل وإنذارٍ لمن هم في الخارج بالبقاء بعيدًا.

كان الانتظارُ مدّةَ ثلاثين دقيقةً في الضوءِ الشاحب أقصى ما كان في استطاعتي تحمُّلُه فيما أنفاسي تتجمّد أمام وجهي والبردُ يتغلغل في جسمي صاعدًا من قدميّ. وأخيرًا، سِرتُ قُدُمًا وقبضتي تُحكِم الإمساكَ بالكتاب والمفتاحِ المخبّأ في ظهره. وخَطَر لي عندما دخلتُ إلى السجن أنّ هذا المبنى الرهيب يمكن أنْ يصبح مكانَ إقامتي لوْ اكتُشِف أمري. وأظنّ أنّ من الصحيح القولَ إنّني خالفتُ القانونَ ثلاثَ مرّات على الأقلّ في صحبة شرلوك هولمز، ولأفضلِ الأسباب في كلّ مرّة. لكنّ فعلتي الآن كانت ذروةَ سيرتي الإجرامية. والغريبُ في الأمر أنّني لم أشعر حتّى بأدنى درجةٍ من القلق ولم تتبادر إلى ذهني بتاتًا إمكانيةُ فشل الخطّة التي رسمتُها، فقد كانت كلُّ أفكاري منصبّةً على محنة صديقي هولمز.

طرقتُ بابًا كاد يكون متواريًا إلى جانب البوّابة الخارجيّة، ففُتِح بصورةٍ فورية تقريبًا من قبل ضابطٍ طلقِ المحيّا وحتّى مَرِحِ القسمات إلى درجةٍ فاجأتْني، وكان يرتدي سترةً وسروالًا من اللون الأزرق الداكن وتتدلّى من حزامه الجلديّ العريض حلقةٌ تحمل مفاتيحَ عديدة. قال: «تعالَ إلى الداخل يا سيّدي، أدخلْ، فالوجود في الداخل أبهجُ من الوجود في الخارج، وليستْ هناك أيّامٌ كثيرة تستطيعُ أنْ تقولَ فيها ذلك بأيّ قدرٍ من الصدق». راقبتُه وهو يُقفِل البابَ خلفَنا، ثم تبعتُه عبر فناء إلى بابٍ ثانٍ، أصغرَ من الأوّل لكنْ على

القدرِ ذاتِه من المتانة. كنتُ قد تنبّهتُ فعلًا إلى أنّ صمتًا مريبًا يخيّم على داخل السجن. وباستثناء غرابٍ أشعث أسود هائمٍ على غصن شجرة، لم يكن هناك أيُّ دليل على وجود حياة. بدأ الضوءُ يتلاشى بسرعة لكنْ لم تُشعَل أيةُ مصابيح، وشعرتُ بأنّني محاطٌ بظلالٍ ضمنَ ظلال وبأنّني في عالمٍ يكاد يخلو تمامًا من الألوان.

دخلنا ممرًّا له بابٌ مفتوح على جانبه أُخِذتُ عبرَه إلى غرفةٍ صغيرة فيها طاولةُ مكتب وكرسيّان ونافذةٌ واحدة تطلّ على حائطٍ من الآجرّ. كانت في أحدِ جوانب الغرفة خزانةٌ عُلّق فيها حوالى خمسين مفتاحًا على خطاطيف، وفي الجهةِ المقابلةِ لي ساعةٌ كبيرة لاحظتُ أنّ عقربَ الثواني فيها يتحرّك بتثاقل فيتوقّف برهةً بعد كلّ حركة وكأنّه يؤكّد بطءَ مرور الوقت بالنسبة إلى جميع الذين ساقتْهم الأقدار إلى هذا المكان. كان رجلٌ يجلس تحت الساعة ويرتدي ثيابًا شبيهةً بثياب الضابط الذي استقبلني. لكنّ بزّة هذا الرجل ازدانت بشارات ذهبية قليلة على قبّعته وكتفَيْه إشارةً إلى رتبته العالية. كان متقدّمًا في العمر ذا شعر شائب قصير وعينَيْن صارمتَيْن. نهض واقفًا عندما شاهدني وجاء من خلف الطاولة: «دكتور واطسون؟»

«أجل».

«إسمي هوكينز. أنا رئيسُ الحرس. هل أتيتَ لرؤية السيّد شرلوك هولمز؟»

«نعم». لفظتُ هذه الكلمة وقد تملّكني إحساسٌ مباغت بالخوف.

«يؤسفُني أنْ أُضطَرّ إلى إعلامك بأنّه أُصيب بوعكة صحّية صباح اليوم. وفي استطاعتي أنْ أؤكّد لك أنّنا فعلْنا كلّ ما في وسعِنا لرعايته بطريقة تليق برجل من مكانته بالرغم من الجريمةِ بالغةِ الخطورة التي يُتَّهم بارتكابها. وقد أُبقي معزولًا عن بقيّة السجناء وقمتُ أنا شخصيًّا بزيارته في عدّة مناسبات أسعدني خلالَها التحادُث معه. ولقد جاء مرضُه بشكلٍ مفاجئ وتلقّى علاجًا على الفور».

«ما خطبُه؟»

«ليست لدينا أيُّ فكرة. لقد تناول غداءه في الساعة الحادية عشرة ثم قرع الجرس طالبًا المساعدة بعد ذلك مباشرةً. وقد وجده ضبّاطي ممدّدًا على أرض زنزانته وبدا واضحًا أنّه كان يتألّم.»

شعرتُ برعشةٍ صقيعة كالجليد في أعمقِ أعماق فؤادي. كانَ هذا ما تخوّفتُ منه طولَ الوقتِ بالضبط. سألت: «أين هو الآن؟»

«في المستوصف. يحتفظ ضابطُ الطبابة لدينا الدكتور ترفليان بعددٍ من الغرف الفردية للحالات شديدة الخطورة، وقد أصرّ على نقلِ السيّد هولمز إلى هناك بعد أنْ عاينَه».

قلت: «يجب أنْ أراه على الفور. أنا نفسي طبيب».

«طبعًا، يا دكتور واطسون. لقد كنتُ في انتظارِك لآخذَك إليه الآن».

لكنّنا سمعنا حركةً خلفَنا قبل أنْ نتمكّن من مغادرة الغرفة، وظهر رجلٌ أعرفه تمام المعرفة سادًّا الطريقَ أمامنا. وإذا كان المفتّش هاريمان قد أُبلغَ النبأ، فإنّه لم يبدُ متفاجئًا به. والأكثرُ من ذلك أنّ سلوكه بدا متهاونًا إلى حدّ بعيد في الواقع، إذ كان متّكِئًا على إطار الباب ونصفُ اهتمامه منصبّ على خاتم ذهبيّ على إصبعه الوسطى. كان يرتدي كعادته دائمًا ثيابًا سوداء ويحمل عصا سوداء. سأل: «ما هذه المسألة برمّتها يا هوكينز؟ شرلوك هولمز مريض؟»

أجاب هوكينز بلجهة حازمة: «إنّه مريضٌ جدّيًا».

اعتدل هاريمان في وقفته، وقال: «يُذهلني سماعُ ذلك! هل أنتم واثقون بأنّه لا يخدعكم؟ عندما رأيْتُه صباحَ هذا اليوم كان في كامل صحّته».

«لقد فحصه ضابطا الطبابة لدينا كما فحصتُه أنا وأستطيع أنْ أؤكّد لك، يا سيّدي، أنّه مصابٌ بمرض خطير. ونحن متوجّهان الآن لرؤيته».

«إذًا، سأرافقكما».

«لا بدّ لي من الاحتجاج».

«إنّ السيّد هولمز سجيني وخاضعٌ لتحقيقٍ أُجريه وأنت تستطيع أنْ تحتجّ قدرَ ما تشاء لكنّني سأفرض مشيئتي». ابتسم هاريمان ابتسامةً لئيمة، ونظر هوكينز إليّ واستطعتُ أنْ أرى أنّه لا يتجرأ على الإعتراض مهما يكن إنسانًا طيّبًا.

انطلقنا نحنُ الثلاثة عبر أعماقِ السجن، وكانت حالتي الذهنية سيّئةً إلى درجة أنّني لا أستطيع أنْ أتذكّر إلّا تفاصيلَ قليلة. بالرغم من أنّ الانطباعاتِ العامّة التي سجّلتْها ذاكرتي شملت أحجارَ الرصفِ الثقيلة والأبوابَ التي

كانت تصرصِرُ وتفرقعُ كلّما فُتِحت أمامنا وأُغلِقت خلفَنا، والنوافذَ المؤمَّنةَ بالقضبان الحديد والمصمَّمةَ لتكون أعلى وأصغرَ من أنْ تتيحَ النظر إلى الخارج، والأبواب... الأبوابَ الكثيرة الكثيرة. إنّها بابٌ بعد باب، جميعُها متماثلة وكلٌّ منها يحتجز حالةً صغيرةً معيَّنة من اليأس البشريّ. كان السجنُ دافئًا إلى درجة فاجأتني، وقد عبقَ فيه جوٌّ غريب امتزجت فيه روائحُ الشوفان والثياب القديمة والصابون. شاهدْنا عددًا من الحرّاس المولَّجين حراسةَ تقاطعاتٍ مختلفة لكنّنا لم نرَ أيّ سجناء باستثناء رجلَيْن طاعنَيْن في السنّ مرّا قربنا وهما يجهدان في حملِ سلّة من الغسيل. قال هوكينز وكأنّه يجيب عن سؤالٍ لم أطرحْه: «بعضُ السجناء موجودون في باحة الرياضة وبعضٌ آخر على المداسة أو في مشغل الحبال. والنهار يبدأ باكرًا وينتهي باكرًا في هذا المكان».

قلتُ: «إذا كان هولمز قد سُمِّم يجب نقلُه فورًا إلى مستشفى».

سمع هاريمان كلامي، فعقّبَ قائلًا: «سمّ؟ من قال أيَّ شيء عن السمّ؟»

أجابه هوكينز: «يشتبه الدكتور ترفليان في الواقع بتسمُّم غذائيّ شديد. لكنّه رجل طيّب ومن المؤكّد أنّه بذل كلّ ما في استطاعته...»

كنّا قد بلغنا نهايةَ البناء المركزي الذي تتفرّع منه الأجنحة الأربعةُ الرئيسية كشفرات طاحونة هواء، ووجدنا أنفسَنا في ما يشبه منطقةَ تريُّض رُصِفت أرضيَّتُها بأحجارٍ يوركشير ولها سقفٌ عالٍ جدًّا وفيها درجٌ معدنيٌّ لولبيّ يوصل إلى شرفةٍ ممتدّة على طول الغرفةِ العليا. وكإجراء احتياطيّ مُدَّت شبكةٌ فوق رؤوسنا كي لا يمكن إلقاء أيِّ شيءٍ علينا من أعلى. كان هناك رجالٌ قليلون يرتدون ملابسَ من القماش الرماديّ الخاصّ بالجيش وقد انهمكوا في فرزِ ملابسِ أطفالٍ مكوّمة أمامهم على طاولة. قال هوكينز: «إنّها لأطفالِ مستشفى سينت إيمانويل. نحن نصنع هذه الملابسَ هنا». عبرنا مدخلًا مُقَنطرًا ثم صعدنا درجًا داكنًا. لم تعدْ لديّ في هذه الأثناء أيُّ فكرة عن مكان تواجدي، وما كنتُ لأتمكّنَ أبدًا من العثور على طريق الخروج من جديد. فكّرتُ في المفتاح الذي كنتُ لا أزال أحمله مخبّأً في الكتاب. وحتّى

لو تمكّنتُ من إيصاله إلى يدَيْ هولمز، ماذا سيكون نفعُه؟ سيحتاج هولمز إلى دزّينةِ مفاتيح وخريطةٍ مُفصّلة ليستطيعَ الخروج من هذا المكان.

كان أمامنا بابان لكلٍّ منهما فتحةٌ من الزجاج. وفي هذه المرّة أيضًا، تعيّن فتحُ قفلَيْهما قبل أن ينفتحا على غرفةٍ متقشّفةٍ جدًّا ونظيفةٍ جدًّا لا توجد فيها نوافذ بل مناورُ عالية. رأينا شموعًا مضاءةً موضوعة على طاولتَيْن في وسط الغرفة لأنّ العتمةَ كانت قد خيّمت تمامًا تقريبًا. كانت هناك ثمانيةُ أسِرّة رُتِّبت في صفَّيْن متقابلَيْن يضمّ كلٌّ منهما أربعة أسِرّة جُلِّلَتْ بأغطية منقوشة بمربّعات زرقاء وبيضاء وبينما كانت أغطيةُ الوسادات من الخام المقلَّم. ذكّرتْني الغرفةُ فورًا بمستشفاي العسكريّ القديم الذي كثيرًا ما راقبتُ فيه رجالًا يموتون بذات الانضباط والجَلَد المتوقَّعيْن منهم في ميدان القتال. كان سريران فقط مشغولَيْن، في أحدِهما رجلٌ مهزولٌ أصلع استطعتُ أنْ أرى أنّ عينَيْه أصبحتا مركَّزتَيْن على العالم الآخر. وكان في السرير الثاني شكلٌ محدودبٌ يرتجف، لكنّه كان أصغر حجمًا من أنْ يكون هولمز.

نهض رجلٌ يرتدي سترةً طويلةً مرقّعةً قديمة مِنْ حيث كان يعمل واتّجه نحونا للترحيب بنا. وظننتُ منذ البداية أنّني أعرف من هو وأنّ اسمَه – كما يتراءى لي الآن – كان مألوفًا لديّ. كان شاحبًا هزيلَ البنية وله سالفان بِلَوْنِ الرمل بدا عليهما أنّهما يموتان على وجنتيه ويرتدي نظّارتين غير ملائمتين له. بدا لي في أوائلِ الأربعينات من عمره، لكنّ تجاربَ حياته تركتْ عليه آثارًا شديدةَ الوطأة وصَبَغَتْ نفسيّتَه بالضيق والعصبية وجعلتْه يبدو أكبر سنًّا. كانت يداه الشاحبتان النحيلتان مثنيّتَيْن عند الرسغَيْن. وقد كان منشغلًا بالكتابة عندما دخلْنا، وتسرّب حبرٌ من قلمه ترك بقعًا على سبّابته وإبهامه.

قال مخاطبًا رئيسَ الحرس: «سيّد هولمز، ليس لديّ مزيدٌ أُبلِغك به، يا سيّدي، باستثناء أنّني أخشى الأسوأ».

قال هوكينز: «هذا الدكتور جون واطسون».

«أنا الدكتور ترفليان». صافحني، وأضاف قائلًا: «يسرّني أنْ أتعرّف إليك مع أنّني أتمنّى لو تمّ تعارُفنا في ظروف أسعد».

كنتُ متأكّدًا من أنّني أعرف هذا الرجل. وحتّى لو لم يكن هذا اللقاء الأوّلَ بيننا، فقد أراد أنْ يوحي بأنّه كذلك من خلال الطريقة التي تكلّم بها والحرارة التي صافحني بها.

«هل هذا تسمُّمٌ غذائيّ؟». طرح هاريمان هذا السؤال بدون أنْ يتحمّلَ عناء التعريف عن نفسه.

أجاب الدكتور ترفليان: «أنا واثقٌ بأنّ سمًّا ما من نوعٍ آخر هو السبب. أمّا قولُ كيف أُعطِيَ السمُّ له فهذا ليس من اختصاصي».

«أُعطِيَ له؟»

«جميع السجناء في الجناح يتناولون الطعام نفسه ولم يمرضْ أحدٌ سواه».

«هل تلمّح إلى وجود عمل جنائيّ؟»

«لقد قلتُ ما قلتُه، يا سيّدي».

«حسنًا، أنا لا أُصدِّقُ كلمةً واحدة من هذا. وأستطيع أنْ أقولَ لك، يا دكتور، إنّني كنتُ أتوقَّع إلى حدٍّ بعيد حدوث شيء من هذا القبيل. أين السيّد هولمز؟»

تردّد ترفليان، فانبرى رئيسُ الحرس قائلًا: «هذا الرجل هو المفتّش هاريمان، يا دكتور ترفليان، وهو مسؤولٌ عن مريضك».

ردّ الطبيبُ بلهجةٍ حازمة: «أنا المسؤولُ عن مريضي ما دام في مستوصفي. لكنْ لا يوجد أيُّ سبب يحول دون رؤيتكم له بالرغمِ من أنّ عليّ أنْ أطلبَ منكم عدمَ إزعاجه. لقد أعطيتُه مسكّنًا ومن المحتملِ جدًّا أنْ يكون نائمًا. إنّه في غرفةٍ جانبيّة وقد ارتأيتُ أنّ من الأفضل إبقاءَه بعيدًا عن السجناء الآخرين».

«إذًا دعنا لا نُضيِّع مزيدًا من الوقت».

«ريفرز، المفاتيح...»، صاح ترفليان مناديًا رجلًا طويلًا نحيلًا مستديرَ الكتفين كاد يغيب عن الأنظار في الغرفة، وهو يكنس الأرض في إحدى الزوايا ويرتدي زيَّ ممرّض لا ثياب سجين.

«نعم، يا دكتور ترفليان»، قال ريفرز وهو يسير متثاقلًا إلى الطاولة حيث تناول سلسلةَ مفاتيح وحملها إلى بابٍ مُقَنطَر على الطرف الآخر من

الغرفة. بدا وكأنّه أعرج وهو يجرّ إحدى ساقَيْه خلفَه. كان مقطّبَ الوجه قاسيَ الملامح يعلو رأسَه شعرٌ بنيّ أشعث يتدلّى حتّى كتفَيْه. توقّف أمام الباب وأدخل بكُلٍّ تمهُّل مفتاحًا في فتحة القفل.

قال ترفليان شارحًا بصوتٍ منخفض: «ريفرز هو الممرّض العاملُ لديّ. إنّه رجلٌ طيّب، لكنّه بسيط، وهو يتولّى شؤونَ المستوصف في الليل».

سأله هاريمان: «هل كان على تواصلٍ مع هولمز؟»

«ريفرز نادرًا ما يتواصل مع أيّ إنسان، يا سيّد هاريمان. والسيّد هولمز نفسُه لم ينطقْ بكلمةٍ واحدة منذ إحضاره إلى هنا».

أدار ريفرز المفتاحَ بعد طول أناة وسمعتُ مسنّنات القفل تتباعد مع اكتمالِ دورة المفتاح. كان هناك أيضًا مزلاجان لجهةِ الخارج تعيّن سحبُهما إلى الخلف قبل التمكُّن من تحريكِ الباب الذي انفتح على غرفةٍ صغيرة متقشّفةٍ كصومعةِ راهب، لها جدرانٌ عارية ونافذةٌ مربّعة وفيها سريرٌ ومرحاض.

كان السرير خاليًا.

اندفع هاريمان إلى الداخل وانتزع الأغطية ثم جثا على ركبتيه ونظر تحت السرير. لا مكانَ للاختباء هنا وقضبانُ النافذة ما زالت سليمةً في مكانها. صاح مزمجرًا: «هل هذه حيلةٌ من نوع ما؟ أينَ هو؟ ماذا فعلتُما به؟»

تقدّمتُ إلى الأمام ونظرتُ داخل الغرفة. لا مجالَ للشكّ في الأمر. كانت الزنزانة فارغة. لقد اختفى شرلوك هولمز.

16

الإختفاء

هبّ هاريمان واقفًا على قدميه، وكاد ينقضّ على الدكتور ترفليان، وقد هجره في هذه المرّةِ الواحدة بالذات تظاهرُه المدروس جيّدًا برباطة الجأش. صرخ قائلًا: «ما هذه اللعبة الجارية هنا؟ ماذا تظنّان نفسَيْكما فاعلَيْن؟»

«لا فكرةَ لديّ...»، بدأ الطبيبُ تاعسُ الحظّ يقول.

«أرجوك أنْ تُظهِرَ قليلًا من ضبط النفس أيّها المفتّش هاريمان»، قال رئيس الحرس وهو يزرع نفسَه بين الرجلَيْن ويُمسِك بزمام الوضع. أضاف يقول: «هل كان السيّد هولمز في هذه الغرفة؟»

أجاب ترفليان: «أجل، يا سيّدي».

«هل كانت الغرفةُ مُحكمةَ الإغلاق بالقفل والمزلاجَيْن من الخارج كما شاهدتُ الآن؟»

«بالتأكيد نعم، يا سيّدي، بموجب نظام السجن».

«من هو آخرُ شخصٍ رآه؟»

«لا بدّ وأنْ يكونَ ريفرز آخرَ من رآه. لقد أخذ إليه كوبًا من الماء بناءً على طلبي».

قال الممرّض متمتمًا: «أوصلتُ كوبَ الماء لكنّه لم يشربْه ولم يَقُلْ أيّ شيء أيضًا. كان ممدّدًا هناك فقط».

«هل كان نائمًا؟» سار هاريمان نحو الدكتور ترفليان وتوقّف عندما لم تعد إلّا بوصاتٌ قليلة تفصل بين الرجلين، وتابع كلامه: «هل تقول لي حقًّا إنّه كان مريضًا يا دكتور، أم هل كان كما اعتقدتُ أنا منذُ البداية – يتظاهر بالمرض، أوّلًا لكي يُنقَل إلى هنا وثانيًا لكي يتمكّن من اختيار اللحظة التي ينسلّ فيها إلى الخارج؟»

أجاب ترفليان: «بالنسبة إلى القسم الأوّل من سؤالك، لقد كان هولمز مريضًا بكلّ تأكيد. على الأقلّ، كانت حرارتُه مرتفعة وخَدَقتاه متوسّعتَيْن وكان العرق يتصبّب بغزارة من جبينه. أستطيع أنْ أشهدَ على ذلك لأنّني عاينتُه بنفسي. بالنسبة إلى القسم الثاني من السؤال، من المستحيل أنْ يكونَ قد تمكّن من السير مُنسلًّا إلى الخارج كما تُشير أنت. أنظرْ إلى الباب بحقّ السماء! لقد كان مقفلًا من الخارج، وليس هناك إلّا مفتاحٌ واحد لم يبارح طاولتي أبدًا. وهناك المزلاجان اللذان كانا مُغلَقَيْن إلى أنْ سَحَبهما ريفرز الآن. وحتّى لو تمكّن هولمز بطريقةٍ عجيبة وغامضة من مغادرة الزنزانة، أينَ تظنّه سيذهب؟ سيتعيّن عليه بدايةً أنْ يعبر هذا المستوصف وأنا كنت جالسًا خلف طاولتي بعدَ ظهر اليوم بكامله. والباب الذي دخلتُم منه، أيّها السادة، كان مقفلًا وهناك بالتأكيد دزّينةٌ من الأقفال والمزاليج بين هذا المكان والبوّابة الخارجية. هل تريد أنْ تقولَ لي أنّه انسلّ متخفّيًا بطريقة ما عبر جميع هذه الأقفال والمزاليج أيضًا؟»

قال هوكينز موافقًا: «من الصحيح حتمًا أنّ التسلّلَ إلى خارج هولواي أمرٌ مستحيل في أقلّ تقدير».

«لا يستطيعُ أحدٌ مغادرةَ هذا المكان إلّا إذا كان إسمُه وود»، قال ريفرز مدمدِمًا ومصطنعًا ابتسامةً وكأنّها لنكتةٍ خاصّة به، وأضاف: «لقد رحل وود بعد ظهر هذا اليوم فقط، لكنّه لم يخرجْ سيرًا على قدمَيْه، ولا أظنّ أنّ أحدًا فكّر في سؤاله إلى أين هو ذاهب ومتى سيعود».

سأل هاريمان: «وود؟ من هو وود؟»

أجاب ترفليان: «جوناثان وود كان هنا في المستوصف، ومن الخطأ أنْ تستهزئ بالأمر يا ريفرز. لقد مات في الليلة الماضية وأُخرِج محمولًا في نعش قبل أقلّ من ساعة».

«نعش؟ هل تقول لي إنّ نعشًا مُغلَقًا أُخرِج من هذه الغرفة؟» استطعتُ أنْ أرى التحرّي وهو يحلّل الأمور في رأسِه وأدركتُ، كما أدرك هو، أنّ هذه كانت الطريقةَ الأكثرَ بديهيةً، بل الوحيدةَ في الواقع، لفرار هولمز. استدار هاريمان نحو الممرّض وسأله: «هل كان النعش هنا عندما جلبتَ الماء؟»

«من المحتمل أنّه كان هنا».

«هل تركتَ هولمز وحدَه حتّى للحظاتٍ قليلة؟»

«كلّا، يا سيّدي، ولا لثانية واحدة. لم أُبعد عينَيَّ عنه على الإطلاق». راح الممرّض يعدّل وقفتَه على قدمَيْه وأضاف يقول: «حسنًا، ربّما وجّهتُ اهتمامي إلى كولينز عندما أُصيبَ بنوبته».

صاح ترفليان: «ما هذا الكلام الذي تقوله يا ريفرز؟»

«فتحتُ الباب. دخلت. كان مستغرقًا في نوم عميق على السرير. ثمّ بدأ كولينز في السعال. وضعتُ الكوبَ من يدي وهُرِعت خارجًا إليه».

«ماذا حدث بعد ذلك؟ هل رأيتَ هولمز من جديد؟»

«لا، يا سيّدي. هدّأتُ كولينز ثم رجعتُ وأقفلتُ الباب».

سادَ صمتٌ طويل، وقفْنا جميعُنا هناك نتبادل النظرات وكأنّنا نتريّث لنرى من الذي سيتكلّم قبل الآخرين.

كان البادئ هاريمان. سأل بانفعال: «أين النعش؟»

أجاب ترفليان: «من المفترض أنْ يكون قد حُمل إلى الخارج حيث تكون عربةٌ في انتظاره لتنقلَه إلى متعهّد دفن الموتى في ني ماسويل هيل». أخذ معطفَه خطفًا، وقال: «ربّما لم يَفُت الوقتُ بعد. إذا كانت العربةُ لا تزال هنا نستطيع إيقافَها قبل أن تغادر».

لن أنسى أبدًا التقدُّمَ الذي حقّقناه عبر السجن. انطلق هوكينز في المقدِّمة وإلى جانبه هاريمان المستشيطُ غضبًا، وتبعهما ترفليان وريفرز وكنتُ أنا الأخير بعدهم وما زلت أحمل في يدي الكتابَ والمفتاح في داخله. كم بدا الاثنان تافهَيْن الآن، فحتّى لو استطعتُ أنْ أوصلَهما إلى صديقي ومعهما سلّمٌ وحبل لما تمكّن أبدًا من مغادرةِ هذا المكان بمجهوده وحده. ولم نتمكّن نحنُ أنفسُنا من المغادرة إلّا بفضل هوكينز الذي كان يعطي إشاراتٍ

للحرّاس المختلفين. كانت الأقفالُ تُفتح والأبواب تُشرَّع، الواحد إثر الآخر. لم يعترضْ طريقَنا أحد. أخذْنا مسارًا غير الذي أتيتُ عبرَه أصلًا لأنّنا مررنا في هذه المرّة أمام غرفةِ غسيل فيها رجالٌ يتصبّبون عرقًا أمام أحواضٍ كبيرة الحجم وغرفةٍ أخرى مليئةٍ بالمراجل والأنابيب المعدنيّة الملتفّة تؤمّن تدفئة السجن. وختامًا، عبرنا فناءً معشوشبًا أصغرَ حجمًا، وبلغنا موضعًا كان بكلّ تأكيد مدخلًا جانبيًا. هنا فقط حاول حارسٌ سدَّ طريقنا طالبًا رؤيةَ رسائل التفويض الخاصّة بنا.

صاح فيه هاريمان مؤنّبًا: «لا تكن أحمقَ لعينًا. ألا تعرفُ رئيسَ الحرس الذي تعمل تحت أمرته؟»

تبعه هوكينز قائلًا: «إفتح البوّابة. لا نملك لحظةً واحدة نخسرها».

نفّذ الحارسُ الأمر الصادرَ إليه، وعبرنا نحن الخمسة إلى الخارج.

وجدتُ نفسي حتّى أثناء سيرنا أفكّر في عدد الظروف الغريبة التي تجمّعت لتُتيحَ هروبَ صديقي. لقد تظاهر بالمرض وتمكّن من خداع طبيبٍ متمرّس. حسنًا، كان ذلك سهلًا إلى درجة كافية، وقد سبق له أنْ فعل معي أمورًا مشابهةً جدًّا. لكنّه أدخلَ نفسَه بسعةِ حيلتِه إلى إحدى غرف المستوصف في ذاتِ الوقتِ تمامًا الذي جُلِب فيه نعشٌ إليها، وتمكّن علاوةً على ذلك من استغلالِ وجودِ بابٍ مفتوح ونوبةِ سعال وبلادة ممرّضٍ متخلّف عقليًا. بدا الأمرُ برمّته أروعَ من أن يكونَ حقيقيًا. ولم يكن ذلك ليهمّني طبعًا بأيّ شكل من الأشكال، وإذا كان هولمز قد وجد حقًّا وسيلةً عجائبيّة للخروج من هذا المكان فلن أشعر إلّا بفرحةٍ عامرة. لكنّني كنتُ متأكّدًا، بالرغمِ من كلّ شيء، من وجود خطبٍ ما، من كوننا قفزنا إلى استنتاج خاطئ، أو ربّما كان هذا ما اعتزمه تمامًا.

وجدنا أنفسَنا وسط طريقٍ عريض مليء بالأخاديد يمتدّ بمحاذاة السجن ويحدُّ الجدارُ العالي إحدى جهتَيْه وصفٌّ من الأشجار جهتَه الثانية. أطلق هاريمان صرخةً وأشار بيده. كانت هناك عربةُ نقلٍ تقف منتظرة فيما كان رجلان يحمّلان صندوقًا في طرفها الخلفي. كان جليًّا من حجم الصندوق وشكله أنّه نعشٌ موقّت، وعليّ أنْ أعترف بأنّني شعرتُ بلحظة ارتياح عندما

رأيته. وكنتُ مستعدًا لأنْ أهِبَ أيَّ شيء تقريبًا بصورة فورية لكي أرى شرلوك هولمز وأُطمئِنَ نفسي إلى أنّ مرضَه كان مُصطنعًا بالفعل ولم يأتِ نتيجةَ تسميم عمديّ. لكنّ فرحتي العارمَة القصيرة سرعان ما تبخّرتْ وحلّ مكانها خوفٌ شديد فيما كنّا نحثّ الخُطا قُدُمًا. فإذا عثروا على هولمز واعتقلوه، سيعيدونه إلى السجن جرًا، وسيحرص هاريمان على أنْ لا يحظى أبدًا بفرصة ثانية وأنْ يبقى بعيدًا تمامًا عن متناول يدي.

صرخ: «توقّفا مكانكما». سرّع خطواته نحو الرجلين اللذين أساءا التعاملَ مع الصندوق وحملاه موروبًا وهما يرفعانه إلى العربة. تابع قائلًا: «أنزِلا النعش إلى الأرض من جديد! أريد أنْ أفحصَه». كان الرجلان عاملَيْن فظّيْن متّسِخَيْن بدا من هيئتَيْهما أنّهما أبٌ وابنُه. نظر أحدُهما إلى الآخر نظرة تساؤل قبل أنْ يمتثلا للأمر. وضعا النعش على حصى الطريق. «إفتحاه».

تردّد الرجلان هذه المرّة – فحمْلُ جثّةِ شخصٍ ميّت عملٌ بحدّ ذاته، لكنّ التفرّج عليها أمرٌ مختلفٌ تمامًا.

قال لهما ترفليان مطمئنًا: «لا بأسَ في ذلك». كان الأمرُ الغريب أنّني أدركتُ في تلك اللحظةِ عينِها كيفَ عرفتُ هذا الرجل وأين التقينا من قبل.

كان اسمُه الكامل بيرسي ترفليان، وقد سبق له أنْ جاء إلى مسكنِنا في شارع بيكر ستريت قبل ستّ سنواتٍ أو سبع لأنّه كان في حاجة ماسّة إلى خدمات صديقي. تذكّرتُ الآن أنّه كان ثمّةَ مريضٌ اسمُه بليسنغتون يقوم بتصرّفات غامضة وقد عُثِر عليه في آخر الأمر مشنوقًا في غرفته... وافترضَتِ الشرطة أنّ الرجل انتحر، وهو رأيٌ عارضه هولمز بصورة فوريّة. استغربتُ أنّني لم أدركْ هويّتَه فورًا لأنّني كنتُ معجبًا بترفليان ودرستُ أبحاثَه عن الأمراض العصبية – علمًا أنّه فاز بجائزة بروس ينكرتون المرموقة. لكنّ الظروف لم تكن رئيفةً به آنذاك، ومن الواضح أنّها ازدادت سوءًا بعد ذلك لأنّه هرِم كثيرًا وبدت عليه ملامحُ الإرهاق والإحباط التي غيّرت مظهرَه. وتذكّرتُ أنّه لم يكن يضع نظّارتين عندما التقينا لأوّل مرّة وقد تراجعتْ صحّتُه بصورة واضحة، لكنّه كان هو بالتأكيد. وقد تدنّت مرتبتُه ليصبحَ طبيبَ سجن، وهي مرتبةٌ أدنى كثيرًا ممّا يستحقّه رجلٌ له مثلُ كفاءاته. وخطر لي بإحساسٍ من الإثارةِ حرصتُ على

إخفائه أنّه لا بدّ وأنْ يكونَ متواطئًا في عمليةِ الفرار هذه. ومن الثابت أنّه كان مدينًا بالعرفان لهولمز وإلّا لماذا تظاهر بأنّه لا يعرفني؟ الآن فهمتُ كيف دخل هولمز إلى النعش أساسًا. لقد أعطى ترفليان ممرّضةُ التفويضَ عمدًا، وإلّا لماذا ائتمن رجلًا كان من الواضح أنّه غيرُ مؤهّل لمثل هذه المسؤولية؟ ومن المؤكّد أنّ النعش كان موضوعًا في مكانٍ قريب وأنّ كلّ شيء كان مخطّطًا لَهُ سلفًا. والمؤسفُ في الأمر أنّ العاملَيْن كانا بطيئَيْن جدًّا في إتمام عملهما. كان من المفترض أنْ يكونا قد قطعا نصفَ الطريق إلى ماسويل هيل في هذه الأثناء. إذًا، كانت مساعدةُ ترفليان غيرَ ذاتِ جدوى.

أحضر أحدُ العاملَيْن مُخلًا، وكنتُ أراقب عندما وُضِع طرفُه تحت غطاء النعش. ضغط العامل نزولًا فانفتح الغطاء عنوةً وتشظّى الخشب. تقدّم العاملان معًا ورفعا الغطاء، وخطونا جميعًا، هاريمان وهوكينز وترفليان وأنا، كرجل واحد إلى قرب النعش.

قال ريفرز بصوت صادر من أنفه: «إنّه هو. هذا جوناثان وود».

تبيَّن أنّ قولَه صحيح. كان للجثّةِ الممدّدة في النعشِ محدّقةً إلى أعلى، وجهٌ أغبرُ اللون وجسمٌ شديدُ النحول، ولم تكُنْ لشرلوك هولمز بالتأكيد، كما كانت ميّتةً بلا ريب.

كان ترفليان أوّلَ مَن استعادَ رباطةَ جأشه. صاح: «بالطبع هذا وود. سبق وقلتُ لكم ذلك. لقد فارق الحياة في الليل بسبب التهابِ في الشريان التاجيّ.» أومأ للعاملَيْن وقال: «تستطيعان إغلاقَ النعش وتحميلَه على العربة».

قال هوكينز بصوت عالٍ: «لكنْ أين شرلوك هولمز؟»

أجابه هاريمان: «لا يمكنه أنْ يكونَ قد غادر السجن. لقد خدَعَنا بشكلٍ ما، لكنّه ما زال في الداخل حتمًا يتحيّن فرصتَه. علينا أنْ نطلقَ إنذارًا وأنْ نفتّش المكان من أعلى إلى أسفل».

«لكنّ ذلك سيستغرقُ الليلَ بطوله».

كان وجهُ هاريمان مخطوفَ اللون مثل شعره. استدار على عقبه وهو يرفس تقريبًا من شدّة غيظه، وقال: «لا يهمّني إذا استغرق التفتيشُ أسبوعًا كاملًا. يجب العثورُ على هذا الرجل».

لم يُعثر عليه. وبعد يومين. كنتُ جالسًا وحدي في مسكن هولمز أقرأ مقالًا عن الأحداث التي شهدتُها بنفسي:

ما زالت الشرطة غير قادرة على تفسير الاختفاء الغامض للتحرّي الاستشاري المشهور شرلوك هولمز الذي كان محتجزًا في سجن هولواي في ما يتعلّق بجريمة قتل امراة شابّة في ساحة سوبرغيت سكوير. واتّهم المفتّشُ ج. هاريمان المسؤولُ عن التحقيق سلطاتِ السجن بالإهمال الوظيفيّ، وهي تهمةٌ نُفِيت نفيًا قاطعًا. وتبقى حقيقةُ أنّ السيّد هولمز نجح بصورةٍ ما في الاختفاء من زنزانةٍ مقفلة والانسلال عبر دزينةِ أبوابٍ محكمة الإغلاق على نحو يبدو وكأنّه منافٍ لقوانين الطبيعة. وقد عرضَتِ الشرطة جائزةً قيمتها 50 جنيهًا لأيّ شخص يستطيع تزويدَها معلوماتٍ تؤدّي إلى كشفِ مكان وجوده واعتقاله.

تجاوبت السيّدة هادسون مع هذه الأحداث الغريبة بقدرٍ ملحوظٍ من اللامبالاة. وكانت قد قرأتْ مقالات الصحف بالطبع، ولم تصدرْ عنها إلّا جملةٌ قصيرةٌ واحدة عندما قدّمت لي طعامَ الفطور، قالت: «هذا كثيرٌ من الهراء، يا دكتور واطسون». ولقد بدتْ وكأنّها تلقّت هي نفسُها إهانةً شخصيّة. ومن المريح لي الآن بعد كلّ هذه السنين الطويلة أنْ أفكّرَ في أنّها كانت تثق ثقةً كاملة في أشهر نزلائها. لكنّها ربّما كانت تعرفُه أفضلَ ممّا عرفه أيُّ شخص آخر وقد احتملتْ جميعَ أنواع سلوكه الغريب خلال الفترة الطويلة التي أمضاها ساكنًا لديها، ومن بينها استقبالُه روّادًا يائسين وغيرَ مرغوب فيهم، عزفُه على الكمان حتّى ساعة متأخّرة من الليل، إصابتُه بنوباتٍ عصبية بين حينٍ وآخر بسبب تعاطيه الكوكايين السائل، معاناتُه حالاتٍ مديدة من الاكتئاب، إطلاقُه الرصاصَ على ورق الجدران، وحتّى دخّانُ غليونه. صحيح أنّ هولمز كان يدفع لها بسخاء، لكنّها نادرًا ما تذمّرت وظلّت مخلصةً له حتّى النهاية. وبالرغم من أنّها كثيرًا ما تَظهَر على صفحاتي دخولًا إليها وخروجًا منها، فإنّني لم أعرفْ إلّا نذرًا يسيرًا عنها في الواقع، ولا حتّى كيفَ توصّلتْ إلى امتلاك المنزل رقم 221 في شارع بيكر ستريت (أظنّ أنّها ورثَتْه عن زوجها بالرغم من أنّني لا أعلم ماذا حدث له). وقد عاشت وحدها بعد رحيل هولمز. وليتني كنتُ أكثرتُ الكلامَ معها وقلّلتُ الاستهانةَ بها.

مهما يكن من أمر، فقد قاطعَ جلستي وصولُ تلك السيّدة ومعها زائرٌ آخر. كنتُ قد سمعتُ جرسَ الباب بالفعل ثمّ وقْعَ أقدام على الدرج، لكنّني بالكاد وَعَيتُ هذه الأصواتَ بسبب عمقِ انشغالي. لذا كنتُ غير مهيّأ لزيارة القسّيس تشارلز فيتزسيمونز مدير مدرسة كورلي غرينج. وأخشى أنّني حيّيتُه بنظرة اندهاش مُطلَق وكأنّنا لم نلتقِ أبدًا من قبل. والواقع أنّ ارتداءَه معطفًا أسودَ سميكًا وقبّعةً ووشاحًا ملفوفًا حول ذقنه ساهم فعلًا في إعطائه سمة شخصٍ غريب، كما جعلتْه ثيابُه يبدو أكثر بدانةً ممّا كان سابقًا.

قال، وهو يحرّر جسمَه من هذه الملابسِ الخارجية لتظهرَ ياقتُه الكهنوتية التي كان ينبغي أنْ توقظَ ذاكرتي فورًا: «أرجو أنْ تعذرني لمقاطعتك، يا دكتور واطسون. لم أكنْ متأكّدًا ممّا إذا كنتُ سآتي إلى هنا، لكنّني شعرتُ بأنّ عليّ أنْ... عليّ! لكنْ يجب أنْ أطرح عليك سؤالًا في البداية، يا سيّدي. هل هذه القصّةُ الغريبةُ المتعلّقة بالسيّد شرلوك هولمز صحيحة؟»

أجبتُه: «صحيحٌ أنّ هولمز مشتبَهٌ فيه في جريمة هو بريء منها براءةً تامّة».

«لكنّني أقرأ الآن أنّه هرب، أنّه نجح في التملُّص من قبضة القانون».

«نعم، يا سيّد فيتز سيمونز. وقد نجح كذلك في تجنُّب الجهات التي تتّهِمُه بطريقة تشكّل لغزًا حتّى بالنسبة إليّ».

«هل تعرف أين هو؟»

«لا فكرة لديّ».

«والطفل روس. هل لديك أيّ خبر عنه؟»

«بأيّ معنى؟»

«هل عثرتُما عليه؟»

كان من الواضحِ أنّ أنباء الميتةِ الرهيبة لهذا الصبيّ قد فاتت فيتز سيمونز بشكلٍ ما، علمًا أنّ اسمَ روس لم يُذكر فعلًا في التقارير الصحافية – كما خطر لي – بالرغم من جنوحها الشديد إلى الإثارة. لذا أصبح من واجبي أنا أنْ أبلغَه الحقيقة. قلتُ له: «أخشى أنّنا كنّا متأخّرين. لقد وجدنا روس بالفعل، لكنّه كان قد مات».

«مات؟ كيف حدث ذلك؟»

«ضربه أحدُهم ضربًا مبرّحًا وتركه ليموتُ على ضفّة النهر بالقرب من جسر ساوثورك بريدج».

رفّت عينا مدير المدرسة وارتمى بكلّ ثقله على مقعد وهو يصرخ: «أيّها الربّ العزيز في السماء! من يفعل مثل هذا الشيء لطفل؟ كم من الشرّ يوجد في هذا العالم؟ إذًا، أصبحتْ زيارتي لك غيرَ ذات معنى، يا دكتور واطسون. ظننتُ أنّني قد أتمكّن من مساعدتك في العثور عليه لأنّني وجدتُ دليلًا – والأصحّ أنّ زوجتي العزيزة جوانا هي التي اكتشفتْه، وقد جلبتُه لك على أملِ أنْ تكونَ على علم بمكان وجود السيّد هولمز لكي تسلّمه إيّاه، لعلّه يستطيع بالرغم من مشاغله الخاصّة...».
ضَعُفَ صوتُه، ثم تابع يقول: «لكنّ الوقتَ فات الآن. ما كان يجوز أبدًا لهذا الطفل أنْ يغادر مدرسةَ كورلي غرينج. كنتُ أعرف أنّ لا خيرَ سيتأتّى عن ذلك».

سألتُه: «ما هذا الدليل؟»

«إنّه معي. كما قلتُ لك، كانت زوجتي هي التي عثرت عليه في قاعةِ نوم التلاميذ عندما كانت تقلب الحشيّات – ونحن نفعل ذلك بين حين وآخر لتهوئها وتطهيرها. ولدى بعض الصبية قملٌ... ونحن نشنّ حربًا مستمرّةً على هذه الحشرات. في أيّ حال، يشغل طفلٌ آخر الآن السرير الذي كان روس ينام فيه، لكنْ كان ثمّةَ دفترٌ مخبّأ هناك». أخرج فيتز سيمونز كرّاسًا رقيقًا ذا غلافٍ خشن باهتٍ ومُجعّد. كان هناك اسمٌ مكتوبٌ بقلمِ رصاص وبخطّ يد طفل على الغلاف الأمامي:

روس ديكسون

«لم يكن روس يعرف القراءةَ ولا الكتابة عندما جاء إلينا، لكنّنا سعينا إلى تعليمه المبادئَ الأساسية. ويُعطى كلُّ تلميذ في المدرسة دفترًا وقلمًا. وسترى داخلَ دفترِه أنّه تخلّى عن كتابةِ تمارينه. الدفتر كلُّه فوضى عارمة، ويبدو أنّ روس أمضى جزءًا كبيرًا من وقتِه في الخربشة. لكنْ عندما دقّقنا في الدفتر، اكتشفنا هذا الأمر وبدا لنا أنّه ذو أهمّية».

كان قد فتح الكرّاسَ في منتصفه ليُريَني ورقةً مطويّةً بعناية ومدسوسةً داخلَه كما لو كانَ القصدُ تخبئتَها عمدًا. أخرج الورقةَ وفتَحَها وفَرَدَها على

الطاولة كي أراها. كانت إعلانًا، منشورًا رخيصًا للدعاية لمهرجانِ ألعابٍ وتسلية من النوع الذي كنتُ أعرفُ أنّه انتشر مرّةً في مناطقَ معيّنةٍ مثل آيلنغتون وتشيبسايد، لكنّه أصبح أندرَ وجودًا بعد ذلك. كان النصّ مزدانًا بصور ثعبان وقرد وحيوان مدرّع[1]. كان هذا نصّ الإعلان:

بيت عجائب الدكتور سيلكين
أقزام، بهلوانيون، السيّدة البدينة
والهيكل العظميّ الحيّ
عرض لعجائب من الزوايا الأربع للكرة الأرضية
رسم الدخول: بنس واحد
شارع جاكدولين، هوايتشابل

قال القسّ فيتز سيمونز: «من شأني طبعًا أنْ أنهى صبيان مدرستي عن الدخول إلى مثل هذه الأماكن ولو مرّةً واحدة. عروض المُسوخ، مسارح المنوّعات، حِيَل البنس الواحد... يدهشني أنْ تتغاضى مدينةٌ عظيمة مثل لندن عن مثل هذه الملاهي حيث يُحتفَل بكلّ ما هو بذيء ومنافٍ للطبيعة، ما يذكّرني بدروس سدوم وعامورا. أقول لك ذلك يا دكتور واطسون، لأنّ من المحتمل أنْ يكونَ روس قد خبّأ هذا الإعلان لمعرفته أنّه مخالفٌ لروح مدرسة كورلي غرينج. وربّما كان ذلك تعبيرًا عن تمرُّده. وكما قالت لك زوجتي، كان روس صبيًّا عنيدًا جدًّا».

قاطعتُه قائلًا: «لكنْ من المحتمل أيضًا أنْ تكون للإعلان علاقةٌ به. فبعد أنْ غادركم، بحَثَ عن ملاذٍ لدى عائلة في منطقةِ كنغر كروس وكذلك لدى شقيقته، لكنْ ليست لدينا أيُّ فكرة عن المكان الذي كان فيه قبل ذلك، ومن الممكن أنْ يكون قد تواجد مع هذه المجموعة من الناس».

«بالضبط. لديّ شعورٌ بالثقة بأنّ الأمر يستأهلُ تحقيقًا، ولهذا السبب جلبتُ الدفتر إليك». لملم فيتز سيمونز حاجاته، ونهض واقفًا على قدميه. سألني: «هل من الممكن أنْ تكونَ على تواصل مع السيّد هولمز؟»

[1] Armadillo: الحيوان المدرّع، وهو من ثدييات أميركا الجنوبية تغطّي جسمَه صفائح عظميّة لحمايته (المترجم).

«ما زلتُ آمل أنْ يتّصل بي على نحوٍ ما».

«في هذه الحالة سترى ما هو رأيه في المسألة. أشكرك على منحي بعضًا من وقتِك، يا دكتور واطسون. إنّني مصدومٌ جدًّا جدًّا بشأنِ روس الصغير. وسنصلّي من أجله في كنيسة المدرسة يوم الأحد القادم. كلّا، لا لزومَ لمرافقتي إلى الخارج. سأجد الطريق بنفسي».

حمل معطفَه ووشاحَه، وغادر الغرفة. حدّقتُ إلى الورقة التي تركها وسمحتُ لعينيّ بالتجوُّل فوق الكتابة المبهرجة والرسوم البدائيّة. أعتقد أنّني قرأتُ الورقة مرّتين أو ثلاث مرّات بالتأكيد قبل انْ أُلاحظَ ما كان ينبغي أنْ يكونَ بديهيًّا بالنسبة إليّ منذ البداية. لكنْ لم يكن هناك مجالٌ للالتباس. بيت عجائب الدكتور سيلكين. شارع جاكدولين. هوايتشابل.

لقد عثرتُ للتوّ على بيت الحرير.

17

رسالة

عادت زوجتي إلى لندن في اليوم التالي. وكانت قد أرسلتْ لي برقية من كامبرويل تُعلِمني فيها بوصولها، وكنتُ أنا في انتظارِها في محطّة هولبورن فياداكت عندما توقّف قطارُها. ولا بدّ لي من القول إنّني ما كنتُ لأغادرَ شارع بيكر ستريت لأيّ سبب آخر. كنت لا أزال واثقًا بأنّ هولمز سيحاولُ الوصولَ إليّ، وهالتْني فكرةُ أنْ يتمكّن هو من الوصولِ إلى مسكنِه بكلّ ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر ليكتشفَ أنّني لستُ موجودًا هناك. لكنْ لم يكن في استطاعتي أيضًا التفكيرُ في السماحِ لماري بعبور المدينة بدون مرافقة، ومن أعظمِ الفضائل التي كانت تتمتّع بها تسامُحها واحتمالُها فتراتِ غيابي الطويلة برفقةِ شرلوك هولمز. لم تتذمّر أبدًا بالرغم من معرفتي أنّها كانت تقلق من أنّني أعرّض نفسي للخطر. وكنتُ مدينًا لها الآن بشرحِ ما حدث أثناء غيابها وإبلاغها أنّنا قد نُضطَرُّ، للأسف، إلى الانتظار فترةً من الزمن قبل أنْ نتمكّن من العودةِ إلى العيش معًا بصورة دائمة. والواقعُ أنّني افتقدتُها وكنتُ متشوّقًا لرؤيتها من جديد.

هذا الآن الأسبوعُ الثاني من شهر كانون الأوّل، وبعد الطقسِ السيّئ الذي ابتدأ به الشهر كانت الشمس ساطعةً الآن، وبالرغم من البرد القارس، بدا كلُّ شيء متوهّجًا بشعور الرفاه والبهجة. وكادت الأرصفةُ تختفي عن الأنظار في خضمّ تزاحم الأُسَر القادمة من الأرياف ومعها أطفالٌ وسّعت

الدهشةُ عيونَهم وربّما كانت أعدادُهم كافية لملءِ مدينة صغيرة بالسكّان. كان عمّالُ جرفِ الجليد وتنظيفِ معابر المشاة يقومون بعملهم فيما تألّقت متاجرُ الحلوى والبقاليات بزينات جميلة. وكانت جميعُ نوافذ العرض تحتوي على دعاياتٍ لمحلّات بيع أوَزّ العيد وروستو البقر وحلوى البودينغ وسط جوّ عابق برائحة السكّر المحروق واللحم الحلو[1]. وعندما ترجّلتُ من عربتي وشققتُ طريقي عبر الحشود نحو المحطّة، فكّرتُ في الظروف التي أبعدتني عن هذه النشاطات الاحتفالية وعن المباهجِ اليومية التي توفّرها لندن في موسم الأعياد. ولعلّ ذلك كان الجانبَ السلبيّ لارتباطي مع شرلوك هولمز، هذا الارتباط الذي جرّني إلى أماكنَ داكنةٍ لا يختار أحدٌ الذهابَ إليها طوعًا في الواقع.

لم يقلّ ازدحامُ المحطّة عن ازدحام الشوارع، وكانت القطارات تصل في مواعيدها المقرّرة وامتلأت أرصفةُ الركّاب برجال شباب – يحملون رزمًا وطرودًا وسلالًا ويتحرّكون جيئةً وذهابًا بحماسٍ كأرنب أليس الأبيض[2]. وكان قطار ماري قد وصل فعلًا وعمدتُ لفترة قصيرة عن تحديد موقعِها فيما كانت الأبوابُ تُفتَحُ وأناسٌ إضافيّون يتدفّقون إلى العاصمة. لكنّني شاهدتها بعد هنيهة، وفيما كانت تهبط من عربتها حدثَ أمرٌ أقلقني للحظة. فقد ظهر رجلٌ يجرجر قدميه على الرصيف متقدّمًا نحوها وكأنّه يوشك على مخاطبتها. لم يكن في استطاعتي إلّا أنْ أشاهدَه من الخلف، ولولا سترتُه غير الملائمة له وشعرُه الأحمر لما تمكّنتُ من التعرُّف إليه ثانيةً. بدا وكأنّه كلّمها لبرهة قصيرة ثم صعد إلى القطار واختفى عن الأنظار. لكنْ ربّما كنتُ مخطئًا. وعندما دنوتُ منها، رأتني وابتسمتُ، ثمّ ضممتُها بين ذراعيّ وسرنا معًا نحو المدخل حيث كان سائقُ العربة ينتظرني بناء على طلبي.

كان لدى ماري الكثيرُ ممّا أرادتْ أنْ تخبرني به عن زيارتها. قالتْ إنّ السيّدة فورستر ابتهجتْ برؤيتها وقد أصبحت الاثنتان أقربَ رفيقتَيْن بعد أنْ صارت علاقتُهما السابقة كمربّية وربّة عمل جزءًا من الماضي قبل زمن طويل.

[1] Mincemeet : يُسمّى اللحم الحلو في دول الشمال الأفريقي وهو كناية عن لحم مفروم أو مقطّع يُطهى مع الزبيب والتفاح البرقوق والسكّر (المترجم).

[2] من قصّة أليس في بلاد العجائب *Alice in Wonderland* (المترجم).

وكان الصبيّ ريتشارد مهذّبًا حسنَ السلوك وقد تحوّل إلى رفيقٍ ممتع بعد أنْ بدأ في التعافي من مرضه. وكان أيضًا قارئًا تائهًا لرواياتي! وكان المنزل كما رسخ في ذاكرتها، مريحًا ومضيافًا. كانت الزيارةُ كلُّها ناجحة باستثناء معاناتها صداعًا خفيفًا والتهابًا في الحلق ألمّا بها في الأيّام القليلة الماضية ثم ازدادا بفعل السفر. بدتْ متعبةً، وعندما ألححتُ عليها بالسؤال، شَكَتْ من شعورٍ بالثِقَل في عضلاتِ ذراعَيْها ورجلَيْها، وقالت: «لكن لا تقلق بشأني يا جون. وسأعود معافاةً كما عهدتَني بعد أنْ أستريح وأشرب كوبًا من الشاي. أريد أنْ أسمعَ جميعَ أخبارك. ما هذه القضيةُ الغريبة التي كنتُ أقرأ أخبارَها بخصوص شرلوك هولمز؟»

أتساءلُ إلى أيّ مدى يجب أنْ ألومَ نفسي على عدم مبادرتي إلى فحص ماري بمزيد من الدقّة. لكنّني كنتُ شديدَ الانشغال، كذلك قلّلتْ هي شأنَ مرضها. وكنتُ أفكّر أيضًا في الرجل الغريب الذي بادرها بالكلام. ومن المرجّح، إلى حدٍّ بعيد، أنّه لم يكن هناك ما أستطيعُ القيامَ به حتّى لو عرفتُ ما خطبه. ومع ذلك، فقد تعيّن عليّ دائمًا أنْ أتعايشَ مع إدراكي أنّني استخففتُ بشكواها وفشلتُ في اكتشاف الأعراض المبكّرة لحمّى التيفوئيد التي اختطفَتْها منّي قبل أوانها بكثير.

كانت هي التي أثارت موضوعَ الرسالة بعد انطلاقنا في العربة مباشرةً. سألتْني: «هل رأيتَ ذلك الرجل قبل قليل؟»

«قرب القطار؟ نعم، لقد رأيتُه. هل كلّمك؟»

«خاطبني باسمي».

ذُهلتُ وسألتُها: «ماذا قال؟»

«قال فقط صباح الخير، يا سيّدة واطسون. كان فظًّا جدًّا وأظنّ أنّه عامل يدوي، وقد دسّ هذا في يدي».

أرتْني كيسًا صغيرًا من القماش كانت قابضةً عليه في يدها طول الوقت، لكنّها كادت تنسى أمرَه في خضمّ فرحةِ لقائنا واضطرارِنا إلى التعجيل في مغادرة المحطّة. ناولتني الكيس الآن وكان في داخله شيءٌ ثقيل. وظننتُ في بادئ الأمر أنّه قد يحتوي على قطع نقود لأنّني سمعتُ رنينًا معدنيًّا،

لكنّني اكتشفتُ بعد أنْ فتحتُه وأفرغتُ محتوياته في راحة يدي أنّني كنتُ ممسكًا بثلاثة مسامير صلبة.

سألتُها: «ما معنى هذا؟ هل قال الرجل أيّ شيء آخر؟ هل تستطيعين أنْ تصِفيه؟»

«لا أستطيع ذلك حقًّا، يا عزيزي. بالكاد لمحتُه، فقد كنتُ أنظر إليكَ أنت. كان شعرُه كستنائيًا كما أعتقد ووجهُه قذرًا وغير محلوق. هل هذا مهمّ؟»

«لم يقلْ شيئًا آخر؟ هل طلب مالًا؟»

«قلتُ لك. حيّاني باسمي؛ ولا شيء أكثر من ذلك».

«لكنْ، لماذا بحقّ السماء يريد شخصٌ إعطاءَك كيس مسامير؟» ما إن خرجتْ هذه الكلمات من فمي حتّى فهمتُ فأطلقتُ صرخةَ ابتهاج وصحتُ: «بالطبع! ذي باغ أوف نيلز (كيس المسامير)».

«ما الأمر، يا عزيزي؟»

«أعتقد، يا ماري، أنّك قد تكونين التقيتِ هولمز نفسَه للتوّ».

«لم يكن الرجل يشبهه على الإطلاق».

«هذه هي الفكرةُ بعينها».

«كيس المسامير هذا، هل يعني شيئًا بالنسبة إليك؟»

«إنّه يعني الكثيرَ الكثير. أرادني هولمز أنْ أعودَ إلى إحدى الحانتَيْن اللتَيْن قصدناهما عندما كنّا نبحث عن روس. كان اسم كلَيْهما ذي باغ أوف نيلز. لكنْ أيًا منهما عنى هولمز؟ من المؤكّد أنّه لم يعنِ الحانةَ الثانية في لامبث لأنّ سالي ديكسون كانت تعمل هناك، وهذا أمرٌ معروفٌ لدى الشرطة. إجمالًا، الأرجح أنْ يكون عنى الحانةَ الأولى في شارع إيدج لين لأنّه كان بالتأكيد خائفًا من أنْ يُرى، وذلك واضحٌ من الطريقة التي اختارها للتواصل معي. لقد كان متنكّرًا، ولو شاهده أيُّ شخص يخاطب ماري وحاول اعتقالها أو اعتقالي على رصيف المحطّة، لما وجد معنا شيئًا إلّا كيسَ قماش يحتوي على ثلاثةِ مسامير نجّارين ولا أيّ مؤشّر إلى أنّ رسالةً قد مُرّرت».

«يا عزيزتي، أخشى أنّني سأضطرّ إلى تركك لحظةَ وصولنا إلى المنزل».

«أنتَ لستَ معرّضًا لأيّ خطر، أليس كذلك يا جون؟»

«هذا ما أرجوه».

تنهّدت قائلة: «أعتقد في بعض الأحيان أنّك مولع بهولمز أكثر ممّا أنت مولَعٌ بي». رأتُ النظرةَ التي ارتسمتْ على وجهي فربّتَتْ على يدي بلطف وقالت: «أنا أمزح معك فقط، وليس من الضروري أنْ ترافقني كلَّ المسافة إلى كنزنغتون. نستطيع التوقُّف عند الناصية التالية لتنزل أنتَ، ثمّ يمكنُ للسائق أن يحملَ حقائبي وفي وسعي أنْ أدخل إلى المنزل وحدي». تردّدتُ، فحدجتني بنظرةٍ أكثرَ جدّية وقالت: «إذهبْ إليه، يا جون. إذا كبّد هو نفسَه كلّ هذا العناء ليبعث إليك برسالة، فلا بدّ وأن يكون واقعًا في مأزق ويحتاج إليك. لا يمكنك أنْ ترفض الذهاب».

هكذا فارقتُها، ولم أكنْ آخذًا حياتي في يديّ فحسب، بل كنتُ على وشك فقدانها عندما كادت عربةُ ركّاب أنْ تدهسني في شارع ستراند. وخطر لي أنّه إذا كان هولمز متخوّفًا من التعرُّض للمتابعة، فعليّ أنا أنْ أحذو حذوَه، لذا كان من الهامّ جدًّا أنْ لا أُشاهدَ. مررتُ متعرّجًا بين عرباتٍ مختلفة ووصلتُ بعد لَأيٍ إلى أمانِ الرصيف حيثُ دقّقتُ النظر حولي بعناية ثم عدتُ أدراجي على الطّريق الذي أتيتُ منه إلى أنْ بلغتُ القسمَ الكئيبَ البائس من منطقة شورديتش بعد حوالى ثلاثين دقيقة. تذكّرت الحانةَ جيّدًا كمحلٍّ متداعٍ بدا في نور الشمس أفضلَ حالًا ممّا كان في طيّات الضباب، عبرتُ الشارع ودخلت.

كان هناك رجلٌ واحد جالسٌ في بار الحانة، ولم يكن شرلوك هولمز. فوجئتُ بشدّة، وتوجّستُ إلى حدٍّ ما عندما تعرّفتُ إليه كالرجل المدعو ريفرز الذي كان يساعد الدكتور ترفليان في سجن هولواي. لم يكن مرتديًا بزّته الرسمية، لكنّ ملامحَه كانت واضحة لا لبسَ فيها، من تعابيره الخاوية إلى عينَيْه الغائرتَيْن وشعرِه البنّي الأشعث. كان يجلس متراخيًا إلى طاولة وأمامه كأس من جعة ستاوت.

صحتُ به: «سيّد ريفرز!».

«إجلس معي، يا واطسون. من الجميل جدًّا أنْ أراك من جديد».

كان هولمز هو الذي تكلّم – وفي تلك اللحظة أدركتُ – كيفَ خُدِعتُ وكيفَ تدبّر هو أمرَ فرارِه من السجن تحت أنظاري. وأعترفُ بأنّني كدتُ أقعُ

على الكرسيّ الذي أومأ إليّ بالجلوسِ عليه بعد أنْ رأيتُ وأنا غيرُ مصدِّق تلك الابتسامةَ التي كنتُ أعرفُها تمام المعرفة وهي تشعّ من وجهه نحوي تحت الشعر المستعار والماكياج؛ فتلك كانت الناحيةَ المدهشةَ لأساليب هولمز في التنكُّر. لم يكن سرُّه الإكثارَ من استخدام الحيل المسرحيّة للتنكُّر والتخفّي، بل امتلاكُه موهبةَ التجسُّدِ في أيّ شخصية يختار تمثيلَها. وإذا صدّقَ هو هذا التجسُّد، جعلك أنتَ أيضًا تصدّقه إلى أنْ تحين لحظةُ كشف الحقيقة. كان الأمرُ شبيهًا بالتحديق إلى نقطةٍ غامضة على أرضٍ بعيدة، في صخرة أو شجرة ربّما اتّخذتا شكل حيوان. لكنّك ترى الأمر على حقيقته عندما تقترب ولا تعود تنخدع به أبدًا بعد ذلك. لقد جلستُ مع ريفرز، لكنْ كان من البديهيّ الآن أنّني موجود مع هولمز.

بادرتُه: «أخبرني».

قاطعني قائلًا: «كلُّ شيء في أوانه، يا صديقي العزيز. طمئنّي أوّلًا إلى أنّك لم تُتبَع إلى هنا».

«أنا واثقٌ بأنّني جئتُ وحدي».

«ومع ذلك كان هناك رجلان خلفَك في منطقة هولبورن فياداكت. بدا عليهما أنّهما رجلا شرطة، ومن المؤكّد أنّهما يعملان لدى صديقنا المفتّش هاريمان.»

«لم أرَهما. لكنّني كنتُ شديدَ الحذر، وقد غادرتُ عربة زوجتي بعد أنْ قطعت نصفَ شارع ستراند. لم أسمح للعربة بالتوقُّف تمامًا وترجّلتُ منها وانسللتُ خلفَ مركبةٍ كبيرة ذات أربع عجلات. وفي وسعي أنْ أُؤكّد لك أنّه إذا تبعني رجلان في المحطّة فإنّهما يتساءلان الآن في كنزنغتون عمّا حدث لي.

«يا صديقي الوفيّ واطسون!»

«لكنْ كيفَ عرفتَ أنّ زوجتي تصل اليوم؟ وكيف صادفَ حتّى أنْ توجد في منطقة هولبورن فياداكت؟»

«هذا في منتهى البساطة. لقد تبعتُك من شارع بيكر ستريت وحزرتُ القطارَ الذي كان عليك انتظارُه، وتمكّنتُ من الوصول قبلك بين الحشود».

«هذا ليس إلّا سؤالي الأوّل، يا هولمز، وأنا أصرّ على أن تطلعَني على جميع التفاصيل لأنّ رؤيتك جالسًا هنا، وحدها، تجعل رأسي يدور. لنبدأ بالدكتور ترفليان. أفترض أنّك تعرّفتَ إليه وأقنعتَه بمساعدتك على الفرار».

«هذا ما حدث بالضبط. كانت مصادفةً سعيدة أنّ زبوننا السابق وجد وظيفةً في السجن، بالرغم من أنّني أميل إلى الظنّ أنّ أيّ طبيب كانَ اقتنع بالانحياز لمصلحتي، لا سيّما بعدما تبيّن وجودُ خطّةٍ لاغتيالي».

«هل كنتَ على علم بها؟»

رمقني هولمز بنظرة حادّة، وأدركتُ عندها أنّه سيتعيّن عليّ أنْ أتظاهر بعدم معرفة أيّ شيء على الإطلاق إذا رغبتُ في عدم الإخلال بالتعهُّد الذي قطعتُه لمضيفي البغيض قبلَ ليلتَيْن. قال هولمز: «توقّعتُ ذلك منذ اللحظة التي اعتُقِلت فيها. كان واضحًا لي أنّ الدليل المقدّم ضدّي سيبدأ في التداعي ما إن يسمحوا لي بالكلام، لذا لن يسمح أعدائي بذلك طبعًا. كنتُ أنتظر التعرُّض لهجومٍ من أيّ نوع، وقد حرصتُ بصورة خاصّة على تفحُّص طعامي. وعلى النقيض من الاعتقاد الشائع بين عامّةِ الناس، لا توجد إلّا سمومٌ قليلةٌ جدًّا لا طعمَ لها على الإطلاق، والزرنيخُ الذي أملوا أن يقضيَ عليّ ليسَ واحدًا منها بالتأكيد. وقد اكتشفتُ الزرنيخ في زبدية من مرقِ اللحم أُحضِرت لي في أمسيتي الثانية في السجن... وكانت تلك محاولةً حمقاء تمامًا يا واطسون، لكنّني كنتُ ممتنًّا لها لأنّها زوّدتني السلاح الذي كان يلزمني».

سألتُه وأنا عاجزٌ عن إضفاء الغضب في صوتي: «هل كان هاريمان جزءًا من هذه الخطّة؟»

«إمّا أنْ يكونَ المفتّش هاريمان قد تلقّى مبلغًا معتبرًا من المال أو إنّه قابعٌ في صميم المؤامرة التي كشفناها أنتَ وأنا. وأنا أرجّح الاحتمال الثاني. وقد فكّرتُ في التوجُّه إلى هوكينز نظرًا إلى أنّ رئيسَ الحرس هذا ترك لديّ انطباعًا بأنّه رجلٌ متحضِّر. وقد بذَلَ كلَّ جهد ليحرص على أنْ لا تكون إقامتي في المؤسّسة الإصلاحية مُضنِيةً أكثر ممّا ينبغي. غير أنّ إطلاقي التحذيرَ قبل الأوان كان سيحفّزهم على تدبير اعتداءٍ ثانٍ أشدّ فتكًا، لذا طلبتُ بدلًا من ذلك مقابلةَ ضابط الطبابة. وبعد أن أُخِذتُ مخفورًا إلى المستشفى ابتهجتُ

كثيرًا لاكتشافي أنّنا متعارفان بالفعل لأنّ ذلك سهّل مهمّتي كثيرًا. أريتُه عيّنةً من الحساء كنتُ قد احتفظتُ بها. وشرحتُ له ما كان يجري وأنّني اعتُقِلتُ تعسُّفًا وأنّ نيّةَ أعدائي هي أنْ لا أغادرَ هولواي حيًّا على الإطلاق. رُوِّع الدكتور ترفليان، وكان ميّالًا إلى تصديقي في أيّ حال لأنّه كان لا يزال يشعر بأنّه مدينٌ لي في أعقابِ تلك القضيّة في شارع بروك ستريت.

«كيف صادف أنْ أصبح موظّفًا في هولواي؟»

«الحاجةُ فرضتْ عليه ذلك، يا واطسون. لا بدّ وأنْ تتذكّر أنّه فقَدَ وظيفتَه السابقة بعد وفاة مريضه المقيم. ترفليان رجل لامعُ الذكاء لكنّ الحظّ لم يحالفه أبدًا. وبعد أنْ هام على وجهه عدّة أشهر، كانَ المنصبُ في هولواي الوظيفةَ الوحيدة التي استطاع العثورَ عليها، فقبِلَها بتردُّد. وعلينا أنْ نحاولَ مساعدتَه في أحد الأيّام».

«بالتأكيد، يا هولمز. لكنْ تابع كلامك...».

«كان ردُّ فعله الغريزي الأوّل إبلاغَ رئيس الحرس بالأمر، لكنّني أقنعتُه بأنّ المؤامرةَ التي تُحاكُ ضدّي شديدةُ الإحكام وأنّ أعدائي بالغو القوّة، وبأنّنا لا نستطيع تحمُّلَ مخاطرةِ إطلاعِ أيّ شخص آخر بالرغم ممّا تنطوي عليه استعادتي حريتي من أهميّةٍ حيويّة بالنسبة إليّ، لذا ينبغي أنْ نحقّقَ ذلك بوسائل أخرى. بدأنا نناقش الصيغَ التي يمكن أنْ تنطوي عليها هذه الوسائل، وكان واضحًا لترفليان، مثلما كان واضحًا لي، أنّني لن أستطيعَ شقَّ طريقي عنوةً إلى الخارج بوسيلة مادّية، بمعنى استحالةِ التفكير في حفر نفق أو التسلُّق فوق الجدران. كان بين زنزانتي والعالم الخارجي ما لا يقلّ عن تسعةِ أبواب وبوّابات مُقفَلة، ولم يكن في وسعي أنْ آمل المرورَ عبرها بدون مساءلة حتّى في أفضلِ هيئةٍ تنكُّرية. وبديهيٌّ أنّني لم أستطع التفكيرَ في اللجوء إلى العنف. تحدّثنا معًا مدّةَ ساعة واحدة تقريبًا، وكنت قلقًا طولَ الوقت من أنَّ المفتّش هاريمان قد يظهر من جديد في أيّ لحظة لأنّه كان يواصل استجوابي لإسباغِ صدقيّةٍ على تحقيقه الفارغ والزائف».

تابع هولمز حديثه، فقال: «بعد ذلك، ذكَرَ ترفليان جوناثان وود، وهو رجلٌ تاعسٌ مسكين أمضى معظم حياته في السجن، وكان على وشك إنهائها

هناك لإصابته بمرض خطير، إذ لم يكن يُتوقّع له أنْ يظلّ على قيد الحياة حتّى اليوم التالي. اقترح ترفليان أنّ من الممكن نقلي إلى مستشفى السجن بعد موتِ وود، فيُخفي جثّتُه ويهّربني أنا إلى الخارج داخل النعش. كانت تلك فكرتَه، لكنّني رفضتُها فورًا وبدون التفكير فيها مرّةً ثانية. كانت هناك نواحٍ كثيرةٌ غيرُ عمليّة لا بدّ وأنْ تكونَ من أهمِّها الشكوك المتزايدة لدى الذين يلاحقونني، وهم يتساءلون في هذه الأثناء لماذا لم يؤدِّ السمُّ الذي دسّوه لي في وجبة المساء إلى القضاء عليّ، وقد يكونون بدأوا يشكّون في أنّني أدركُ نيّاتهم. وسيكونُ إخراجُ جثّةٍ من السجن في مثل هذا الوقت أمرًا مشبوهًا جدًّا، وستكونُ خطوةٌ كهذه عينَ ما يتوقّعون منّي القيامَ به».

«لكنّني كنتُ قد لاحظتُ الممرّضَ ريفرز أثناء إقامتي في المستشفى لا سيّما ما انطوى عليه مظهرُه من حسنِ طالع بالنسبة إليّ: هيئته المزرية وشعره الأحمر الفاتح. أدركتُ فورًا أنّ جميعَ العناصر الضرورية – هاريمان، السمّ، والرجل المحتضر – متوافرة وأنّ من الممكن وضعَ خطّةٍ بديلة باستخدام أحدِهما ضدّ الآخر. أبلغتُ ترفليان بما يلزمني، وهو يستحقّ الثناء إلى الأبد لأنّه لم يشكّكْ في صواب رأيي بل فعل ما طلبتُه منه».

«مات وود بعد منتصف الليل بقليل. جاء ترفليان إلى زنزانتي وأطلعني شخصيًا على ما حدث. ثمّ عاد إلى منزله ليُحضر لي الحاجات القليلة التي طلبتُها والتي سأحتاج إليها. وأعلنتُ في صباح اليوم التالي أنّ مرضي قد تفاقَمَ. وشخّص ترفليان حالتي كتسمُّمٍ غذائيّ شديد وأدخلني إلى المستشفى حيثُ كان جثمان وود مسجّى. كنتُ هناك عندما وصل نعْشُه وساعدتُ حتّى على حمله إلى داخل النعش. غير أنّ ريفرز كان غائبًا بعد أنْ أُعطِي إجازةً في ذلك اليوم. سلّمني ترفليان الشعر المستعار والثياب البديلة التي ستتيح لي التنكُّر في هيئة ريفرز، وقد أُخرج النعش قبل الساعة الثالثة بقليل وأصبح كلّ شيء جاهزًا في آخر الأمر. عليكَ أنْ تفهم نفسيّةَ الناس، يا واطسون. كنّا في حاجة إلى هاريمان ليقوم بعملنا نيابةً عنّا. كان علينا بدايةً أنْ نكشفَ له اختفائي العجيبَ والعصيَّ على التفسير من زنزانةٍ مقفلةٍ بإحكام وأنْ نبلغَه بعد ذلك مباشرةً تقريبًا بأمرِ النعش والرجل الميّت اللذين أخرجا من المكان

قبل فترة وجيزة. ولم يكن لديّ في تلك الظروف أيُّ شكّ في أنّه سيقفز إلى الاستنتاج الخاطئ، وهو ما فعله بالضبط. كان متأكّدًا من وجودي داخلَ النعش إلى درجةِ أنّه لم يُلقِ حتّى نظرةً ثانية على الممرّضِ المتخلّف عقليًا الذي بدا مسؤولًا عمّا حدث، بل اندفع مسرعًا، فسهّل بذلك حقًّا عبوري إلى الخارج. كان هاريمان هو الذي أمر بفتح الأقفال وتشريع الأبواب، وكان هاريمان هو الذي قوّض جميع الإجراءات الأمنية التي كان يُفترَض فيها أن تُبقيني في الداخل».

صحتُ منفعلًا: «هذا صحيح، يا هولمز. أنا لم أنظر إليك أبدًا. كان كلّ اهتمامي مركّزًا على النعش».

«عليّ أنْ أقولَ إنّ ظهورَك المفاجئ كان الاحتمالَ الوحيد الذي لم أفكّر فيه أبدًا، وقد تخوّفتُ على الأقلّ من إمكانية أنْ تكشف عن معرفتِك بالدكتور ترفليان، لكنّك كنتَ رائعًا، يا واطسون. وأرجّحُ أنّ وجودكما هناك – أنتَ والممرّض – قوّى الشعورَ بالاستعجال، وجعل هاريمان أكثرَ تصميمًا على مطاردة النعش قبل مغادرته».

كانت عيناه تبرقان وهو يقول هذا الكلام إلى درجةِ أنّني اعتبرتُه إطراءً لي، بالرغم من فهمي للدور الذي قمتُ به فعلًا في هذه المغامرة. كان هولمز يحبّ وجودَ جمهورٍ مصغٍ إليه، شأنُه في ذلك شأنُ أيّ ممثّل على المسرح. وكلّما كَثُرَ عددُنا نحن الموجودين، سهُل عليه أداءُ دورِه. سألتُه: «لكنْ ماذا يسعنا أنْ نفعلَ الآن؟ أنتَ فارٌّ من العدالة، وقد تلوّث اسمُك. وكونُك اخترتَ الهروبَ لن يساعد إلّا في إقناع العالم بأنّك مذنب».

«أنت ترسمُ صورةً كئيبةً، يا واطسون. من جهتي أميلُ إلى القول إنّ الظروف تحسّنت بما لا يُقاس منذ الأسبوع الماضي».

«أين تقيم؟»

«ألم أخبرك؟ إنّني أحتفظُ بغرفٍ في جميع أنحاء لندن تحسُّبًا لحالاتٍ كهذه. لديّ غرفةٌ قريبةٌ من هنا، وأستطيعُ أنْ أؤكّد لك أنّها أريحُ جدًّا من الإقامة التي غادرتُها للتوّ».

«مع ذلك، يا هولمز، يبدو أنّك خلقتَ لنفسك أعداءً كثيرين بدون قصد منك».

«يبدو هذا صحيحًا في الواقع. وعلينا أنْ نسألَ أنفسَنا ما الذي يجمع بين أشخاص متباينين من أمثال اللورد هوراس بلاكووتر سليل إحدى أعرق الأسر في إنكلترا، والدكتور توماس أكلاند الذي يتبرّع بالمال لمستشفى وستمنستر، والمفتّش هاريمان ذي السجلّ الناصع في خدمةِ دائرة شرطة العاصمة طوال خمسة عشر عامًا. هذا هو السؤال الذي أطرحه عليك في بيئة شارع بوستريت هذه الأقلّ ملاءمة لنا. ما هو العاملُ المشترَك بين هؤلاء الرجال الثلاثة؟ حسنًا، كونُهم جميعًا من الرجال يشكّل بداية. جميعُهم أغنياء وأصحابُ علاقات ونفوذ. وعندما تَحَدَّث أخي مايكروفت عن فضيحة، فإنّ أشخاصًا من هذا النوع بالذات هم الذين يُحتمل أنْ يتضرّروا. وبالمناسبة، بلغني أنّك عدتَ إلى ويمبلدون».

لم أستطع أنْ أتخيّلَ إطلاقًا كيفَ أو مِمّن أمكن لهولمز أنْ يكونَ قد سمع ذلك، لكنّ الوقت لم يكنْ مناسبًا للخوض في مثل هذه التفاصيل. اكتفيتُ بالتصديق على كلامه، وأطلعتُه بإيجاز على ظروف زيارتي الأخيرة تلك. بدا منزعجًا بشكل خاصّ من أنباء إليزا كارستيرز والتدهور السريع لصحّتها، وقال: «نحنُ نتعامل مع عقلٍ شديد المكر والقسوة إلى درجة غير عادية، يا واطسون. وهذه المسألةُ ذاتُ دلالات عميقة جدًّا ومن الحتمي أنْ تنتهي من هذا الموضوع لنتمكّن من زيارة إدموند كارستيرز من جديد».

سألتُه: «هل تعتقد أنّ المسألتَيْن مترابطتان؟ لا أستطيع أنْ أرى كيف يمكنُ لأحداثِ بوسطن وحتّى تعرُّضِ كيلان أودوناهيو للطعن في فندق خاصّ هنا في لندن أنْ تؤدّي بأيّ حال إلى المشكلة الرهيبة التي تشغلنا في الوقت الحاضر».

أجاب هولمز: «تقولُ ذلك فقط لأنّك تفترض أنّ كيلان أودوناهيو قد مات. لا بأس، ستتوفّر لنا أخبارٌ أكثر في مستقبلٍ قريب بما يكفي. وقد تمكّنتُ أثناء وجودي في هولواي من بعثِ رسالة إلى بلفاست».

«سمحوا لك بإرسالِ برقية؟»

«لم أكنْ في حاجة إلى مكتبٍ للبريد. فعالمُ الجريمة الخفيّ أسرعُ وأرخص، ومتوفّر لأيّ شخص يصادف أنْ يجدَ نفسَه في خلاف مع القانون.

وكان في جناحي رجلٌ مزوِّر اسمُه جاكس التقيتُه في فناء التريُّض وأُطلِق سراحُه قبل يومين، وقد حمل استفساري معه. وحالما أتلقّى جوابًا سنعود معًا، أنت وأنا، إلى ويمبلدون. لكنّك لم تجب عن سؤالي بعد».

«عن الرابط بين الرجال الثلاثة؟ الجوابُ بديهيّ. إنّه بيت الحرير».

«وما هو بيت الحرير؟»

«لا فكرة لديّ عن هذا الأمر. لكنّني أظنّ أنّ في وسعي إخبارَك أين تعثر عليه».

«أنت تدهشني، يا واطسون».

«ألا تعرف ذلك أنت؟»

«أنا أعرف ذلك منذ بعض الوقت. ومع ذلك سيُبهِجني أنْ أطّلعَ على استنتاجاتك. وكيف توصّلتَ إليها».

كنتُ أحمل معي لحسنِ الحظّ ورقةَ الإعلان، ففتحتُها وأريتُها لصديقي ورويتُ له ما دار في مقابلتي الأخيرة مع القسّ تشارلز فيتزسيمونز. قرأ هولمز «بيت عجائب الدكتور سيلكين». بدا مأخوذًا لبرهة من الزمن، لكنّ وجهه أشرق بعد ذلك، وقال: «لكنْ بالطبع. هذا بالضبط ما كنّا نبحث عنه. ومرّةً أخرى عليّ أنْ أهنّئك، يا واطسون. فبينما كنتُ أنا أقبعُ خاملًا في الحجز كنتَ أنتَ تعمل بنشاط».

«هل هذا هو العنوان الذي كنتَ تتوقّعه؟»

«شارع جاكدولين؟ ليس تمامًا. ومع ذلك أنا واثقٌ بأنّه سيوفّر لنا جميعَ الإجابات التي كنّا نبحث عنها. كم الساعة الآن؟ الساعة الواحدة تقريبًا. أميل إلى الظنّ أنّ الأفضلَ لنا أنْ نقتربَ من مكانٍ كهذا تحت جنح الظلام. هل يناسبك أنْ تلاقيَني هنا من جديد، لنقُلْ بعد أربع ساعات؟»

«سيُسعدني ذلك، يا هولمز».

«كنتُ أعلم أنّ في استطاعتي الاعتمادَ عليك. وأقترح عليك أنْ تجلب معك مسدّسَك الرسميّ، يا واطسون. فثمّة أخطارٌ كثيرة أمامنا وأظنّ أنّ ليلتَنا ستكون طويلة».

18

قارئة البخت

أعتقد أنّ هناك مناسباتٍ تعرِفُ فيها أنّك وصلتَ إلى نهاية رحلة طويلة بالرغم من أنّ مقصدَك لا يزال متواريًا عن ناظريك، لكنّك تدرك عند ذاك بطريقة ما أنّك ستجده في انتظارك ما إن تلتفَّ حول الزاوية الماثلة أمامك مباشرة. هذا ما شعرتُ به عندما اقتربت من حانة ذي باغ أوف نيلز للمرّة الثانية قبيل الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم بعد غروب الشمس واتّشاح المدينة بظلمةٍ باردة لا ترحم. كانت ماري نائمة عندما رجعتُ إلى البيت في وقتٍ سابق ولم أُقلِقْ راحتَها. لكنّني تساءلتُ عندما وقفتُ في غرفة عيادتي وأنا أزنُ مسدّسي في يدي وأتأكّد من أنّه محشوّ تمامًا عمّا قد يفكّر فيه مراقبٌ طارئ لو رأى هذا المشهد: طبيب محترم في كنزنغتون يتسلّح ويستعدّ للخروج وتعقُّب مؤامرةٍ انطوت حتّى الآن على جرائمِ قتل وتعذيب وخطف وتضليل العدالة. دسستُ المسدّسَ في جيبي، وتناولت معطفي الثقيل وغادرت المنزل.

لم يعد هولمز متنكّرًا، واكتفى بارتداء قبّعة ووشاح لفَّهُ حول الجزء الأسفل من وجهه. كان قد طلب كأسَيْن من البراندي لتحصين جسمَيْنا ضدّ زمهرير الليل. وما كنتُ دُهِشتُ لو أثلجت السماء لأنّ نُدفاتِ ثلج قليلة كانت تتطاير فعلًا من النسيم عندما وصلت. بالكاد تكلّمنا، لكنّني أتذكّر عندما نظر إليّ، ونحن نضع كأسَيْنا على الطاولة، أنّني رأيتُ روحَ الدعابة وقوّةَ العزيمة

اللتَين كنتُ أعرفهما أيّما معرفة تلتمعان بجذلٍ في عينيه، فأدركتُ أنّه لا يقلّ عنّي تلهُّفًا للانتهاء من هذه القضية.

سأل: «إذًا، يا واطسون...».

قلت: «نعم يا هولمز، أنا جاهز».

«وأنا سعيد جدًّا بوجودك إلى جانبي من جديد».

أخذتْنا عربةٌ في اتّجاه الشرق، وترجّلنا في شارع هوايتشابل رود وقطعنا المسافةَ المتبقّية إلى شارع جاكدولين سيرًا على أقدامنا. كانت المهرجاناتُ المتنقّلة موجودةً في جميع المناطق الريفية خلال أشهر الصيف، لكنّها كانت تأتي إلى المدينة حالما يتغيّر الطقس. واشتُهرت هذه العروض ببقائها مفتوحةً حتّى ساعات متأخّرة من الليل وبالجلبة التي تسبّبها. وقد تساءلتُ بالفعل كيف يمكن للسكّان المحلّيين تحمُّلُ وجودِ بيت عجائب الدكتور سيلكين في حيّهم لأنّني سمعتُ صخبَه قبل أنْ أراه بفترة طويلة: أرغن يطحن، طبلٌ يدوّي، وصوتُ رجل يمزّق أستار الليل. كان شارع جاكدولين دربًا ضيّقًا ممتدًّا بين شارعَيْ هوايتشابل رود وكومرشال رود، وعلى جانبَيْه أبنيةٌ من ثلاثة طوابق تضمّ في الغالب حوانيتَ ومخازن ولها نوافذ بدت صغيرةً جدًّا بالمقارنة مع كميّات آجرّ البناء المحيطة بها. كان هناك زقاقٌ يتفرّع منه في منتصفه تقريبًا، وهناك تمركزَ رجلٌ يرتدي سترة طويلة وربطةَ عنقٍ طويلةً قديمةَ الطراز وقبّعةً عالية رثّةً ومجعّدة حتّى بدت وهي جاثمة على طرف رأسه وكأنّها تحاول الارتماءَ بعيدًا عنه. كانت له هيئةُ نسخةٍ مقلّدة من الشيطان مفيستوفوليس[1] بلحيته وشاربه وأنفِه المدبّب وعينيه المتوهجتَيْن.

كان يصيح: «الدخول ببنس واحد – تعالوا إلى الداخل ولن تندموا. سترون هنا بعضًا من عجائب العالم، من الزنوج إلى الإسكيمو وأكثر من ذلك. تفضّلا يا سيّديّ! هذا بيتُ عجائب الدكتور سيلكين. سيُدهِشكما. سيُذهِلكما. لن تنسيا أبدًا ما ستشاهدانه هنا الليلة».

سأله هولمز: «هل أنت الدكتور سيلكين؟»

[1] مفيستوفوليس شخصية خرافية من أساطير القرون الوسطى في أوروبا وهو واحد من سبعة شياطين (المترجم).

«يشرّفني، يا سيّدي، أنْ أقدّم نفسي: الدكتور أزمودوس سيلكين الآتي أخيرًا من الهند، الآتي أخيرًا من الكونغو. لقد حملتْني أسفاري إلى جميع أنحاء العالم، وستجدان هنا كلّ ما عايشتُه مقابل بنس واحد».

وقف إلى جانبه قزمٌ أسود يرتدي سترةَ بحّار وسروالًا عسكريًّا، وهو يقرع نغمةً على طبل ثمّ يضيفُ نقرةً عالية كلّما ذُكر البنس. دفعنا قطعتَيِ النقود ودخلنا.

فوجئتُ بالمشهد الذي كان في انتظارِنا، وهو مشهد أفترض أنّه كان سيتكشّف عن رداءة ذوق رخيصة في ضوء النهار الساطع، لكنّ الليلَ الذي خفّفتْ ظلمتَه دائرةٌ من المشاعل النحاسيّة المضاءة أضفى عليه جاذبيّةَ غرابةٍ معيَّنة، وإذا كنتَ لا تدقّقُ النظر فعلًا، قد يمكنُك الظنُّ أنّك نُقِلتَ حقًّا إلى عالم مختلف... كما في كتب القصص ربّما.

كنّا في فناء رُصِفت أرضيّته بالحجارة ومحاطًين بأبنية متداعيةٍ إلى درجةِ أنّها كانت مفتوحةً جزئيًّا على عوامل الطبيعة بأبوابها المهلهلة وأدراجِها المتآكلة المترنّحةِ في تعلُّقها بالجدران الآجرّيّة. وعُلّقت فوق بعض هذه المداخل ستائرُ قرمزية ولافتاتُ إعلان عن عروضٍ تمكن مشاهدتُها مقابل أجرٍ إضافيّ من نصف بنس أو فاردنغ واحد. الرجل الذي لا عنقَ له. أقبح امرأة في العالم. الخنزير ذو القوائم الخمس. وكانت هناك عروض أخرى مفتوحة، منها تماثيل الشمع وصناديقُ الفُرجة، وفيها مشاهد مرعبة من نوعٍ عرفتُه جيّدًا خلال الوقت الذي أمضيتُه مع هولمز وكانت جرائمُ القتل موضوعَها الرئيس كما بدا. كانت ماريا مارتن هناك، وكذلك ماري آن نيكولز التي كانت ممدّدة وعنقُها محزوز وبطنها مشقوق مثلما كانت عندما اكتُشِفت جثّتُها قبل عامَيْن غيرَ بعيد من هنا. سمعتُ فرقعةَ بنادق. كان رواقٌ للرماية قد أُقيم داخل أحد المباني، واستطعت أنْ أتبيّن لهبَ مصابيح الغاز والزجاجات الخضراء المصفوفة في الجانب البعيد كأهداف للرماة.

كانت هذه العروض وسواها موجودة في المحيط الخارجي، لكنْ كانت هناك أيضًا عرباتُ غجر متوقّفة في الفناء نفسه وقد أُنشِئت بينها منصّاتٌ لتقديم عروض تستمرّ طول الليل. وكان توأمان متماثلان شرقيّان يؤدّيان ألعابَ

خفّة بدزّينة كرات يتقاذفانها في ما بينهما بسلاسة جعلت طيران الكرات يبدو ذاتيًا. وكان رجلٌ أسود يرتدي مئزرًا يحمل سيخًا معدنيًا سُخّن حتّى احمرّ في موقدِ فحم ويلحسه بلسانه. وكانت امرأةٌ ترتدي عمامةً غليظةً لها ريش تقرأ الطالعَ من الكفّ. وكان ساحرٌ متقدّم في العمر يقوم بحيل مسرحيّة. وكان هناك جمهورٌ أكبرُ كثيرًا ممّا توقّعت، قد يربو عدده على مائتي شخص، يضحكون ويصفّقون ويتجوّلون بلا هدف معيَّن متنقّلين بين فرجةٍ وأخرى، فيما كان أرغن يَدَويٌّ يصدح في وسطهم بلا توقُّف. لاحظْتُ امرأةً ذاتَ خصر هائل الحجم تسير الهوينا أمامي وامرأةً أخرى ضئيلة الحجم إلى درجةٍ أنْ تُحسَب طفلةً لولا مظهرها الهرِم. هل كانتا متفرّجتَيْن أم جزءًا من الفُرجة؟ كان من الصعب التأكُّد من ذلك.

سألني هولمز: «ماذا الآن إذًا؟»

أجبتُه: «لا فكرةَ لديّ في الواقع».

«أما زلت تعتقد أنّ هذا هو بيت الحرير؟»

«أوافقُك على أنّ هذا مستبعَد». أدركتُ فجأةً أهمّية ما قاله للتوّ وسألتُه: «هل تقول لي إنّك لا تعتقد أنّ هذا هو بيت الحرير؟»

«كنتُ أعلم منذ البداية أنّه لا توجد إمكانية لذلك».

كانت هذه مرّةً لم أستطع أنْ أخفي فيها انزعاجي، قلتُ له: «عليّ أنْ أقول، يا هولمز، إنّ هناك أوقاتًا تستنفد فيها صبري إلى آخر حدوده. إذا كنتَ تعلمُ منذ البداية أنّ هذا ليسَ بيت الحرير، فلعلّك تستطيع أنْ تقولَ لي لماذا نحن هنا؟»

«لأنّ من المفترض فينا أنْ نكونَ هنا. لقد تلقّينا دعوة».

«الإعلان؟»

«كان القصدُ أنْ يُعثرَ عليه يا واطسون، وكانُ يُتوقّع منك أنْ تسلّمه إليّ».

لم يكن في وسعي إلّا أنْ أهزّ رأسي حيال هذه الردود المُبهجة، واستقرّ رأيي على أنّ هولمز استرجع بعد محنته في سجنِ هولواي رباطة جأشه تمامًا وعاد كما كان دائمًا – كتومًا، مفرطَ الثقة بنفسه ومزعجًا تمامًا. ومع ذلك، ظللتُ مصمِّمًا على إثبات خطأِ رأيه. ومن المؤكّد أنّها ليست مجرّدَ مصادفة

أنْ يظهر اسمُ الدكتور سيلكين على الإعلانات وأن يُعثر على أحدِها مخبَأ تحت سرير روس، وإذا كان القصد أن يحتّم اكتشافه، فلماذا وُضِع هناك؟ نظرتُ حولي بحثًا عن أيّ شيء قد يستحقّ اهتمامي، لكنْ كان من المستحيل تقريبًا التركيزُ على أيّ شيء ذي دلالة في دوّامة النشاط المحيط بنا وتراقُصِ لهب المشاعل. كان البهلوانيون يرمون سيوفًا بعضُهم على البعض الآخر، وسُمِعت طلقةٌ أخرى من بندقية فتحطّمت زجاجة وتناثرت شظاياها على الرفّ. ومدّ الساحر يده في الهواء واستَحَر باقةً من الزهور الحريرية فصفّق له الجمهور المحتشد حوله.

بادرتُ قائلًا: «حسنًا، يجدر بنا إذًا...».

لكنّني شاهدتُ في تلك اللحظة تمامًا شيئًا جعلَ نَفَسي ينحبس في حلقي. من المحتمل طبعًا أنْ يكون الأمر مجرّدَ مصادفة. من المحتمل أنْ لا يعني أيّ شيء على الإطلاق. ربّما كنتُ أحاول إسباغَ أهميةٍ على تفصيلٍ صغير لأجدَ مبرّرًا لوجودنا هنا لا أكثر. لكنّ هذا الأمر كان في الواقع قارئة البخت. كانت جالسةً على ما يشبه منصّةً مرتفعة أمام عربتها وأمامها طاولةٌ فردت عليها أدواتِ مهنتها: مجموعة أوراق لعب التاروت، كرة بلّورية، هرم فضّي وبعض الأوراق التي تحمل حروف الأبجديّة الرونيّة وأشكالًا غريبة. كانت تحدّق إلى اتّجاهي، وعندما التقت عيناي بعينيها تراءى لي أنّها رفعت يدها بتحيّة. وهناك كانت: قطعةٌ من شريط حريري أبيض مربوطة حول رسغها.

كانت الفكرة التي خطرتْ لي فورًا أنْ أنبّه شرلوك هولمز. لكنّني قرّرتُ بصورة فوريّة تقريبًا أنْ لا أفعلَ ذلك. شعرتُ بأنّني تعرّضتُ لسخريةٍ كافية لأمسية واحدة. وهكذا بارحتُ جانبَه بدون أنْ أعطيَ أيَّ تفسير، وسرتُ هائمًا الأمام كأنّني مجذوب بفضول غامض وصعدتُ الدرجاتِ القليلةَ إلى المنصّة. دقّقت المرأة الغجرية النظرَ فيّ كما لو أنّها لم تتوقّع مجيئي إليها فحسب، بل تنبّأت به أيضًا. كانت امرأة ضخمةَ الجسم ذكوريةَ الملامح ثخينةَ الفكّ ولها عينان رماديّتان حزينتان.

قلتُ لها: «أريدُ أنْ تقرأي لي طالعي».

أجابت: «إجلس». كانت لها لكنةٌ أجنبيّة وطريقةٌ فظّةٌ ومنفّرة في الكلام. كان أمامَها مسندٌ للقدمين محشورٌ في الفسحة الضيّقة، فأرخيتُ جسمي للجلوس عليه.

سألتُها: «هل تستطيعين رؤيةَ المستقبل؟»

«سيكلّفك ذلك بنسًا واحدًا».

دفعتُ لها المال، فأخذتْ يدي وفتحتْها داخل كفّها بحيث كان الشريط الأبيض ماثلًا أمامي تمامًا. مدّتْ إصبعًا ذابلة وبدأت تتتبّعُ بها خطوط راحة يدي وكأنّ في استطاعتِها تنعيمَها بلمستها. سألتني: «طبيب؟»

«نعم».

«ومتزوّج وسعيدٌ في زواجك. لا أطفال».

«أصبتِ تمامًا في الحالات الثلاث».

«لقد عانيتَ في الآونةِ الأخيرة ألمَ الفراق». هل كانت تشيرُ بذلك إلى زيارة زوجتي لكامبرويل أو إلى الفترة القصيرة التي أمضاها هولمز في السجن؟ وكيف استطاعت أنْ تعلم بأمرِ أيٍّ من الحالتَين؟ ما زلتُ متشكّكًا الآن كما كنتُ آنذاك. وكيف يمكنني أنْ لا أتشكّك؟ لقد سبق لي في الوقت الذي أمضيتُه مع هولمز أنْ حقّقتُ في لعنةٍ عائلية وجرذٍ عملاق ومصّاصِ دماء – وتبيّن أنّه كان لكلٍّ من الحالات الثلاث تفسيرٌ منطقيّ. لهذا السبب تريّثتُ إلى أنْ تكشفَ لي الغجريةُ مصدرَ تحايلها.

سألتْني: «هل جئتَ إلى هنا وحدك؟»

«كلّا. أنا هنا مع صديق».

«إذًا، لديّ رسالةٌ لك. لا بدّ وأن تكونَ رأيتَ رواقًا للرماية داخل المبنى الواقع خلفنا».

«نعم».

«ستكتشف جميعَ الأجوبة التي تبحثُ عنها في الغرف الواقعةِ فوقه. لكنْ تقدَّم بحذر، يا دكتور. فالمبنى متصدّع والأرضيةُ هشّة. لديك خطُّ حياة طويل. هل تراه هنا؟ لكنّ فيه نقاطَ ضعف. هذه التجاعيد... إنّها كسهام تُطلَق عليك، وثمّة سهامٌ كثيرةٌ أخرى آتية. يجب أن تكون حذرًا كي لا يصيبَك واحدٌ منها...».

«أشكرك». سحبتُ يدي وكأنّني أجذبها بعيدًا عن النار. وبقدر ما كنتُ متأكّدًا من أنّ المرأة دجّالة، فقد رافق أداءَها شيءٌ ما أثار أعصابي. ربّما كان هذا الشيء هو الليل أو الظلالَ القرمزيّة المتراقصة في كلّ مكانٍ حولي، أو ربّما كانت الضوضاءُ المستمرّة والموسيقى والحشود هي التي طغت على حواسّي. لكنّ شعورًا غريزيًّا خالجني فجأةً بأنّ هذا المكان مسكونٌ بالشرّ وبأنّه ما كان ينبغي أنْ نأتِي إليه على الإطلاق. نزلتُ الدرج عائدًا إلى هولمز وأخبرتُه كلَّ ما حدث.

أجابني بنبرة جافّة: «إذًا، هل أصبح علينا الآن أنْ نهتدِيَ بأقوال العرّافات؟ حسنًا، يا واطسون، لا توجد خيارات بديهيّة أخرى، وعلينا أن نُكمِل هذه المسألةَ إلى نهايتها».

تابعنا سيرنا وتجاوزْنا رجلًا يحمل قردًا على كتفه، ورجلًا آخر عاريًا حتّى خصره يعرض مجموعة كبيرة من الأوشام القبيحة يحرّكها بتلعيب عضلاته المختلفة. كان رواقُ الرماية أمامنا، وفوقَه سلّمٌ لولبيٌّ معوَجّ. سمعْنا طلقات متعدّدة من البنادق فيما كان عددٌ من المتدرّبين الشباب يجرّبون حظّهم في إصابة الزجاجات، لكنّهم كانوا قد شربوا فطاشت طلقاتُهم في الظلام بلا مفعول. كان هولمز أمامي عندما صعدنا السلّم بخطوات حذرة لأنّ الدرجات الخشبيّة بدت موشكةً على السقوط. ظهرت أمامنا فتحةٌ غير متناسقة في الجدار لعلّها كانت بابًا في ما مضى وخلفها ظلمةٌ ولا شيءَ سوى الظلمة. نظرتُ خلفي ورأيتُ الغجريةَ جالسةً في عربتها تراقبنا بعينٍ شرّيرة، وكان الشريط الأبيض لا يزال متدلّيًا من رسغها. وقبل أنْ أصل إلى أعلى السلّم، عرفتُ أنّني خُدِعت وأنّه ما كان ينبغي أنْ نأتِيَ إلى هنا.

دخلْنا إلى الطابق الأعلى الذي لا بدّ وأنْ يكونَ استُخدِمَ كمخزن للقهوة في الماضي لأنّ، رائحتَها كانت لا تزال عالقةً في الهواء النَتِن. لكنّ المكانَ كان فارغًا الآن وجدرانُه آخذةٌ في التعفُّن والغبارُ يكسو كلَّ سطح فيه، وكانت ألواحُ الأرضيّة الخشبيّة تئنّ تحت أقدامنا. بدت موسيقى الأرغن بعيدةً ومتقطّعةً الآن واختفت همهمةُ الحشود تمامًا. وكان النورُ المنبعثُ من المشاعل المضاءة في جميع أنحاء أرض المهرجان ينعكس بقدرٍ كافٍ لإنارة الغرفة وإنْ

يكنْ بصورةٍ غيرِ متساوية ومتنقّلة باستمرار بطريقةٍ تلقي ظلالًا مشوَّهة في كلّ ركنٍ حولنا؛ وكانت الظلمةُ تزداد كلّما توغّلنا في الداخل.

قال هولمز مدمدمًا: «واطسون...»، وكانت نبرةُ صوته كافيةً لإبلاغي ما يريد. أخرجتُ مسدّسي وارتحتُ للإحساس بوزنه في يدي وملامسةِ كفّي للمعدن البارد.

قلتُ: «هولمز، إنّنا نُضيّع وقتَنا. لا يوجد أيُّ شيء هنا».

أجابني: «ومع ذلك، سبقَنا طفلٌ إلى هذا المكان». وجّهتُ نظري إلى ما وراء هولمز، ورأيتُ في الزاوية البعيدة لعبتَيْن متروكتَيْن على الأرض. كانت إحداهما بُلبُلًا دوّارًا، والأخرى دميةً من الرصاص لجنديّ واقف وقفةَ استعداد زالَ عنها معظمُ طلائها. كان في هاتَيْن اللعبتَيْن شيءٌ محزنٌ إلى أبعد حدّ. هل كانتا مرّةً من مُقتنيات روس؟ هل كان هذا المكان ملجأَه قبل أنْ يُقتَل؟ وهل كانت اللعبتان التذكارَيْن الوحيدَيْن لطفولةٍ لم يتمتّع بها أبدًا في الواقع؟ وجدتُ نفسي منجذبًا إلَيْهما فمشيتُ مبتعِدًا عن المدخل مثلما كان مخطَّطًا تمامًا لأنّني لم أرَ الرجلَ يخرج من خلفِ فجوة الجدار إلّا بعد فواتِ الأوان. كما لم أتمكّن من تفادي الهراوة التي شَقّت الهواءَ في اتجاهي وأصابت ذراعي تحت المرفق، فشعرتُ بأصابعي تنفتح بفعل الألم المبرّح الذي التمع فيّ. سقط المسدّس على الأرض مُحدِثًا صوتَ ارتطام وهُرِعتُ لالتقاطِه من جديد، لكنّني تلقّيتُ ضربةً ثانية أسقطتْني ممدَّدًا على الأرض. في الوقت ذاته، سمعْنا صوتًا ثانيًا آتيًا من الظلمة.

«لا يتحرّكنّ أيٌّ منكما وإلّا سأطلِق النار عليكما حيث تقفان».

تجاهل هولمز هذا الأمر، وكان قد وصل إلى جانبي وجثا إلى جانبي، وقال: «واطسون، هل أنتَ بخير؟ لن أغفرَ لنفسي أبدًا إذا آذوك جدّيًّا».

«كلّا، كلّا»، أمسكتُ بذراعي ورحتُ أتحسّسه بحثًا عن أيّ كسر أو تمزُّق، وعرفتُ فورًا أنّني لم أصَبْ إلّا برضّة شديدة. «أنا لم أتأذّ».

«جبناء».

تقدّم نحونا رجلٌ قليلُ الشعر ذو أنفٍ ملتفٍّ إلى أعلى وكتفين ثقيلتَيْن مبرومتَيْن، ما سمح للضوء الآتي من الخارج بالوصول إلى وجهه، فعرفتُ فيه

هندرسون مفتّش الجمارك (أو هذا ما ادّعاه) الذي أرسلَ هولمز إلى الفخّ الذي سقط فيه داخلَ وكر كرير لتعاطي الأفيون. كان قد أخبرنا أنّه مدمِن، ومن المؤكّد أنّ هذا كان الجزءَ الحقيقيَّ الوحيد من القصّة التي رواها لأنّه كان لا يزال على هيئتِه التي أتذكّرُها بعينيه الحمراوَيْن المحتقنتَيْن بالدم ولونه الشاحب العليل. كان يحمل مسدّسًا ومعه شريكٌ لمّ سلاحي عن الأرض في الوقت ذاته، وتقدّم ببطء والمسدّس مصوَّب نحونا. لم أكن أعرفُ هذا الرجلَ الثانِيَ الذي كان ضخمَ الجسم شبيهًا بضفدع له شعرٌ قصير وأُذنان وشفتان متورّمتان كما هي حالُ ملاكمٍ بعد منازلة لم تجرِ على هواه. وتبيّن أنّ هراوته هي في الواقع عكازٌ ثقيل كانَ لا يزال يحمله في يده اليسرى.

«مساء الخير يا هندرسون»، قال هولمز ملاحظًا بصوتٍ لم أستطع أنْ أستشفَّ منه شيئًا سوى رباطة جأشه، وكان من المحتمل أنْ يتكلّم بالطريقة ذاتها للسلام بلا تكلُّف على شخص من معارفه القدماء.

«ألستَ متفاجئًا لرؤيتي، يا سيّد هولمز؟»

«على النقيض من ذلك. لقد كنتُ أتوقّع ذلك تمامًا».

«وهل تذكر صديقي براتبي؟»

أومأ هولمز برأسه والتفت إليّ قائلًا: «هذا هو الرجل الذي ثَبّتني على أرض المكتب في محلّ كريرز يليس عندما أُرغمتُ على تجرُّع المخدِّر. والواقع أنّني كنتُ آمل أنْ يكون موجودًا هنا أيضًا». تردّد هندرسون ثم ضحك. اختفى لديه تمامًا أيُّ تظاهرٍ بالضعف أو الدونيّة ممّا ادّعاه عندما جاء إلى مسكننا وقال: «أنا لا أصدّقك، يا سيّد هولمز. أخشى أنْ يكونَ من السهل جدًّا الاحتيالُ عليك. أنتَ لم تعثرْ على ما كنتَ تبحثُ عنه في محلّ كريرز يليس، كما لم تعثر عليه هنا أيضًا. ويبدو لي أنّك مهيّأٌ للانطلاق في أيّ اتّجاهٍ مهما يكن مثل مفرقعةِ ألعابٍ ناريّة».

«وما هي النيّات التي تبيّتُها؟»

«ظننتُ أنّ هذا سيكون بديهيًّا بالنسبة إليك. اعتقدنا أنّنا انتهينا منك في سجن هولواي، ولو بقيتَ هناك لكان ذلك أفضلَ لك في أيّ حال. لذلك ستكونُ أساليبُنا في هذه المرّة مباشِرةً أكثر من السابق. ولقد أُمِرتُ بأنْ أقتلَك، بأنْ أطلِق النار عليك مثل كلب».

«في هذه الحال هل تتكرّم بإشباع فضولي في ما يتعلّق بنقطتَيْن؟ هل كنتَ أنت من قتل الفتاة في بلوغيت فيلدز؟»

«أنا كنتُ ذلك بالفعل، كانت غبيّةً بما يكفي للعودة إلى الحانة التي سبقَ لها العملُ فيها، فكان من السهل القبضُ عليها».

«وشقيقها؟»

«روس الصغير؟ نعم، نحن قتلناه. كان أمرًا فظيعًا أنْ نُضطرّ إلى فعلِ ما فعلناه، يا سيّد هولمز، لكنّه جلب ذلك على نفسه. لقد خرج هذا الولد عن الخطّ المرسوم له فكان لا بدّ من جعله عبرةً لسواه».

«شكرًا جزيلًا. هذا ما فكّرتُ فيه بالضبط».

ضحك هندرسون مرّةً ثانية، لكنّني لم أرَ في عمري وجهًا خاليًا من أيّ بشاشة كوجهه. قال: «حسنًا، أنتَ رجلٌ بارد الأعصاب جدًّا يا سيّد هولمز، ألستَ كذلك؟ وأفترض أنّك حزرتَ كلّ شيء. ألم تفعل؟»

«بالطبع، فعلت».

«وعندما أرسلتْك تلك العجوزُ الشمطاء إلى هنا، هل عرفتَ أنّها كانت تتوقّع قدومَك؟»

«لقد تكلّمتُ قارئة البخت مع زميلي وليس معي، وأفترض أنّك دفعتَ لها مالًا لتقوم بما طلبتَه منها؟»

«دفِّئْ راحةَ يدها بقطعةِ ستّة بنسات وستفعل أيّ شيء».

«لقد توقّعتُ فخًّا آخر. نعم».

حثّ الرجل المدعوّ براتبي زميلَه بقوله: «دعنا نُنهي هذا الأمر».

«ليسَ بعد يا جاسون. لم يحُنِ الوقتُ بعد».

لم يكن من الضروري في هذه المرّة أنْ يشرحَ لي هولمز لماذا كان الرجلان يتريّثان. رأيتُ السببَ وحدي بكلّ وضوح. فعندما صعدنا السلّم، كان حشدٌ من الناس ملتفّين حول رواق الرماية وكانت أصواتُ الطلقات تتردّد عاليةً. أما الآن، في هذه اللحظة، فقد كان الصمتُ مخيّمًا. كان القاتلان ينتظران عودةَ أصوات البنادق التي ستطغى على صوتِ طلقَيْن ناريّين إضافيّين هنا في الطابق الأعلى. إنّ القتلَ هو أسوأ جناية يستطيع إنسان أنْ

يرتكبها، لكنّ هذه الجريمةَ المزدوجة المخطَّط لها بدم بارد صدمتْني بخسّتها البالغة. كنتُ لا أزال ممسكًا بذراعي حيثُ فقدتُ كلَّ إحساسٍ في الموضع الذي ضُربتُ فيه، لكنّني جررتُ نفسي ناهضًا على قدميّ ومصمّمًا على أنْ لا أُقتَل من قبل هذين الرجلَيْن وأنا جاثٍ على ركبتيّ.

قال هولمز ملاحظًا: «من الأفضل لكما أنْ تتخلّيا عن سلاحيكما الآن وأنْ تستسلما». كان هادئًا تمامًا، وبدأتُ أتساءل ما إذا كان قد عرف طولَ الوقتِ فعلًا أنّ الرجلَيْن سيكونان هنا.

«ماذا؟»

«لن يُقتَل أحدٌ في هذه الليلة. لقد أُغلِق رواقُ الرماية. انتهى المهرجان. ألا تسمعان؟»

أدركتُ لأوّل مرّة أنّ الأرغن توقّف عن العزف، وبدا أنّ الحشود رحلتْ. كانَ الصمتُ كاملًا خارج هذه الغرفة الفارغة المتداعية.

«علامَ تتكلّم؟»

«لم أصدِّقْك في أوّل مرّة التقيْنا، يا هندرسون. لكنْ كان من الملائم لي أنْ أسيرَ إلى الفخّ الذي نصبتَه لأرى على الأقلّ ما كنتَ تخطّط له. لكنْ هل تصدّق حقًّا أنّني سأفعل الشيءَ ذاته مرّةً ثانية؟»

صاح صوتٌ مجلجل: «ضعا هذين المسدّسين على الأرض».

اختلطت الأحداثُ في الثواني القليلة التالية إلى درجةٍ أنّني عجزتُ تقريبًا عن فهمِ مدلولِ أيٍّ منها. بدّل هندرسون اتّجاه فوهة مسدّسِه بنيّةِ إطلاقِ النارِ عليّ أو إلى ما ورائي، وهذا ما لن أعرفَه أبدًا لأنّ الفرصَة لم تُتَح له قطّ للضغط بإصبعه على الزناد. ففي تلك اللحظة بالذات، انطلق وابلٌ من الرصاص من سلاحٍ نفثتْ ماسورتُه لهبًا أبيض، فاقتُلِعت قدماه عن الأرض فعليًا وارتمى أرضًا ونافورةُ دم تتدفّق من رأسه. استدار زميلُ هندرسون، الرجل الذي دعاه براتبي، استدارةً سريعة، ولا أظنّ أنّه كان ينوي إطلاق النار، لكنّ حمْلَه سلاحًا كان كافيًا فتلقّى رصاصةً في كتفه ورصاصةً ثانية في صدره. سمعتُه يصرخُ وهو يرتمي على ظهره بعد أنْ طار مسدّسي من يده. سُمِع صوتُ ارتطام عندما سقط عكّازُه على الأرضية الخشبية وتدحرج بعيدًا عنه. لم يكن

ميتًا، كان يتنفّس بجهد محدِثًا صفيرًا وينشج من الألم والصدمة. تكوّم على الأرض، وتوقّف كلُّ شيء لبرهة والصدمة. تكوّم على الأرض وتوقّف كلُّ شيء لبرهة قصيرة، وكاد الصمتُ يكونُ صادمًا بقدر العنف الذي سبقَه.

قال هولمز: «لقد تركتَ الأمر يتأخّر كثيرًا، يا لستراد».

أجابه لستراد: «كنتُ مهتمًّا بسماع ما قاله هذا الوغد». نظرتُ حولي، وتبيّن لي أنّ المفتّش لستراد كان هناك بالفعل ومعه ثلاثةُ شرطيين دخلوا إلى الغرفة فعلًا وبدأوا يتفقّدُون الرجلَيْن المصابَيْن بالرصاص.

«هل سمعتموه يعترف بارتكاب الجريمتين؟»

«أجل، سمعناه بالفعل، يا سيّد هولمز». وصل أحدُ رجال لستراد إلى هندرسون وفحصه بسرعة، ثمّ هزّ رأسَه. كنتُ أنا قد رأيتُ الجرح ولم أُفاجأ. قلت: «أخشى أنّه لن يمثل أمام العدالة بسبب جرائمه».

«قد يقول البعض إنّ العدالة طالته بالفعل».

«بالرغم من ذلك، كنتُ أفضّل أنْ يُعتَقل حيًّا، على الأقلّ كشاهد. لقد خاطرتُ كثيرًا من أجلك، يا سيّد هولمز، وما زال من المحتمل أنْ أدفع ثمنًا غاليًا بسبب ما فعلناه هذه الليلة».

«سيكون الثمن حصولَك على تنويهٍ جديد يا لستراد، وأنت تعلم ذلك جيّدًا. حوّل هولمز انتباهَه إليّ، وقال: «كيف حالك يا واطسون؟ هل أُصبتَ بأذى؟»

أجبتُ: «لم أصبْ بما يتعذّر شفاؤه ببعض التدليك وكأس ويسكي مع الصودا. لكنْ قل لي، يا هولمز، هل كنتَ تعرف طول الوقت أنّ هذا فخّ؟»

«كانت لديّ شكوكٌ قويّة بذلك. بدا غيرَ منطقيّ لي أنْ يحتفظَ طفلٌ أمّيٌّ بإعلانٍ مطويّ تحت فراشه. وكما قال صديقُنا الراحل هندرسون، سبق لنا أن خُدِعنا مرّةً واحدة بالفعل، وقد بدأتُ أفهم كيف يعمل أعداؤنا.

«بأيّ معنى...؟»

«لقد اعتادوا أنْ يعثروا هُمْ عليّ. إنّ الرجلَيْن اللذين تبعاك إلى هولبورن فياداكت لم يكونا ضابطَيْ شرطة. كانا يعملان لحساب أعدائنا الذين زوّدوك ما بدا كدليل لا يمكِن مقاومتُه على أمل أن تكونَ على علمٍ بمكان وجودي فتجلبه إليّ».

«لكن الاسم، بيت عجائب الدكتور سيلكين. هل تقولُ لي إنّ لا علاقةَ له على الإطلاق بالقضية؟»

«يا عزيزي واطسون، إنّ اسمَ سيلكين ليس نادرَ الوجود إلى هذا الحدّ. كان في إمكانهم أن يستخدموا اسم سيلكين صانع الجزمات في ساحة لادغيت سيركوس أو اسم سيلكين صاحب متجر الأخشاب في باترسي. كذلك كان في وسعهم استعمالُ اسم سيلكمان أو سيلك واي أو أيّ اسم آخر من شأنه أنْ يقودَنا إلى الاعتقاد بأنّنا نقترب من العثور على بيت الحرير. لم يكن يلزمهم إلّا استدراجي إلى العراء ليستطيعوا التخلُّصَ منّي في آخر الأمر».

«ماذا عنك يا لستراد؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟»

«لقد فاتحني السيّد هولمز بالأمر وطلب منّي المجيء، يا دكتور واطسون».

«هل كنتَ مقتنعًا ببراءته؟»

«لم أشكّ أبدًا في براءته منذ البداية. وعندما دقّقتُ في ما حدث في ساحة كوبرغيت سكوير، تبيّن لي أنّ في المسألة خدعةً ما. وقد قال المفتّش هاريمان إنّه كان عائدًا من معاينةِ سرقةِ مصرف في شارعِ هوايت هورس رود لكنْ لم تحدثْ سرقةٌ من هذا النوع، وقد راجعتُ سجلّ التقارير... وزرتُ المصرفَ أيضًا. وبدا لي أنّه إذا كان هاريمان مستعدًّا للكذب بهذا الشأن أمام المحكمة، فقد يكون مستعدًّا للكذب أيضًا بشأن عدّة أمور أخرى».

تدخّل هولمز في الحديث، وقال: «إنّ لستراد قامر عندما راهن عليّ. كان إحساسُه الغريزيّ الأوّل أنْ يسلّمني إلى سلطاتِ السجن. لكنّ كلًّا منّا، هو وأنا، يعرفُ الآخر جيّدًا مهما تكن الخلافات بيننا. وقد تعاونّا معًا مرّاتٍ أكثرَ من أنْ ينشبَ نزاعٌ بيننا بسببِ اتّهامٍ باطل. أليس ذلك صحيحًا يا لستراد؟»

«كلُّ ما تقولُه صحيح، يا سيّد هولمز».

وفي قرارة قلبه لا يقلّ لستراد عنّي تطلُّعًا إلى إنهاءِ هذه القضية وسَوْق الجناة الحقيقيين إلى العدالة.

قال أحدُ الشرطيين بصوتٍ منفعل: «هذا الرجل هنا حيّ»، إذ كان الشرطيون منشغلين بفحص الرجلَيْن اللذين هاجمانا بينما كنّا، هولمز وأنا، نتبادل الحديث.

توجّه هولمز إلى حيث كان برتبي ممدّدًا على الأرض وجثا إلى جانبه. سأله: «هل تستطيع أنْ تسمعني، يا برتبي؟» ساد الصمتُ برهةً ثم سُمِع أنينٌ خافت كنحيب طفل يتألّم. تابع هولمز كلامه قائلًا له: «ليس هناك ما نستطيع أنْ نفعلَه من أجلك، لكنْ ما زال لديك وقتٌ للتوبة، للتكفير عن بعض جرائمك قبل أنْ تواجهَ خالقك».

بدأ براتبي يبكي بصوت خافت جدًّا.

عاد هولمز إلى الكلام فقال: «أنا أعرف كلّ شيء عن بيت الحرير. أعلم ما هو وأين هو موجود... وقد زرتُه في الواقع ليلةَ أمس، لكنّني وجدتُه خاليًا يخيّم عليه الصمت. وهذه هي المعلومةُ الوحيدة التي لا أمتلك أيَّ وسيلة لاكتشافها بنفسي مع أنّها ضرورية جدًّا لنا إذا أردنا وضعَ حدٍّ نهائيٍّ لهذه القضية. ومن أجل خلاصِك أنت كلِّمني. متى سيعقد بيتُ الحرير اجتماعَه التالي؟»

ساد صمتٌ طويل، وبالرغم منّي شعرتُ فجأة بالشفقة على هذا الرجل الموشك على لفظ نَفَسِه الأخير مع أنّه كان ينوي أنْ يقتلَنا، هولمز وأنا، قبل دقائقَ قليلة فقط. فجميع الناس متساوون في لحظة الموت، ومن نكونُ نحن لنحكم عليهم عندما يكون قاضٍ أعظمُ كثيرًا في انتظارهم؟

«هذه الليلة»، قالها ومات.

اعتدل هولمز في وقفته، وقال: «أخيرًا مالَ الحظّ إلى جانبنا، يا لستراد. هل سترافقني أكثر قليلًا؟ وهل تصطحب معك عشرةَ رجال على الأقلّ؟ لا بدّ وأن يكونوا رابطي الجأش وأقوياء العزيمة لأنّهم لن ينسوا أبدًا ما نوشك على كشفه، وهذا وعدٌ أقطعه على نفسي».

أجابه لستراد: «نحن معك، يا هولمز. لنضعْ خاتمةً لهذه القضية».

كان مسدّسي مع هولمز. لم أشاهده عندما استعاد المسدّس، لكنّه دسّه في يدي من جديد وهو يدقّق النظر في عينيّ. أدركتُ ما كان يطلبه. أومأت برأسي وانطلقنا.

19

بيت الحرير

رجعنا إلى أعلى موقعٍ في تلّة هامورث هيل، إلى مدرسةِ كورلي غرينج للصبيان. وهل هناك مكانٌ آخر يمكن للتحقيق أنْ يقودنا إليه؟ من هنا جاء المنشور الإعلاني، وتبيّن بديهيًا أنّ شخصًا ما دسّه تحت حشيّة سرير روس لكي يجده مديرُ المدرسة لعلمِ هذا الشخص أنّ المدير سيجلبه إلينا وأنّ ذلك سيجرُّنا إلى الفخّ المنصوب لنا في المهرجان الشتويّ للدكتور سيلكين. بالطبع لم يغبْ عن بالنا أبدًا احتمالُ كون فيتز سيمونز كاذبًا منذ البداية وشريكًا في المؤامرة أيضًا. ومع ذلك، وجدتُ هذا الاحتمال صعبَ التصديق حتّى في هذا الوقت لأنّه بدا لي كنموذج للاستقامة بما له من إحساسٍ بالواجب واهتمام بمصلحة صبيان مدرسته وزوجةٍ محترَمة وما أبداه من لوعةٍ عند سماعه نبأ موتِ روس. كان من الصعب عليّ أنْ أتصوّر أنّ كلَّ ذلك لم يكن أكثر من تمثيلٍ بتمثيل. وشعرتُ، حتّى في هذه اللحظة، بأنّه إذا كان استُدرِج إلى أمرٍ ذميم وشرّير، فقد تمّ ذلك بدون علمه أو إرادته.

كان لستراد قد أحضر معه عشرةَ رجال في أربع عربات منفردة سارت الواحدة خلف الأخرى بهدوء وهي تصعد التلّةَ التي بدت متزايدة الارتفاع بلا نهاية على الطرف الشماليّ للندن. كان لستراد لا يزال متسلّحًا بمسدّس مثل هولمز ومثلي أنا، لكنّ رجالَه الآخرين لم يحملوا أسلحةً بحيثُ ستكون السرعةُ والمباغتة العاملَيْن الحاسمَيْن للنجاح إذا كنّا نستعدّ لمجابهةٍ جسديّة. أعطى

هولمز إشارةً وتوقّفت العربات على مسافةٍ قصيرة من مقصدنا الذي لم يكن المدرسة نفسَها بل المبنى المربَّع على الجانب الآخر من الطريق الذي كان في ما مضى مصنعًا للعربات. وقد سبق لفيتزسيمونز أنْ قال لنا إنّ المبنى يُستخدَم الآن لإحياء حفلاتٍ موسيقيّة. ولا بدّ وأنْ يكون قد صدق في هذه النقطة على الأقلّ لأنّ عدّة عربات كانت مركونةً خارجَ المبنى الذي استطعتُ سماعَ أنغامِ بيانو آتية من داخله.

اتّخذنا مواقعَنا خلف مجموعةٍ متقاربة من الأشجار حيثُ أمكننا البقاء بدون أنْ نُرى. كانت الساعة قد بلغت الثامنةَ والنصف، وبدأ الثلج يهطل برقاقات شبيهة بريشاتٍ سمينة بيضاء تتساقط من سماء الليل. ابيضّت الأرضُ وازدادت شدّةُ البرد في هذا المكان المرتفع على جانب التلّة عمّا كانت عليه في المدينة. كنتُ أشعر بألمٍ مبرّح نابضٍ في ذراعي كلّها من جرّاء الضربة التي تلقّيتُها في المهرجان، وتشنّج جرحي القديم تعاطفًا مع ذراعي وخشيتُ أنْ أكونَ أعاني بداياتِ حمّى. لكنّني كنتُ مصمّمًا على عدم إظهار أيّ من هذه الأعراض. لقد قطعتُ كلَّ المسافة حتّى هذه المرحلة وسأكملُ المسيرةَ حتّى نهايتها. كان هولمز ينتظر شيئًا ما، وكنتُ أضع ثقةً لا حدَّ لها في حُسنِ إدراكه حتّى لو اضطُرِرنا إلى الوقوف هنا طول الليل.

لا بدّ وأنْ يكون لستراد قد لاحظ الانزعاج الذي كنتُ أعانيه لأنّه وكزني برفق وناولني قنّينةَ جيب فضّية رفعتُها إلى شفتيّ وأخذتُ منها رشفةَ براندي ثم أعدتُها إلى صاحبِها، رجل التحرّي ذي الجسم الضئيل، فمسحها على كمّه وشرب قليلًا من محتواها ثمّ دسّها في جيبه.

سأل: «ما هي الخطّة، يا سيّد هولمز؟»

«إذا أردتَ أنْ نقبض على هؤلاء متلبّسين، يا لستراد، علينا أنْ نتعلّم كيف ندخل بدون أنْ نطلق الإنذار».

«هل سنقتحم الحفلةَ الموسيقية؟»

«هذه ليست حفلةً موسيقية».

سمعتُ جلبةَ عجلاتِ عربةٍ أخرى تقترب منّا، واستدرتُ لأشاهد عربةً صغيرة تجرُّها فرسٌ أصيلة رماديّةُ اللون كان الحوزيُّ يستحثُّها بفرقعة سوطه

لأنّ التلّةَ كانت شديدةَ الانحدار والأرض خطرة مع انزلاق العجلات على الطين والثلج. نظرتُ إلى هولمز، وكانت على وجهه نظرةٌ مختلفةٌ تمامًا عن أيّ تعبير رأيتُه عليه من قبل يمكن أنْ أصفَها بنوعٍ من الرضا باردِ الأعصاب والإحساسِ بأنّ الوقائع أثبتتْ صوابَ ما ذهبَ إليه وبأنّه يستطيع الآن، في آخر المطاف، أن يسعى إلى الأخذ بثأره. كانت عيناه لامعتَين، لكنّ خطوطًا داكنةً ارتسمتْ تحت عظام وجنتَيه، وخطر لي أنّ لا شيءَ سيبدو مهدِّدًا متوعِّدًا مثله، ولا حتّى ملاك الموت عندما ألتقيه في آخر العمر.

قال هامسًا: «هل ترى يا واطسون؟»

لم نكنْ مرئيّين في مخبئنا خلف الأشجار. لكنّنا كنّا قادرين، في الوقتِ ذاته، على النظر بلا عوائق إلى كلٍّ من مبنى المدرسة ومسارِ الطريق في الاتّجاهَين. أشار هولمز بيده ورأيتُ في ضوءِ القمر شعارًا مرسومًا باللون الذهبيّ على جانب العربة، شعار الغراب والمفتاحَين. كان هذا شعارَ عائلة اللورد رافنشو، وتذكّرتُ ذلك الرجلَ المتعجرف ذا العينَيْن النافرتين الذي سُرِقت ساعتُه والذي اجتمعنا به في غلاوسسترشير. هل من الممكن أنْ يكونَ هو أيضًا متورّطًا في هذه القضية؟ انعطفت العربةُ إلى المدخل وتوقّفت. ترجّل منها اللورد رافنشو الذي سهُل التعرُّفُ إليه حتّى من هذه المسافة. كان يرتدي معطفًا فضفاضًا أسود وقبّعةً عاليةً رسميةً سوداء. سار إلى باب المبنى وطرقه، ففتَحَه شخصٌ متوارٍ خلفَه، لكنّ الضوءَ الأصفر اندلق إلى الخارج ورأيتُه يحمل شيئًا متدلّيًا من يده يشبه شريطًا طويلًا من الورق، لكنّه لم يكن ورقًا بطبيعة الأمر. كان شريطًا من الحرير الأبيض. سُمِح للواصل الجديد بالدخول وأُغلِق الباب.

قال هولمز: «الأمر كما تصوَّرتُه بالضبط. واطسون، هل أنت مستعدٌّ لمرافقتي؟ عليّ أنْ أحذّرك من أنّ ما ستُجابهه على الجانب الآخر من ذلك الباب قد يسبّب لك ضيقًا شديدًا. لقد كانت هذه القضيّةُ مثيرةً للاهتمام ولطالما تخوّفتُ من أنّها قد تؤدّي إلى خاتمةٍ واحدة لا أكثر. حسنًا، لا مفرَّ ممّا لا بدَّ منه وعلينا أنْ نرى ما تنبغي رؤيتُه. هل مسدّسُك مشحوٌ؟ طلقةٌ واحدة، يا لستراد، ستكون الإشارةَ لدخولك أنت ورجالك».

«كما تقول، يا سيّد هولمز».

بارحنا الحماية التي وفّرتها لنا الأشجار، وعبرنا الطريق وأقدامُنا تسحق طبقةَ ثلج جديدة سماكتُها بوصلة واحدة. لاح المبنى منتصبًا أمامنا ونوافذُه مغطّاة بستائر ثقيلة لا تتسرّب عبرها إلى الخارج إلّا رقعةٌ مستطيلة من الضوء الباهت. كنتُ لا أزالُ قادرًا على سماع عزف البيانو، لكنّ صوتَه لم يعد يوحي إليّ بإحياء حفلة موسيقية رسمية لأنّ الموسيقى التي سُمع في أحقر الحانات. تجاوزْنا صفّ العربات المركونة في انتظار أصحابها ووصلْنا إلى الباب الرئيسيّ الذي قرعه هولمز، ففتحه رجلٌ شابٌ لم أقابلْه في زيارتي الأخيرة للمدرسة. كان له شعرٌ أسودُ ملتزٌ على رأسِه وحاجبانِ مقوّسان وسلوكٌ متعجرفٌ ومجامِلٌ في الوقت ذاته. كانت ملابسُه تشبه، إلى حدٍّ ما، زيًا عسكريًا بسترةٍ قصيرة وسروالٍ فضفاض الخصر وجزمةٍ مُزَرّرة، كما كان يرتدي صدريّةً بلون الخزامى وقفازًا متناسقًا معها.

«نعم؟». لم يتمكّن حاجبُ الدار – إنْ كانت هذه صفته – من التعرُّف علينا ونظر إلينا بارتياب.

قال هولمز: «نحن صديقان للورد هوراس بلاكووتر»، ودُهِشتُ لسماعِه يذكر اسمَ أحدِ الأشخاص الذين اتّهموه في محكمة الشرطة.

«هو أرسلكما إلى هنا؟»

«لقد قدّم إليّ توصيةً حارّةً جدًا بكم».

«وما هو اسمُك؟»

«إسمي بارسونز، وهذا زميلٌ لي، السيّد سميث».

«وهل زوّدكما اللورد بلاكووتر أيّ علامة أو وسيلة للتعريف؟ ليس من المألوف لدينا عادةً أنْ تستقبل غرباءَ في منتصف الليل».

«بكلّ تأكيد. لقد طلب منّي أنْ أعطيك هذا». مدّ هولمز يده إلى جيبه وأخرج شريطًا من الحرير الأبيض حملَه برهةً في الهواء ثمّ أعطاه للرجل.

كان المفعولُ فوريًا. حنى حاجبُ الدار رأسَه وفتح الباب أكثر قليلًا وأشار بيدٍ واحدة قائلًا: «تفضّلا».

أُدخِلنا إلى بهوٍ فاجأني تمامًا وأنا أتذكّر الطبيعةَ الكئيبةَ المتقشّفة للمدرسة على الجانب الآخر من الطريق. توقّعتُ أنْ أرى الوضعَ ذاتَه هنا، لكنّ

هذا كان أبعدَ ما يمكن عن الواقع لأنّني وجدتُ نفسي محاطًا بترفٍ ودفءٍ وإنارة ساطعة. كان هناك ممرٌّ ذو أرضية من البلاط الأسود والأبيض على الطريقة الهولندية يمتدّ مسافةً طويلة إلى الداخل، وقد صُفَّت فيه بمحاذاةِ الجدران وبينَ الأبواب المتعدِّدة طاولاتٌ أنيقة من خشب الماهوغاني ذاتُ نقوش دائرية وأرجلٍ ملتفّة. وكانت مصابيحُ الغاز نفسُها مركَّبةً على مساندَ غنيّةٍ بالزخارف، وقد زيدت قوّتُها لكي يغمرَ نورُها التحفَ الكثيرة التي ازدانت بها الدار. كانت مرايا فاخرةٌ من طراز الروكوكو ذاتُ براويزَ فضّيةٍ برّاقة معلّقةً على الجدران التي كانت هي نفسُها مكسوّةً بورقِ جدرانٍ فائقِ التنميق باللونين القرمزيّ والذهبيّ. وكان تمثالان رخاميّان من روما القديمة منصوبتَيْن متقابلتَيْن في كُوّتَيْن جداريّتَيْن. وبالرغم من أنّهما قد لا يكونان لافتَيْن للنظر داخلَ متحف، فقد بدا وجودُهما في منزلٍ خاص منفّرًا ومنافيًا تمامًا للذوق السليم. وكانت في جميع أنحاء المكان ورودٌ ونباتاتٌ مزروعة رُتِّبت مزهريّاتها وأوانيها على طاولاتٍ ورفوفٍ جدارية ووطائد خشبية، وقد فاح أريجُها في جوِّ المكانِ المُدَفَّأ أكثرَ من اللازم. وكانت موسيقى البيانو تصل إلينا من غرفة في الجهة البعيدة، ولم يكن هناك أيُّ شخص آخر في مجال نظرنا.

«إذا تفضّلتُما بالانتظارِ هنا في الداخل، يا سيّديَّ، سأبلغ سيّدَ المنزل بوجودكما هنا».

أخذَنا حاجبُ الدار عبرَ بابٍ إلى غرفةٍ استقبال لا تقلّ أُبهةً عن الممرّ خارجَها. كانت أرضيّتُها مغطّاةً بسجّاد سميك، ورُتِّبتْ حول مدفأةٍ مفتوحة تلتهبُ فيها عدّةُ حطبات، مجموعةُ جلوسٍ مُنجَّدة بقماش بنفسجيّ داكن ومكوَّنة من أريكة وكرسيَّيْن كبيرَيْن. وكانت النوافذُ مغطّاةً بستائر سميكة من المخمل، لها كشاكشُ ثقيلة سبق لنا انْ رأيناها من الخارج. لكنْ كان هناك بابٌ زجاجيّ سُحِبت ستارتُه جانبًا يودي إلى مُستَنبتٍ داخلي مليءٍ بنباتات السَرخَس وأشجار البرتقال وفي وسطِه قفصٌ نحاسيٌّ كبير يضمّ ببغاء أخضر. وكان أحد جانبَيْ الغرفة مُخصَّصًا لرفوف الكتب بينما نُصِب صيوانٌ طويل على الجانب الآخر عُرِضت عليه زيناتٌ مختلفةُ الأنواع، من خزفيات

دِلْفت الهولندية الزرقاء والبيضاء والصور المُبروَزة إلى لوحةٍ لهرّتَيْن محنَّطتَيْن جالستَيْن على مقعدَيْن صغيرَيْن وكفّاهما متلاصقتان وكأنّهما زوج وزوجة. وكانت طاولةُ خدمةٍ مزخرفةُ الزوايا موضوعةً قربَ المدفأة وعليها عددٌ من الزجاجات والكؤوس.

قال الحاجب: «تفضّلا واستريحا من فضلكما. هل أستطيع أنْ أقدّم إليكما شرابًا؟». رفضْنا دعوتَه هذه، فقال: «إذًا، تفضّلا بالبقاء هنا وسأعود بعد هُنَيهة». غادر الغرفة بدون أنْ تُحدِثَ قدماه أيَّ صوت على السجّادة وأغلقَ الباب. أصبحنا وحدَنا.

قلتُ منفعلًا: «بحقِّ السماء، يا هولمز، ما هذا المكان؟»

أجابَ بوجهٍ متجهّم: «إنّه بيتُ الحرير».

«أجل. لكن ماذا..؟»

رفع هولمز إحدى يديه. كان قد ذهب إلى الباب. وأنصتَ لمعرفةِ ما إذا كان أيُّ شخص في الخارج. وبعد أنْ تأكّد من عدم وجودِ أحدٍ هناك، فتح البابَ بحذر وأشار إليّ بيده، وقال هامسًا: «أمامنا تجربةٌ قاسية وأكادُ أكونُ آسفًا لأنّني جلبتُك إلى هنا، يا صديقي القديم. لكنّ علينا أنْ نرى خاتمةَ هذه القضية».

انسلَلْنا إلى خارج الغرفة. كان حاجب الدار قد اختفى، لكنّ الموسيقى ظلّت تصدح وقد أصبحت الآن لحنَ الفالس، وتبادر إلى ذهني أنّ مفاتيح البيانو كانت مختلّةَ الدوزنة قليلًا. سرنا على امتداد الممرّ متوغّلَيْن أكثر داخل المبنى بعيدًا عن الباب الرئيسيّ. سمعتُ فجأةً، من مكانٍ بعيدٍ فوقَنا، شخصًا يصرخ صرخةً قصيرةً جدًّا جمّدت الدمَ في عروقي لأنّني كنتُ متأكّدًا من أنّ ذلك الصوت صدرَ عن طفل. وكانت عقاربُ ساعةٍ معلّقةٍ على حائط وتتكُ بتثاقُل تشيرُ إلى التاسعة إلّا عشر دقائق. إلّا أنّ انحباسَنا في هذا المبنى وانقطاعَنا الكامل عن العالم الخارجي أعطيانا انطباعًا بأنّنا قد نكون في أيّ وقت من الليل أو النهار. وصلْنا إلى درج وبدأنا الصعودَ إلى أعلى. سمعتُ، حتّى ونحن نخطو خطواتِنا الأولى، بابًا يُفتح في مكانٍ ما على امتداد الممرّ وصوتَ رجلٍ ظننتُ أنّني عرفتُ صاحبَه. إنّه سيّدُ البيت الذي كان متوجّهًا لمقابلتنا.

سرْعْنا تقدُّمَنا إلى الأمام وانعطفْنا حول الزاوية في لحظةِ مرور شخصين في الأسفل – صاحب الدار الذي استقبلنا ومعه رجلٌ آخر.

قال هولمز هامسًا: «لنتابع إلى الأمام، يا واطسون».

وصلْنا إلى ممرّ ثانٍ خُفِّضَت فيه إنارةُ مصابيح الغاز وكانت أرضيّتُه مغطّاةً بسجّاد وجدرانُه مكسوّةً بورق عليه رسماتُ زهور. وكانت في الممرّ أبوابٌ عديدةٌ أخرى وعُلِّقت على جانِبَيْه لوحاتٌ زيتية داخل براويزَ ثقيلة تبيَّن أنّها نسخٌ سيِّئةُ التقليد لأعمالٍ كلاسيكيّة. وعبقَ هواءُ الممرّ برائحةٍ سكّرية مزعجة، وبالرغم من أنّ الحقيقةَ لم تكن قد تكشّفت لي تمامًا، فقد كانت كلُّ غرائزي تحثّني على مغادرة ذلك المكان وتجعلُني أتمنّى لو لم آتِ إلى هناك أبدًا.

قال هولمز هامسًا: «علينا أنْ نختارَ بابًا. لكنْ أيّ واحد منها؟»

لم تكن الأبوابُ معلَّمةً، كانت متماثلةً ومصنوعةً من خشب السنديان الصقيل ولها مسكاتٌ من البورسلين الأبيض. اختار هولمز البابَ الأقرب إليه وفتحه. نظرْنا معًا إلى الداخل، إلى الأرضية الخشبية والسجّادة والشموع والمرآة والإبريق والحوض، وإلى الرجل الملتحي الذي لم نشاهدْه من قبل قطّ والجالس هناك لا يرتدي شيئًا إلّا قميصًا أبيض مفتوحَ الياقة، وإلى الصبيّ الجالس على السرير خلفه.

من المستحيل أنْ يكون ذلك حقيقيًا. لم أشأ أنْ أصدّق ما أرى، غير أنّني لم أستطع تكذيبَ الإثبات الماثل أمام عينيّ. لأنّ هذا كان سرَّ بيت الحرير. كان بيتًا للفجور، لا أكثر ولا أقلّ، لكنّه كان مخصَّصًا لنزوات الرجال مفرِطي الشذوذ ذوي الثروات التي تسمح لهم بالانغماس في شذوذهم. كان هؤلاء الرجال مولَعين بالصبيان اليافعين ويختارون ضحاياهم التاعسين من بين التلاميذ أنفسهم الذين رأيتُهم في مدرسة كورلي غرينج والذين تمّ اقتيادُهم من شوارع لندن حيث كانوا بدون عائلات ولا أصدقاء يرعونهم، بدون مال ولا طعام، مُهمَلين في الغالب من قبل مجتمع لم يكن يعتبرهم إلّا ظاهرةً مزعجة. وقد زُجَّ بهم في حياة الرذيلة هذه إمّا بالإرغام أو الرشوة، وهُدِّدُوا بالتعذيب أو الموت إذا لم ينصاعوا. وقد كان روس واحدًا منهم لفترةٍ

قصيرة، ولا غرابةَ في أنْ يكون قد هرب، ولا غرابةَ في أنْ تكونَ شقيقتُه حاولت أنْ تطعَنني ظنًّا منها أنّني أتيتُ لإعادته إلى المدرسة. وأتساءل عن ماهية هذا البلد الذي كنتُ أعيش فيه والذي سمح لنفسِه في أواخر القرن المنصرم بأنْ يتخلّى تمامًا عن أطفاله. يستطيعون أنْ يمرضوا. يستطيعون أنْ يموتوا جوعًا. والأسوأ من ذلك أنّ ما من أحدٍ كان يبالي.

تسارعت كلُّ هذه الأفكار في ذهني أثناء وقوفنا هناك لثوانيَ قليلة. وما لبث الرجل أنْ لاحظنا، فصاح مزمجرًا: «ماذا تظنّان نفسَيْكما فاعلَيْن هنا بحقّ الشيطان؟»

أغلق هولمز الباب، وفي تلك اللحظة بالذات دوّتْ صرخةٌ من الطابق السفلي عندما دخل سيّد الدار إلى غرفةِ الاستقبال واكتشف خروجَنا منها. توقّفَتْ موسيقى البيانو، وتساءلْتُ عن الخطوة التالية التي يجب أنْ نقوم بها، لكنّ القرارَ انتُزِع منّا في غضونِ ثانيةٍ واحدة. فُتِح بابٌ أبعدُ قليلًا في الممرّ وخرج منه رجلٌ كاملُ اللباس لكنْ مشوّش الهندام، إذ كان قميصُه متدلّيًا خارج سرواله لجهة ظهره. عرفتُ الرجلَ فورًا هذه المرّة. كان المفتّش هاريمان.

رأنا هاريمان. صاح مذهولًا «أنتما!»

تَسَمَّر في مكانه إزاءَنا. أخرجتُ مسدّسي بدون التفكير مرّتين وأطلقتُ الرصاصةَ الواحدة التي سيجلب صوتُها لستراد ورجالَه مسرعين إلى الداخل لمساعدتنا. لكنّني لم أطلق الرصاصةَ في الهواء كما كان في مقدوري أنْ أفعل، بل صوّبتُ المسدّس على هاريمان وضغطت على الزناد بنيّةِ قتلٍ لم تخالجني أبدًا لا من قبل ولا من بعد. كانت تلك المرّةَ الوحيدة في حياتي التي عرفتُ فيها بالضبط ما تعنيه الرغبةُ في قتل رجل.

أخطأتْ رصاصتي هدفَها، ولا بدّ أنْ يكون هولمز قد أدرك نيّتي في اللحظة الأخيرة، فأطلَقَ صرخةً واندفعتْ يدُه نحو مسدّسي، وكانت هذه الحركةُ كافيةً لإفساد تصويبي. طاشت الرصاصة وحطّمت مصباحَ غاز. انحنى هاريمان وركض هاربًا نحو درجٍ ثانٍ اختفى نزولًا عليه. وتردّد في الوقت ذاتِه صوتُ الطلق الناريّ كإنذار في جميع أنحاء المبنى، ففُتِحت أبوابٌ أُخرى على

عجل وهُرِعَ رجالٌ في منتصفِ العمر إلى الممرّ وهم ينظرون حولَهم ووجوهُهم مذعورةٌ بائسة وكأنّهم ظلّوا سنواتٍ طويلةً ينتظرون في سرّهم أنْ تنكشفَ آثامُهم وحزروا فورًا أنّ تلك اللحظة قد حانت في آخر المطاف. سُمِع من الطابق السفلي صوتُ تحطُّم خشب وصياحٌ عندما فُتِح البابُ عنوةً، وبلَغني صوتُ لستراد وهو يصيح. أُطلِقت رصاصةٌ ثانية وصرخ شخصٌ ما.

كان هولمز قد بدأ تحرّكه قُدُمًا دافعًا أيَّ شخص صادَفَ أنْ كان في دربِه وهو يتبعُ الطريق الذي سلكه هاريمان. وكان من الواضح أنّ رجلَ سكوتلاند يارد أقرّ بأنّ اللعبةَ انتهت، لكنْ بدا من غير الممكن أنْ ينجح في الفرار. كان لستراد قد دخل فعلًا وانتشر رجالُه في كلّ مكان، ومع ذلك كان من الواضح أنّ هذا ما تخوّف منه هولمز الذي وصل إلى الدرج في هذه الأثناء ونزل مسرعًا. تبعتُه ووصلْنا معًا إلى الطابق الأرضي وممرِّه ذي البلاط الأسود والأبيض. كان كلُّ شيءٍ هنا في حالٍ من الفوضى، البابُ الرئيسيّ مشرَّعٌ والهواء الجليديّ يعصف عبر الممرّات ولهبُ مصابيح الغاز يتذبذب. كان رجالُ لستراد قد بدأوا القيامَ بعملهم. خرج اللورد رافنشو الذي خلع معطفَه وبقي في سترته السموكنغ المخمليّة، راكضًا من إحدى الغرف وهو لا يزال يحمل سيجارًا في يده. قبض عليه أحدُ ضبّاط الشرطة وحشره على الحائط.

صاح: «إرفعْ يديكَ عنّي! ألا تعرف مَن أنا؟»

لم يكن قد أدركَ بعد أنّ البلد بأكمله سيعرف قريبًا مَن يكون وأنّ البلد كلَّه سيتقزّز منه ومن اسمِه بلا ريب. كان زبائنُ آخرون لبيت الحرير يُعتقلون ويتعثّرون هنا وهناك فاقدي الشجاعة والكرامة، وكثيرون منهم ينتحبون ويذرفون دموع الشفقة على أنفسهم. كان حاجبُ الدار يجلس منهارًا على الأرض وقطراتُ دم تنزل من أنفه. ورأيتُ روبرت ويكس، المعلّمَ المتخرِّجَ من كلّية باليول كولدج، يُجَرُّ من إحدى الغرف وذراعُه ملويّةٌ خلف ظهره.

كان هناك بابٌ في آخر الجهة الخلفيّة من المنزل. كان مفتوحًا ويوصل إلى حديقة، وكان أحدُ رجال لستراد ممدّدًا على الأرض أمامَه والدمُ ينزف بغزارة من جرحِ رصاصة في صدره. وجدْنا لستراد هناك يعتني به، لكنّه

نظر إلى أعلى عندما رأى هولمز وبدا وجهُه محتقنًا بالغضب، وقال بانفعال: «هاريمان هو الجاني. لقد أطلق النار وهو نازل على الدرج».

«أين هو؟»

«لقد رحل»، قال لستراد وهو يشير إلى الباب المفتوح.

بدون أنْ ينطقَ بكلمةٍ أخرى، اندفع هولمز لاحقًا بهاريمان. تبعتُه أنا لسببَيْن، أوّلُهما أنّ مكاني كان دائمًا إلى جانبه، وثانيهما أنّني أردتُ أيضًا أنْ أكون موجودًا عندما تُسوّى الحسابات في آخر الأمر. وقد لا يكون هاريمان أكثرَ من خادمٍ لدى بيت الحرير، لكنّه جعل عملَه أمرًا شخصيًّا فسجَنَ هولمز بدون وجه حقّ وتواطأ في محاولةِ قتله. وكان سيسعدني أنّ أقتلَه برصاصِ مسدّسي، وظللتُ نادمًا على عدم إصابته.

انطلقْنا إلى الخارج حيث الظلامُ والثلجُ المتساقط في دوّامات وتبعنا دربًا ملتفًّا حول جانب المبنى. كانت الليلةُ قد تحوّلت إلى متاهةٍ اختلط فيها السوادُ بالبياض وصعبت حتّى رؤيةُ المباني الواقعة على الطرف الآخر من الطريق. لكنّنا سمعنا، ونحن هناك، فرقعةَ سوط وصهيلَ حصان ثم اندفعت إحدى العربات مسرعةً نحو البوّابة. لم يكن هناك مجالٌ للشكّ في هوية الشخص الممسك بزمام العربة، وأدركتُ بقلبٍ منقبض ومرارةٍ في الفم أنّ هاريمان قد هرب وأنّنا سنُضطَرّ إلى الانتظار على أمل أنْ يتمّ العثورُ عليه واعتقالُه في الأيّام التالية.

لكنّ هولمز لم يكن ليقبلَ بذلك. كان هاريمان قد أخذَ عربةً ذاتَ عجلتين يجرّها جوادان، فما كان من هولمز إلّا أنْ قفز إلى أقربِ عربة من دون أنْ يتوقّفَ للاختيارِ بين العربات المتبقّية. وكانت العربةُ التي ركبها صغيرةً مهلهلة يجرّها جوادٌ واحد لم يكن نموذجًا للصحّة والقوّة. وتمكّنتُ أنا بشكلٍ ما من التسلّق إلى خلف العربة ثم انطلقْنا في المطاردة متجاهلَيْن صيحاتِ الحوذي الذي كان يدخّن سيجارة في مكان قريب ولم يلاحظْنا إلّا بعد فواتِ الأوان. اندفعنا إلى خارج البوّابة ثمّ التففْنا نحو الطريق. وفيما كان هولمز يستحثّ الجوادَ بالسوط، أثبت هذا الحيوانُ أنّه أقوى ممّا توقّعنا فكادت العربةُ الصغيرة تطير ببساطة فوق الارض المغطّاة بالثلج. ورغم افتقارنا إلى جواد واحد بالمقارنة مع

هاريمان، فقد كانت عربتُنا أخفَّ وزنًا وأرشقَ حركةً. ولم يكن في وسعي، وأنا جاثمٌ عاليًا فوقَ العربة، إلّا أنْ أتشبّثَ بمكاني خوفًا على حياتي الغالية وأنا أفكّر في أنّ عُنُقي سينكسر بالتأكيد إذا سقطتُ من العربة.

لم تكن تلك الليلةُ ملائمةً لمطاردة. كان الثلج يلفحُنا أفقيًا ويلسعنا بسلسلةٍ من الهبّات المتتابعة. ولم أستطعْ حتّى أنْ أبدأ في فهْمِ كيفَ كان هولمز قادرًا على الرؤية لأنّني كنتُ أُصابُ بالعمى فورًا كلّما حاولتُ أنْ أحدّقَ إلى الظلام، ناهيكَ عن فقدِ الإحساسِ في وجنتَيّ بفعل البرد. لكنّ هاريمان كان أمامَنا ولا يبعد أكثرَ من خمسين ياردة، وقد سمعتُه يصيح من شدّة غيظه مثلما سمعتُ فرقعةَ سوطه. كان هولمز جالسًا أمامي متوثّبًا في انحناءةِ جسمِه قابضًا على الزمام بكلتا يديه ومحافظًا على توازنِه بقدميه وحدهما. كانت كلُّ حفرةٍ في الطريق تشكّل تهديدًا بقذفِه خارجَ العربة، فيما كان أصغر منعطف يجعل العربةَ تنزلق بجنون على سطحِ الطريقِ المتجلّد. تساءلتُ عمّا إذا كانت نوابضُ العربة قادرةً على التحمُّل، وتراءت لي في مخيّلتي كارثةٌ وشيكة يجلب فيها جوادُنا الذي أثارته المطاردة، نهايتَنا محطّمِيْن أشلاء متناثرة. كانت التلّةُ شديدةَ الانحدار، وبدا لي كما لو كنّا نهوي في وادٍ والثلجُ يتطاير حولنا والريحُ تدفعنا إلى أسفل.

أربعون ياردة، ثلاثون... بشكلٍ ما كنّا ننجح في تضييق الفجوة بيننا. كانت حوافرُ الجوادَيْن الآخرين تصدر صوتًا كالرعد وهما يندفعان نزولًا والعجلاتُ تدور بسرعة جنونية وهيكلُ العربةِ كلُّه يطقطق ويرتجُّ كما لو كان سيتشظّى قطعًا متناثرة في أيّ لحظة. كان هاريمان قد تنبّه إلى وجودِنا في هذه الأثناء، ورأيتُه ينظر إلى الخلف وشعرُه الأبيض يشبه هالةً مجنونةً حول رأسه. مدّ يده لتناول شيء ما، لكنّني لم أدركْ ما هو إلّا بعد فوات الأوان. صدرت ومضةٌ حمراءُ صغيرة من جرّاء طلقٍ ناري ضاع صوتُه في ضوضاء المطاردة. سمعتُ الرصاصةَ ترتطم بخشب. أخطأتْ هولمز ببوصات قليلة وأخطأتني أنا بمسافة أقصر. كنّا، كلّما اقتربنا من هاريمان، نصبح هدفًا أسهلَ له، ومع ذلك واصلْنا اندفاعَنا خلفه.

لاحت الآن أنوارٌ على مسافةٍ بعيدة، قرية أو ضاحية. أطلق هاريمان النارَ مرّةً ثانية، وزعَقَ جوادُنا وتعثّر. ارتفعت عربتُنا الصغيرة في الهواء ثم

عادت مرتطمةً بالأرض، فشعرتُ بانضغاطِ عمودي الفقريّ وبألمٍ لاسعٍ كالنار في كتفي. لكنّ الجوادَ لم يُقتَل لحسن الحظّ بل جُرِحَ فقط، ولَم يُسفِرْ هذا الحادث الذي كاد يتحوّل إلى كارثة إلّا عن جعل الجواد أكثرَ تصميمًا. وفيما أطلق هولمز صرخةَ توجُّعٍ صامتة، ضاقت المسافةُ إلى ثلاثين ياردة، عشرين ياردة. وما هي إلّا ثوانٍ قليلة وسنتجاوز هاريمان.

لكنّ هولمز ما لبث أنْ جذب الزمامَ بقوّة ورأيتُ منعطفًا حادًّا أمامنا – إذ كان الطريقُ يغيّر اتجاهَه نحو اليسار، وإذا حاولْنا الانعطافَ بهذه السرعة، فمن المؤكّد أنّنا سنُقتَل. كانت العربةُ تنزلق على سطحِ الطريق والجليدُ والوحلُ يتطايران من تحت عجلاتها، وكنتُ واثقًا بأنّني سأُرمى عنها. فشدّدتُ قبضتي والريح تلسعني فيما بدا العالمُ كلّه شبيهًا ببقعةٍ يغشاها الضباب. سمعتُ فرقعةً قويّةً أمامي – لم تصدر عن رصاصةٍ ثالثة بل كانت صوتَ خشب يتشظّى. فتحتُ عينيّ ورأيتُ العربةَ أمامنا تلتفّ حولَ الزاوية بسرعةٍ أعلى مِمّا ينبغي، فمالت وظلّت مندفعةً على عجلة واحدة، ما وضع ضغطًا هائلًا على هيكلها الخشبيّ الذي تحطّم حتّى وأنا أراقبها. قُذِف هاريمان عن مقعدِهِ عاليًا في الهواء وظلّ زمامُ الجوادين يجذبه إلى الأمام. بدا معلّقًا هناك في الهواء لبرهةٍ قصيرة، ثمّ انقلبت العربةُ كلّها على جانبها واختفى هاريمان عن نظري. واصل الجوادان جريَهما، لكنّهما كانا قد انفصلا عن العربة وتابعا طريقَهما في الظلام. انزلقت العربةُ والتفّت حولَ نفسها إلى أنْ توقّفت أخيرًا أمامَنا مباشرة، وظننتُ أنا للحظةٍ واحدة أنّنا سنرتطم بها. لكنّ هولمز كان لا يزال ممسكًا بالزمام وقادَ جوادَنا حولَ تلك العقبة، ثمّ أوقفَه.

وقف جوادُنا في مكانه وهو يلهث. كان خيطٌ من الدم يسيل على خاصرته، وشعرتُ أنا وكأنّ كلَّ عظمةٍ في جسمي تزحزحت عن مكانها. لم أكنْ أرتدي معطفًا وكنتُ أرتجفُ من شدّةِ البرد.

قال هولمز بصوت مبحوح وهو يلتقط أنفاسَه: «حسنًا، يا واطسون، هل تظنّ أنّ لي مستقبلًا كسائق عربة؟»

«قد يكون لك مستقبلٌ كهذا، لكنْ لا تتوقّع الحصولَ على إكراميّاتٍ كثيرة».

«دعنا نرى ما نستطيع فعلَه من أجل هاريمان».

ترجّلنا من العربة – لكنّ نظرةً واحدة أعلمتنا أنّ المطاردةَ انتهت بكلّ معنى الكلمة. كان هاريمان مغطّى بالدم وقد انكسرت رقبتُه بشكل فظيع بحيث كانت عيناه فاقدتا البصر شاخصتَيْن نحو السماء بالرغم من أنّه كان منبطحًا على صدره وكفّاه ممدودتان على الأرض. وكانت كلُّ تقاسيم وجهِه ملتويةً بفعل الألم الرهيب. ألقى هولمز نظرةً واحدة عليه وأومأ برأسه قائلًا: «هذا ليس أكثرَ ممّا استحقّه».

«كان رجلًا شريرًا، يا هولمز. هؤلاء كلّهم أشرارٌ سفلة».

«لقد وصفتَهم بدقّة، يا واطسون. هل في إمكانك تحمُّلُ العودة إلى مدرسة كورلي غرينج؟»

«أولئك الأطفال، يا هولمز. أولئك الأطفال المساكين».

«أعلم، لكنْ لا بدّ وأنْ يكونَ لستراد قد سيطر على الوضع في هذه الاثناء. دعنا نرى ما يمكن عملُه».

كان جوادُنا مفعَمًا بالحيوية والغضب ومنخراه ينفثان بُخارَ أنفاسِه في عتمةِ الليل. تمكّنّا بصعوبةٍ من عكسِ اتّجاهه، وقدنا العربة ببطء وهي تصعد التلّة. دُهِشْتُ لبُعد المسافة التي قطعناها من قبل، فرحلةُ النزول استغرقت دقائقَ قليلة غير أنّنا احتجْنا إلى أكثر من نصفِ ساعةٍ للعودة. لكنّ الثلج بدا أخفّ الآن، كما تراجعت سرعةُ الرياح. سُرِرت لتوفُّر بعضِ الوقتِ لي كي أتمالَك نفسي وأنفردَ بصديقي.

قلت: «هولمز، متى بدأتَ تعرفُ الحقيقة؟»

«بشأنِ بيت الحرير؟ لقد ارتبتُ في وجود خطبٍ عندما جئنا إلى مدرسة كورلي غرينج لأوّل مرّة. وقد كان فيتز سيمونز وزوجتُه ممثّلَيْن بارعَيْن، لكنّك تذكر بالتأكيد كم غضب فيتز سيمونز عندما قال لنا الطفلُ الذي استجوبناه – وكان صبيًّا أشقر الشعر اسمُه دانيال – إنّ لروس شقيقةً تعمل في حانةِ «ذي باغ أوف نيلز». وقد موّه الأمر جيّدًا وحاول إقناعَنا بأنّه استاءَ لأنّنا لم نتلقَّ هذه المعلومة في وقتٍ أبكر. لكنّه غضب في الواقع لكونِ أيّ شيء قد قيل لنا على الإطلاق. كذلك حيّرتني طبيعةُ المبنى المواجه

للمدرسة. استطعتُ أنْ أرى من نظرةٍ واحدة أنّ آثارَ العجلات كانت لعددٍ من العربات المختلفة ومنها عربةٌ بروهام فاخرة وعربةٌ لنداو كبيرة. وتساءلتُ لماذا يأتي مالكو عربات غالية الثمن مثلهما لحضورِ حفلةٍ موسيقية تحييها مجموعةٌ من الصبيان المجهولين المعوَزين؟ لم يكن الأمر منطقيًا».

«لكنّك لم تدرك...».

«ليس آنذاك. وهذا درسٌ تعلّمتُه، يا واطسون، وهو درس سوف أتذكّره في المستقبل. فعندما يتقصّى رجلٌ تحرُّ جريمةً ما، عليه أنْ يهتديَ بين حين وآخر بأسوأ تخيُّلاته – أيّ أنّ عليه أنْ يضعَ نفسَه في عقلِ المجرم. لكنّ هناك حدودًا لا يسمح أيُّ رجل متحضّر لنفسِه بتجاوزها، وهذا ما انطوت عليه المسألةُ هنا. لم أتصوّرْ ما قد يكون فيتزسيمونز وشركاؤه متورّطين فيه لسبب بسيط هو أنّني لم أكن راغبًا في ذلك. وسواء راق لنا هذا الواقعُ أم لا، عليّ أنْ أتعلّم أنْ أكونَ أقلَّ تزمُّتًا في المستقبل. ولم أبدأ في إدراكِ أنّنا دخلنا حلبةً مختلفةً تمامًا عن أيّ شيء اختبرناه في الماضي إلّا عندما اكتشفْنا جثّة روس المسكين. ولم يكن ذلك بسبب قسوة الأذى الذي تعرّض له فحسب، بل بسبب الشريط الأبيض الذي رُبط حول رسغه. وأيُّ شخصٍ قادر على التعامل بهذا الشكل مع طفل ميّت، لا بدّ وأنْ يكونَ ذا عقل فاسد تمامًا ونهائيًا، ويمكن لرجلٍ من هذا النوع أنْ يرتكبَ أيَّ فعلة مهما تكن».

«الشريط الأبيض...».

«كان الشريطُ الأبيض، كما رأيتَ أنت، العلامة التي يتعرّف بها هؤلاء الرجال بعضهم إلى بعض والتي تتيح لهم الدخولَ إلى بيت الحرير. لكنْ كانت لهذا الشريط غايةٌ ثانية، فبربطِه حول رسغ الطفل كانوا يجعلونه أمثولةً لسواه. كانوا يعلمون أنّ الصحف ستذكر هذا الواقع فيصبح بالتالي إنذارًا بأنّ هذا ما سيحدث لأيّ شخص يعترض طريقَهم».

«والاسم، يا هولمز. ألهذا السبب أطلقوا عليه اسم بيت الحرير؟»

«لم يكن هذا السبب الوحيد، يا واطسون. وأخشى أنْ أقول إنّ الجوابَ كان ماثلًا أمامنا طول الوقت بالرغم من أنّه لم يتّضح ربّما إلّا بعد استذكار ما سبق. ومن المؤكّد أنّك تتذكّر اسمَ الجمعيةِ الخيريّة التي قال لنا فيتزسيمونز

إنّها تدعم عملَه، وهي جمعيّةٌ تحسين أوضاع أطفال لندن. وأرجّح أنّنا كنّا نتعقّبُ بيتَ هذه الجمعية House of Silc[1] – وليس بيتَ الحرير House of Silk. وفي أيّ حالٍ لا بدّ وأنْ يكون هذا أصلُ التسمية. ومن المحتمل أنْ تكونَ هذه الجمعية قد أُسّست أصلًا من أجل هؤلاء الناس على وجه التحديد لأنّها وفّرت لهم آليّةً للعثور على الأطفال وقناعًا يستطيعون التواري خلفَه لاستغلالِ أولئك الأطفال.

وصلنا إلى المدرسة، وأرجعَ هولمز العربةَ إلى سائقِها مع تقديم اعتذار له. كان لستراد ينتظرنا عند الباب. سأل: «هاريمان؟»

«لقد مات. انقلبت عربتُه».

«لا أستطيعُ القولَ إنّني آسف».

«كيف حالُ رَجُلِك، ضابط الشرطة الذي أُصيبَ بالرصاص؟»

«جرحه خطر، يا سيّد هولمز، لكنّه سيعيش».

وبالرغم من عدم رغبتي في الدخولِ إلى المبنى مرّةً ثانية، تبِعْنا لستراد عائدَيْن إلى الداخل. كانت بعضُ البطّانيات قد أُحضرت من الطابق الثاني لتغطية ضابط الشرطة الذي جُرِح برصاص هاريمان. وكان البيانو صامتًا بالطبع. خلاف ذلك، كان بيتُ الحرير على حاله عمومًا، كما رأيناه عندما دخلنا إليه أوّل مرّة. جعلتني العودةُ إليه أرتعد، لكنّني كنتُ أدرك أنّ هناك عملًا لم يُستكمَل بعد.

قال لنا لستراد: «لقد أرسلتُ في طلب مزيد من الرجال. قضيّتُنا هنا بالغةُ السوء، يا سيّد هولمز، وسيتطلّب توضيحُ خفاياها وتفاصيلِها مسؤولًا أعلى رتبةً منّي بكثير. وبودّي إبلاغكما أنّ الأطفالَ أُعيدوا إلى المدرسة على الجانب الآخر من الطريق. وقد كلّفتُ ضابطَيْ شرطة بالسهر على سلامتهم لأنّ جميعَ المعلّمين في هذا المكان المُريع متورّطون في ما كان يجري هنا، وقد وضعتُهم جميعًا رهن الاعتقال. وأظنّ أنّكما اجتمعتما باثنَيْن منهم – ويكس وفوسبر».

[1] SILC = الأحرف الأولى لاسم الجمعية في اللغة الإنكليزية:
SILC = Society for the Improvement of London's Children
التي تلفظ مثل SILK = الحرير. (المترجم).

سألتُه: «وماذا عن فيتزسيمونز وزوجته؟»

«إنّهما في غرفة الاستقبال وستراهما بعد قليل، لكنّ هناك شيئًا أريدُكما أنْ ترياه أوّلًا، إذا كان في وسعكما تحمُّلُ المشهد». لم أكد أُصدّق أنّ من الممكن أنْ يحوي بيتُ الحرير مزيدًا من الأسرار، لكنّنا تبعْنا لستراد عائدَيْن إلى الطابق الأعلى وهو يتكلّم طول الوقت: «كان هنا تسعةُ رجال آخرين. ماذا أدعوهم؟ زبائن؟ عملاء؟ منهم اللورد رافنشو ورجلٌ آخر تعرفانه جيّدًا – طبيبٌ على وجه التحديد اسمُه أكلاند. الآن أستطيع أنْ أفهم لماذا كان متحمّسًا جدًّا للإدلاء بشهادة كاذبة ضدّك، يا سيّد هولمز».

سأل هولمز: «وماذا عن اللورد هوراس بلاكووتر؟»

«لم يكن موجودًا هنا في هذه الليلة، يا سيّد هولمز، مع أنّني متأكّدٌ من أنّنا سنكتشفُ أنّه كان زائرًا كثيرَ التردُّد إلى هنا. لكنْ اتبعاني في هذا الاتّجاه لأُريكما ما وجدنا ولنرى ما إذا كان في وسعكما أنْ تفهما ماهيّته».

سرنا في الممرّ الذي سبق أنْ التقينا فيه هاريمان. كانت الأبوابُ مفتوحةً الآن وبانت وراءَها غرفُ نوم كلّها مترفةُ التأثيث. لم تكن لديّ رغبةٌ في دخولِ أيّ منها – حتّى جلدي انكمش من الفكرة – لكنّني تبعتُ هولمز ولستراد ووجدتُ نفسي في غرفةٍ مكسوّةٍ بحرير أزرق، فيها سريرٌ من حديد الصبّ وأريكةٌ واطئة وبابٌ يؤدّي إلى حمّام يصله الماء بالأنابيب. وكانت أمام الحائطِ المقابل خزانةٌ واطئة وُضِع فوقها حوضٌ زجاجيّ يحتوي على عدد من الأحجار وزهورٍ يابسة مرتّبة بما يشبه مجسّمًا مصغّرًا لمنظرٍ بريّةٍ، لعلّه كان من ممتلكات محبٍّ للطبيعة أو هاوي جمعِ مقتنياتٍ فريدة.

قال لستراد شارحًا: «لم تكن هذه الغرفةُ قيدَ الاستعمال عندما دخلناها. ثم واصل رجالي تقدُّمَهم في الممرّ إلى الغرفة التالية التي لا تعدو أنْ تكون خزانةَ مستودَع ولم يفتحوها إلّا مصادفةً. والآن أنظرا هنا، هذا ما وجدناه».

لفتَ انتباهَنا إلى الحوض، ولم أستطع في بداية الأمر أنْ أفهمَ لماذا نتفحّصه، لكنّني ما لبثتُ أنْ أدركتُ أنّ فتحةً صغيرة قد ثُقِبَت في الحائط خلف الحوض واختفت تمامًا خلف الزجاج حتّى كادت تكون غير مرئيّة.

قلتُ منفعلًا: «نافذة!». ثمّ فهمتُ الدلالة. أضفتُ قائلًا: «كان في استطاعتهم مراقبةُ أيّ شيء يحدثُ في هذه الغرفة».

همهم لستراد قائلًا بوجهه المتجهّم: «لم يقتصر الأمر على المراقبة فحسب».

عاد لستراد بنا إلى الممرّ، ثمّ فتح باب الخزانة بحركة سريعة. كانت خاليةً من أيّ شيء ما عدا طاولة وُضِع فوقها صندوقٌ من خشب الماهوغاني. لم أكنْ متأكّدًا في البداية من طبيعةِ ما أشاهده، لكنّ لستراد سرعان ما فكّ رباط الصندوق الذي انفتح مثلَ أكورديون، وأدركتُ عندئذٍ أنّه في الواقع آلةُ تصوير وأنّ عدستَها المركّبةَ على طرف أنبوبٍ انزلاقي كانت مثبّتة على الجانب الآخر من النافذة التي شاهدناها للتوّ.

قال هولمز ملاحظًا: «إنْ لم أكنْ مخطئًا، هذه آلةُ تصوير على لوحةٍ ربعية ماركة E. Merveilleux من صنع شركة ج. لانكستر وابنه في بيرمنغهام».

سأل لستراد: «هل هذا جزءٌ من شذوذهم؟ أن يحتفظوا بسجلٍّ لما كان يحدث هنا؟»

أجاب هولمز: «لا أظنّ ذلك. لكنّني أفهم الآن لماذا قوبِل شقيقي مايكروفت بذلك الموقف العدائيّ عندما بدأ استقصاءاته ولماذا لم يتمكّن من مساعدتي. هل تقول إنّك أبقيتَ فيتزسيمونز في الطابق السفلي؟»

«وزوجته أيضًا».

«إذًا، أعتقد أنّ الوقتَ حان لتصفية حسابنا».

كانت النارُ لا تزال مشتعلةً في غرفة الاستقبال التي ظلّت دافئةً وثقيلةَ الوطأة. كان القسّ تشارلز فيتزسيمونز جالسًا على الأريكة مع زوجته، وسرّتني رؤيتُه بدون زيّه الكهنوتي ومرتديًا بدلًا منه ربطةَ عنق سوداء وسترة سموكنغ رسميّة. ولا أظنّ أنّني كنتُ سأحتمل المزيدَ من ادّعاءاته بالانتماء إلى الكنيسة. كانت السيّدة فيتزسيمونز جالسةً هناك متصلّبةً ومنكمشةً على نفسها، ورفضتْ ملاقاةَ أعيننا. لم تنطقْ بكلمةٍ واحدة طوال الاستجواب الذي تلا دخولَنا. جلس هولمز ووقفتُ أنا مُديرًا ظهري إلى النار، وظلّ لستراد عند الباب.

«السيّد هولمز!»، بدا من صوت فيتزسيمونز كأنّه تلقّى مفاجأةً سارّة لرؤيته. «أفترضُ أنّ عليّ أنْ أهنّئك، يا سيّدي. لقد أثبتَّ أنّك لا تقلّ براعةً على الإطلاق عمّا بلغني عنكَ وصدّقتُه أنا. لقد أفلحتَ في النجاة من الفخّ الأوّل الذي نُصِب لك. وكان اختفاؤك من سجن هولواي أمرًا خارجًا عن المألوف. وبما أنّ لا هندرسون ولا براتبي قد عادا إلى هذه المؤسّسة سأفترض أنّك تمكّنت منهما في شارع جاكدولين وأنّهما رهنُ الاعتقال».

قال هولمز: «لقد ماتا».

«كانا سيُشنقان في نهاية الأمر بأيّ حال، لذا أعتقد أنّ الأمر لا يفرق كثيرًا».

«هل أنت مستعدّ للإجابة عن أسئلتي؟»

«طبعًا. لا أرى بتاتًا أيَّ سبب يحول دون ذلك، كما لا أشعر بالخجل ممّا دأبنا على فعله هنا في كورلي غرينج. لقد عاملْنا بعضَ رجال الشرطة بقسوة بالغة و...». ثم قال بصوتٍ عالٍ مخاطبًا لستراد الواقف عند الباب: «أستطيع أنْ أؤكّد لك أنّني سأقدّم شكوى رسميّة. لكنّ الحقيقة هي أنّنا لم نفعل أكثر من توفيرِ خدمةٍ ما فتئ رجالٌ معيّنون يطلبونها عبر القرون. وأنا واثقٌ بأنّكم درستم الحضارات القديمة للإغريق والرومان والفرس. كان الطقسُ الخاصّ بغانيميد[2] ممارسةً مشرّفة، يا سيّدي. هل تنفّرك أعمالُ ميكالنجلو أو حتّى قصائدُ شكسبير الغنائيّة. حسنًا، أنا متأكّدٌ من أنّك لا ترغب في مناقشة المعاني الضمنيّة للموضوع. الأمرُ لك، يا سيّد هولمز. ماذا تريد أنْ تعرف؟»

«هل كان بيتُ الحرير فكرتك أنت؟»

«كانت الفكرةُ لي بالكامل. وفي وسعي أنْ أؤكّد لك أنّ جمعيةَ تحسين أوضاع أطفال لندن وعائلةَ مُحسِننا السير كريسبين أوغيلفي اللتَيْن دفعتا ثمن شراء كورلي غرينج لا تعرفان شيئًا عمّا كنّا نفعله هنا، وإنّني واثقٌ بأنّهما ستُصدَمان مثلك تمامًا. وأنا لستُ في حاجةٍ إلى التستُّر عليهما ولا أفعلُ أكثر من قول الحقيقة».

[2] غانيميد Ganymede: في الميثولوجيا الإغريقية هو فتى بهيّ الطلعة اختاره الآلهة ليكون ساقيهم لجماله (المترجم).

«هل كنتَ أنتَ مَن أمَرَ بقتل روس؟»

«سأعترفُ بذلك، نعم. لستُ فخورًا بذلك، يا سيّد هولمز. لكنّ قتلَه كان ضروريًّا لضمان سلامتي الشخصية واستمرار هذه العملية. وعليكَ أنْ تفهم أنّني لا أعترفُ بارتكاب الجريمة بحدّ ذاتها، وقد نفّذها هندرسون وبراتبي في الواقع. وقد يكونُ من المفيد أنْ أضيفَ أيضًا أنّك ستخدع نفسَك إذا اعتقدتَ أنّ روس كان ملاكًا صغيرًا بريئًا تعرّض لظروفٍ سيّئة. وكانت السيّدة فيتزسيمونز محقّة عندما قالت إنّه كان شخصًا سيّئًا وقد جلب هو وحدّه هذا المصيرَ لنفسه».

«أعتقد أنّك اعتدتَ أنْ تحتفظ بسجلّ فوتوغرافي لبعض زبائنك».

«هل دخلتَ إلى الغرفة الزرقاء؟»

«أجل».

«كان ذلك ضروريًّا بين حين وآخر».

«أفترضُ أنّ غايتَك كانت الابتزاز».

«الابتزاز، بين حين وآخر، وعند الضرورة القصوى فقط. ولن يدهشك أنْ تعرف أنّني جنيتُ أموالًا طائلة من بيت الحرير ولم أكنْ في حاجةٍ إلى مصادرِ دخلٍ أخرى، لا، لا، كان ذلك للحماية الشخصية في الغالب، يا سيّد هولمز. كيفَ تظنّ أنّني تمكّنتُ من إقناع الدكتور أكلاند واللورد هوراس بلاكووتر بالظهور في محكمةٍ عامّة؟ ما فعلاه كان عملًا للمحافظة على النفس من جانبهما. ولهذا السبب بالذات، أستطيع أنْ أقولَ لك الآن إنّنا، زوجتي وأنا، لن نمثُلَ أبدًا أمام محكمة في هذا البلد. فنحن نعرف أسرارًا كثيرةً جدًّا عن أناسٍ كثيرين جدًّا يشغلُ بعضُهم أعلى المناصب ولدينا إثباتات أخفيناها بعناية. والسادة الذين عثرتم عليهم هنا الليلة ليسوا إلّا نخبةً صغيرة من زبائني الممتنّين. لدينا وزراءُ وقضاةٌ ولوردات بين زبائننا. علاوةً على ذلك، أستطيعُ أنْ أسمّيَ فردًا من أنبلِ أسرةٍ في هذا البلد كان زبونًا كثيرَ التردُّد إلى هنا، لكنّه يعتمد بطبيعة الأمر على احترامي لسرّه بقدرِ ما أستطيع الاعتمادَ عليه لحمايتي إذا دعت الضرورة. هل تفهم قصدي، يا سيّد هولمز؟ لن يسمحوا لك أبدًا بكشف هذه القضية علانيةً. وبعد ستّة أشهر من الآن سنكون، زوجتي

وأنا، حُزّين وسنبدأ من جديد بهدوء. وربّما سيكون من الضروري أنْ نوجّه أنظارنا نحو القارّة الأوروبية فلطالما كنتُ مولَعًا بالجنوب الفرنسيّ. لكنّ بيتَ الحرير سيعود إلى الوجود في أيّ مكان وفي أيّ زمان. وأنا أعدك بذلك».

لم يقل هولمز شيئًا. نهض وغادرْنا الغرفةَ معًا، لم يذكر اسمَ فيتزسيمونز من جديد في تلك الليلة، كما لم يقل أيّ شيء عن هذا الموضوع في صباح اليوم التالي. لكنّنا كنّا منشغلَيْن مجدَّدًا في ذلك الوقت. فالمغامرةُ كلّها بدأت طبعًا في ويمبلدون وإلى ويمبلدون نعود الآن.

20

كيلان أدوناهيو

بدّل الثلجُ الذي تساقط في الليلة الفائتة منظرَ ريدجواي هول بشكلٍ مذهل، فأبرَزَ تناسقَ هذا المنزل وجعلَه يبدو بصورةٍ عابرٍ للعصور والزمان. وسبق لي في المناسبتَيْن اللتَيْن زرتُه فيهما أنِ اعتبرتُه منزلًا جميلًا، لكنّني فكّرتُ فيه عندما دنوتُ منه في هذه المرّة الأخيرة برفقة شرلوك هولمز كنموذج مثاليّ للبيوت الدُمى التي قد يراها المرءُ في نافذةِ متجرٍ للألعاب، وشعرتُ بأنّ تلويثَ دربه الأبيض بعجلاتِ عربتنا يكاد يكون تصرُّفًا همجيًا.

كان الوقتُ بدايةَ بعد ظهرِ اليوم التالي، وعليّ أنْ أعترفَ بأنّني كنتُ أفضّلُ تأجيلَ هذه الزيارة أربعًا وعشرين ساعة لو كان الخيارُ لي لأنّني كنتُ منهكًا من أحداثِ الليلة السابقة، كما كانت ذراعي تؤلمني حيثُ تلقّيتُ الضربة إلى درجةِ أنّني كنتُ بالكاد أستطيع ضمّ أصابع يدي اليسرى. وكنتُ قد أمضيتُ ليلةً مضنيةً تمنّيتُ فيها بشدّة الخلودَ إلى النوم لأُبعِد عن تفكيري كلّ ما شاهدتُه في كورلي غرينج، لكنّني عجزتُ عن ذلك لأنّ المشاهدَ كانت لا تزال حيّةً في ذاكرتي. ثم جئتُ إلى مائدة الفطور وغاظَني أنْ أرى هولمز نَضِرًا ومرتاحًا، وقد عاد إلى سابقِ عهدِه تمامًا، فحيّاني بأسلوبِه المختصَر الدقيق وكأنّ لا سوءَ قد حدث. وكان هو مَن أصرّ على القيامِ بهذه الزيارة نظرًا إلى أنّه أرسلَ برقيةً بهذا المعنى إلى إدموند كارستيرز قبل نهوضي من سريري. تذكّرتُ اجتماعَنا في حانة «ذي باغ أوف نيلز» عندما وصفتُ به ما

حلَّ بالأسرة وبإليزا كارستيرز على وجهِ الخصوص. ولم يكن قلقُه الآن أقلَّ من قلقِه آنذاك، وكان من الواضح أنّه يعلّق أهميةً كبيرة على مرضِها المفاجئ. أصرَّ على أنْ يراها بنفسِه بالرغم من أنّني لم أستطعْ أنْ أفهم كيف قد يتمكّن هو من مساعدتها بعد أنْ عجزتُ أنا وعجز أطبّاءُ كثيرون آخرون عن ذلك.

طرقْنا الباب، وفتَحَه باتريك صبيّ التنظيف الإيرلندي الذي سبق أنْ قابلتُه في المطبخ. نظر بذهولٍ إلى هولمز ثمّ إليّ، وقال بنبرةٍ فظّة: «آه، هذا أنت. لم أكنْ أتوقّع أنْ أراك هنا مرّة أخرى».

لم يسبق لي أبدًا أنْ قوبلْت بمثل هذه الوقاحة على عتبةِ باب، لكنّ هولمز بدا متسلّيًا بما سمع، وسأله: «هل سيّدُك في الداخل؟»

«مَن أقولُ له أتى للزيارة؟»

«إسمي شرلوك هولمز. إنّه ينتظرنا، ومَن أنتَ؟»

«أنا باتريك».

«هذه لهجةُ بلفاست إذا لم أكنْ مخطئًا».

«وما دخلُك في ذلك؟»

«باتريك؟ مَن الطارق؟ لماذا ليس كيربي هنا؟»

كان إدموند كارستيرز قد ظهر في الردهة وتقدّم نحونا، وقد بدا عليه استياءٌ جليّ. قال: «عليك أنْ تعذرني، يا سيّد هولمز. من المؤكّد أنّ كيربي لا يزال مع شقيقتي في الطابق الأعلى. لم أتوقّع أنْ يَفتحَ البابَ صبيُّ المطبخ. في وسعك الذهابُ الآن، يا باتريك. إرجعْ إلى مكان عملك».

كان كارستيرز في كامل أناقتِه كما في كلّ مناسبة رأيتُه فيها، لكنّ الخطوطَ التي رسمتْها أيّام القلق كانت ظاهرةً بوضوح على وجهه، وفكّرت في أنّه لا ينام جيّدًا في هذه الفترة مثلي أنا.

سأله هولمز: «هل استلمتَ برقيّتي؟»

«لقد استلمتُها بالفعل، لكنّ من الواضح أنّك لم تتلقّ برقيّتي لأنّني قلتُ فيها ما سبق أنْ أكّدتُه للدكتور واطسون من أنّني لم أعدْ في حاجة إلى خدماتك. ويؤسفني أنْ أقولَ هذا، لكنّك لم تساعدْ عائلتي على الإطلاق،

يا سيّد هولمز. ولا بدّ لي من أنْ أضيفَ أنّني سمعتُ نبأَ اعتقالِك وتورّطك في متاعب خطيرة مع القانون».

«لقد سُوِّيت هذه الأمور وانتهت. أمّا بالنسبة إلى برقيّتك، فقد استلمتُها بالفعل وقرأتُ ما كتبتَ باهتمام».

«وجئتَ مع ذلك؟»

«أنتَ جئتَ إليّ أوّلًا لأنّك كنتَ تتعرّض للترهيب من قبل رجل يرتدي قلنسوةً مسطّحة، رجل ظننتَ أنّه كيلان أودوناهيو من بوسطن. وفي وسعي أنْ أقولَ لك إنّني أمتلك حقائقَ الأمر الآن ويُسعِدني أنْ أطلِعَك عليها. وفي وسعي أيضًا أنْ أقولَ لك مَن قتل الرجلَ الذي عثرنا عليه في فندق السيّدة أولدمور. وقد تحاولُ أنْ تقنعَ نفسَك بأنّ هذه الأمور لم تعدْ ذاتَ أهمّية، وإنْ يكنْ هذا هو الواقع، دعني أشرح لك الأمر بمنتهى البساطة. إذا كنتَ راغبًا في موتِ شقيقتك، ستطلبُ منّي المغادرة. وإذا لم تكنْ راغبًا في موتِها، ستدعوني إلى الداخل وستسمع ما لديَّ قولُه».

تردّد كارستيرز، واستطعتُ أنْ أرى أنّه كان يتصارع مع نفسه وأنّه كاد يبدو خائفًا منّا بصورة مستغربة. لكنّه رضخ للمنطق السليم في آخر الأمر، وقال: «تفضّلا، اسمحا لي بأخذِ معطفَيْكما. لا أعرف ماذا يفعل كيربي. يبدو لي أحيانًا أنّ الفوضى تعمّ هذا المنزل بكامله». خلعنا معطفَيْنا وأشار بيده نحو غرفة الجلوس التي استُقبِلنا فيها أثناءَ زيارتنا الأولى.

قال هولمز: «إذا سمحتَ لي، أودُّ أنْ أرى شقيقتَك قبل أنْ نجلس».

«لم تعد شقيقتي قادرةً على مقابلة أحد. لقد ضَعُفَ بصرُها وبالكاد تستطيع الكلام».

«لن تكون هناك حاجةٌ إلى الكلام. أريد فقط أنْ أرى غرفتَها. أما زالت ترفض تناولَ الطعام؟»

«لم تعد المسألةُ متعلّقةً بالرفض. إنّها عاجزةٌ عن تناولِ الأطعمة الصلبة، وأفضلُ ما أستطيعُ فعلَه هو أنْ أقنعها بتناولِ قليلٍ من الحساء الساخن بين حين وآخر».

«أما زالت تظنّ أنّها تُسمَّم؟»

«في رأيي، يا سيّد هولمز، أنّ هذا الظنّ اللاعقلانيّ هو الذي أصبح السببَ الرئيسيّ لمرضها. وكما قلتُ لزميلك، فقد ذُقتُ بنفسي كلَّ طعام مرَّ عبر شفتيْها بدون أنْ أصابَ بأيّ سوء على الإطلاق. وأنا لا أفهم هذه اللعنةَ التي حلّت عليّ. لقد كنتُ رجلًا سعيدًا قبل أنْ ألتقيك».

«وأنا متأكّدٌ من أنّك تأمل أن تعودَ إنسانًا سعيدًا من جديد».

صعدنا مرّة أخرى إلى غرفة العلّية التي زرتُها من قبل. وعندما وصلنا إلى الباب، ظهر الخادمُ كيربي حاملًا صينيةً عليها طبقُ حساءٍ لم يُلمَس. نظر إلى سيّده وهزّ رأسَه مشيرًا إلى أنّ المريضة رفضتْ أنْ تأكلَ هذه المرّة أيضًا. دخلنا إلى الغرفة، وذُعِرتُ فورَ رؤيتي إليزا كارستيرز. كم مضى من الوقت منذ أنْ شاهدتُها آخرَ مرّة؟ بالكاد ما يزيدُ على أسبوع واحد، ومع ذلك هزلتْ بصورةٍ ملحوظة في هذه الفترة إلى درجة أنّها ذكّرتْني بالهيكل العظميّ الحيّ الذي رأيتُ إعلانَه في بيتِ عجائب الدكتور سيلكين. كان جلدُها ممطوطًا بذلك الشكل الرهيب الذي لا يظهر على المرضى إلّا عندما يقتربون من النهاية، وانكمشتْ شفتاها إلى الخلف كاشفتَيْن لثّتَها وأسنانَها. وبدا جسمُها تحت الأغطية ضئيلًا ومثيرًا للشفقة. وكانت عيناها تحدّقان إلينا لكنّهما لم تريا شيئًا. وكانت يداها المتشابكتان فوق صدرها تبدوان كيدَي امرأة أكبر من إليزا كارستيرز بثلاثين عامًا.

تفحّصها هولمز بسرعة، وسأل: «هل يجاور حمّامُها هذه الغرفة؟»

«أجل، لكنّها أضعفُ من أنْ تستطيعَ المشيَ إلى هناك، وتتولّى السيّدة كيربي وزوجتي تحميمَها حيثُ ترقد...»

كان هولمز قد غادر الغرفةَ في هذه الأثناء. دخل إلى الحمّام بعد أنْ تركَنا، كارستيرز وأنا، في صمتٍ ثقيل الوطأة فيما ظلّت المرأة تحدّق إلينا. ظهر هولمز من جديد بعد فترة، وقال: «في استطاعتنا أنْ نعود الآن إلى أسفل». تبعناه، كارستيرز وأنا، إلى الخارج ونحن مندهشان لأنّ الزيارة كلّها استغرقت أقلّ من ثلاثين ثانية.

عدنا إلى غرفة الجلوس حيث كانت كاثرين كارستيرز جالسةً أمام نارٍ مستعِرة تقرأ كتابًا. أغلقت الكتابَ لحظةَ دخولنا ونهضت بسرعة على قدمَيْها،

وقالت: «يا لها من مفاجأة، يا سيّد هولمز ودكتور واطسون! أنتما آخرُ شخصَيْن توقّعتُ رؤيتَهما». نظرتْ إلى زوجها وتابعت قائلة: «ظننتُ...».

«لقد فعلتُ ما اتّفقنا عليه بالضبط، يا عزيزتي، لكنّ السيّد هولمز اختار أنْ يزورنا بأيّ حال».

قال هولمز ملاحظًا: «أنا مندهشٌ لكونكِ غيرَ راغبة في رؤيتي، يا سيّدة كارستيرز، لا سيّما وأنّك أتيتِ لاستشارتي مرّة ثانية بعد أنْ مرضتْ شقيقةُ زوجك».

«كان ذلك قبل فترةٍ من الزمن، يا سيّد هولمز. وأنا لا أريد أن أكون فظّةً، لكنّني تخلّيت منذ مدّةٍ طويلة عن أيّ أملٍ في أن تتمكّنَ من تقديم أيّ مساعدة، والرجلُ الذي جاء إلى هذا المنزل بدون دعوة وسرق مالًا وحُليًّا قد مات. هل تريد أنْ نعرفَ مَن طعنَه؟ كلّا! تكفينا معرفةُ أنّه لم يعد قادرًا على إزعاجنا. وإذا لم يكن هناك شيءٌ تستطيع القيامَ به لمساعدة إليزا المسكينة، لا يوجد سببٌ لبقائك هنا».

«أعتقد أنّ في وسعي إنقاذَ الآنسة كارستيرز. ومن المحتمل أنْ لا يكون الوقتُ قد فاتَ بعد».

«إنقاذها من ماذا؟»

«من السمّ».

جفلت كاثرين كارستيرز، وقالت: «إنّها لا تُسمَّم. لا إمكانيةَ لذلك. الأطبّاء لا يعرفون سبب مرضها، لكنّهم متّفقون على هذا الأمر».

«إذًا، هم مخطئون جميعًا. هل لي أنْ أجلس؟ هناك أمورٌ كثيرة يجب أنْ أقولَها لكما. وأظنّ أنّنا سنكون كلُّنا أكثرَ ارتياحًا إذا جلسنا».

وجّهت الزوجةُ إليه نظرةً حانقة لكنّ الزوجَ وقف إلى جانب هولمز هذه المرّة، وقال: «حسنًا، يا سيّد هولمز. سوف أُصغي إلى ما ستقوله. لكنْ ليكن في علمك أنّني لن أتردَّدَ في دعوتِك إلى مغادرة المنزل إذا تبيّن لي أنّك تحاولُ خداعي».

أجابه هولمز: «غايتي ليست خداعَك، بل هي نقيضُ ذلك في الواقع». جلس على المقعد الأكثر بُعدًا عن النار، وجلستُ أنا إلى جانبه. وجلس السيّد والسيّدة كارستيرز معًا على الأريكة المقابلة. وأخيرًا بدأ كلامه.

«لقد أتيتَ إلى مسكني، يا سيّد كارستيرز، بناء على نصيحةِ محاسبك لأنك كنتَ خائفًا من احتمال أنْ تكونَ حياتُك مهدّدةً من قبل رجل لم تلتقِهِ أبدًا. كنتَ ذاهبًا في ذلك المساء إلى الأوبرا لحضورِ أحدِ أعمال فاغنر كما أذكر. لكنّ الوقت كان قد تأخّر عندما غادرتني. وأتصوّر أنّ ستارة المشهد الأوّل فاتتك».

«كلّا، لقد وصلتُ في الوقت المناسب».

«مهما يكن من أمر. لقد كانت في روايتك نواحٍ كثيرة اعتبرتُها جديرةً بالملاحظة، وأهمُّها السلوكُ الغريب لرجل العصابة هذا، كيلان أودوناهيو، إنْ يكن هو هذا الشخص فعلًا. وأستطيعُ أنْ أصدّقَ بسهولة أنّه تبعك كلَّ المسافة إلى لندن وعثر على عنوانك هنا في ويمبلدون لغايةٍ واضحة هي قتلُك. فأنت كنتَ في نهايةِ المطاف مسؤولًا، ولو جزئيًا على الأقلّ، عن مقتل شقيقه التوأم رورك أودوناهيو. والتوائم قريبون جدًّا بعضهم من بعض. وكانَ قد انتقم قبل ذلك من كورنيليوس ستيلمان، الرجل الذي اشترى منك اللوحات الزيتية ثم دفع أجورَ عملاءِ بنكرتون الذين تعقّبوا عصابةَ القلنسوة المسطّحة في بوسطن ووضعوا حدًّا لسيرتها الإجرامية بوابل من الرصاص. أرجوكَ أنْ تُنعِشَ ذاكرتي من فضلِك. ماذا كان اسمُ العميل الذي وظّفتَهُ؟»

«كان بيل ماكبارلند».

«طبعًا. وكما قلتُ فإنّ التوائم كثيرًا ما يكونون متقاربين جدًّا وليسَ من المفاجئ أنْ يكونَ كيلان قد سعى إلى قتلك. إذًا لماذا لم يقتلك؟ وبعد أنْ اكتشفَ مكانَ إقامتك، لماذا لم يباغتْك ويغرز سكّينًا في جسمك؟ هذا ما كنتُ فعلتُه أنا لو كنتُ مكانَه. لم يكن أحدٌ يعرفُ بوجودِه في هذا البلد، وكان في استطاعته أنْ يكونَ على متن سفينةٍ تعود به إلى أميركا حتّى قبل أنْ تصل جثّتُك إلى المشرحة. لكنّه فعل في الواقع نقيض ذلك تمامًا. فقد وقفَ أمام باب منزلك مرتديًا القلنسوةَ المسطّحة التي كان يعلم أنّها ستعرِّف عنه. والأسوأ من ذلك أنّه ظهر مرّةً أخرى عندما كنتَ أنتَ والسيّدة كارستيرز تغادران مسرح سافوي. بماذا كان يفكّر في رأيك؟ بدا وكأنّه يتحدّاك للذهاب إلى الشرطة لكي تعتقلَه».

قالت السيّدة كارستيرز: «لقد أراد أنْ يُخيفَنا».

«لكنّ ذلك لم يكن الدافعَ لزيارته الثالثة. ففي هذه المرّة، عاد إلى المنزل ومعه ورقةٌ مكتوبة دسّها في يد زوجك طالبًا الاجتماعَ به في كنيستكم المحلّية عند الظهر».

«لم يحضر».

«ربّما لم يكن ينوي الحضورَ أصلًا. وقد نفّذ تدخُّلَه الأخير في حياتكم عندما اقتحمَ المنزلَ وسرق خمسين جنيهًا ومجوهراتٍ من خزانتكم الحديد. بحلول هذا الوقت، بدأتُ أعتبر سلوكَه أكثرَ من لافتٍ للانتباه. فهو لم يعرفْ فقط أيَّ نافذةٍ يختارُها بالضبط، بل وضع يدَيْه بطريقةٍ ما على مفتاحٍ أضاعتْه زوجتك قبلَ وصولي إلى هذا البلد بعدّة أشهر. ومن المثير للاهتمام – أليس كذلك – أنّه أصبح الآن مهتمًّا بالمال أكثرَ من اهتمامِه بالقتل لأنّه وقف داخلَ هذا المنزل بالذات في منتصف الليل وكان في وسعه أنْ يصعد الدرج وأنْ يقتل كليكما في...».

«لقد استيقظتُ وسمعتُه».

«بالفعل، يا سيّدة كارستيرز. لكنّه كان قد فتح الخزانةَ الحديد آنذاك. وبالمناسبة هل لي أنْ أفترضَ أنّكِ والسيّد كارستيرز تنامان في غرفتَيْن منفصلتين؟»

احمرّ وجهُ كارستيرز، وقال: «لا أرى أنّ لترتيباتنا العائلية أيَّ تأثير على القضية».

«غير أنّك لا تنكر ذلك. حسنًا، دعونا نبقى مع دخيلنا الغريب المتردّد إلى حدٍّ ما. يهرب إلى فندق خاصّ في منطقةِ برموندزي، لكنّ تحوُّلًا مفاجئًا يطرأ على الأحداث في هذه الأثناء عندما يتمكّن مُعْتدٍ ثانٍ على رجلٍ لا نعرفُ شيئًا عنه، من اللحاق بكيلان أودوناهيو، وهنا أيضًا علينا أنْ نفترض أنّه هو الفاعل – فيقتله طعنًا ولا يكتفي بأخذ ماله، بل يأخذُ أيَّ شيء قد يكشفُ هويتَه باستثناء علبةِ سجائر لا نفع منها بحدّ ذاتها نظرًا إلى أنّها تحمل حرفَيْن أوّلَين هما WM».

سألت كاثرين كارستيرز: «ماذا تقصد من كلّ هذا الكلام، يا سيّد هولمز؟»

«كلُّ ما أفعلُه، يا سيّدة كارستيرز، هو أنْ أوضحَ لكما ما كان واضحًا لي منذُ البداية. الواضح أنّ هذه الروايةَ غيرُ معقولة على الإطلاق إلّا إذا انطلقتِ من فرضية أنّ كيلان أودوناهيو لم يكن الشخصَ الذي دخل إلى هذا المنزل وأنّ زوجَك لم يكن من رغبَ أودوناهيو في التواصل معه».

«لكنّ هذا القولَ سخيف، فقد كان هو من أعطى زوجي الورقةَ المكتوبة».

«وامتنع عن الحضور إلى الكنيسة. وقد يكون من المفيد أنْ نضعَ أنفسَنا في مكانِ هذا الزائر الغامض. إنّه يسعى إلى مقابلةٍ على انفراد مع أحدِ أفرادِ هذا المنزل، لكنّ ذلك ليسَ بالأمرِ السهل. وبالإضافة إليكِ وإلى زوجك، هناك شقيقةُ زوجكِ وعددٌ من الخدم... السيّد والسيّدة كيربي، إلزي وباتريك صبيّ المطبخ. في البداية، يراقبُ المنزلَ من بعيد ثم يقترب في آخر الأمر ومعه ورقةٌ مكتوبةٌ بأحرف كبيرة غيرُ مطويّة ولا موضوعة في مُغلَّف. ومن الواضح أنّ من غير الممكن أنْ يكون قد نوى تمريرها عبر الباب. لكنْ هل يُحتمَل ربّما أنْ يكونَ أمِل رؤية الشخص الذي كانت هذه الرسالةُ موجَّهةً إليه بحيث يرفعُها مفتوحةً ليتمكّن الآخر من قراءتها عبر نافذة غرفة الفطور؟ هكذا تنتفي الحاجةُ إلى قرع الجرس ويزول خطرُ وقوعِ الرسالة في الأيدي الخطأ ويظلّ مضمونُها معروفًا لكليهما فقط، ثم يتمكّنان من مناقشة شؤونهما في وقت لاحق. لكنّ سوءَ الطالع شاءَ أنْ يعودَ السيّد كارستيرز إلى المنزل باكرًا وعلى نحوٍ غير متوقّع قبل أنْ تتاحَ لرجلِنا فرصةُ تحقيق غايته بلحظاتٍ قليلة. ماذا يفعل إذًا؟ يرفع الورقةَ عاليًا فوق رأسه ويعطيها للسيّد كارستيرز. وهو يعلم أنّه يُراقَبُ من غرفة الفطور ويتبدّل قصدَهُ الآن إلى حدّ كبير. إنّه يقول للشخص المعنيّ «أعثرْ عليّ وإلّا سأخبرُ السيّد كارستيرز كلّ شيء أعرفُه. سأقابله في الكنيسة. سأقابله في أيّ مكان أريده. لا قدرةَ لك على منعي». إنّه لا يحضر إلى الموعد طبعًا لا يحتاج إلى ذلك. التحذيرُ يكفي».

سأل كارستيرز: «لكنْ مع مَن أراد أنْ يتكلّم إنْ لم يكن معي أنا؟»

«مَن كان في غرفةِ الفطور في ذلك الوقت؟»

«زوجتي». قطّب وجهَه كأنّه متلهّفٌ لتغيير الموضوع وسأل: «مَن كان هذا الرجل إذا لم يكن كيلان أودوناهيو؟»

«الجوابُ عن ذلك سهلٌ جدًّا، يا سيّد كارستيرز. كان هذا الرجل بيل ماكبارلند، التحرّي العامل لدى بنكرتون. فكّر في الأمر لحظة. نحن نعلم أنّ السيّد ماكبارلند جُرح أثناء تبادُل إطلاق النار في بوسطن، وكان للرجلِ الذي اكتشفناه في غرفةِ الفندق ندبُ جرحٍ جديدُ العهد على خدّه الأيمن. نعلم كذلك أنّ ماكبارلند اختلف مع ربّ عمله كورنيليوس ستيلمان الذي رفض أنْ يدفعَ له المبلغَ الذي ظنّ أنّه يدين له به، فشعر نتيجةً لذلك بأنّه ظُلم. ثم هناك مسألةُ اسمِه: بيل هو اختصارٌ لاسم ويليم كما أتصوّر، والحرفان الأوّلان اللذان وجدناهُما على علبة السجائر كانا _».

«WM»، قلتُ أنا مقاطعًا.

«بالضبط، يا واطسون. والآن تبدأ تفاصيل الأحجية تتوضّح. لنبدأ بالتفكيرِ في مصير كيلان أودوناهيو نفسِه. أوّلًا، ماذا تعرف عن هذا الشابّ؟ لقد كانت روايتُك متكاملةً إلى درجة مدهشة، يا سيّد كارستيرز، وأنا ممتنٌّ لك على ذلك. أخبرتَنا أنّ رورك وكيلان أودوناهيو كانا توأمَيْن لكنّ كيلان كانَ الأصغر جسمًا من الاثنين. وكان لكلٍّ منهما وشمٌ على ذراعِه بالحرفَيْن الأوّلَيْن لاسمِ شقيقه كإثبات، إنْ لزم، على العلاقةِ الوثيقة إلى درجةٍ غير عادية بينهما. كان كيلان حليقَ الوجه ومتكتّمًا ويرتدي قلنسوةً مسطّحة قد يتصوّر المرءُ أنّها تجعلُ من الصعبِ رؤيةِ الكثير من ملامح وجهه. ونحن نعلم أنّه كان نحيفَ البنية، وقد تمكّن وحدَه من حشرِ جسمِه في مسربِ المياه الضيّق المؤدّي إلى النهر، فهرب بهذه الطريقة. لكنّ تفصيلًا معيّنًا ذكرتَه أنت لفتَ انتباهي بصورةٍ خاصة. قلتَ إنّ جميع أفراد العصابة كانوا يقيمون معًا في بؤس المبنى السكنيّ المتداعي في حيّ ساوث إند – باستثناء كيلان الذي كان يتمتّع برفاهية السكن في غرفتِه الخاصّة. وقد تساءلتُ منذُ البداية عن سبب ذلك».

تابع هولمز قائلًا: «الجواب بديهي تمامًا بالطبع في ضوءِ جميع الأدلّة التي قدّمتُها للتوّ، ويُسعدني أنْ أقولَ إنّني تلقّيتُ تأكيدًا له، لا من أيّ شخص، بل من السيّدة كايتلين أودوناهيو نفسها التي ما زالت تعيشُ في شارع ساكفيل ستريت في بلفاست حيث تمتلكُ مغسلًا للثياب. وهذا التأكيدُ هو

أنّها لم تُنجِبْ في ربيع عام 1865 شقيقَيْن توأمَيْن بل شقيقًا وشقيقة. أيّ أنّ كيلان أودوناهيو كان فتاة».

كان الصمتُ الذي ساد بعد هذا الكشف ثقيلًا لوصفِه بكلمةٍ واحدة. وزادَ سكونُ ذلك اليومِ الشتويّ الثقيلَ المخيِّم على الغرفة وحتّى على ألسنةِ اللهب في المدفأة التي بدت وكأنّها حبست أنفاسَها بعد أن كانت تتراقص بجذل.

«فتاة؟»، نظر كارستيرز إلى هولمز نظرةَ تعجُّب وعلى شفتيه ابتسامةٌ باهتة، وقال: «فتاة تدير عصابة؟»

عقّب هولمز على ذلك بقوله: «فتاة كان عليها أنْ تُخفي هويّتَها إذا أرادتْ أن تبقى حيّةً في مثل تلك البيئة. وبأيّ حال كان شقيقُها رورك مَن يدير العصابة. وجميعُ الأدلّة تُشير إلى هذا الاستنتاج وحده. لا يمكن أنْ يوجد بديلٌ آخر».

«وأين الفتاة؟»

«هذا سهل، يا سيّد كارستيرز. أنتَ زوجُها».

رأيتُ اللونَ ينخطف من وجه كاثرين كارستيرز، لكنّها لم تقلْ شيئًا. وبدون مقدِّمات، تصلَّبَ جسمُ كارستيرز الذي كانت جالسًا إلى جانبها. وذكّرني الاثنان بتماثيل الشمع التي لمحتُها في مهرجان شارع جاكدولين.

سأل هولمز: «أنتِ لا تنكرين ذلك، يا سيّدة كارستيرز؟»

«بالطبع أُنكر ذلك! لم أسمعْ في عمري كلامًا سخيفًا كهذا». التفتتْ نحو زوجها واغرورقت عيناها بالدموع فجأة، وقالت: «أنتَ من تسمحَ له بأنْ يكلّمني بهذه الطريقة، أليس كذلك يا إدموند؟ أنْ يدّعي أنّه قد تكون لي علاقةٌ مع زمرةٍ بغيضة من المجرمين والأشرار!»

علّق هولمز على كلامها قائلًا: «أظنّ، يا سيّدة كارستيرز، أنّ كلماتك تقعُ على أذنٍ صمّاء».

وكان ذلك صحيحًا. فمنذ اللحظة التي أعلن فيها هولمز استنتاجَه الصاعق، لم يتوقّف كارستيرز عن التحديق أمامه، وعلى وجهه تعبيرُ ذُعرٍ غير عاديّ أوحى إليّ بأنّ جزءًا صغيرًا منه كان يعرف الحقيقةَ حتمًا طوال الوقت، أو ارتاب بشأنها على الأقلّ، لكنّه أصبح الآن مُرغمًا على مواجهتها بصورةٍ مباشرة.

«أرجوك يا إدموند...»، مدّت يدها إليه لكنّه انكمش على نفسه وأشاح بوجهه عنها.

سألَ هولمز: «هل أتابع؟»

كانت كاثرين كارستيرز موشكةً على الكلام، لكنّها ما لبثت أنْ استرختْ وهبطت كتفاها، وبدا عليها كأنّ برقعًا حريريًّا نُزِع عن وجهها. حملقت فينا فجأةً بنظراتٍ قاسية وملامحِ كراهيةٍ لم تكن لتليق بسيّدةٍ إنكليزية راقية، لكنّها أبقتْها على قيد الحياة طول عمرها بلا ريب. قالت بنبرة عدائية: «آه نعم، آه نعم. قد يجدر بنا أنْ نسمعَ البقية».

أومأ هولمز برأسه في اتّجاهها وتابع كلامه قائلًا: «شكرًا لكِ. بعد موتِ شقيقها والقضاءِ على عصابة القلنسوة المسطّحة، وجدت كاثرين أودوناهيو – هذا كان اسمها – نفسَها في وضعٍ بدا لها يائسًا بكلّ تأكيد، فقد كانت وحيدةً، كانت في أميركا ومطلوبة من الشرطة. كما كانت قد فقدتْ الشقيقَ الذي كان أقربَ إليها من أيِّ شخصٍ على هذا الكوكب والذي لا بدّ وأنْ تكون قد أحبّته كثيرًا. تركّزتْ أفكارُها الأولى على الانتقال، وكان كورنيليوس ستيلمان غبيًّا بما يكفي ليتباهى في صحف بوسطن بما أنجزه. ظلّت هي متنكّرةً وتعقّبتْه إلى حديقةِ منزله في بروفيدنس وقتلتْه بالرصاص. لكنّه لم يكن الشخصَ الوحيد المذكورَ في الإعلان، فاستعادت كاثرين شخصيّتها الأنثوية وتعقّبت إدموند كارستيرز إلى سفينة كاتالونيا التابعة لخطوط ليونارد البحرية. ومن الواضح ما كان يجولُ في بالها. لم يبقَ لها مستقبلٌ في أميركا وحان وقتُ عودتها إلى أسرتها في بلفاست. لن يرتابَ فيها أحدٌ وهي تسافر كامرأة عزباء ترافقُها خادمة. أخذت معها الأرباحَ التي استطاعت أنْ توفّرها من جرائمها السابقة. ولا بدّ لها من أنْ تتقابلَ مع كارستيرز وجهًا لوجه في مكانٍ ما وسطَ المحيط الأطلسي. ومن السهل جدًّا ارتكابُ جريمة قتل في أعالي البحار، وسيختفي كارستيرز ليكتمل انتقامها».

والآن خاطب هولمز السيّدة كارستيرز مباشرةً، فقال لها: «إلّا أنّ شيئًا ما جعلكِ تغيّرين رأيك. وأتساءلُ ماذا عساهُ يكون؟»

هزّت المرأةُ كتفَيْها تعبيرًا عن لامبالاتها، وقالت: «رأيتُ إدموند على حقيقته».

«هذا ما فكّرتُ فيه بالضبط. هنا كان رجلٌ لا خبرةَ له مع الجنس الآخر باستثناء أمٍّ وشقيقةٍ لطالما خضع لسيطرتهما. كان مريضًا. كان خائفًا. وكم كان مسلّيًا لكِ بالتأكيد أنْ تُهرعي لمساعدتِه وإقامةِ صداقةٍ معه، ثم جذْبه إلى شباكك في آخر الأمر. وأقنعتِه بطريقةٍ ما بالزواج منك في تحدٍّ لعائلته – وما أحلى هذا الانتقام بالمقارنة مع ذلك الذي كنتِ تخطّطين له أصلًا. لقد أصبحتِ مرتبطةً بعلاقةٍ حميمة مع رجل تبغضينه، لكنّك قرّرت لعبَ دورِ الزوجة المتفانية. وسهّلَ عليكِ الاستمرارَ في هذه الخديعة قرارُكما النومَ في غرفتَيْن منفصلتَيْن، وأتصوّر أنّكِ لم تسمحي لنفسكِ أبدًا بأنْ تُشاهَدي وأنتِ عارية بسبب الإحراج الذي يسبّبه ذلك الوشم، أليس كذلك؟ وإذا زُرتِ مرّةً شاطئَ أحد المنتجعات لن تتمكّني من السباحة طبعًا».

تابع هولمز قائلًا: «كان من المفترض أنْ يبقى كلُّ شيء على أفضل حال لولا وصولُ بل ماكبارلند من بوسطن. أمّا كيف استطاعَ تعقُّبَ أثرك ومعرفةَ هويّتك الجديدة فهو أمرٌ لن نعرفَه أبدًا، لكنّه كان تحرّيًا، وتحرّيًا ممتازًا، وكانت له أساليبُه بلا ريب. لم يكن زوجُك مَن أرادَ ماكبارلند إرسالَ إشاراته إليه خارج هذا المنزل وأمامَ مسرح سافوي، بل أنتِ. في تلك المرحلة، لم يعد اهتمامُه منصبًا على اعتقالِك لأنّه جاء إلى هنا لتحصيل المال الذي كانَ من حقّه ومن أجلِ رغبته في هذا المال وشعورِه بالغبنِ وبالجرح الذي أصيب به أخيرًا. كلُّ هذه الأمور دفعتْه إلى التهوُّر. وقد اجتمعَ بك، يا سيّدة كارستيرز، أليس كذلك؟»

«أجل».

«وطلب منك مالًا. وإذا دفعتِ له ما يكفي فسوف يدعك تتكتّمين على سرّك. وعندما سلّم زوجَك تلك الورقةَ المكتوبة كانَ في الواقع يوجّه تحذيرًا إليك بأنّه يستطيع الكشفَ عن كلّ ما يعرفه في أيّ وقت».

«لقد كشفتَ كلَّ شيء، يا سيّد هولمز».

«ليس كلّ شيء. ليس بعد. كانَ عليكِ أنْ تعطي ماكبارلند شيئًا ما لشراءِ سكوته، لكنّكِ لم تمتلكي مواردَ ماليةً خاصّةً بك، فاضطُررتِ إلى افتعال أحبولة السرقة. لقد نزلتِ إلى الطابق الأسفل في الليل وقُدتِه إلى النافذة

الصحيحة بواسطةِ ضوء. فتحتِ النافذةَ من الداخل وسمحتِ له بالتسلُّق والدخول. فتحتِ الخزانةَ الحديد بالمفتاح الذي لم تضيِّعيه أبدًا في الواقع. وحتّى في هذا الموقف لم تستطيعي مقاومةَ الرغبة في ارتكاب قليل من الأذى فأعطيته، بالإضافة إلى المال، العقدَ الذي كان ملكًا للسيّدة كارستيرز الراحلة والذي كنتِ تعلمين أنّ له قيمةً عاطفية كبيرة لدى زوجك. ويبدو لي أنّك لم تستطيعي أنْ تقاومي الرغبةَ في إيذائه كلّما سنحتْ لك الفرصةُ لذلك وأنّكِ كنتِ تنتهزين هذه الفرص بسرور».

واصل هولمز روايتَه قائلًا: «ارتكب ماكبارلند غلطة واحدة. كان المالُ الذي أعطيتِه إياه والبالغ خمسين جنيهًا دفعةً أولى فقط، وكان قد طلب مبلغًا أكبر وأعطاك عن غباء الفندق الذي يقيم فيه. ومن المحتمل أنْ يكونَ مظهرُك كسيّدة مجتمع إنكليزية غنيّة وأنيقة قد خدعه وأنساه أيَّ نوعٍ من المخلوقاتِ كنتِ في الماضي. كان زوجكِ في صالة العرض في شارع ألبمارل ستريت واخترتِ أنتِ لحظتَكِ المناسبة، وانسللتِ خارجةً من المنزل وتسلّقتِ إلى داخل الفندق عبرَ نافذة خلفيّة. كنتِ تنتظرين في غرفةِ ماكبارلند عندما رجع فهاجمتِه من الخلف وطعنتِه في عنقِه. وأتساءل بالمناسبة عمّا كنتِ ترتدين».

«كنتُ في ملابِس طرازي القديم، فالتنانيرُ الواسعة وبطاناتها المقوّاة كانت ستُعيقني إلى حدٍّ ما».

«لقد أسكتِّ ماكبارلند وأخذتِ كلَّ ما يشير إلى هويّته ولم تسهي عن شيء إلّا علبة السجائر. وبعد موته، لم يعد هناك شيءٌ يعترض طريقَ تنفيذ ما تبقّى من خطّتِك».

«أهناك المزيد؟» سأل كارستيرز بصوتٍ أجشّ، وقد شَحُبَ لونُ وجهه، وظننتُ أنّه قد يكون موشكًا على الإصابة بإغماء.

«في الواقع، نعم، يا سيّد كارستيرز». وجّه هولمز كلامَه إلى الزوجة مجدّدًا، وقال: «لم يكن الزواجُ المصلحيّ الذي دبّرته لنفسك إلّا وسيلةً لتحقيقِ غاية. كنتِ تنوين قتلَ أفرادِ عائلة إدموند الواحد تلو الآخر: أمّه، شقيقته، ثم هو. وبعد ذلك، ترثين أنتِ كلَّ شيء كان يمتلكه. هذا المنزل، المال، الأعمال

الفنيّة... كلّ شيء، سيصبح ملكَك. من الصعب تصوُّرُ الحقدِ الذي ما انفكّ يدفعك قُدمًا والمتعةِ التي كنتِ تنفّذين بها مهمّتَك».

«كانت ممتعةً بالفعل يا سيّد هولمز، ولقد استمتعتُ بكلّ دقيقة منها».

«أمّي؟» قال كارستيرز لاهثًا.

«كان التفسيرُ الأقربُ إلى التصديق ذاك الذي قدّمته إليّ في البداية وهو أنّ لهيب مدفأةِ الغاز في غرفةِ نومها انطفأ بفعلِ تيارٍ هوائيّ. لكنّ هذا التفسير لم يصمد عند التدقيق فيه. وقد أبلغَنا خادمُكَ كيربي أنّه يلوم نفسَه على وفاتها لأنّه سدّ جميعَ الشقوق والمنافذ في الغرفة لأنّ والدتَك كانت تكره التيّارات الهوائيّة. إذًا، كان من المستحيل أنْ يطفئ تيارٌ هوائيّ نار المدفأة. لكنّ شقيقتَك توصّلتْ إلى استنتاجٍ آخر فاعتقدت أنّ السيّدة كارستيرز الراحلة انتحرت لشدّةِ استيائها من زواجك. ومهما تكن إليزا قد كرهتْ زوجتَك الجديدة وأدركتْ غريزيًّا فنّ خداعِها، فقد عجزتْ حتّى هي عن اكتشافِ الحقيقة وهي أنّ كاثرين كارستيرز دخلت إلى الغرفة وأطفأت اللهب عمدًا تاركةً السيّدةَ العجوز لتموت. لم يكن في الخطّةِ مجالٌ لبقاءِ أحدٍ على قيد الحياة، كما ترى كان من الضروري أنْ يموتَ الجميع لتنتقل الممتلكات إليها».

«وإليزا؟»

«شقيقتُك تتعرّض للتسميم ببطء».

«لكنّ هذا مستحيل، يا سيّد هولمز. لقد أخبرتُك...».

«أخبرتَني أنّك تفحّصتَ بدقّة كلَّ ما تأكلُه، ما يوحي إليّ بأنّ تسميمَها يتمّ بطريقة أخرى. الجوابُ يا سيّد كارستيرز هو الحمّام. شقيقتُك تُصِرُّ على الاستحمامِ بانتظام وتستخدمُ أملاحَ حمّام قوية من الخُزامى. وعليّ أنْ أعترفَ بأنّ هذا أحدُ أحدثِ الأساليب في إدخال السمّ إلى الجسم، وأنا مندهشٌ بصراحة من مدى فعاليته. وأقول إنّ كميّةً صغيرةً من مادة الأقونيطين كانت تُضاف بانتظام إلى أملاحِ الحمام فتغلغلت في جسم الآنسة كارستيرز عبر الجلد، وكما أتخيّل عبرَ الرطوبةِ والأبخرة التي كان لا بدّ لها من استنشاقها. والأقونيطين مادّةٌ قلويّة شديدةُ السمّية تذوب في الماء وكان من شأنها

أنْ تقتلَ شقيقتَك فورًا لو استُخدمت بكميّة كبيرة. بدلًا من ذلك، لاحظتَ هذا التدهورَ البطيءَ والفتّاك في صحّتها. وهذه وسيلةُ قتلٍ مبتكَرة ومثيرة للاهتمام، يا سيّدة كارستيرز. وأنا واثقٌ بأنّها ستُضاف إلى سجلّات تاريخ الجريمة. وبالمناسبة، كانت جرأةً منك أنْ تزوري زميلي أثناءَ وجودي في السجن مع أنّكِ تظاهرتِ طبعًا بعدم معرفةِ شيء عن هذا الأمر. ولا ريبَ في أنّ ذلك أقنعَ زوجَك بإخلاصك لشقيقته بينما كنتِ تستهزئين بكليهما في واقع الأمر».

انتفض كارستيرز واستدار مبتعدًا عنها، وقال: «يا أختَ الشيطان، كيف أمكنكِ؟ كيف يمكن لأيّ إنسان؟»

ردّت عليه زوجتُه بقولها: «السيّد هولمز محقّ، يا إدموند». لاحظتُ أنّ صوتَها قد تغيّر وأصبح أكثر قسوةً وبرزت فيه اللكنةُ الإيرلندية. أضافتْ: «كنتُ أنوي وضعَكم جميعًا في قبوركم. أمّك أوّلًا، ثمّ إليزا. ولا فكرةَ لديك عمّا كنتُ أخطّط من أجلِك!». استدارت نحو هولمز وقالت: «وماذا الآن، يا سيّد هولمز البارع؟ هل معك رجلُ شرطة ينتظر في الخارج؟ هل يجب أنْ أصعد إلى أعلى لأحزمَ بعض الأغراض؟»

«هناك بالفعل رجلُ شرطة ينتظر، يا سيّدة كارستيرز. لكنّني لم أُنهِ كلامي بعد». استقام هولمز في جلستِه ورأيتُ في عينيه برودةً وحقدًا تجاوزا أيَّ شيء من هذا القبيل سبقتْ لي رؤيته. كان بمثابةِ قاضٍ يوشك على إصدارِ حكمه، كان بمثابة جلّادٍ يوشك على فتح هوّةِ المشنقة تحت قدمَي المحكوم بالإعدام. غمرت الغرفةَ برودةٌ غير معهودة. كان المخطّط يقضي بأنْ يصبح منزلُ ريدجواي هول خاليًا في غضونِ شهرٍ واحد، أنْ يفرغ من ساكنيه. وأنا أوسعُ خيالًا من أنْ ألمّح إلى أنّ مصيرَه أصبح بالفعل مدارَ تهامُس وأنّ المنزلَ نفسَه صار يعرف ذلك.

قال هولمز: «ما زال هناك حسابٌ مفتوح بشأن مقتل الطفل روس».

انفجرت السيّدة كارستيرز ضاحكةً، وقالت: «لا أعلمُ شيئًا عن روس. لقد كنتَ في منتهى الذكاء، يا سيّد هولمز، لكنّك تتجاوز نفسَك الآن».

أجابها هولمز: «أنا لم أعُدْ أوجّه كلامي إليكِ يا سيّدة كارستيرز». استدار نحو زوجها وقال: «لقد أخذَ تحقيقي في شؤونك منحًى غيرَ متوقّع

في الليلةِ التي قُتِل فيها روس يا سيّد كارستيرز، وهذه ليست كلمةً أستعملُها كثيرًا. لأنّ من عادتي أنْ أتوقّع كلَّ شيء، وقد كان لكلِّ جريمةٍ حققتُ فيها ما يمكنك أنْ تسمّيه المجرى السرديّ – وهو الخيط الخفيّ الذي تمكّن صديقي الدكتور واطسون من تمييزه دائمًا بدون أنْ يخطئَ ولا مرّة. وهذا ما جعله مؤرّخًا بهذا التميُّز للعمل الذي أقوم به. لكنّني كنتُ مدركًا أنّني حُوِّلت عن خطّي في هذه المرّة، إذ كنتُ أتبع مسارًا تحقيقيًّا واحدًا قادني فجأةً وعن طريق المصادفة إلى مسارٍ آخر. ومنذُ اللحظة التي وصلتُ فيها إلى فندق السيّدة أولدمور، تركتُ بوسطن وعصابةَ القلنسوة المسطّحة خلفي وبدأتُ أتحرّك بدلًا من ذلك في اتّجاهٍ جديد أوصلني في نهاية المطاف إلى الكشفِ عن جريمةٍ أبشع من أيّ جنايةٍ عرفتُها من قبل».

جفل كارستيرز عند سماعه هذه الكلمات بينما كانت زوجتُه تنظر إليه بفضول.

تابع هولمز كلامه قائلًا: «لنرجعْ إلى تلك الليلة وأنتَ كنتَ معي بالطبع. لم أكن أعرف إلّا القليلَ جدّيًّا عن روس سوى أنّه أحدُ أفرادِ عصابةِ أطفال الشوارع الذين سمّيتُهم، تحبُّبًا، لانظاميّي شارع بيكر ستريت والذين كانوا يساعدونني بين حين وآخر. وقد أسدوا لي خدماتٍ وكافأتُهم على ذلك. بدا هذا الترتيبُ غيرَ مؤذٍ لأحد، على الأقلّ حتّى الآن. تُرِك روس ليراقبَ الفندق بينما عاد رفيقُه ويغينز لإحضاري. ركبنا نحن الأربعة. أنت، أنا، واطسون وويغنز عربةً أخذتْنا عبر جسر بلاكفرايرز بريدج، ومن ثمّ رآنا روس وأدركتُ فورًا أنّ الصبيّ كان مذعورًا. سألَنا مَن نكون، مَن تكون أنت. حاول واطسون طمأنتَه، وفيما هو يفعل ذلك ذكر كلانا اسمَك وأعطينا الصبيَّ عنوانك، وأخشى أنْ يكون هذا هو السببُ الذي أدّى إلى مقتلِه. مع ذلك، لا تَلُمْ نفسَك، يا واطسون، لأنّ تلك كانت غلطتي بالقدر ذاته.»

واصل هولمز سرده قائلًا: «افترضتُ آنذاك أنّ روس كان مذعورًا بسبب ما رآه في الفندق. كان من الطبيعي التوصُّلُ إلى هذا الافتراض لأنّ جريمةً كانت قد وقعت كما تبيّن لنا. كنتُ مقتنعًا بأنّه لا بدّ وأنْ يكون قد رأى القاتل وقرّر لأسبابٍ تخصّه أنْ يُبقيَ فمَه مُغلقًا. لكنّني كنتُ مخطئًا. لم تكن لما

أرعب الصبيُّ وأدهشَه علاقةٌ بالجريمة على الإطلاق. ما أرعبه وأدهشه كان رؤيتَك أنت يا سيّد كارستيرز. كان روس مصمِّمًا على معرفةِ مَن تكون وأين يستطيع العثورَ عليك لأنّه تعرّف إليك. والسماءُ وحدها تعرف ما فعلتَه لهذا الطفل، وما زلتُ أرفض حتّى الآن أنْ أفكّر في ذلك. لكنّكما اجتمعتُما أنتما الإثنان في بيت الحرير».

ساد صمتٌ رهيبٌ من جديد.

سألتْ كاثرين كارستيرز: «ما هو بيت الحرير؟»

«لن أُجيبَ عن سؤالك، يا سيّدة كارستيرز. كذلك لن أحتاجَ إلى مخاطبتِك مرّةً أخرى إلّا لأقولَ لك ما يلي. ما كان لخطّتك كلِّها، بما فيها زواجُك هذا، أن تنجحَ بدون وجود رجلٍ من نوع معيَّن – رجلٍ أرادَ زوجةً يُغيظ بها عائلتَه وتمنحُه مكانةً معيَّنة في المجتمع وليسَ لأسبابٍ تتعلّق بالحبّ والمودّة. وكما قلتِ أنتِ بكثيرٍ من الحصافة إنّك عرفتِه على حقيقته. وقد سألت نفسي في يومِ لقائنا الأوّل ما هو بالضبط نوعُ هذا المخلوق الذي أتعامل معه لأنّني كنتُ دائمًا شغوفًا بلقاءِ رجلٍ يقول لي إنّه تأخّر عن موعدِ عرض أوبرا لفاغنر في أمسيةٍ لا تُعرض فيها أيّ أوبرا لفاغنر في المدينة».

واصل هولمز حديثه قائلًا: «لقد تعرّف روس إليك يا سيّد كارستيرز، وكان هذا أسوأ ما يمكن أنْ يحدث لأنّ إخفاءَ الهويّة كان الشعارَ الأسمى لبيت الحرير. لقد كنتَ تأتي في الليل وتفعل ما عليك فعلُه وترحل، وكانَ روس الضحيّةَ في كلّ ذلك. لكنّه كانَ أكبرَ من سنواتِ عمره وقد دفعه الفقرُ واليأسُ إلى الجريمةِ بلا هوادة. كان قد سرق من قبل ساعةَ جيب ذهبية من أحد الرجال الذين اعتدوا عليه. وما إن استفاق من الصدمة التي أصابته جرّاء لقائك، رأى حتمًا أنّ هناك إمكانيات للحصول على ما يفوق ذلك بكثير. ومن الأكيد أنّ هذا ما قاله لصديقه ويغينز. هل زارَك في اليوم التالي؟ هل هدّد بكشفِ أمرك إذا لم تدفع له ما يعادل ثروة؟ أم هل هُرِعتَ قبلَ ذلك إلى تشارلز فيتزسيمونز وعصابتِه من الأوغاد وطلبتَ إليهم أنْ يعالجوا الوضع؟»

أجاب كارستيرز متمتمًا بصوتٍ بدا وكأنّ كلماتِه لا تصل إلى شفتيْه إلّا بشقّ النفس: «لم أطلبْ إليهم أبدًا أنْ يفعلوا أيّ شيء».

«لقد ذهبتَ إلى فيتز سيمونز وأخبرتَه أنّك تتعرّض لتهديد. نفّذتَ تعليماته وأرسلتَ روس إلى لقاءٍ اعتقد أنّه سيتلقّى فيه مالًا لقاء سكوته. كان قد توجّه إلى هذا اللقاء قبل لحظات من وصولي مع واطسون إلى حانةِ «ذي باغ أوف نيلز» أي إنّنا وصلنا متأخّرَيْن. لم يلتقِ روس بفيتز سيمونز أو بكَ أنت بل بالمجرمَيْن المدعوَّيْن هندرسون وبراتبي. وقد حرص الإثنان على أنْ لا يعود روس إلى إزعاجك». توقّف هولمز عن الكلام برهة، ثمّ مضى يقول: «عُذِّبَ روس حتّى الموت عقابًا له على جرأته ورُبط شريطٌ أبيض حول رسغِه كتحذير لأيٍّ من هؤلاء الأطفال البائسين قد تخطر له أفكار مماثلة. قد لا تكونُ قد أمرتَ بتنفيذ هذه الجريمة، يا سيّد كارستيرز، لكنّني أُريدك أنْ تعرف أنّني أحمّلك مسؤوليّتها شخصيًا. لقد استغللتَه. لقد قتلتَه. أنت رجلٌ مِنْ أحقر وأسوأ الأشخاص الذين التقيتُهم في عمري».

نهض هولمز واقفًا على قدمَيْه.

قال: «والآن سأغادر هذا المنزل لأنّني لا أرغب في إطالة البقاء هنا. ويتبادر إلى ذهني أنّ زواجكما ربّما لم يكن سيّئًا من بعض النواحي بقدر ما قد يظنّ البعض. لقد خُلِقَ كلٌّ منكما من أجل الآخر. حسنًا، ستجدان عربتَيْ شرطة في الخارج تنتظرانكما معًا بالرغم من أنّكما ستُؤخذان في اتّجاهين مختلفَيْن. هل أنتَ جاهز، يا واطسون. سنجد وحدنا طريقَنا إلى الخارج».

جلس إدموند وكاثرين كارستيرز معًا على الأريكة بلا حراك. لم ينبسْ أيٌّ منهما بكلمة، لكنّني شعرتُ بأنّهما يراقباننا بإمعان ونحن مغادران.

الخاتمة

إنّني أصل إلى نهاية مهمّتي هذه بمشاعرَ تُثقِل قلبي. بدا لي وأنا أكتبُ هذه الرواية وكأنّني أعيشُ أحداثَها من جديد. وبالرغم من وجود تفاصيلَ أتمنّى نسيانَها، فقد كان من دواعي سروري أنْ أجدَ نفسي وقد رجعتُ إلى جانب هولمز وأتبعه من ويمبلدون إلى بلاكفرايرز، إلى هامورث هيل وهولواي، باقيًا وراءه دائمًا مسافةَ خطوةٍ واحدة (بكلّ معنى الكلمة) ومتمتّعًا في الوقت ذاته بتلك الميزة النادرة المتمثّلة في مراقبة عمل ذلك العقل الفريد عن كثب. والآن وقد اقتربتُ من كتابة الصفحة الأخيرة، أستشعر من جديد الغرفةَ التي أجد نفسي فيها، من نبتةِ الزنبق على عارضة النافذة إلى مشعاع التدفئة الذي يظلّ أسخنَ قليلًا ممّا ينبغي. يدي تؤلمني وجميعُ ذكرياتي منصبّةٌ على الصفحة. وأتمنّى لو كان عندي مزيدٌ أرويه لأنّني سأجد نفسي وحيدًا من جديد ما إنْ أنتهي من الكتابة.

ليس من حقّي أنْ أشتكي. أنا مرتاحٌ هنا وبناتي يزُرْنني بين حينٍ وآخر ويجلبن معهنّ أحفادي أيضًا، حتّى إنّ أحدهم عُمِّد باسم شرلوك. اعتقدت أمُّه أنّها تكرّم بذلك ذكرى صداقتي المديدة له. لكنّ حفيدي لا يستعمل هذا الاسم أبدًا، ومهما يكنْ من أمر، سيحضرون جميعًا في آخر الأسبوع وسأعطيهم هذه المخطوطة مع تعليماتٍ بخصوص حفظها بأمان، وبهذا سيكون عملي قد اكتمل. ولم يتبقَّ عليّ إلّا أنْ أقرأها مرّةً أخيرة وأنْ أستمعَ ربّما إلى نصيحةِ الممرّضة التي اعتنت بي هذا الصباح.

«هل أوشكتَ على الانتهاء يا دكتور واطسون؟ أنا متأكّدةٌ من وجودِ بعض التصحيحات التي يجب عليك أنْ تقومَ بها، أنْ تضبطَ التشكيلَ والتنقيط، ثم عليكَ بعد ذلك أنْ تسمحَ لنا بقراءتها. ولقد دأبتُ على الحديث عنها إلى الفتيات الأخريات وهنّ بالكاد يستطعنَ الانتظار!»

«ما زال هناك قليلٌ عليّ أنْ أضيفَه».

كان تشارلز فيتز سيمونز – وأنا أربأ بنفسي الآن أن أدعوه قسّيسًا – محقًّا في ما قاله لنا في تلك الليلة الأخيرة في بيت الحرير. لم يُقدَّمْ أبدًا إلى المحاكمة، لكنّ سراحَه لم يُطلَق كما كان يتوقّع بثقةٍ كبيرة. ويبدو أنّ حادثًا وقع في السجن الذي كان محتجزًا فيه، إذ سقط على درج وعُثِر عليه مكسورَ الجمجمة. هل دُفع؟ هذا محتمل جدًّا كما يظهر لأنّه – حسبَ تبجُّحه – كان يعرف أسرارًا سيّئة عن عدد من الأشخاص الهامّين. وإذا لم أكنْ قد أسأتُ فهمه، فقد بلغ به التبجُّح حدَّ التلميح إلى وجودِ علاقاتٍ محتملةٍ له مع الأسرة المالكة. أعلم أنّ هذا سخفٌ، لكنّني أتذكّر مايكروفت هولمز وزيارتَه غير العادية إلى مسكنِنا عندما تبيَّن ممّا قاله لنا ومن كيفيّة تصرُّفه أنّه تعرّض لضغط هائل... لكنْ كلّا، أنا لا أفكّر حتّى في هذا الاحتمال. كان فيتز سيمونز، يكذب كان يحاول تضخيمَ أهمّيةِ شخصه قبل أنْ يُعتَقل ويُساق إلى السجن. وكانت هناك نهايةُ هذا الأمر.

لنكتفِ بالقول إنّ أناسًا مُعيَّنين في الحكومة كانوا يعرفون ماذا يفعل، لكنّهم كانوا خائفين من كشفِه تفاديًا للفضيحة المدعومة طبعًا بإثباتات فوتوغرافية. وصحيحٌ أيضًا أنّ الأسابيعَ التالية شهدت سلسلة استقالات في أرفع المناصب أدهشتْ البلد وأرعبتْه في آن. ومع ذلك، فإنّني أتمنّى من كلّ قلبي أنْ لا يكونَ فيتز سيمونز قد اغتيل. لقد كان وحشًا بلا أدنى شكّ، لكنّ ما من بلد يستطيعُ تحمُّلَ تبعةِ التخلّي عن حكم القانون لمصالحَ نفعية، حتّى إنّ هذه الحقيقة تبدو لي أكثر سطوعًا الآن ونحن نخوض غمارَ حرب. ربّما كان موتُه مجرّدَ حادث، مع أنّه كان حادثًا ملائمًا لجميع المعنيّين.

اختفتْ السيّدة فيتزسيمونز، وأخبرني لستراد أنّها أُصيبت بالجنون بعدَ موت زوجها ونُقِلت إلى مستشفى للمجانين في أقصى الشمال. وكان

هذا تطوّرًا ملائمًا أيضًا لأنّ في وسعها أنْ تقولَ هناك كلّ ما تشاء من دون أنْ يصدّقَها أحد. وهي ما زالت هناك حتّى هذا اليوم حسبَ علمي.

لم يُلاحَق إدموند كارستيرز قضائيًا وغادر البلاد مع شقيقته التي ظلّت معتلّةً طوال حياتها بالرغم من تعافيها. توقّفتْ شركةُ كارستيرز وفينتش عن تعاطي الأعمال التجارية، وحوكمت كاثرين كارستيرز تحت اسمها الأصلي، ووجدتها المحكمة مذنبةً وحُكم عليها بالسجن مدى الحياة وكانت محظوظةً لنجاتها من حبل المشنقة. ودخل اللورد رافنشو إلى مكتبه ومعه مسدَّس وانتحر بإطلاقِ رصاصة على رأسه أسالت دماغه. ومن المحتمل أيضًا أنْ يكون شخصٌ أو اثنان آخران قد انتحرا، لكنّ كلًّا من اللورد هوراس بلاكووتر والدكتور توماس أكلاند نجا من العدالة. وأفترض أنّ على الإنسان أنْ يكون واقعيًا في هذه الأمور، لكنّ هذا الواقع ما زال يغيظني لا سيّما بعد كلّ ما حاولا فعلَه لإيذاء شرلوك هولمز.

بالطبع هناك أيضًا ذلك السيّد الغريب الذي استحضرني في تلك الليلة وقدّم إليّ وجبةَ عشاء غير عادية. لم أطلعْ هولمز أبدًا على أمره، وأنا لم أذكرْه أبدًا في الواقع حتّى الآن. قد يجد البعض هذا التصرُّف غريبًا، لكنّني كنتُ قد قطعتُ وعدًا وشعرتُ بأنّني لا أمتلكُ كسيّد محترَم أيّ خيار سوى الوفاء بوعدي له بالرغم من كونِه مجرمًا باعترافه هو. وأنا متأكّد إلى حدٍّ بعيد من أنّه لم يكن إلّا البروفسور جيمس موريارتي الذي قُدِّر له أنْ يلعبَ دورًا بالغ الأهمية في حيواتنا بعد فترةٍ قصيرة. وكان من الصعب جدًّا عليّ أن أتظاهر بأنّني لم ألتقِه أبدًا. وقد تحدّث هولمز عنه بالتفصيل قبل فترة قصيرة من ذهابنا إلى شلّالات رايشنباك. وكنتُ متأكّدًا، حتى في ذلك الوقت، من أنّه كان الرجل نفسه. وكثيرًا ما فكّرتُ في هذا الجانب غير العادي من شخصية موريارتي. وقد تحدّث هولمز عنه باشمئزازٍ شديد بسبب طبيعة الشرّير والجرائم الكثيرة جدًّا التي تورّط فيها. لكنّ هولمز اعترف أيضًا بذكاءِ هذا الرجل وحتّى بخصلةِ الإنصاف لديه. وما زلتُ مؤمنًا حتّى هذا اليوم بأنّ موريارتي أراد حقًّا أنْ يساعد هولمز وأنْ يتأكّد من إغلاقِ بيت الحرير ولأنّه كان هو نفسُه مجرمًا عرف بوجود بيت الحرير، لكنّه أحسَّ بأنّ من غير الملائم لشخصِه

ومن المخالف لطبعه أنْ يقومَ هو شخصيًا بأيّ عمل في هذا الصدد. لكنّ وجودَ بيت الحرير جرح حساسياته، فأرسلَ الشريطَ الأبيض إلى هولمز وزوّدني مفتاح زنزانة هولمز على أمل أنْ يقومَ عدوُّه بهذا العمل نيابةً عنه. وهذا ما حدث طبعًا، ومع ذلك لم يرسلْ موريارتي أبدًا رسالةَ شكر، على حدّ علمي.

لم أرَ هولمز في فترةِ عيد الميلاد لأنّني كنتُ في المنزل مع زوجتي ماري التي أصبح وضعُها الصحّي في هذه الأثناء مصدر قلق جدّي بالنسبة إليّ. غير أنّها غادرتْ لندن في شهر كانون الثاني للبقاء مع أصدقاء لأيّام قليلة، وعدتُ أنا مرّةً أخرى إلى مسكني القديم بناءً على اقتراحِها لأطمئنّ إلى أحوال هولمز بعد مغامرته الأخيرة. ووقع خلال هذه الآونة حدثٌ أخير عليّ أنْ أدوّنَه الآن.

كان هولمز قد بُرّئ تمامًا وأُزيل أيُّ سجلّ للاتهامات التي وُجّهت إليه، غير أنّه لم يكن هادئ البال، كان قلقًا سريعَ الانفعال. وبدون حاجةٍ إلى قدراتِ هولمز الإستنتاجية، استطعتُ أنْ أحرزَ من نظراته المتكرّرة إلى رفّ المدفأة أنّه كان واقعًا تحتَ إغراء الكوكايين السائل الذي كان أسوأ عاداته. ولو كان منهمكًا في قضيةٍ لخفّ هذا الإغراء، لكنّه لم يكن. وكثيرًا ما لاحظتُ أنّه يصبح شاردَ الذهن ويستسلمُ لنوباتٍ مديدة من الاكتئاب عندما لا يكونُ منشغلًا ولا تكونُ طاقاتُه موجّهةً نحو لغزٍ عسير على الحلّ. لكنّني أدركتُ في هذه المرّة أنّ ثمّةَ شيئًا أكبرَ من ذلك. لم يذكُر بيتَ الحرير أو أيًا من التفاصيل المرتبطة به، لكنّه لفتَ انتباهي، أثناء قراءة الصحف في صباحِ أحد الأيّام، إلى مقالٍ قصير عن مدرسة كورلي غرينج للصبيان التي كانت قد أُغلِقت للتوّ.

تمتم قائلًا: «هذا لا يكفي». جعّد الصحيفة بكلتا يديه وأضاف: «روس المسكين».

استنتجتُ من هذه الواقعة ومن مؤشّراتٍ أخرى في سلوكه – مثلًا، ذكر أنّه قد لا يلجأ أبدًا بعد الآن إلى خدماتِ لانظاميّي شارع بيكر ستريت – أنّه كان لا يزال يلوم نفسَه جزئيًا على موت هذا الصبيّ، وأنّ المشاهد التي رأيناها في تلك الليلة على تلّة هامورث تركت أثرًا لا يُمحى على وعيه. لم يعرفْ أحدٌ الشرَّ بقدر ما عرفه هولمز، لكنّ هناك أنواعًا من الشرّ يُفضَّل أنْ لا

يعرفها الإنسان. ولم يُتح لهولمز حتّى أنْ يستمتعَ بثمار نجاحه بدون أنْ يُذكَّر بالأماكنِ المظلمة التي قادَه إليها هذا النجاح. كان في وسعي أنْ أفهمَ ذلك لأنّني كنتُ أنا أيضًا أرى أحلامًا مزعجة، لكنْ كان عليّ أنْ أفكّر في ماري وأن أُديرَ عيادتي الطبّية. أمّا هولمز فقد وجد نفسَه عالقًا في عالمه الخاصّ ومُجبرًا على التعايش مع أمور كان يفضّل أنْ ينساها.

وبعد أنْ تناولنا العشاء معًا في إحدى الأمسيات، أعلنَ فجأةً أنّه يريد الخروج. لم يكن الثلجُ قد عاد إلى التساقط، لكنّ شهر كانون الثاني كان قارسَ البرد مثلما كان شهرُ كانون الأوّل. لم تكن لديّ أيُّ رغبة على الإطلاق في هذا الخروج المتأخّر لكنّني سألتُه مع ذلك ما إذا كان يريدُ أنْ أرافقَه.

أجاب: «كلّا، كلّا يا واطسون. هذا لطفٌ منك لكنّني أظنّ أنّ من الأفضل لي أنْ أكونَ وحدي».

«لكنْ إلى أين ستذهب في هذه الساعة المتأخّرة يا هولمز؟ لنرجعْ إلى قربِ النار ونستمتع معًا بشرب كأسٍ من الويسكي. وأيُّ عملٍ تريد قضاءَه يمكن أنْ يؤجّل إلى النهار بالتأكيد».

«واطسون، أنتَ الأفضلُ قطعًا بين الأصدقاء وأنا أدركُ أنّني كنتُ رفيقًا سيّئَ المعشر، لكنّني أحتاج إلى قليلٍ من الوقت وأنا وحدي. غير أنّنا سنتناول الفطور معًا صباحَ الغد وأنا متأكّدٌ من أنّك ستجدني في مزاجٍ أفضل».

فعلنا كما قال. وكان بالفعل في مزاجٍ أفضل في اليوم التالي. أمضينا يومًا ممتعًا من الرفقة الحسنة، فزرنا المتحفَ البريطاني، وتناولنا وجبة الغداء في مطعم سمبسون. وكنّا في طريق عودتنا إلى المنزل عندما رأيتُ لأوّل مرّة أخبارَ الصحف عن الحريق الضخم على تلّة هاموروث. جاء في الأخبار أنّ مبنًى كانت تشغلُه مدرسةٌ خيرية احترق بالكامل حتّى أساساته وأنّ ألسنةَ اللهب كانت عاليةً جدًّا في سماء الليل كما بدا، لأنّها شوهدت عن مسافات بعيدة حتّى ويمبلي. لم أقلْ شيئًا عن ذلك لهولمز ولم أطرح أيّة أسئلة. كذلك لم أذكر أنّني شممتُ في ذلك الصباح رائحةَ رمادٍ قوية تفوح من معطفه الذي كان معلّقًا في مكانه المعهود. عزف هولمز في ذلك المساء على كمانِه الستراديفاريوس

لأوّل مرّة منذ مدّة طويلة. أصغيتُ مستمتعًا إلى اللحن الصادح ونحن جالسان معًا على جانبَي المدفأة.

ما زلتُ أسمعُ هذا اللحن. وفيما أستعدُّ لوضع قلمي جانبًا والتوجُّهِ إلى سريري أشعرُ بقوسِ الكمان يدغدغُ الأوتار، والموسيقى تتصاعد في سماءِ الليل الموسيقى بعيدة وبالكاد تُسمع، لكنّها هناك بالفعل إيقاعاتُ بيزيكاتو منقورة على الأوتار ثم نغماتُ تريمولو تردُّديّة. أسلوبٌ لا التباسَ فيه. هولمز هو الذي يعزف. لا ريبَ في ذلك. وأرجو من كلّ قلبي أنْ يكون يعزف من أجلي....